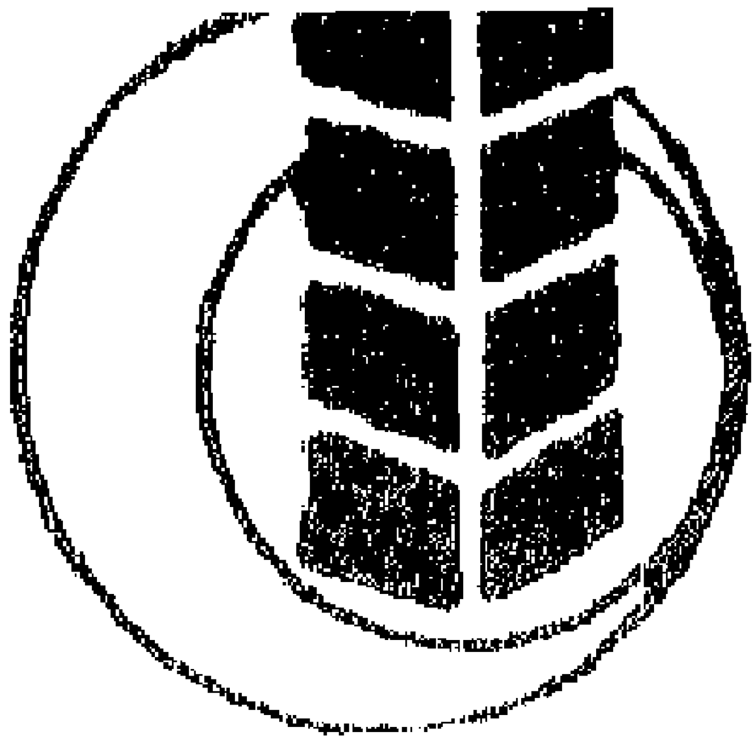


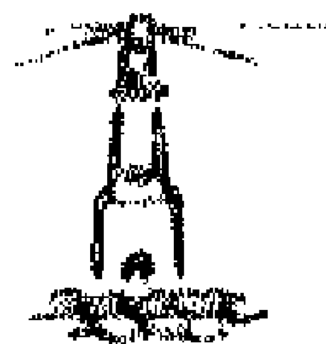

اقرأ



هدية من الإدارة العامة للزكاة
بنك ناصر الاجتماعي

د. محمد سيد طنطاوى
مفتى الجمهورية

رسالة الصيام



دار المعارف

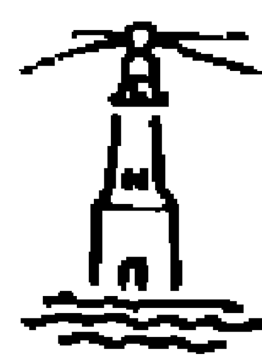
اقرأ

[٥٣١]

رسالة الخيام

د. محمد سيد طنطاوى
مفتى الجمهورية

رسالة الصيام



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه .

وبعد : فقد وعدت حين توليت وظيفة الافتاء ، ان تعمل دار الإفتاء على إصدار كتب متنوعة ، منها مايتعلق بالعبادات ، ومنها مايتعلق بالمعاملات ، ومنها مايتعلق بالعقائد والآداب .

وهأنذا أفى بجانب من هذا الوعد ، فأقدم للقارئ الكريم رسالة عن « الصيام » اشتملت على تفسير الآيات القرآنية ، التى وردت فى شأن صيام شهر رمضان ، كما اشتملت على جانب كبير من الأحكام الشرعية التى تتعلق بهذه الفريضة ، وعلى أهم الخصائص والمميزات التى امتاز بها هذا الشهر الكريم .

وقد رأيت أن أختمها بجانب من الفتاوى المتنوعة ، التى أصدرها بعض مشايخنا الأفاضل ، الذين تولوا منصب الإفتاء .. كلون من الوفاء لفضيلتهم .

رحم الله - تعالى - برحمته الواسعة من مضى للقائه منهم ، ومنح من بقى منهم على قيد الحياة نعمة العافية والسداد والتقوى .

كما أسأله - عز وجل - أن يعيننا على الوفاء الكامل لما قطعناه على أنفسنا من عهود ترضيه ، وأن يجعل مانقوله ومانكتبه خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

القاهرة - مدينة نصر
١٨ من رجب سنة ١٤٠٧ هـ
١٨ من مارس سنة ١٩٨٧ م

المؤلف
محمد سيد طنطاوى
مفتى الجمهورية

حديث القرآن عن فريضة الصيام
وتفسير الآيات التى وردت فى ذلك

فى سورة البقرة آيات كريمة ، تحدثت عن فريضة الصوم حديثًا جامعًا حكيمًا ، وهذه الآيات هى قوله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا كتب عليكمُ الصيامُ كما كُتب على الذينَ مِنْ قبلكم لعلكم تتقونَ * أيامًا معدودات فمَن كانَ منكم مريضًا أو على سفر فعدة من أيامٍ أُخَر ، وعلى الدين يُطِيقونَه فِديةٌ طعام مِسْكين ، فمن تطوَّعَ خيرًا فهو خيرٌ له وأن تصومُوا خيرٌ لكُم إن كنتم تعلمُون * شهر رمضانَ الذى أُنزل فيه القرآن هُدًى للناس وبينات من الهدى والفُرقانِ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومَنْ كان مَرِيضا أو على سفر فَعِدة من أيامٍ أخر ، يريد الله بكُم اليسر ولايريد بكمُ العُسْر ، ولتكملوا العدَّةَ ولتكبروا الله على

ماهداكم ولعلكم تشكرون * وإذا سألك عبادى عنِّى فإنِّى قريبٌ أجيب دعوة الداعِ إذا دعان فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بِى لعلهم يرشدونَ * أحلَّ لكم ليلة الصيام الرفثُ إلى نسائِكم ، هنَّ لباسٌ لكم وأنتمْ لباسٌ لهنَّ علم الله أنكم كنتمُ تختانُونَ أنفسكم فتاب عليكم وعفَا عنكم فالآن باشروهنَّ وابتغوا ماكتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسودِ من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولاتباشروهنَّ وأنتم عاكفونَ فى المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للنَّاس لعلهم يتقون ﴾ .

افتتحت هذه الآيات الكريمة ، بنداء المؤمنين بصفة الإيمان ، لتحريك حرارة العقيدة فى قلوبهم ، ولحضهم على الاستجابة لما سيكلفون به من أحكام ، لأن من شأن المؤمن الحق ، أن يطيع الله تعالى فى كل مايأمره به ، أو ينهاه عنه .

والمراد هنا بقوله تعالى : ﴿ كتب ﴾ الفرضية ، لأن صيام شهر رمضان من أركان الإسلام والصيام : مصدر كالقيام بمعنى قام . وهو فى اللغة : الإمساك وترك التنقل من حال الى حال . فيقال للصمت صوم ، لأنه إمساك عن الكلام ، ومنه قوله تعالى – حكاية عن مريم – ﴿ إنى نذرت للرَّحمٰن صومًا فلن أُكلِّم اليوم إنسيًّا ﴾ . أى : إنى نذرت للرحمن أن أصمت عن الكلام ، فلن أكلم اليوم

أحدًا من الناس . أما الصيام فى عرف الشرع ، فهو - كما يقول الإمام الألوسى - إمساك عن أشياء مخصوصة على وجه مخصوص فى زمان مخصوص ، ممن هو على صفات مخصوصة [1]

والتشبيه فى قوله تعالى : ﴿ كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ راجع الى أصل إيجاب الصوم وفرضيته . أى : أن عبادة الصوم كانت مكتوبة ومفروضة على الأمم السابقة ، ولكن بكيفية لا يعلمها إلا الله تعالى ، إذ لم يرد نص صحيح عن رسول الله ﷺ ، يبين لنا فيه ، كيف كان صيام الأمم السابقة على الأمة الإسلامية ، وقيل : إن التشبيه راجع الى وقت الصوم وقدره ، فقد روى عن مجاهد أنه قال : كتب الله - عز وجل - صوم شهر رمضان على كل أمة .

وهذا القول ليس له دليل يعتمد عليه ، ولذا قال المحققون من العلماء : المقطوع به أن التشبيه فى الفرضية خاصة ، وسائر الوجوه التى قيلت غير ذلك ، إنما هى مجرد احتمال .

ومن فوائد هذا التشبيه فى قوله تعالى ﴿ كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ الاهتمام بشأن هذه العبادة والتنويه بعلو شأنها إذ شرعها - سبحانه - للأمة الإسلامية ، وللأمم السابقة عليها ، وهذا يقتضى وفرة ثوابها ، ودوام صلاحها .

---

(١) تفسير الألوسى جـ ٢ ص ٥٦ .

كذلك من فوائده : تسهيل هذه العبادة على المسلمين ، لأن الشيء الشاق تخف مشقته على الإنسان ، عندما يعلم أن غيره قد أداه من قبله .

والفائدة الثالثة من فوائد هذا التشبيه : إثارة الهمم والعزائم للنهوض بهذه العبادة ، حتى لايكونوا مقصرين فى أدائها ، بل يجب عليهم أن يؤدوها بقوة تفوق من سبقهم ، لأن الأمة الإسلامية قد وصفها - سبحانه - ، بأنها خير أمة أخرجت للناس ، وهذه الخيرية تقتضى منهم النشاط فيما كلفهم الله بأدائه من عبادات .

وقوله سبحانه : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ جملة تعليلية ، جيء بها لبيان حكمة مشروعية الصيام . فكأنه - عز وجل - يقول لعباده المؤمنين : فرضنا عليكم الصيام ، كما فرضناه على الذين من قبلكم ، لعلكم بسبب أدائكم لهذه الفريضة ، تنالون درجة التقوى والخشية من الله تعالى ، وبذلك تكونون ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ولاشك أن هذه الفريضة ، ترتفع بالمؤمن إلى أعلى عليين ، متى أداها بآدابها وشروطها ، ويكفى أن الرسول ﷺ قد قال فى شأن الصوم : « الصوم جُنَّة » أى : وقاية . إذ فى الصوم وقاية من الوقوع فى المعاصى ، ووقاية من عذاب الآخرة ، ووقاية من العلل والأمراض الناشئة عن الإفراط فى تناول الأطعمة والأشربة .

وقوله سبحانه : ﴿ أيَّامًا معدودات ﴾: أى معينات بالعد ، أو قليلات ، لأن الشيء القليل يسهل عده فيعد ، أما الشيء الكثير

فيصعب عده ، فيؤخذ جزافًا ، والمراد بهذه الأيام المعدودات : شهر رمضان عند جمهور العلماء ، قالوا : وتقريره أنه سبحانه قال أولا : ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ : وهذا محتمل ليوم ويومين ، ثم بينه بقوله تعالى : ﴿ أيامًا معدودات ﴾فزال بعض الاحتمال ، ثم بينه بقوله : ﴿ شهرُ رمضان الَّذى أُنزلَ فيه القرآن ﴾ : « فعلى هذا التركيب يمكن جعل الايام المعدودات بعينها شهر رمضان ، وإذا أمكن ذلك فلاوجه لحمله على غيره »[1] وإنما عبر عن شهر رمضان بأيام وهى جمع قلة ، ووصف بمعدودات وهى جمع قلة أيضًا ، تهوينا لأمره على المكلفين ، وإشعارًا لهم بأن الله تعالى مافرض عليهم إلا ماهو فى وسعهم وقدرتهم .

وقيل : إن المراد بالأيام المعدودات غير رمضان ، وذكروا أن المراد بها ثلاثة أيام من كل شهر ، وهى الأيام البيض : الثالث عشر والرابع عشر ، والخامس عشر ، مضافًا إليها يوم عاشوراء ، ثم نسخ ذلك بوجوب صيام شهر رمضان ، والمعتمد عند المحققين من العلماء هو القول الأول . لأنه – كما قال الإمام الرازى : لاوجه لحمله على غيره ، والقول بالنسخ زيادة لادليل عليها .

وقوله تعالى : ﴿ أَيَّامًا ﴾ منصوب على الظرفية ، أو بفعل مضمر مقدر . أى صوموا أيامًا . وقوله سبحانه : ﴿ فَمن كان

---

(١) تفسير الألوسى جـ ٢ ص ٥٨ .

منكُم مَرِيضًا أوْ على سفرٍ فعدَّة من أيَّام أُخر ﴾ زيادة بيان ليسر الشريعة الإسلامية ، بعدً أن أخبرهم - سبحانه - بأن الصوم المفروض عليهم ، إنما هو أيام معدودات ، وتعجيل بتطمين نفوس السامعين لئلا يظنوا وجوب الصوم عليهم فى كل حال . والمرض : الخروج عن حدود الاعتدال الخاص بالإنسان ، بأن يصاب بانحراف فى جسده يجعله فى حالة وجع ، أو اضطراب بدنى .

قال القرطبى : وللمريض حالتان :

إحداهما : ألا يطيق الصوم بحال ، فعليه الفطر واجبًا . .

الثانية : أن يقدر على الصوم بضرر ومشقة فهذا يستحب له الفطر .. فالفطر مباح فى كل مرض ، إلا المرض اليسير الذى لاكلفة معه فى الصيام[1] .

قال بعض العلماء : وقوله : ﴿ أو عَلَى سفر ﴾ أى : أو كان بحالة السفر . وأصل « على » الدلالة على الاستعلاء ، ثم استعملت مجازًا فى التمكن .. ثم شاع فى كلام العرب أن يقولوا : فلان على سفر ، أى : مسافر ، ليكون نصا فى المتلبس بالسفر .. فنبه الله تعالى بهذا اللفظ المستعمل فى التلبس بالفعل ، على أن المسافر لايفطر حتى يأخذ فى السير فى السفر ، دون مجرد النية ...[2] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ٢٧٦ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور جـ ٢ ص ١٦٣ .

والعِدَّة : فعلة من العَد ، وهى بمعنى المعدود ، ومنه عدة المرأة .. والمعنى : لقد فرضنا عليكم الصوم - أيها المؤمنون - وجعلنا كما هو الشأن فى كل ماكلفناكم به ، متسماً باليسر لابالعسر ، ومن مظاهر ذلك : أننا فرضنا عليكم صوم أيام معدودات وهى أيام شهر رمضان ، ولم نفرض عليكم صوم الدهر كله .

وإننا - بمقتضى رحمتنا وإحساننا - قد شرعنا لمن كان مريضًا مرضا يضره الصوم أو كان على سفر يشق عليه معه الصوم ، شرعنا له أن يفطر ، وأن يصوم بدل الايام التى أفطرها أيامًا أخر مساوية لها فى العدد .

هذا ، وقد نص الفقهاء ، على أن الإفطار مشروع على سبيل الرخصة للمريض والمسافر ، وهما بالخيار فى ذلك ، إن شاءا أفطرا وإن شاءا صاما ، إلا أن أكثر الفقهاء قالوا : الصوم أفضل لمن قوى عليه ، لقوله تعالى بعد ذلك ﴿ وأن تصوموا خير لكم ﴾ . والذى نراه أن الله تعالى قد أباح الفطر فى رمضان ، بسبب المرض أو السفر ، لأن كلا منهما مظنة المشقة والحرج ، والحكم الشرعى يوجد حيث توجد مظنته ، وينتفى حيث ينتفى . وعلى المسلم أن يقدر حال نفسه ، فإذا أيقن أو غلب على ظنه أن مرضه أو سفره ، ليس فى الصوم معه مشقة أو عسر ، صام عملا بقوله تعالى - ﴿ وأن تصوموا خير لكم ﴾ ، وإذا أيقن أو غلب على ظنه أن مرضه أو سفره يجعل الصوم شاقًا عليه أفطر عملا بقوله تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر ﴾ .

فالمسألة ترجع إلى ضمير الفرد ودينه ، واستفتاء قلبه .

والثابت عن رسول الله ﷺ - أنه صام فى السفر وأفطر ، وخيّر أصحابه بين الصوم والفطر ، فقد روى البخارى ومسلم عن أبى الدرداء - رضى الله عنه - قال : خرجنا مع النبى - ﷺ - وفى رواية لمسلم : فى شهر رمضان ، فى يوم حار ، حتى ليضع الرجل يده على رأسه من شدة الحر ، وما فينا صائم إلا ماكان من النبى - ﷺ - ومن عبد الله بن رواحة » .

وأخرجه البخارى ومسلم - أيضًا - عن أنس بن مالك قال : « كنا نسافر مع النبى - ﷺ - فلم يعب الصائم على المفطر ، ولا المفطر على الصائم » .

وأخرجه الإمام مسلم فى صحيحه عن قزعة قال ؛ أتيت أبا سعيد الخدرى فسألته عن الصوم فى السفر فقال : سافرنا مع النبى - ﷺ - إلى مكة ونحن صيام . قال : فنزلنا منزلا فقال رسول الله - ﷺ - : « إنكم قد دنوتم من عدوكم ، والفطر أقوى لكم ، فكانت رخصة ، فمنا من صام ، ومنا من أفطر . ثم نزلنا منزلا آخر فقال : إنكم مصبحو عدوكم والفطر أقوى لكم فأفطروا . وكانت عزمة فأفطرنا . ثم قال : ولقد رأيتنا نصوم مع رسول الله - ﷺ - بعد ذلك فى السفر » .

وقوله سبحانه : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ بيان لحكم آخر من أحكام الشريعة فيما يتعلق بصوم رمضان ، يتجلى فيه تيسير الله على عباده فيما شرع لهم من عبادات .

ومعنى « يطيقونه » يقدرون عليه ويتحملونه بمشقة وتعب ، لأن

الطاقة اسم للقدرة على الشيء مع الشدة والمشقة . والوسع : اسم للقدرة على الشيء بسهولة ويسر .

قال الراغب : الطاقة : اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة ، وذلك تشبيه بالطوق المحيط بالشيء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ أى : ولا تحملنا ما يصعب علينا مزاولته ، وليس معناه : ولا تحملنا ما لا قدرة لنا به[1] والعرب لا تقول فلان أطاق الشيء ، إلا إذا كانت قدرته عليه فى نهاية الضعف ، بحيث يتحمله بمشقة وعسر ، فلا يقال - مثلا - فلان يطيق حمل نواة أو ريشة ، أو عشرة دراهم من حديد ... وإنما يقال - مثلا - : هو يطيق حمل قنطارين من الحديد ، أو من حمل الأمتعة الثقيلة .

وللعلماء أقوال فى المراد بقوله تعالى : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ أشهرها :

١ - أن هذا راجع إلى المقيم الصحيح ، خيره الله تعالى بين الصوم والفداء ، وكان ذلك فى بدء الإسلام ، فرض عليهم الصوم ، ولم يتعودوه ، فاشتد عليهم ، فرخص لهم فى الإفطار والفدية ، ثم نسخ ذلك وأوجب الله عليهم الصوم .

---

(١) مفردات غريب القرآن ص ٣١٢ للراغب الأصفهانى .

ويشهد لهذا القول ، ما جاء فى الصحيحين عن سلمة بن الأكوع قال : لما نزلت هذه الآية ، ﴿ **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** ﴾ كان من أراد أن يفطر ويفتدى ، حتى نزلت الآية بعدها فنسختها .

ومراده بقوله حتى نزلت الآية بعدها فنسختها ، قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه ....** ﴾

ويدل على ذلك ما أخرجه مسلم فى صحيحه ، عن سلمة بن الأكوع - أيضا - أنه قال : كنا فى رمضان على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، من شاء منا أفطر ، فافتدى بطعام مسكين ، حتى أنزلت هذه الآية : ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾ .

٢ - ويرى بعض العلماء أن قوله تعالى : ﴿ **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** ﴾ ليس بمنسوخ ، بل هو محكم ، وأنه نزل فى شأن الشيخ الكبير الهَرِم ، والمرأة العجوز ، إذا كانا لا يستطيعان الصيام ، فعليهما أن يفطرا وأن يطعما عن كل يوم مسكينًا .. وأصحاب هذا الرأى يستدلون بما رواه البخارى عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : ليست بمنسوخة ، هو الشيخ الكبير ، والمرأة الكبيرة ، لا يستطيعان أن يصوما ، فعليهما أن يطعما مكان كل يوم مسكينًا »

٣ - وهناك رأى ثالث لبعض العلماء يرى أصحابه ، أن قوله تعالى : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ ليس بمنسوخ - أيضًا - ، بل هو محكم ، وأن معنى الآية عندهم وعلى الذين يطيقونه ، أى : يقدرون على الصيام بمشقة شديدة ، إذا أرادوا أن يفطروا ، أن يطعموا عن كل يوم يفطرونه مسكينًا بأن يقدموا له نصف صاع من بر ، أو صاع من تمر أو شعير ، أو قيمة ذلك .

ولم يقصروا ذلك على الرجل الكبير ، والمرأة العجوز - كما فعل أصحاب الرأى الثانى - وإنما أدخلوا فى حكم الذين يقدرون على الصوم بمشقة وتعب ، المرضع والحامل ، إذا خافتا على أنفسهما ، أوولديهما ، ومن فى حكمهما ، ممن يشق عليهم الصوم مشقة كبيرة . وأصحاب هذا الرأى يستدلون على ما ذهبوا إليه بمنطوق الآية ، إذ أن الوسع اسم للقدرة على الشيء على جهة السهولة ، والطاقة : اسم للقدرة عليه مع الشدة والمشقة - كما سبق أن بينا - هذا ، وقد انتصر بعض العلماء لهذا الرأى بناء على أن منطوق الآية يؤيده ، كما انتصر بعضهم للرأى الأول ، بناء على أن الأحاديث الصحيحة تسانده ، وعلى أنه هو الأقرب إلى روح الشريعة الإسلامية فى التدرج فى تشريع التكاليف ، التى فيها مشقة على الناس ، كما انتصر بعضهم للرأى الثانى ، المروى عن ابن عباس .

وهناك أقوال أخرى فى الآية ، رأينا أن نضرب عنها صفحاً لضعفها .

وقوله سبحانه : ﴿ فمن تطوع خيرًا فهو خير له ﴾ : حض منه تعالى لعباده على الإكثار من عمل الخير .

والتطوع : السعى فى أن يكون الإنسان فاعلا للطاعة باختياره بدون إكراه .

والخيرْ : مصدر خار الشيء ، إذا حَسُنَ وشَرُفَ ..

والمعنى : فمن تطوع خيرًا ، بأن زاد على القدر المفروض فى الفدية ، أو بأن أطعم أكثر من مسكين واحد ، أو بأن جمع بين الإطعام والصوم ، فتطوعه سيكون خيرًا له عند الله ، لأنه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا .

وقوله تعالى : ﴿ وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ ترغيب فى الصوم ، وتحبيب فيه .

أى : وأن تصوموا - أيها المطيقون للصوم ، أو أيها المكلفون جميعًا - فصيامكم خير لكم من كل شيء سواه ، إن كنتم تعلمون فوائد الصوم فى حياتكم ، وحسن جزائه فى آخرتكم .

روى النسائى وابن خزيمة عن أبى أمامة - رضى الله عنه - قال : قلت يا رسول الله ، مرنى بعمل . قال : « عليك بالصوم فإنه لا عِدْل له » - أى : لا يعادل ثوابه شيء - فقلت يا رسول الله ، مرنى بعمل . فقال : « عليك بالصوم فإنه لا عدل له » .

فقلت : يا رسول الله ، مرنى بعمل أدخل به الجنة . فقال : « عليك بالصوم فإنه لا مثل له » وقوله سبحانه : ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ....** ﴾ : كلام مستأنف لبيان تلك الأيام المعدودات التى كتب علينا الصوم فيها ، وأنها أيام شهر رمضان ، الذى يستحق كل مدح وثناء ، لتشرفه بنزول الكتب السماوية فيه . قال الإمام ابن كثير : يمدح الله تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور ، بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم ، فقد ورد الحديث بأنه الشهر الذى كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء ، فعن واثلة ابن الأسقع أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان ، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان »[1] .

والشهر : مأخوذ من الشهرة ، يقال : شهَر الشىء يشهرُ شُهرة وشَهرا ، إذا ظهر بحيث لا يتعذر علمه على أحد ، ومنه قولهم : شهرت السيف ، إذا سللته وأبرزته . قالوا : وسمى الهلال شهرًا ، لشهرته وبيانه ، وبه سمى الشهر شهرًا .

ورمضان : اسم لهذا الشهر الذى فرض علينا صيامه ، وهو

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢١٦ .

مأخوذ – كما يقول القرطبى – من رمض الصائم يرمض ، إذا حر جوفه من شدة العطش . والرمضاء : شدة الحر ، ومنه الحديث : « صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال » أى : صلاة الضحى . قيل : إن العرب لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة ، سموها بالأزمنة التى وقعت فيها ، فوافق شهر رمضان أيام رمض الحر وشدته ، فسمى بذلك . وقيل : إنما سمى رمضان ، لأنه يرمض الذنوب ، أى : يحرقها بالأعمال الصالحة »[1] والقرآن : هو كلام الله المعجز ، المنزل على محمد – صلى الله عليه وسلم – المكتوب فى المصاحف ، المنقول بالتواتر ، المتعبد بتلاوته .

والمراد بإنزال القرآن فى شهر رمضان ، ابتداء إنزاله فيه ، وكان ذلك فى ليلة القدر ، بدليل قوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة القدر** ﴾ أى : بدأنا إنزال هذا القرآن فى تلك الليلة المباركة ، إذ من المعروف أن القرآن قد نزل منجماً على النبى – صلى الله عليه وسلم – فى مدة ثلاث وعشرين سنة تقريباً .

وقيل المراد بقوله : ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ...** ﴾ أى : أنزل فى فضله القرآن ، قالوا : ومثله أن يقال : أنزل الله تعالى فى أبى بكر كذا آية ، يريدون أنزل فى فضله . وقيل المراد : أنزل فى إيجاب صومه على الخلق القرآن ، كما يقال : أنزل

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ٢٩١ .

الله فى فريضة الزكاة كذا وكذا ، أى : فى إيجابها وفرضيتها ، وأنزل فى الخمر كذا وكذا ، أى : فى تحريمها . والمعنى : هذا هو شهر رمضان ، الذى من بركاته وفضائله ، أن الله تعالى بدأ إنزال القرآن فيه ، على قلب نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - وهذا القرآن من خصائصه ومزاياه أنه هداية للناس ، وأنه آيات بينات فاصلة وفارقة بين الحق والباطل ، على مر العصور والأجيال ..

ومن المعروف أن أول مانزل على الرسول صلى الله عليه وسلم - من قرآن ، هو صدر سورة اقرأ ، وكان ذلك فى شهر رمضان عندما كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - معتكفا فى غار حراء .

قال بعض العلماء : واختير شهر رمضان من بين الأشهر ، ليكون فيه الصيام المفروض على الأمة ، لأنه قد شرف بنزول القرآن فيه ، فإن نزول القرآن لما كان لقصد تنزيه الأمة وهداها ، ناسب أن يكون مابه تطهير النفوس .. واقعًا فيه ..

روى ابن إسحاق أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « جاورت بحراء شهر رمضان ... » .

وقال ابن سعد : « جاءه الوحى وهو فى غار حراء ، يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة ، خلت من شهر رمضان »[1] .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ٢ ص ١٧١ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

وقوله : سبحانه : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ : يصح أن يكون الفعل « شهد » هنا بمعنى حضر ، كما يقال : فلان شهد بدرًا ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أى : حضرها .

فيكون المعنى : فمن حضر منكم دخول الشهر أو حلوله فليصمه ، متى كان مقيما ، وليس عنده مايمنعه من الصوم كمرض ونحوه ، لأن صيامه ركن من أركان الدين .

ويصح أن يكون الفعل « شهد » بمعنى علم ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ : فيكون المعنى : فمن علم منكم ظهور هلال شهر رمضان ، فليصمه ..

وأعيد ذكر الرخصة فى قوله تعالى : ﴿ ومن كان مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾ : لئلا يتوهم من تعظيم أمر الصوم فى نفسه وأنه خير ، أنه قد صار صيامه متحتما ، بحيث لاتتناوله الرخصة بوجه من الوجوه ، أو تتناوله ولكنها مفضولة ، وفى ذلك عناية بأمر الرخصة ، وأنها محبوبة عنده تعالى ، وبذلك يزول الحرج عن القلوب ، وتدخل الطمأنينة فى النفوس .

وقوله سبحانه : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر ﴾ : بيان للحكمة من هذه الرخصة . أى : شرع الله تعالى لكم الفطر فى حالتى السفر والمرض . لأنه يريد بكم اليسر والسهولة ، ولايريد بكم العسر والمشقة ، اذ أن شريعته – تعالى –

مبنية على اليسر والسماحة ورفع الحرج .

والآيات القرآنية فى هذا المعنى كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الانسان ضعيفا[1] ﴾ : وقوله سبحانه : ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وماجعل عليكم فى الدين من حرج [2] ﴾ : ثم بين - سبحانه - حكمة أخرى لوجوب صوم رمضان فقال : ﴿ ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم ولعلكم تشكرون ﴾ .

أى : شرع لكم سبحانه - ماشرع من أحكام الصيام ، ورخص لكم الفطر فى حالتى المرض والسفر ، لأنه يريد بكم اليسر ولايريد بكم العسر ، ولأنه يريد منكم أن تكملوا عدة الشهر ، بأن تصوموا أيامه كاملة فتحصلوا خيراته ، ولا يفوتكم شيء من بركاته ومن لم يستطع منكم أداء الصوم فى هذا الشهر لعذر من الأعذار المشروعة ، فعليه قضاء مافاته منه فى أيام أخر ، ويريد منكم - سبحانه - أن تكبروه ، وتحمدوه ، وتعظموه ، فهو وحده الذى هداكم إلى تلك الأحكام النافعة ، التى فيها صلاحكم وسعادتكم ويريد منكم ان تشكروه ، بأن تواظبوا على الثناء عليه ، وعلى استعمال نعمه فيما خلقت له ، فهو - سبحانه - الرءوف الرحيم بعباده ، إذ شرع لهم مافيه اليسر ، لامافيه العسر . وبذلك تكون

(١) سورة النساء . الآية ٢٨ .

(٢) سورة الحج . الآية ٧٨ .

هذه الآيات الكريمة ، قد بينت أكمل بيان وأحكمه ، فضل الصوم ، وحكمة مشروعيته ، ومظاهر رحمة الله بعباده فى هذه الفريضة ، وقد ذكرت هذه الآيات ، أن المسلم له بشأن هذه الفريضة ، حالة من حالات ثلاث :

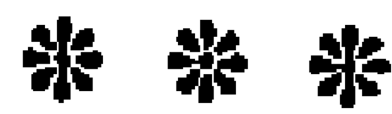
الحالة الأولى : إذا كان المسلم مريضا خلال شهر رمضان ، بمرض عارض غير مزمن ، يرجى الشفاء منه ، أو مسافرًا سفرًا تتوفر فيه شروط الفطر . فله فى هاتين الحالتين أن يفطر ، وأن يقضى بعد رمضان الأيام التى أفطرها ، بدليل قوله تعالى : ﴿ **فمن كان منكم مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخرٍ** ﴾

الحالة الثانية : إذا كان المسلم فى شهر رمضان مريضًا بمرض مزمن لايرجى شفاؤه ، والصوم يتعبه تعبًا شديدًا أو كان شيخًا كبيرًا . أو امرأة عجوزًا ، ولايستطيعان الصوم ، فقد أباحت الشريعة الإسلامية لهؤلاء ان يفطروا ، وأن يطعموا عن كل يوم مسكينا لأن هذه الاعذار لايرجى زوالها ، ولاينتظر أن يكون المبتلى بعذر منها بعد رمضان ، خيرًا منه فى رمضان ، لذا أوجب الشارع على هؤلاء الفدية دون القضاء ، بدليل قوله تعالى : ﴿ **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** ﴾

الحالة الثالثة : إذا كان المسلم فى شهر رمضان ، سليمًا مقيمًا ، وليس له عذر يمنعه من الصوم ، فقد أوجب الله تعالى أداء هذه الفريضة بقوله : ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾ : ويحرم

عليه أن يفطر ، فإن أفطر - لغير عذر شرعى - كان من الخاسرين ، ففى الحديث الشريف الذى أخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه ، عن أبي هريرة -رضى الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال : « من أفطر يوما فى رمضان ، من غير رخصة ولا مرض ، لم يقضه - أى : لم يجزه - صوم الدهر كله وإن صامه . أى : لو حصل منه صوم طول حياته ، فلن يدرك ثواب ماضيع بسبب فطره بغير عذر شرعى .

والأحاديث فى الترغيب فى الصوم ، وفى الترهيب من الفطر ، كثيرة ومتنوعة .



ثم بين - سبحانه - أن العباد إذا حافظوا على فرائضه ، واستجابوا لأوامره ، وابتعدوا عن نواهيه ، فإن الله تعالى لايرد لهم طلبًا ، ولا يخيب لهم رجاء ، فقال سبحانه : ﴿ **وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون** ﴾ .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم ، من أن أعرابيًّا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم - فقال : « أقريب ربنا فنناجيه » أى : ندعوه سرًّا ، أم بعيد فنناديه ؟ فسكت - صلى الله عليه وسلم -

فأنزل الله تعالى هذه الآية . والمعنى : وإذا سألك عبادى يامحمد عن قربى وبعدى ، فقل لهم : إنى قريب منهم بقدرتى وبعلمى وبرحمتى .

فقوله – سبحانه : ﴿ فإنى قريب ﴾ : تمثيل لكمال علمه تعالى بأفعال عباده وأقوالهم ، واطلاعه على سائر أحوالهم ، بحال من قرب مكانه منهم ، إذ القرب المكانى محال عليه تعالى . والمراد بالعباد الذين أضيفوا إلى ضميره – سبحانه – : المؤمنون الصادقون ، لأن الحديث عنهم ، ولأن سياق الآيات فى بيان أحكام الصوم وفضائله ، وهو خاص بالمؤمنين ، وقد أضيفوا إلى ضمير الجلالة لتشريفهم وتكريمهم .

وقوله – سبحانه – : ﴿ أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ : تقرير للقرب ، وتحقيق له ، ووعد للداعى بالإجابة متى صدر الدعاء من قلب سليم ، ونفس صافية ، وجوارح خاشعة .

ولقد ساق لنا القرآن الكريم فى آيات كثيرة ، أمثلة متنوعة لعباد لله تعالى توجهوا إليه بالسؤال ، فأجاب سبحانه – سؤالهم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ونوحًا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ :[1]

وقوله – سبحانه : ﴿ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ : توجيه منه تعالى إلى مايجعل الدعاء مرجو القبول والإجابة .

(١) سورة الأنبياء . الآية ٧٦ .

أى : لقد وعدتكم ياعبادى بأن أجيب دعاءكم إذا دعوتمونى ، وعليكم أنتم أن تستجيبوا لأمرى ، وأن تقفوا عند حدودى .. لعلكم بذلك تصلون إلى مافيه رشدكم وسعادتكم ..

قال الإمام ابن كثير - عند تفسيره لهذه لآية : وفى ذكره تعالى هذه الآية ، الباعثة على الدعاء ، متخللة بين أحكام الصيام ، إرشاد إلى الاجتهاد فى الدعاء ، عند إكمال العدة ، بل وعند كل فطر ، فعن عبد الله بن عمرو قال : « سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة » فكان عبد الله بن عمرو إذا أفطر جمع أهله وولده ودعا ... »[1]

هذا ، والحديث عن الدعاء ، وعن فضله وعن آدابه ، وشروطه وفوائده ، وجوامعه .. قد بسطناه فى غير هذا المكان ، فليرجع إليه من شاء[2] .

* * *

وبعد هذا الحديث المؤثر عن الدعاء ، عادت الآيات الكريمة إلى الحديث عن جانب من أحكام الصيام وعن مظاهر رحمته تعالى بعباده فيما شرع لهم ، فقال - سبحانه - : ﴿ أحل لكم ليلة

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢١٩ .

(٢) راجع كتاب : « الدعاء » للمؤلف . طبع « دار الزهراء للإعلام العربى » .

الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ :
وقد ذكر بعض المفسرين فى سبب نزول هذه الآية ، أحاديث تفيد أن المسلمين كانوا عند مافرض صيام شهر رمضان عليهم ، اذا أفطروا يأكلون ويشربون ويقربون النساء مالم يناموا بالليل فإذا ناموا حرم عليهم بعد ذلك الطعام والشراب وقربان النساء حتى يفطروا من الغد .

ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى ، ما أخرجه الإمام أحمد ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم ، عن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه قال : « كان الناس فى رمضان اذا صام الرجل ثم أفطر فنام ليلا - حرم عليه الطعام والشراب والنساء ، حتى يفطر من الغد ، فرجع عمر بن الخطاب فى ليلة من عند النبى - صلى الله عليه وسلم - فأراد امرأته ، فقالت له : إنى قد نمت ، فقال لها : مانمت ثم جامعها . وصنع كعب مثل ذلك . فغدا عمر بن الخطاب إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فأخبره فنزلت هذه الآية »[1] .

ومنها ماأخرجه البخارى عن البراء بن عازب قال : « كان أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - إذا كان الرجل صائماً فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر ، لم يأكل ليلته ولايومه حتى يمسى ، وإن قيس بن صرمة الأنصارى كان صائما ، وكان يعمل فى النخيل بالنهار ، فلما حضر وقت الافطار ، أتى امرأته فقال لها : أعندك طعام ؟ قالت : لا ، ولكن أنطلق فأطلب لك ، فغلبته عيناه

(١) تفسير الألوسى جـ ٢ ص ٦٤ .

فنام .. فجاءته امرأته فرأته نائما – ، فلما انتصف النهار غشى عليه ، فذكر ذلك للنبى – صلى الله عليه وسلم – فنزلت هذه الآية .... « ففرحوا فرحًا شديدًا »[1]

وجمهور المفسرين على أن هذه الآية من قبيل النسخ ، لأنها نسخت ماكان حاصلا فى أول فرضية الصيام ، من أن الصائم إذا نام بعد فطره ، لايحل له الأكل أو الشرب أو الجماع ، إلى أن يفطر من الغد .

ويرى بعض العلماء أن الآية ليست من قبيل النسخ ، وإنما هى إرشاد إلى ماشرعه الله تعالى لعباده خلال شهر الصوم ، من إباحة غشيان أزواجهن ليلا ، ومن جواز الأكل والشرب ، سواء أكانوا قد ناموا بالليل أم لم يناموا .

وكأن الصحابة كانوا يتحرجون عن ذلك – إذا ماناموا – ظنًّا منهم أنه من تتمة الصوم ، فبين الله تعالى لهم أن أكلهم وشربهم وجماعهم لنسائهم بالليل حلال ولا حرج فيه .

وعلى كلا القولين ، فالآية الكريمة تسوق لنا لونا من ألوان رحمة الله تعالى بعباده فيما شرع لهم من فرائض وأحكام .

والمراد بليلة الصيام : الليلة التى يصبح فيها الإنسان صائمًا ، بدون تحديد لليلة معينة من شهر رمضان .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ٣١٤ .

والرفث فى الأصل : الفحش من القول .. والمراد به هنا : الجماع والمباشرة ..

والمعنى : أحل الله - تعالى - لكم فى ليالى صومكم الإفضاء إلى نسائكم ومباشرتهن .

وقوله تعالى ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ : كلام حكيم وارد مورد المقتضى لإباحته مباشرة النساء فى ليالى الصيام ، وذلك لأن كلا من الزوجين ، يسكن إلى صاحبه ، ويكون لشدة القرب منه ، كالثوب الساتر له ، وكانت العرب تسمى المرأة لباسًا ، وهذه حال تقوى معها الدواعى إلى المباشرة ..

وفى هذا التعبير القرآنى من اللطافة والأدب وسمو التعبير مافيه ، حيث شبه - سبحانه - مابين الزوجين من شدة الاتصال . باللباس الساتر لكل منهما .

وقوله - سبحانه - : ﴿ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم ... ﴾ : جملة معترضة بين قوله تعالى : ﴿ أحل لكم ليلة الصيام ... ﴾ : وبين قوله - سبحانه - : ﴿ فالآن باشروهن ﴾ : وقد جىء بها لبيان حالهم بالنسبة لمافرط منهم ولبيان مظهر من مظاهر رحمة الله تعالى بهم .

وقوله ﴿ تختانون ﴾ : من الاختيان ، وهو محاولة الخيانة دون الإقدام عليها بشدة .

أى : علم الله تعالى ، أنكم كنتم تراودون أنفسكم على مباشرة نسائكم ليلا ، وعلى الأكل بعد النوم ، قبل أن يظهر الفجر

الصادق . بل إن بعضكم قد فعل ذلك ، فكان من رحمة الله تعالى بكم أن أباح لكم الأكل والشرب والجماع فى ليالى الصوم ، وأن قبل توبتكم ، وعفا عنكم ، بأن محا أثر مافعلتموه من الأكل والشرب والجماع قبل أن يأذن لكم بذلك .

وقوله – سبحانه – : ﴿ **فالآن باشروهن وابتغوا ماكتب الله لكم** ﴾ : بيان لما أباحه الله تعالى – لهم ، بفضله وكرمه .

أى : لقد أبحنا لكم الإفضاء إلى نسائكم فى ليالى رمضان ، بعد ان كنتم متحرجين من ذلك ، فالآن – وبعد نزول هذه الآية – باشروهن ، واطلبوا من وراء هذه المباشرة لهن ، ماكتبه الله – تعالى – لكم من الذرية الصالحة ، ومن التعفف عن كل مالا يرضاه خالقكم – عز وجل –

وقوله – تعالى – : ﴿ **وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر** ﴾ : معطوف على ماقبله ، على سبيل بيان المزيد من رحمته – تعالى – بهم ، وفضله عليهم ، ورعايته لهم .

والمقصود من الخيط الأبيض : أول مايبدو من الفجر الصادق ، المعترض فى الأفق قبل انتشاره .

والمقصود من الخيط الأسود : مايمتد مع بياض الفجر من ظلمة الليل .

والمعنى : لقد أبحنا لكم – بفضلنا وإحساننا – مباشرة النساء فى ليالى الصوم ، وأبحنا لكم كذلك أن تأكلوا وأن تشربوا فى هذه

الليالى ، حتى يتبين لكم بياض الفجر ، من سواد الليل .

وشبه سبحانه - بياض النهار ، وسواد الليل بالخيطين : الأبيض والأسود ، لأنه أول مايبدو من الفجر المعترض فى الأفق وما يمتد معه من غبش الليل ، يكون كالخيط الممدود وقوله - سبحانه - ﴿ **من الفجر** ﴾ : بيان للخيط الأبيض واكتفى به عن بيان الخيط الأسود لأن بيان أحدهما بيان للثانى .

هذا ، وقد وردت روايات صحيحة ، تفيد أن قوله تعالى : ﴿ **من الفجر** ﴾ : قد تأخر نزوله عن الجمل السابقة له .

ففى الصحيحين عن سهل بن سعد قال : « أنزلت : ﴿ **وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود** ﴾ : ولم ينزل ﴿ **من الفجر** ﴾ : فكان رجال إذا أرادوا الصوم ، ربط أحدهم فى رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له رؤيتهما ، فأنزل الله بعده ﴿ **من الفجر** ﴾ : فعلموا أنه سبحانه يعنى الليل والنهار » وفى الصحيحين - أيضا - عن عدى بن حاتم قال : « لما نزلت هذه الآية ، عمدت إلى عقالين لى أسود وأبيض ، فجعلتهما تحت وسادتى ، وجعلت أنظر إليهما فى الليل ، فلا يتبين لى ، فعمدت الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فذكرت له ذلك فقال : « إنما هو سواد الليل وبياض النهار » ونزل قوله - تعالى - : ﴿ **من الفجر** ﴾ :

وقوله سبحانه : ﴿ **ثم أتموا الصيام إلى الليل** ﴾ بيان لانتهاء وقت الصيام بعد أن بينت الجملة السابقة بدايته .

أى : ابدءوا صومكم من طلوع الفجر ، وانتهوا منه بدخول الليل ، عند غروب الشمس إذ الليل ليس بوقت للصيام .

ففى الصحيحين عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : « قال رسول الله - ﷺ - : إذا أقبل الليل من ههنا ، وأدبر النهار من هنا ، وغربت الشمس ، فقد أفطر الصائم » وكان من عادته - ﷺ - تعجيل الفطر ، فقد أخرج الشيخان عن سهل بن سعد ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « لايزال الناس بخير ما عجلوا الفطر » .

وقوله - سبحانه - : ﴿ **ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد** ﴾ استثناء من عموم إباحة المباشرة بالليل .

أى : لقد أبحنا لكم مباشرة نسائكم فى ليالى رمضان ، ولكنكم إذا كنتم معتكفين بالمساجد ، حرم عليكم مباشرتهن بالليل والنهار ، لأن المعتكف ملازم لطاعة الله تعالى ، فعليه أن يتجنب ما يقطع هذه الطاعة ولو بمباشرة زوجه فى الليل أو فى النهار .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ **تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون** ﴾ .

أى : تلك الأحكام التى شرعناها لكم من إيجاب الصوم ، ومن تحريم الأكل والشرب والجماع فى نهاره ، ومن إباحة ذلك فى ليله .. تلك هى حدود الله التى لا يحل لكم من مخالفتها أو مجاوزتها .. ومثل هذا البيان الجامع الحكيم ، يبين الله تعالى لكم أدلته وحججه

وأحكامه ، لكى تصونوا أنفسكم عما يؤدى بكم إلى العقوبة ، وتكونوا ممن رضى الله تعالى عنهم ، ورضوا عنه .

وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة التى وردت فى شأن صيام شهر رمضان ، قد بينت لنا : أن الله تعالى قد فرض علينا الصيام كما فرضه على الأمم التى من قبلنا ، كما بين لنا - سبحانه - الحكمة من هذا الصيام ، ومظاهر رحمته تعالى بنا فى هذه الفريضة ، وفضل هذا الشهر ، ورعايته - سبحانه - لمصالح عباده ومنافعهم ..

كل ذلك بأسلوب بليغ حكيم ، جمع بين الترغيب والترهيب ، والإباحة والتحريم ، وغير ذلك من أنواع الهداية والإرشاد ، إلى ما يسعد الناس فى دينهم وفى دنياهم ، وفى آخرتهم ..

الفصل الثاني

من أحكام الصيام

١ – ما معنى الصوم ؟

الصوم في اللغة : الإمساك عن الشيء ، يقال : صام فلان عن الكلام ، إذا سكت عنه ، ومنه قوله تعالى حكاية عن مريم : ﴿ إني نذرت للرحمن صوماً ... ﴾ أي : نذرت للرحمن أن أصمت عن الكلام في شأن ابني عيسى – عليه السلام – .

ومعناه في الشرع : الإمساك عن المفطرات ، من طلوع الفجر الصادق ، إلى غروب الشمس ، مع النية .

٢ – متى فرض الصوم ؟

فرض الله تعالى الصوم على المسلمين في شهر شعبان ، من السنة

الثانية للهجرة وقد ثبتت فرضيته بالكتاب والسنة ، وإجماع الأمة .

أما ثبوته بالكتاب ، فيتجلى فى قوله تعالى : ﴿ يـٰأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ، لعلكم تتقون ﴾[1] .

وفى قوله – سبحانه – : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ... ﴾[2] .

وأما ثبوته فى السنة ، فيتجلى فى أحاديث متعددة ، منها : ما رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر – رضى الله عنهما – ، أن رسول الله – ﷺ – قال : « إن الإسلام بنى على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وحج البيت » .

ومنها ما رواه البخارى ومسلم عن طلحة بن عبيد الله قال : جاء رجل إلى النبى – ﷺ – من أهل نجد ثائر الرأس ، نسمع دوى صوته ، ولا نفقه ما يقول ، حتى دنا ، فإذا هو يسأل عن الإسلام ، فقال النبى – ﷺ – : خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فقال : هل على غيرهن ؟ قال : لا إلا أن تطوع ، ثم قال

---

(١) سورة البقرة : الآية : ١٨٣ .

(٢) سورة البقرة : الآية : ١٨٤ .

- ﷺ - : وصوم رمضان . قال : هل على غيره ؟ قال : لا إلا أن تطوع ... » .

وأما الإجماع ، فقد أجمعت الأمة على وجوب صوم شهر رمضان على كل مكلف بصيامه ، وأن منكر ذلك يكون مرتدا عن دين الإسلام ، لأنه أنكر أمراً ثبت من الدين بالضرورة .

٣ - بم يثبت هلال شهر رمضان ؟

يثبت هلال رمضان برؤية جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب ، فإن لم تتيسر هذه الجماعة ، ثبت برؤية شخصين عدلين له ، فإن لم يتيسر ذلك ، ورآه شخص واحد عدل ، أخذ بقوله - عند جمهور العلماء - ، وصام المسلمون بناء على شهادته بأنه رآه ، ولا بأس بالاستعانة فى الرؤية بكل ما يساعد على رؤيته ، بواسطة الوسائل العلمية الحديثة ، كالمناظير المكبرة وما يشبهها .

كذلك يجب أن يتعاون العلماء المتخصصون فى علوم الفلك ، والأرصاد الجوية ، مع الفقهاء فى علوم الشريعة الإسلامية ، على ما يؤدى إلى تحقيق رؤية هلال شهر رمضان ، فإن هذا التعاون الصادق المخلص له ثماره الطيبة ، التى توصل إلى الحقيقة وإلى ما يعود بالنفع إلى المسلمين جميعا .

فإذا ما تعذرت الرؤية بعد تلك الجهود المتبادلة لرؤية هلال رمضان ، أكمل المسلمون عدة شعبان ثلاثين يوماً .

فقد أخرج الشيخان - البخارى ومسلم - وغيرهما ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « صوموا لرؤيته - أى : الهلال - ، وأفطروا لرؤيته ، فإن غُمَّ عليكم - أى : تعذرت رؤيته عليكم - ، فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً » .

وعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إذا رأيتموه فصوموا ، وإذا رأيتموه فأفطروا ، فإن غم عليكم ، فاقدروا له » أى : فقدروا عدة الشهر حتى تكملوا ثلاثين يومًا .

والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة ، وكلها توجب الصوم والفطر بالرؤية ، أو بإكمال الشهر ثلاثين يوما إذا لم تثبت الرؤية .

قال فضيلة الشيخ الدكتور عبد الرحمن تاج - رحمه الله - : « يجب على المسلمين أن يهتموا باستقبال رمضان ، وأن ينهضوا لتحرى الهلال ، عقب غروب الشمس ، من اليوم التاسع والعشرين من شهر شعبان ، كى يبنوا عبادتهم على يقين وطمأنينة ، ويكونوا عاملين بنص الحديث الشريف الصحيح : « صوموا لرؤيته ، وأفطروا لرؤيته ... » .

ولا ينبغى أن يتهاونوا فى هذا الأمر العظيم ، اعتمادا على أن الفلكيين قد كفوهم مئونة البحث عنه ، وأعفوهم من مشقة رصده ، وتكلف رؤيته ...

ولماذا لا يتخذ المسلمون هذا الحساب الفلكى عاملا مساعداً يسهِّل لهم مهمة البحث ، ويمكِّن لهم من رؤية الهلال فى غير عسر ، بما يبين لهم منزلة القمر ، ومقدار ارتفاعه ، وغاية مكثه فوق الأفق ...

إن تقدم علم الفلك وبراعة أهله فيما يعالجون من شئونه ، وذلك الحساب الدقيق الذى يضبطون به أحوال القمر ، ومنازله ، ومواقعه ... لا ينبغى أن يكون مثبطا لهمم المسلمين ، عن أن ينهضوا لاستقبال الهلال ، وأن يعملوا – مستعينين بتلك المقررات الفلكية – على أن يروه رؤية عينية ، فإن ذلك هو غاية العلم ، وهو عين اليقين ...

وإذا كانت الشريعة لم تفرض على الناس فى تحرى الهلال أكثر من التماسه بالعين المجردة ولم تحتم عليهم أن يتكلفوا البحث عنه بوسائل أخرى رحمة بهم وتخفيفا عليهم فإن ذلك لا يمنع أن تستخدم تلك الوسائل العلمية التى تسهل رؤية الهلال ، والتثبت منه ، مادامت موفورة ميسرة ...[1] .

والخلاصة أن هلال شهر رمضان يثبت ولو برؤية الشخص الواحد له عند جمهور العلماء ، فإن تعذرت الرؤية أكمل المسلمون

---

(١) من بحث قيم بعنوان : « صوم رمضان » بمجلة الأزهر – السنة الثامنة والعشرون – ص ٨٠١ .

عدة شعبان ثلاثين يوماً ... وأما هلال شهر شوال ، فيثبت بإكمال عدة رمضان ثلاثين يوماً ، ولا تقبل فيه شهادة العدل الواحد - عند جمهور العلماء - ، بل لابد من أن يشهد على رؤيته اثنان معروفان بأمانتهما وبعدلهما ...

قال بعض العلماء ما ملخصه : يثبت شهر رمضان بأحد أمرين :

الأول : رؤية هلاله إذا كانت السماء خالية مما يمنع الرؤية من غيم أو دخان أو غبار أو نحوها ...

الثانى : إكمال شعبان ثلاثين يوماً ، لقوله - ﷺ - : « صوموا لرؤيته ، وأفطروا لرؤيته ، فإن غُمَّ عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين » ...

ثم قال : ويثبت دخول شوال بإخبار عدلين برؤية هلاله ، ولاتكفى رؤية العدل الواحد فى ثبوت هلاله ... خلافاً للشافعية الذين قالوا تكفى شهادة العدل الواحد فى ثبوت هلال شوال ، فهو كرمضان على الراجح ...[1] .

ومما تقدم يتبين لنا ، أن من الواجب على المسلمين أن يتحروا رؤية هلال شهر رمضان بصفة خاصة ، فقد أخرج أبو داود فى سننه ، عن عائشة - رضى الله عنها - ، « أن رسول الله - ﷺ - كان يتحفظ من شعبان ما لا يتحفظ من غيره ، ثم

---

(١) راجع الفقه على المذاهب الأربعة - الطبعة الأولى سنة ١٣٤٧ هـ - سنة ١٩٢٨ م . ص ٥١٠ .

يصوم لرؤية رمضان ، فإن غُمَّ عليه – أى : هلال رمضان – عد ثلاثين يوماً ، ثم صام » .

كما أن من الواجب عليهم أن يتعاونوا فيما بينهم – على اختلاف تخصصاتهم فى شتى ألوان العلوم – على ما يحقق الاطمئنان إلى أنهم قد وصلوا إلى ما هو الحق بالنسبة لثبوت شهر رمضان ، فإن العلم رحم بين أهله – كما يقولون – ، وأنه لا بأس من الاستعانة بالوسائل العلمية ، لتحقيق رؤية الهلال .

٤ – اختلاف المطالع :

نعنى باختلاف المطالع : رؤية الهلال فى بلد من بلاد المسلمين ، دون بلد آخر . وللعلماء بالنسبة لهذه المسألة رأيان :

الرأى الأول يرى أصحابه : أنه متى ثبتت رؤية هلال رمضان ، فى أى بلد من بلاد المسلمين ، وجب عليهم جميعا الصيام ، لا فرق فى ذلك بين القريب والبعيد منهم ، متى بلغهم خبر رؤيته ، وكان يجمعهم جزء من الليل ...

وذلك لأن الأمر عام لجميع المسلمين فى قوله – ﷺ – : « صوموا لرؤيته ، وأفطروا لرؤيته ... » ، ولأن فى ذلك توحيداً لكلمة المسلمين ، وجمعاً لشملهم فى عباداتهم وأعيادهم ، وفى مبدأ صومهم ونهايته ...

وأما الرأى الثانى فيرى أصحابه : أنه يعتبر لأهل كل بلد

رؤيتهم ، ولا يلزمهم رؤية غيرهم ، ماداموا بعيدين عنهم ، ولا يتفقون معهم فى خط طول واحد ... ومن أدلتهم ما رواه مسلم والترمذى وأحمد عن كُرَيب - مولى ابن عباس - أن أم الفضل بعثته إلى معاوية بالشام قال : فقدمتُ الشام ، فقضيت حاجتها ، واستُهِلَّ علىَّ رمضان وأنا بالشام ، فرأيت الهلال ليلة الجمعة ، ثم قدمت المدينة فى آخر الشهر ، فسألنى ابن عباس - ثم ذكر الهلال - فقال : متى رأيتم الهلال ؟ فقلت رأيناه ليلة الجمعة . فقال : أنت رأيته ؟ فقلت نعم ، ورآه الناس ، وصاموا ، وصام معاوية .

فقال ابن عباس : لكنا رأيناه ليلة السبت ، فلا نزال نصوم حتى نكمل ثلاثين ، أو نراه ، فقلت : ألا تكتفى برؤية معاوية وصيامه ؟ فقال : لا . هكذا أمرنا رسول الله - ﷺ - ...

فهذا الحديث يدل على أن ابن عباس - رضى الله عنهما - ، يعتبر أن لأهل كل بلد رؤيتهم ، ولا يلزمهم رؤية غيرهم .

وفى كتاب : « فتح العلام شرح بلوغ المرام » : أن الأقرب لزوم أهل بلد الرؤية ، وما يتصل بها من الجهات التى على سمتها .

وقد علق فضيلة الشيخ سيد سابق على هذا الرأى بقوله : هذا هو المشاهد ، ويتفق مع الواقع[1] ولكن عامة العلماء ، يرجحون

---

(١) كتاب « فقه السنة » جـ ٣ ص ١٨٧ .

الرأى الأول ، فقد قال صاحب كتاب الفقه على المذاهب الأربعة : « ومتى ثبتت رؤية الهلال بقطر من الأقطار ، وجب الصوم على سائر الأقطار ، لا فرق بين القريب من جهة الثبوت والبعيد ، إذا بلغهم خبر ثبوته عن طريق موجب للصوم .

ولا عبرة باختلاف المطالع للهلال .. خلافا للشافعية الذين قالوا : إذا ثبتت رؤية الهلال فى جهة ، وجب على أهل الجهة القريبة منها من كل ناحية أن يصوموا بناء على هذا الثبوت .

والقرب يحصل عندهم باتحاد المطالع . أما أهل الجهة البعيدة ، فلا يجب عليهم الصوم بهذه الرؤية ، لاختلاف هذا المطلع »[1] .

وقال فضيلة المرحوم الشيخ أحمد هريدى عند حديثه عن هذه المسألة ما ملخصه : « هذا ، والمنصوص عليه فقها ، والذى عليه أكثر المشايخ : أنه لا عبرة باختلاف المطالع فى إثبات رؤية الهلال ، وأنه إذا رأى الهلال أهل بلد ، ولم يره أهل بلد آخر ، يجب على أهل البلد الآخر الذين لم يروا الهلال أن يصوموا ، برؤية أولئك الذين رأوه .

قال الكمال بن الهمام الحنفى : وإذا ثبت فى مصر لزم سائر الناس ، فيلزم أهل المشرق ، برؤية أهل المغرب ، فى ظاهر المذهب ، لعموم الخطاب فى قوله - ﷺ - : « صوموا ... » معلقاً

---

(١) راجع « الفقه على المذاهب الأربعة » ص ٥١٢ .

بمطلق الرؤية فى قوله : « لرؤيته » ...

وقيل : يختلف باختلاف المطالع ، لأن السبب الشهر ، وانعقاده فى حق قوم للرؤية ، لا يستلزم انعقاده فى حق آخرين مع اختلاف المطالع ...

ثم قال فضيلة الشيخ أحمد هريدى : ونحن نميل إلى ترجيح الرأى القائل بأنه لا عبرة باختلاف المطالع ، لقوة دليله ، ولأنه يتفق مع ما يقصد إليه الشارع من وحدة المسلمين ، وجمع كلمتهم ، وأنه متى تحققت رؤية الهلال فى بلد من البلاد الإسلامية ، يمكن القول بوجوب الصوم على جميع المسلمين ، الذين تشترك بلادهم مع بلد الرؤية ، فى جزء من الليل ... »[1] ورحم الله شيخنا فضيلة الدكتور عبد الرحمن تاج - شيخ الأزهر الأسبق - ، فقد قال كلاما جيدا فى هذه المسألة ، ومنه قوله : هناك أمر مهم يجب النظر إليه ، والفصل فيه بحكم يقطع الاختلافات ، التى تقع كثيرا بين أهل الأقطار الإسلامية ، فى اليوم الذى يبدأ فيه الصيام . ذلك أن بعض هذه الأقطار ، قد يتيسر لأهله رؤية الهلال ، فى حين تتعذر رؤيته على أهل قطر آخر ... لأن مواقع البلاد على الكرة الأرضية مختلف شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا ، واختلاف هذه المواقع - بحسب الخطوط الطولية للكرة الأرضية - يوجب بالضرورة

---

(١) راجع « الفتاوى الإسلامية » - المجلد الخامس - ص ١٧٤٦ .

اختلافاً فى المواقيت ، بالنسبة لشروق الشمس وغروبها ، وبالنسبة لمواقيت الصلاة ، وللفطر والإمساك والسحور فى شهر رمضان ...

لكن اختلاف المواقع الذى يبلغ به التفاوت فى المواقيت هذا المبلغ ، ليس له هذا الأثر البالغ فيما يرجع إلى إثبات الأهلة ، فإنه ليس بين الأقطار الإسلامية ، الشرقية والغربية ، - فى أغلب الأحوال - ، تفاوت يتعذر معه تحقيق الفكرة التى نريدها من توحيد أمر الصيام ، بعد أن تتفق الدول الإسلامية جميعها ، على توحيد العمل برؤية الهلال ، متى ثبتت ثبوتاً أكيداً ، فى أى قطر من الأقطار الإسلامية ...

إنه لاشك فى أن هذا الهلال هلال جديد ، وهو - منذ اللحظة التى يولد فيها .. يعتبر هلالا جديداً بالنظر إلى أقطار الأرض جميعاً ، وإن كان قد بدأ عند البعض قبل غيرهم ببضع ساعات ...

ومن هنا اختار كثير من أئمة الفقه ، عدم التعويل على اختلاف المطالع ، فى إثبات الهلال ، وهو رأى قوى ، ووجهة نظر سديدة ، ويزيد ذلك قوة وسداداً ، أن توحيد بدء الصوم ، من أقوى العوامل ، على تمكين الروابط بين الشعوب الإسلامية ... »[1] .

---

(١) مجلة الأزهر المجلد ٢٨ ص ٨٠١ .

من فضائل شهر رمضان :

١ - اقتضت حكمة الله تعالى أن يفضل بعض الناس على بعض ، وأن يفضل بعض الأنبياء على بعض ، كما قال سبحانه : ﴿ **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات** ... ﴾[1] .

كما اقتضت حكمته - عز وجل - أن يفضل بعض الأمكنة على بعض ، وبعض الأزمنة على بعض ، فقد اختص - سبحانه - بعض الأوقات والأيام والشهور ، بنفحات وفيوضات ربانية ، من تعرض لها ، وأحياها بالعبادات والطاعات ، سعد وفاز . ومن أعرض عنها ، وشغل بغيرها من الشهوات والرذائل ... خسر وخاب .

وفى الحديث الشريف : « إن لله فى أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها ، فلعل أحدكم تصيبه نفحة فلا يشقى بعدها أبداً » .

٢ - على رأس الشهور التى اختصها الله تعالى بالكثير من التفضيل والتعظيم ، شهر رمضان ، الذى لو يعلم الناس ما فيه من الخير والبركة لتمنوا أن يكون حولا كاملا ...

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٣ .

ولقد كان أهل الجاهلية يعظمون هذا الشهر ، ويعتبرونه من الشهور المتميزة ، فلما جاء الإسلام ، زاده تعظيماً وتشريفاً ...

ويكفى أن الرسول - ﷺ - كان قبيل بعثته ، يقضى هذا الشهر متحنثاً ومتعبداً فى غار حراء ...

فقد أخرج الشيخان - وغيرهما - عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : « أول ما بدئ به رسول الله من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح - أى : فى الوضوح والتحقق - ، ثم حبب إليه الخلاء - أى : اعتزال الناس - فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث - أى : يتعبد - فيه الليالى ذوات العدد ... حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال اقرأ ، قلت ما أنا بقارئ ... »[1] .

قالوا : وكان نزول الوحى عليه - ﷺ - فى يوم الاثنين ، فى اليوم السابع عشر من شهر رمضان ، وهو فى سن الأربعين من عمره - ﷺ - .

٣ - والذى يراجع السنة النبوية المطهرة ، يرى كثيراً من الأحاديث النبوية ، التى ساقها - ﷺ - فى فضل شهر رمضان ، وفى فضل الصيام ، وفى فضل العمل فيه ... ومن ذلك :

(أ) أنه - ﷺ - بين لنا أن صيام شهر رمضان من أركان

---

(١) راجع صحيح البخارى جـ ١ ص ٤ .

الدين ، وأن من واظب على ذلك ، كان من المفلحين .

فقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : « نهينا أن نسأل رسول الله - ﷺ - عن شيء ، - أى : نهينا أن نسأل عن شيء لا حاجة للسؤال عنه -، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل العاقل من أهل البادية ، فيسأله ونحن نسمع .

فجاء رجل من أهل البادية فقال : « يا محمد أتانا رسولك ، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك . قال : صدق . قال فمن خلق السماء ؟ قال : الله . قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : الله . قال : فمن نصب هذه الجبال ؟ قال : الله .

قال فبالذى خلق السماء ، وخلق الأرض ، ونصب هذه الجبال ، آلله أرسلك ؟ قال : نعم . قال : « وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات فى يومنا وليلتنا ... وأن علينا زكاة فى أموالنا ... وأن علينا صوم شهر رمضان فى سنتنا ... وأن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا ... قال . صدق .

فقال الرجل : والذى بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن . فقال - ﷺ - : لئن صدق ليدخلن الجنة » .

(ب) كما أخبرنا - ﷺ - أن شهر رمضان هو الشهر الذى تفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب الجحيم ، فقد أخرج الإمام أحمد والنسائى والبيهقى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال - لما حضر رمضان - :

« قد جاءكم شهر مبارك ، افترض الله عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتُغَل فيه الشياطين ، فيه ليلة خير من ألف شهر ، من حُرِم خيرها فقد حُرِم » .

وفى رواية أنه قال : « وينادى فيه ملك بقوله : ياباغى الخير أبشر ، وياباغى الشر أقصر ... » .

(جـ) وأخبرنا - ﷺ - أن صيام هذا الشهر يوصل إلى رحمته تعالى ومغفرته ، فقد روى النسائى وأحمد ، عن النضر بن شيبان قال : قلت لأبى سلمة بن عبد الرحمن : حدثنى بشىء سمعته من أبيك ، وسمعه أبوك من النبى - ﷺ - عن شهر رمضان . فقال : نعم حدثنى أبى قال : « قال رسول الله - ﷺ - : إن الله تبارك وتعالى فرض صيام رمضان عليكم ، وسننت لكم قيامه - أى : وشرعت لكم صلاة التراويح على وجه السنية بأمره تعالى ، فمن صامه وقامه إيماناً واحتساباً ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه »

وروى الإمام أحمد والبيهقى عن أبى سعيد ، أن النبى - ﷺ - قال : « من صام رمضان وعرف حدوده ، وتحفظ مما كان ينبغى أن يتحفَّظَ منه ، كفَّر ما قبله ؟ ؟

وروى الإمام أحمد وأصحاب السنن عن أبى هريرة ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « من صام رمضان ، إيماناً واحتساباً - أى : طالبا بصيامه وجه الله وثوابه ، غفر له ما تقدم من ذنبه » .

(د) وأخبرنا - ﷺ - أن الصيام سر بين العبد وربه ، وأنه وقاية من المعاصى ، ومن النار ...

ففى الحديث الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - أنه قال : قال الله تعالى : **« كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به »** أى : كل عمل ابن آدم له حظ منه يتعجل ثوابه فى الدنيا ، إلا الصيام فهو خالص من الرياء ، والصيام جُنَّة ، وإذا كان يوم صوم أحدكم ، فلا يرفث - أى : فلا يفحش فى القول - ، ولا يصخب - أى : ولا يرفع صوته بخصام أو صياح - ، فإن سابَّه أحد أو قاتله فليقل : إنى امرؤ صائم . والذى نفسى محمد بيده ، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . للصائم فرحتان يفرحهما : إذا

أفطر فرح بفطره ، وإذا لقى ربه فرح بصومه .

(هـ) وبشرنا - ﷺ - أن الصائمين لهم باب مخصوص يدخلون منه ، تمييزاً وتفضيلاً لهم على غيرهم ، فقد أخرج الشيخان والنسائى ، عن سهل بن سعد - رضى الله عنه - ، عن النبى - ﷺ - أنه قال : « إن فى الجنة باباً يقال له الريَّان ، يدخل منه الصائمون يوم القيامة ، لا يدخل معهم أحد غيرهم . يقال : أين الصائمون ؟ فيدخلون منه ، فإذا دخل آخرهم أغلق فلم يدخل منه أحد » .

(و) كما أخبرنا - ﷺ - بأن الصوم لا نظير له فى جلب الخير والنفع ، فقد روى النسائى والحاكم ، عن أبى أمامة قال : « قلت يارسول الله : مرنى بأمر ينفعنى الله به . قال : عليك بالصيام فإنه لا مثل له » . أى : لا مثل له فى صفاء النفس ، وعظيم الأجر .

(ز) كما بشرنا - ﷺ - بأن الله تعالى - قد أعطى الأمة الإسلامية مزايا متعددة ، ببركة شهر رمضان ، فقد روى البيهقى وأحمد والبزار ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « أعطيت أمتى فى شهر رمضان خمساً لم يعطهن نبى قبلى .

أما واحدة : فإنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان ، ينظر الله - عز وجل - إليهم ، ومن نظر الله تعالى إليه ، لم يعذبه أبداً .

وأما الثانية : فإن خلوف أفواههم حين يمسون أطيب عند الله من ريح المسك .

وأما الثالثة : فإن الملائكة تستغفر لهم فى كل يوم وليلة .

وأما الرابعة : فإن الله – عز وجل – يأمر جنته فيقول لها : استعدى وتزينى لعبادى ، أوشك أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى دارى وكرامتى .

وأما الخامسة : فإنه إذا كان آخر ليلة غفر الله لهم جميعاً .

فقال رجل من القوم : أهى ليلة القدر يارسول الله ؟ فقال : لا.ألم تر إلى العمال يعملون ، فإذا فرغوا من أعمالهم وفوا أجورهم .

(ح) وأخبرنا – ﷺ – بأن الصيام زكاة لأجسادنا ، ووسيلة من وسائل الإجابة لدعائنا ، فقد روى ابن ماجه عن أبى هريرة أن رسول الله – ﷺ – قال : « لكل شىء زكاة ، وزكاة الجسد الصوم ، والصيام نصف البر » .

وأخرج الإمام أحمد والترمذى عن أبى هريرة – أيضاً – « أن رسول الله – ﷺ – قال : ثلاثة لا ترد دعوتهم ، الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم ، يرفعها الله فوق الغمام ، وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب ، وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين » .

٤ - هذا جانب من الأحاديث النبوية الشريفة ، التى وردت فى فضل شهر رمضان ، وفى فضل الصيام ، والصائمين ...

وإذا كان ذلك هو جزاء الصائمين لهذا الشهر إيماناً واحتساباً ، فإن جزاء المفطرين فيه - بدون عذر شرعى - العذاب الأليم ، ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى ، ما أخرجه أبو يعلى والديلمى ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال : « عرى الإسلام ، وقواعد الدين ثلاثة عليهن أسس الإسلام ، من ترك واحدة منهن ، فهو بها كافر ، حلال الدم : شهادة أن لا إله إلا الله ، والصلاة المكتوبة ، وصوم رمضان » .

وروى أبو داود والترمذى وابن ماجه ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « من أفطر يوماً من رمضان من غير رخصة رخصها الله له ، لم يقض عنه صيام الدهر وإن صامه » .

حكمة مشروعية الصيام :

١ - من شأن العقلاء من الناس ، أنهم يتلقون التكاليف التى كلفهم خالقهم بها ، بالسمع والطاعة ، والامتثال والاستجابة ، سواء أكانت تلك التكاليف أمراً بفعل شىء ، أم نهياً عن ارتكاب محظور ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا**

قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله ، فقد ضل ضلالا مبيناً ﴾[1] .

٢ - ومع أن شأن العقلاء كذلك ، فإن الله تعالى قد اقتضت حكمته ورحمته ، أن يرشد عباده إلى جانب من الحكم التى من أجلها شرع ما شرع من تكاليف .

ففريضة الصلاة ، بين - سبحانه - جانباً من فوائدها فقال : ﴿ اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ... ﴾ .

وفريضة الزكاة أشار - سبحانه - إلى حكمة مشروعيتها فقال : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ... ﴾ .

وفريضة الحج أخبرنا - سبحانه - ببعض وجوه منافعها فقال : ﴿ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ... ﴾ .

أما فريضة الصيام فقد وضح لنا - سبحانه - الحكمة فى مشروعيتها ، فقال : ﴿ يـٰأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ، لعلكم تتقون ﴾ .

---

(١) سورة الأحزاب . الآية ٣٦ .

أى : فرضنا عليكم - أيها المؤمنون - الصيام ، كما فرضناه على الذين من قبلكم من الأمم ، لعلكم بأدائكم لهذه الفريضة ، تنالون درجة التقوى ، التى هى أسمى الدرجات وأعلاها ، وأرفع المنازل وأعظمها ، وبذلك تكونون ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

٣ - وقد أفاض العلماء فى بيان الفوائد التى تعود على الصائمين ، ومنها :

(أ) أن الصوم يهذب الروح ، ويعين النفس على الاستقامة والصفاء ، ويساعد القلب على التطهر والنقاء ، لأن من شأن الإنسان فى حال صيامه أن يكون أكثر مراقبة لله تعالى ، وخشية من عقابه ، ورغبة فى ثوابه ...

قال الإمام الغزالى : الصيام زكاة النفس ، ورياضة الجسم ، وداع للبر ، فهو للإنسان وقاية ، وللجماعة صيانة ، فى جوع الجسم صفاء القلب ، وإيقاد القريحة ، وإنفاذ البصيرة ، لأن الشبع يورث البلادة ، ويعمى القلب ... » .

وقال المرحوم الشيخ محمد عبده : إن الصوم يحدث لصاحبه ملكة المراقبة لله تعالى ، والحياء منه ، وفى هذه المراقبة أكبر مهيئ لسعادتها فى الدنيا والآخرة .

انظر ، هل يقدم من صدق مع الله فى صومه ... على غش

الناس وخداعهم ... كلا ، إن صاحب هذه المراقبة لا يسترسل فى المعاصى ، لأنه إذا نسى وألَمَّ بشىء منها ، كان سريع التوبة ، قريب الأوبة ، كما قال - سبحانه - :

﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ، فإذا هم مبصرون ﴾[a] .

(ب) وأن الصوم - كذلك - يربى فى الإنسان قوة الإرادة ، وصدق العزيمة ، والتغلب على تحكم العادات فى نفسه ، وتحمل الآلام والمصاعب بصبر وجلد ...

وهذا التحمل ليس من أجل منفعة زائلة ، أو شهوة عاجلة ، وإنما هو من أجل رضا الخالق - عز وجل - وطاعته ، كما جاء فى الحديث الشريف : « يدع - أى : الصائم - طعامه وشهوته من أجلى » .

ولاشك أن هذه المناقب من شأنها أن تعين الإنسان على أن يعيش حياة طيبة ، حياة قد تسامى فيها على الشهوات والملذات ، وتطلع فيها إلى ما هو أجل وأبقى .

ومن الوصايا الحكيمة التى حكاها القرآن الكريم على لسان لقمان ، قوله لابنه : ﴿ يابنى أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك ، إن

ذلك من عزم الأمور ﴾[1] .

(جـ) إن الصوم - أيضاً - يمثل لوناً عالياً من التأديب للنفس البشرية ، فقد جرت عادة ابن آدم أنه لا يقدر النعمة حق قدرها ، إلا عند فقدانها ، أو الاحتياج إليها ..

فكان الصيام مع ما فيه من جوع ومشقة ، تأديبا عمليًّا للصائمين الموسرين ، حتى يرحموا البائسين والمحتاجين ...

ولقد قيل لسيدنا يوسف - عليه السلام - : لماذا تكثر من الصيام وأنت الأمين على خزائن الأرض ؟ فكان جوابه : أخاف إذا شبعت أن أنسى جوع الجائعين .

ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي ، فقد قال عن الصوم : حرمان مشروع ، وتأديب بالجوع ، وخشوع لله وخضوع .

لكل فريضة حكم ، وهذا الحكم ظاهره العذاب ، وباطنه الرحمة ، يستثير الشفقة ، ويحض على الصدقة ، يكسر الكِبْر ، ويعلِّم الصبر ، ويسن خلال البر ، حتى إذا جاع من ألف الشِّبع ، وحُرِم المترَف أسباب المتع ، عرف الحرمان كيف يقع ، والجوع كيف ألمه إذا وقع »[2] .

---

(١) سورة لقمان . الآية ١٧ .

(٢) من كتاب « أسواق الذهب » ص ٨٤ .

(د) كذلك من الحكم التى من أجلها شرع الله تعالى الصوم : تقوية البدن ، واكتساب الصحة ، والشفاء من الأمراض ، فإن كثيراً مما يصيب الناس من أمراض ، إنما هو ناشئ من بطونهم التى يتخمونها بكل ما تشتهيه ، بدون تفرقة بين ما ينبغى إدخاله فيها ، وما لا ينبغى ...

وفى الحديث الشريف : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرًّا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان ولا محالة : فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنَفَسِه . فالصوم فرصة لاستراحة المعدة ، التى هى متى امتلأت بأكثر مما ينبغى ، كانت بيت الداء ، وكانت الحمية - أى : الاعتدال فى الطعام - رأس الدواء .

يقول الدكتور حامد الغوابى خلال حديثه عن « فوائد الصيام الطبية » ما ملخصه :

« يفيد الصوم اضطرابات المعدة والأمعاء ... عن طريق تمتعها بإجازة سنوية هى صوم شهر رمضان ، كما أن الصوم من فوائده تخفيف وزن الجسم ، وهذا فيه نفع كبير ، إذ الوزن الزائد عن الحد له أضراره ... كما أن الصوم يفيد المرضى بارتفاع ضغط الدم ، وبالبول السكرى ... وبغير ذلك من الأمراض التى ثبت طبيا أن

---

(١) مجلة « لواء الإسلام » السنة السادسة ص ٤١ .

الصوم يساعد على علاجها ... »[1] هذه بعض الحكم التى من أجلها شرع الله تعالى فريضة الصيام ، وهناك حكم أخرى يطول الحديث فى ذكرها ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق .

أركان الصوم :

للصوم ركنان لابد من وجودهما ليكون صحيحاً :

أما الركن الأول : فهو الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر الصادق ، إلى غروب الشمس ، لقوله تعالى : ﴿ **فالآنَ باشِرُوهُنَّ وابتغُوا ما كتبَ الله لكُم ، وكلُوا واشربُوا حتَّى يتبيَّنَ لكُم الخَيطُ الأبيضُ من الخيط الأسودِ من الفجرِ ، ثم أتِمُّوا الصيامَ إلى الليلِ ...** ﴾ .

والمراد بالخيط الأبيض ، والخيط الأسود ؛ بياض النهار وسواد الليل ...

لقول الله تعالى : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ...** ﴾ ولحديث : « إنما الأعمال بالنيات ... »

وأما الركن الثاني : فهو النية ، بمعنى أن ينوى المسلم صيام شهر رمضان . والنية محلها القلب ، ويكفى فيها العزم والقصد وتحديد المراد منها ، والقيام للسحور ، وتحرى وقت الفجر الصادق للإمساك عن الطعام والشراب وسائر المفطرات ، إذ هذه الأفعال

تعتبر دليلا واضحاً على وجود النية للصيام ، إذ هى أثر لها .

وجمهور الفقهاء يرون وجوب تبييت النية للصيام فى كل ليلة من ليالى رمضان قبل الفجر ، لما رواه أحمد وأصحاب السنن عن أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « من لم يُجْمِع الصيام قبل الفجر ، فلا صيام له » . أى : من لم يحكم النية ويعزم على الصيام قبل الفجر فلا صيام له .

ويرى الأحناف : جواز وقوع النية للصوم حتى وقت الضحى .

ويرى المالكية : أن نية واحدة لصيام الشهر كله فى أوله تكفى ، فقد قالوا : « وتكفى النية الواحدة فى كل صوم يجب تتابعه ، كصيام رمضان ، وصيام كفارته ، وكفارة القتل ، أو الظهار ، مادام لم ينقطع تتابعه ... »[1] .

وهذا الوجوب للنية إنما هو بالنسبة للصيام المفروض ، أما صيام التطوع ، فتكفى فيه النية ولو بعد طلوع النهار ، فقد أخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله - ﷺ - دخل عليها ذات يوم فقال : « هل عندكم من شىء ؟ قلنا : لا . قال : فإنى صائم » هذا ، ويندب التلفظ بالنية ، ليدل اللسان على ما فى القلب .

---

(١) الفقه على المذاهب الأربعة ص ٥٠٩ .

على من يجب الصوم ؟

أجمع العلماء على أن صوم رمضان مفروض على كل مسلم بالغ عاقل ، خال من الأعذار التى تبيح له الفطر ، سواء أكان ذكراً أم أنثى .

أما الإسلام ، فلأنه أساس التكليف ، وأما البلوغ فلأنه الوقت الذى يبدأ فيه التكليف ، وهذا لا يمنع من أن يعود الآباء أبناءهم على الصيام قبل سن البلوغ ، حتى يتعودوه .

فقد أخرج الشيخان عن الرُّبيِّع بنت مُعوِّذ قالت : « أرسل رسول الله - ﷺ - غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار : من كان أصبح صائماً فليتم صومه . ومن كان أصبح مفطراً فليصم بقية يومه . فكنا نصومه بعد ذلك ، ونصوِّم صبياننا الصغار منهم ، ونذهب إلى المسجد ، فنجعل لهم اللعبة من العِهْن - أى : من الصوف - ، فإذا بكى أحدهم على الطعام ، أعطيناها إياه .. »

وأما العقل ، فلأن به التمييز والإدراك للأمور ، ومن فقد عقله كان فاقداً للتمييز والإدراك السليم للأمور .

ففى الحديث الشريف الذى أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال : « رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون حتى يفيق . وعن النائم حتى يستيقظ . وعن الصبى حتى يحتلم » .

وأما الخلو من الأعذار ، فلأن من فضل الله تعالى على عباده ، أن رفع الصوم عن أصناف منهم ، تارة على سبيل الوجوب كالحائض والنفساء ... وتارة على سبيل الرخصة كالمريض والمسافر ...

قال تعالى : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ... ﴾ .

الأعذار المبيحة للفطر :

١ - الشريعة الإسلامية أقامها الله تعالى على أصول ثابتة ، وقواعد حكيمة ، منها :

أن هذه الشريعة من أبرز مزاياها وخصائصها : اليسر ، والسماحة ، ورفع الحرج . ومن الآيات التى تؤيد ذلك قوله - سبحانه - : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم ، وليتم نعمته عليكم ، لعلكم تشكرون ﴾[٢]

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .
(٢) سورة المائدة : الآية ٦ .

وقوله - عز وجل - : ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾[1] .

ومن الأحاديث التى وضح الرسول - ﷺ - فيها ، أن هذا الدين مبنى على اليسر لا على العسر : ما أخرجه البخارى - رحمه الله - ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن الدين يسر ، ولن يشاد الدينَ أحدٌ إلا غلبه ، فسددوا ، وقاربوا ، وأبشروا .. » .

٢ - ومن مظاهر اليسر والسماحة فى شريعة الإسلام ، أن الله تعالى فرض صوم شهر رمضان ، على كل مسلم ، بالغ ، عاقل ، صحيح ، مقيم ... إلا أنه - سبحانه - فضلا منه وكرماً ، أباح لبعض عباده - بل وأوجب عليهم - الفطر ، لظروف تضطرهم إلى ذلك ... وأصحاب الأعذار المبيحة للفطر أنواع :

(أ) فمنهم الذين يرخص لهم فى الفطر ، وعليهم القضاء ، وهؤلاء هم المرضى الذين يرجى برؤهم من مرضهم ، وشفاؤهم من عللهم ، إلا أنهم يخافون بسبب صومهم زيادة مرضهم ، أو تأخر شفائهم ، وكان هذا الخوف بسبب غلبة الظن ، أو التجربة ، أو إخبار الطبيب الثقة . قال بعض العلماء : الأعذار التى تبيح للصائم الفطر كثيرة : منها المرض ، فإذا

---

(١) سورة النساء : الآية ٢٨ .

مرض الصائم وخاف بسبب الصوم زيادة المرض ، أو تأخير البرء ، أو حصول مشقة شديدة ، جاز له الفطر - بل قال الحنابلة : يسن الفطر فى هذه الأحوال ويكره الصوم .

أما إذا غلب على ظنه الهلاك بسبب الصوم ، أو الضرر الشديد ، كتعطيل حاسة من حواسه ، وجب عليه الفطر ... »[1] .

قال تعالى : ﴿ **ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ وقال صاحب فقه السنة : والصحيح الذى يخاف المرض بالصيام يفطر مثل المريض ، وكذلك من غلبه الجوع أو العطش فخاف الهلاك ، لزمه الفطر ، وإن كان صحيحاً مقيماً ، وعليه القضاء .

قال تعالى : ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً** ﴾ . وقال سبحانه : ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج ..** ﴾ .

وإذا صام المريض وتحمل المشقة ، صح صومه ، إلا أنه يكره له ذلك لإعراضه عن الرخصة التى يحبها الله تعالى ، وقد يلحقه بذلك ضرر »[2] .

---

(١) الفقه على المذاهب الأربعة ص ٥٣٩ .

(٢) فقه السنة جـ ٣ ص ١٩٥ لفضيلة الشيخ سيد سابق .

(ب) وأيضاً من الذين يرخص لهم الفطر وعليهم القضاء :
المسافرون سفراً يبيح لهم قصر الصلاة ، قال صاحب الفقه على المذاهب الأربعة ما ملخصه . ومن الأعذار المبيحة للفطر السفر ، بشرط أن يكون سفراً يبيح قصر الصلاة - كأن يكون السفر لمسافة تصل إلى حوالى ثمانين كيلو متراً وبشرط أن يشرع المسافر فى هذا السفر قبل طلوع الفجر .

وزاد الشافعية شرطاً ثالثاً لجواز الفطر فى السفر ، وهو ألَّا يكون الشخص مديماً للسفر فإن كان مديماً له حرم الفطر عليه ، الا إذا لحقه بالصوم مشقة ، كالمشقة التى تبيح التيمم فيفطر فإن كان السفر لا يبيح قصر الصلاة ، لم يجز له الفطر ، فإذا شرع فى السفر بعد طلوع الفجر ، حرم عليه الفطر ، فلو أفطر فعليه القضاء ..

ويجوز الفطر للمسافر الذى بيت النية بالصوم ولا إثم عليه ، وعليه القضاء ..

وقال الحنفية : يحرم الفطر على من بيت نية الصوم فى سفره ، وإذا أفطر فعليه القضاء دون الكفارة .

وقال المالكية : عليه القضاء والكفارة .....

وقد وردت أحاديث متعددة ، تدل على أن بعض

الصحابة كان يفطر فى السفر ، وبعضهم كان يصوم ، دون أن يلوم بعضهم بعضا .

ومن هذه الأحاديث ماورواه الإمام مسلم فى صحيحه عن حمزة الأسلمى-رضى الله عنه – أنه قال : يارسول الله ، أجد من نفسى قوة على الصوم فى السفر ، فهل على جناح ؟ فقال : صلى الله عليه وسلم : « هى رخصة من الله تعالى فمن أخذ بها فحسن ، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه »

وروى أبو داود والترمذى عن أنس قال : « سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان ، فلم يعب الصائم على المفطر ، ولا المفطر على الصائم .

وفى رواية : « فكانوا يرون أن من وجد قوة فصام حسن ، ومن وجد ضعفاً فأفطر فحسن . هذا ، وقد اختلف الفقهاء فى أى الأمرين أفضل : فجمهور الفقهاء على أن الصيام أفضل لمن قوى عليه ، والفطر أفضل لمن لايقوى عليه .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : الفطر أفضل ..... »

والذى نراه : أن الله تعالى قد أباح الفطر فى رمضان بسبب المرض أو السفر ، لأن كلا منهما مظنة المشقة والحرج . والحكم الشرعى يوجد حيث توجد مظنته ،

وينتفي حيث تنتفى.وعلى المسلم أن يقدر حال نفسه ، فاذا أيقن أو غلب على ظنه أن مرضه أو سفره ، ليس فى الصوم معه مشقة أو عسر ، صام عملاً بقوله تعالى : ﴿ وأن تصوموا خير لكم ﴾ . وإذا أيقن أو غلب على ظنه أن مرضه أو سفره يجعل الصوم شاقا عليه ، أفطر عملاً بقوله تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ .

فالمسألة ترجع إلى ضمير الفرد ودينه ، واستفتاء قلبه .

٣ - أما النوع الثانى من أصحاب الأعذار المبيحة للفطر ، فهم الأشخاص الذين تقدمت بهم السن ، كالشيخ الكبير ، والمرأة العجوز ، أو الأشخاص الذين أصيبوا بأمراض لايرجى شفاؤهم منها ، وحكم الأطباء الثقات بذلك ..

فهؤلاء يرخص لهم فى الفطر ، وتجب عليهم الفدية .

قال بعض العلماء : ومن الأعذار المبيحة للفطر كبر السن ، فالشيخ الهرم الفانى ، الذى لا يقدر على الصوم فى جميع فصول السنة ، يفطر وعليه عن كل يوم فدية طعام مسكين .. ومثله المريض الذى لا يرجى برؤه ، ولا قضاء عليهما لعدم القدرة على الصيام ... أما الجوع والعطش الشديدان ، اللذان لا يقدر الشخص معهما

على الصوم ، فيجوز لمن حصل له شيء من ذلك الفطر وعليه القضاء .... »[1]

وقال فضيلة الشيخ سيد سابق : يرخص الفطر للشيخ الكبير ، والمرأة العجوز ، والمريض الذى لا يرجى برؤه ، وأصحاب الأعمال الشاقة ، الذين لا يجدون متسعاً من الرزق غير مايزاولونه من أعمال ....

هؤلاء جميعاً يرخص لهم فى الفطر إذا كان الصيام يجهدهم ، ويشق عليهم مشقة شديدة ، فى جميع فصول السنة ، وعليهم أن يطعموا عن كل يوم مسكيناً .

وقدر ذلك بنحو صاع .. أى قدح وثلث - أو نصف صاع ، أو مد ، على خلاف فى ذلك ، ولم يأت من السنة مايدل على التقدير .

قال ابن عباس : رخص للشيخ الكبير أن يفطر ، ويطعم عن كل يوم مسكيناً ولاقضاء عليه »[2]

٤ - والنوع الثالث من أصحاب الأعذار المبيحة للفطر يتمثل فى المرأة الحامل والمرأة المرضع ، فإنهما إذا خافتا الضرر من الصيام على أنفسهما وولدهما معاً ، أو على أنفسهما فقط ، أو على ولدهما

---

(١) الفقه على المذاهب الأربعة ص ٥٤٣ .

(٢) فقه السنة ص ٣ ص ١٩١ .

فقط ، فإنهما فى هذه الأحوال يباح لهما الفطر ، وعليهما الفدية ولا قضاء عليهما ، وهذا رأى ابن عمر وابن عباس – رضى الله عنهما .

ويرى الأئمة الأربعة أنه يجوز لهما الفطر ويجب عليهما القضاء عند القدرة على ذلك ، ولا فدية عليهما إلا أن المالكية قالوا : لافدية على الحامل بخلاف المرضع فعليها الفدية وقال الشافعية والحنابلة عليهما الفدية والقضاء معاً ، فى حالة ما إذا كان الخوف على ولدهما فقط ، أما إذا كان الخوف على أنفسهما وولدهما ، أو على أنفسهما فقط ، فلهما أن يفطرا وعليهما القضاء فحسب .

٥ – أما النوع الرابع من أصحاب الأعذار فيتمثل فى النساء الحيض والنفساء ، وهؤلاء يجب عليهن الفطر ، ويحرم عليهن الصيام ، ولو صمن فصومهن باطل ، وعليهن القضاء للأيام التى أفطرنها .

أخرج الشيخان عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كنا نحيض على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فنؤمر بقضاء الصوم ، ولا بقضاء الصلاة » .

وإذا طهرت المرأة الحائض أو النفساء خلال النهار ، فعليها أن تمسك عما يفطر إلى غروب الشمس ، احتراماً لشهر رمضان ... ومثلها كل من زال عذره فى أثناء النهار ، كالمسافر إذا وصل إلى

بلده ، وكالمريض إذا شفى من مرضه ، وكالمجنون إذا زال مابه من جنون ....

أنواع الصيام :

١ - الصيام بنية التقرب إلى الله تعالى من أفضل الطاعات ، وهو أقسام :

فهناك صيام فرضه الله - سبحانه - علينا ، ألا وهو صيام شهر رمضان ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام - أى : فرض عليكم - كما كتب على الذين من قبلكم .... ﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ... ﴾

وبدليل الحديث الصحيح الذى رواه الإمام البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما - أن رسول - الله صلى الله عليه وسلم قال : « بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وحج البيت » .

وعن طلحة بن عبيد الله - رضى الله عنه - أن رجلاً سأل النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : يارسول الله ، أخبرنى عما فرض الله على من الصيام ؟ قال : شهر رمضان . قال : هل على

غيره . قال : لا إلا أن تطوع ويدخل فى الصوم الواجب على المسلم : صوم الكفارات ، جمع كفارة ، وهى مايقدمة الإنسان من قربات معينة ، لتكفير ما ارتكبه من أخطاء والمراد بها هنا : الكفارات التي تتعلق بالصوم ، وهى التى تجب على من أفطر فى رمضان عامداً متعمداً - كأن يأكل أو يشرب أو يجامع - بدون إكراه ، أو بدون عذر يبيح الفطر ... قال بعض العلماء ماملخصه : « فكفارة الصيام التى تجب على من أفطر فى رمضان .... إعتاق رقبة مؤمنة ... فإن لم يجدها : فصيام شهرين متتابعين .... فإن لم يستطع الصوم لمشقة شديدة ونحوها ، فإطعام ستين مسكيناً ، فهى واجبة على الترتيب المذكور ، ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه - قال : « جاء رجل إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : هلكت . قال : وما أهلكك ؟ قال : واقعت امرأتى فى رمضان . قال : هل تجد ماتعتق رقبة ؟ قال : لا . قال : فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ قال : لا . قال : فهل تجد ماتطعم ستين مسكيناً ؟ قال : لا ثم جلس السائل ، فأتى النبى - صلى الله عليه وسلم - بعرق - أى : بإناء - فيه تمر ، فقال له - صلى الله عليه وسلم - تصدق بهذا . فقال الرجل : على أفقر منا يارسول الله ، فو الله مابين لابتيها أهل بيت أحوج إليه منا - أى : ليس بين سكان المدينة من هو أفقر منا - فضحك - صلى الله عليه وسلم - ثم قال : اذهب فأطعمه أهلك .

هذا ، وماجاء فى هذا الحديث من إجزاء صرف الكفارة لأهل المكفر ، وفيهم من تجب عليه نفقته ، فهو خصوصية لذلك الرجل ، لأن المفروض فى الكفارة ، إنما هو إطعام ستين مسكيناً لغير أهله ..[1]

ويدخل فى الصوم الواجب على المسلم أيضاً : صوم النذر ، وهو التزام قربة غير لازمة فى أصل الشرع بلفظ يشعر بذلك ، كأن يقول المسلم - مثلاً -: لله على نذر ، إن شفيت من مرضى هذا لأصومن ثلاثة أيام ..

فيجب عليه فى هذه الحالة أن يصوم هذه الأيام ، لقوله تعالى : ﴿ ثم ليقضوا تفثهم ، وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق .. ﴾[2]

وفى الحديث الصحيح عن عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصِيهَ فلا يَعصِهِ » .

والخلاصة إن الصيام المفروض ، ينقسم إلى ثلاثة أقسام : صوم رمضان ، وصوم الكفارات ، وصوم النذور .

* * *

٢ - وهناك صيام منهى عنه ، وله صور متعددة ، منها .

---

(١) الفقه على المذاهب الأربعة ص ٥٣٦ .

(٢) سورة الحج الآية ٢٩ .

(أ) صيام يومى العيدين – عيد الفطر وعيد الأضحى – سواء أكان الصوم فرضاً أم تطوعاً . فقد أخرج أبو داود والترمذى .. عن أبى هريرة « أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نهى عن صيام يومين : يوم الأضحى ويوم الفطر » .

والمنهى هنا إنما هو نهى تحريم ، فصوم هذين اليومين يعتبر من الصيام المحرم ، ولا ينعقد ، وعليه جمهور الفقهاء سلفاً وخلفاً ... لأنهما أيام أكل وشرب وفرح وسرور ، بتمام صوم رمضان ، وفريضة الحج الأكبر ، ففى صومهما إعراض عن ضيافة الله تعالى .

(ب) كذلك نهى النبى – صلى الله عليه وسلم – عن صيام أيام التشريق ، وهى ثلاثة أيام عقب يوم عيد الأضحى ، فقد روى الإمام أحمد والإمام مسلم ، عن نُبَيْشَةَ الهُذَلى ، عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله تعالى » .

وسميت هذه الأيام بذلك ، لأنها تشرق فيها لحوم الضحايا ، أى تنشر فى الشمس لتقدد .

ويرى بعض الفقهاء أنه يحرم صوم هذه الأيام إلا فى الحج للمتمتع والقارن ، إذا لم يجدا هدياً ، فقد ثبت فى

صحيح البخارى ، أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يرخص فى صوم أيام التشريق ، إلا لمن لم يجد الهدى ..

(جـ) أيضاً يكره صيام يوم الشك وهو يوم الثلاثين من شعبان ، ولم يكن الهلال قد شوهد فى اليوم التاسع والعشرين منه .

فقد روى أصحاب السنن عن عمار بن ياسر أنه قال : « من صام اليوم الذى يَشُكُّ فيه الناسُ فقد عصى أبا القاسم » .

قال بعض العلماء : والعصيان لايكون إلا بفعل حرام ، وقول الصحابى فى ذلك يأخذ حكم الحديث المرفوع الى النبى - صلى الله عليه وسلم - فيكون صوم يوم الشك حراماً . وعليه الجمهور ومالك والشافعى إلا أن يوافق عادة له . وقيل النهى عنه ، وإذا نواه من رمضان ...... [1]

(د) ومن الصيام المكروه أيضاً : إفراد يوم الجمعة أو يوم السبت بالصيام .

أما يوم الجمعة فلأنه يوم عيد أسبوعى للمسلمين ، ولأن صيامه فيه تشبه باليهود فى إفرادهم السبت بالصيام ، فقد أخرج أصحاب السنن وأحمد عن أبى هريرة ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا يصم أحدكم يوم

(١) راجع التاج الجامع للأصول جـ ٢ ص ٨٦ للشيخ منصور على ناصف . والفقه على المذاهب الأربعة ص ٥١٩ .

الجمعة ، إلا أن يصوم قبله ، أو يصوم بعده » .

وفى رواية لمسلم أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام ، إلا أن يكون فى صوم يصومه أحدكم » .

وأما إفراد يوم السبت بالصيام فقد ورد النهى عنه فى أحاديث منها ، ماأخرجه أصحاب السنن والحاكم عن عبد الله بن بسر ، عن أخته بَهية – ولقبها الصماء ، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « لا تصوموا يوم السبت إلا فيما افترض عليكم ... »

وكراهة افراد هذين اليومين بالصوم تنصب على من كان متطوعاً ، أما صيامهما قضاء ، أو نذراً ، أو لموافقة عادة ، أو كان أحدهما يوم عرفة ، أو يوم عاشوراء ... فلا كراهة فى افراد صيام أحدهما .

(هـ) كذلك نهى النبى – صلى الله عليه وسلم – عن صيام الدهر – أى : السنة كلها – بما فيها أيام العيد والتشريق ففى الحديث الصحيح الذى أخرجه الشيخان ، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « لاصام من صام الأبد » فإن أفطر فى يومى العيد ، وفى أيام التشريق ، وصام بقية أيام السنة ، انتفت الكراهة ، إذا كان عنده القدرة على ذلك ...

ويرى بعض العلماء أنه يكره له ذلك ، لأنه قد يؤدى إلى الضعف ، وإلى عدم القدرة على أداء الواجب نحو نفسه وغيره ...

وفى الحديث الشريف أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال لعبد الله بن عمرو : « صم يوماً وأفطر يوماً .. فقال عبد الله : فإنى أطيق أفضل من ذلك . فقال - صلى الله عليه وسلم - : « لا أفضل من ذلك » .

(و) كذلك نهى النبى - صلى الله عليه وسلم - المرأة عن أن تصوم تطوعاً وزوجها حاضر إلا بإذنه فقد أخرج الشيخان - البخارى ومسلم - عن أبى هريرة ، أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا تصم المرأة يوماً واحداً وزوجها شاهد إلا بإذنه ، إلا رمضان » .

قال بعض العلماء : ومن الصوم المحرم : صيام المرأة نفلاً بغير إذن زوجها ، أو بغير علمها برضاه ، إلا إذا لم يكن محتاجاً لها ، كأن كان غائباً ، أو محرماً ، أو معتكفاً ... »[1]

هذه أهم الأوقات والأحوال التى نهى النبى - صلى الله عليه وسلم - عن الصيام فيها .

---

(١) الفقه على المذاهب الأربعة ص ٥٢٢ .

٣ - وأما النوع الثالث من أنواع الصيام ، فهو الصيام المستحب ، أو المندوب ، ومنه :

(أ) صيام شهر المحرم ، وأفضله صيام يوم عاشوراء ، مع صيام يوم قبله ويوم بعده .. فقد روى أصحاب السنن عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « أفضل الصيام بعد رمضان ، صيام شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد المكتوبة ، صلاة الليل » .

ومن الأحاديث التي وردت فى صيام يوم عاشوراء ، ماأخرجه مسلم فى صحيحه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : « صام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم عاشوراء ، وأمر بصيامه ، قالوا يارسول الله ، إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى . ؛ ال فإذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع ، ى : مع العاشر ، فلم يأت العام المقبل ، حتى توفى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

قال بعض العلماء : والمشهور أن اليوم المندوب صيامه ، هو يوم عاشوراء ، وقال الشافعى وأحمد وغيرهما : يندب صوم التاسع والعاشر ، لأن النبى - صلى الله عليه وسلم - وإن صامها منفردين ، لكنه نوى صومهما معاً إن طالت

حياته ، ولقول ابن عباس : صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود . وكان بعضهم يصوم التاسع والعاشر والحادى عشر ، وهذا أحوط »[1] ويرى الأحناف : أن صوم يوم تاسوعاء وعاشوراء مسنون لامندوب .

(ب) صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وأفضلها الأيام البيض ، أى : اليوم الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر من الشهر العربى ، وسميت بذلك ، لأن القمر يكون فيها أكثر ضياء .... ومن الأحاديث التى وردت فى ذلك ، ماأخرجه الترمذى عن أبى ذر - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « من صام من كل شهر ثلاثة أيام ، فذلك صيام الدهر » ، فأنزل الله - عز وجل - تصديق ذلك فى كتابه فى قوله ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ اليوم بعشرة أيام . وروى أصحاب السنن عن مِلْحانَ القيسى قال : « كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يأمرنا أن نصوم البيض : ثلاث عشرة ، وأربع عشرة ، وخمس عشرةَ . وقال : هن كهيئة الدهر » .

(جـ) صيام الثلث الأول من شهر ذى الحجة ، وخصوصاً يوم

---

(١) التاج الجامع للأصول ص ٨٩ جـ ٢ .

عرفة – لغير الحاج ومن الأحاديث التي وردت في ذلك ماأخرجه أبو داود والنسائي وأحمد ، عن أم سلمة – رضى الله عنها – قالت : « كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يصوم تسع ذى الحجة – أى : يوم عرفة – ويوم عاشوراء » وروى الترمذى عن أبي هريرة ، عن النبي صلى – الله عليه وسلم – قال : « مامن أيام أحبَّ إلى الله أن يتعبد له فيها ، من عشر ذى الحجة ، يعدل – أى : يساوى – صيام كل يوم فيها بصيام سنة ، وقيام كل ليلة منها بقيام ليلة القدر » .

(د) صيام يوم الاثنين والخميس من كل أسبوع ، ومن الأحاديث التي حببت في ذلك ، ماأخرجه أصحاب السنن عن أسامة ابن زيد أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان أكثر مايصوم الاثنين والخميس . فقيل له في ذلك ، فقال : « إن أعمال العباد تعرض يوم الاثنين والخميس ، فأحب أن يعرض عملى وأنا صائم » .

وروى أبو داود والنسائي عن أم سلمة – رضى الله عنها – أنها قالت : « كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يأمرنى أن أصوم ثلاثة أيام من كل شهر ، أولها الاثنين والخميس » .

(هـ) صيام ستة أيام من شوال ، والأفضل أن تكون متتابعة ،

وأن تكون متصلة بيوم الفطر . وقال الأحناف : يستحب أن تكون متفرقة فى كل أسبوع يومان .

ففى صحيح مسلم عن أبي أيوب الأنصارى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « من صام رمضان ، ثم أتبعه بست من شوال ، فكأنما صام الدهر » .

قالوا : والحكمة من صوم هذه الأيام ، أن النفوس عقب رمضان تكون أرغب فى الطعام ، فإذا عادت للصيام كان شاقا عليها والثواب على قدر المشقة والطاعة لله رب العالمين .

(و) صيام يوم وإفطار يوم . ومن الأحاديث التى وردت فى فضل ذلك ، ماأخرجه الإمام مسلم فى صحيحه ، عن عبد الله ابن عمرو - رضى الله عنهما - قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحب الصيام إلى الله تعالى : صيام داود - عليه السلام - كان يصوم يوماً ويفطر يوماً . وأحب الصلاة إلى الله ، صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه .

(ز) صيام أكثر شهر شعبان ، ومن الأحاديث التى وردت فى ذلك ، ماأخرجه الشيخان عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : « مارأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - استكمل شهراً وهو صائم إلا فى رمضان ، ومارأيته أكثر

صياماً منه فى شعبان ، كان يصومه إلا قليلًا ...» وروى أبو داود والنسائى عن أسامة بن زيد قال : « قلت يارسول الله ، لم أرك تصوم من شهر من الشهور ماتصوم فى شعبان . قال : ذاك شهر يغفل الناس فيه بين رجب ورمضان ، وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين ، فأحب أن يرفع عملى وأنا صائم ... »

(ح) صوم أكثر الأشهر الحرم ، وهى ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب ، إذ يستحب الإكثار من الصيام فى تلك الأشهر المباركة .

ومن الأحاديث التى وردت فى ذلك ماأخرجه أبو داود وأحمد والنسائى ، عن مجيبة الباهلية ، عن أبيها أو عمها ، أنه أتى النبى - صلى الله عليه وسلم - ، ثم أتاه بعد سنة وقد تغيرت حاله فقال : يارسول الله أما تعرفنى ؟ قال : ومن أنت ؟ قال أنا الباهلى الذى جئتك عام الأول . قال فما غيرك وقد كنت حسن الهيئة ؟ قال : ماأكلت طعاماً منذ فارقتك إلا بليل .

فقال - صلى الله عليه وسلم - لماذا عذبت نفسك ؟ صم شهر الصبر - أى : شهر رمضان - ويوماً من كل شهر فقال زدنى فإن بى قوة . قال : صم يومين . قال : زدنى . قال صم ثلاثة أيام قال : زدنى قال صم من الحُرُم

واترك . صم من الحرم واترك . صم من الحرم واترك قالها ثلاث مرات » ...

والخلاصة ، أنه يندب الصوم تطوعاً فى جميع أيام السنة ، ماعدا الأيام التى ورد النهى عن صيامها ...

فقد روى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبى صلى - الله عليه وسلم - أنه قال : من صام يوماً فى سبيل الله ، - أى : طلباً لمرضاة الله - باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً » .

هذا ، والصائم المتطوع أمير نفسه ، بمعنى أنه يجوز له أن يفطر إذا كان هناك مايقتضى ذلك ، فقد أخرج الإمام أحمد ، عن أم هانئ - رضى الله عنها - قالت : لما كان يوم فتح مكة ، جاءت فاطمة فجلست عن يسار النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وأم هانئ عن يمينه ، فجاءت الوليدة - أى : الأمة بإناء فيه شراب ،فناولته فشرب منه ، ثم ناوله أم هانئ فشربت منه وقالت : يارسول الله لقد أفطرت وكنت صائمة . فقال لها : أكنت تقضين شيئاً ؟ قالت : لا . قال : فلا يضرك إن كان تطوعاً .

وفى رواية أنه قال : « المتطوع أمين أو أمير نفسه ، إن شاء صام ، وإن شاء أفطر . وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى جواز الفطر لمن صام تطوعاً ، ولاشيء عليه إلا القضاء

ندباً . وذهب بعضهم إلى أن من تلبس بنفل حرم عليه إفساده ، ووجب قضاؤه لتعينه بالشروع فيه ، ولقوله - تعالى - : ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ .

وأجاب الجمهور عن ذلك ، بأن المعنى : ولا تبطلوا أعمالكم بسبب الرياء وارتكاب الكبائر .

من آداب الصيام وسننه ...

١ - من شأن العاقل أنه يسعى دائماً نحو الكمال فى عباداته وفى أقواله وفى سائر أحواله والصوم من العبادات ذات المنزلة السامية ، والدرجات الرفيعة عند الله تعالى . ويجب على المسلم أن يؤدى هذه العبادة ، أداء تتوفر معه كل معانى التقوى ، والخشوع ، وحسن الصلة بالله رب العالمين .

٢ - وقد ذكر العلماء آداباً وسنناً للصوم ، ينبغى للصائم أن يحافظ عليها ، ومن أهمها :

(أ) تعجيل الفطر بعد تحقق الغروب ، فقد أخرج الشيخان عن سهل بن سعد - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لايزال الناس بخير ماعجلوا الفطر » .

وفى رواية لأبى داود : « لا يزال الدين ظاهرًا ما عجّل الناس الفطر .... » .

وفى رواية للترمذى وأحمد : « قال الله - عز وجل - أحب عبادى إلى أعجلهم فطراً » . وكان - صلى الله عليه وسلم - كثيراً مايفطر على تمرات ، أو شربة ماء إن لم يجد تمراً ، فقد روى أصحاب السنن عن سلمان بن عامر - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر فإنه بركة ، فمن لم يجد فليفطر على ماء فإنه طهور » .

وروى أبو داود والترمذى عن أنس - رضى الله عنه - قال : « كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يفطر على رطبات قبل أن يصلى ، فإن لم تكن رطبات فعلى تمرات ، فإن لم تكن حسَا حسواتٍ من ماء ».. ومن الأفضل للصائم تأسياً برسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يفطر على تمرات أو على قليل من الماء ، أو على غيرهما مما بشبههما ، قبل صلاة المغرب ، ثم بعد ذلك يصلى المغرب ، ثم يتناول فطوره كاملاً ...

هذا إذا لم يكن الطعام حاضراً وقت الإفطار ، فإن كان حاضراً فلا بأس من البدء به قبل الصلاة ، فقد أخرج البخارى ومسلم عن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال : « إذا قدم العشاء فابدأوا به قبل صلاة المغرب ، ولاتعجلوا عن عشائكم » .

(ب) كذلك ينبغى على الصائم أن يدعو الله تعالى بمافيه خير ، عند فطره وخلال صيامه ، فقد وردت أحاديث تحبب فى ذلك منها :

ماروا أبو داود والنسائى عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : « كان النبى - صلى الله عليه وسلم - اذا أفطر قال : ذهب الظمأ ، وابتلت العروق ، وثبت الأجر - إن شاء الله » .

وفى رواية أنه كان يقول : « اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت »

وروى ابن ماجه عن عبد الله بن الزبير « رضى الله عنهما قال : أفطر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند سعد بن معاذ فقال : أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار ، وصلت عليكم الملائكة » .. وقد أخبرنا النبى - صلى الله عليه وسلم - أن دعوة الصائم لاترد ، فقد روى ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو ، أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن للصائم عند فطره دعوة لا ترد » .

وروى الترمذى أنه - صلى الله عليه وسلم - قال : « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم » .

(جـ) كذلك ينبغى للصائم أن يتناول طعام السحور ، فقد أجمعت الأمة على استحبابه ومن الأحاديث التى وردت فى ذلك ماأخرجه الشيخان عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تسحروا فإن السحور بركة » .

أي : حافظوا على الأكل فى السحر بنية الصوم ، فإن فيه قوة على الصوم وأجراً عظيماً ، لأنه أكل بنية العبادة والطاعة لله رب العالمين .

وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « السحور بركة ، فلا تتركوه ولو أن يجرع أحدكم جرعة ماء ، فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين » ..

ويستحب تأخير السحور ، بحيث ينتهى منه قبيل الفجر ، فقد أخرج الشيخان عن زيد بن ثابت قال « تسحرنا مع النبى - صلى الله عليه وسلم - ثم قام إلى الصلاة - أى صلاة الفجر - قلت : كم كان بين الأذان والسحور ؟ قال : قدر خمسين آية » .

أى : كان الزمن بين نهاية السحور ، وبين بدء الأذان ، قدر قراءة خمسين آية بطريقة وسطى ..

وقد أخذ العلماء من هذا الحديث أن ينتهى الصائم من سحوره قبيل الفجر بوقت مناسب . قال بعض العلماء :

ويدخل وقت السحور بنصف الليل ، وكلما تأخر كان أفضل ، بحيث لايقع فى شك فى الفجر ، لقوله – صلى الله عليه وسلم – « دع مايريبك إلى مالا يريبك »[1]

(د) كذلك من الآداب التى يجب أن يتحلى بها الصائم : كف اللسان عن فضول الكلام ولغوه ، وأما كفه عن الحرام ، كالغيبة ، والنميمة ، فواجب فى كل وقت ويتأكد فى رمضان . وذلك لأن الصيام عبادة روحية سامية ، الحكمة منها امتلاء النفس بتقوى الله ، فيجب على الصائم أن يحمى هذه العبادة من كل مايتنافى مع جلالها ، ومن كل مايتعارض مع الحق والخير والبر ...

وروى البخارى وغيره عن أبى هريرة ، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

وقول الزور : يتمثل فى الشهادة به ، وفى الكذب ، والغيبة ، والنميمة ، ومايشبه ذلك .

وعمل الزور : يشمل كل فعل يغضب الله تعالى ، وتأباه شريعته الغراء .

وأخرج الشيخان عن أبى هريرة – أيضاً – عن

---

(١) الفقه على المذاهب الأربعة ص ٥٤٨ .

النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : اذا أصبح أحدكم يوماً صائماً فلا يرفث ، أى : فلا ينطق بالسوء ، ولا يجهل – أى : ولا يفعل فعل الجهال – فإن امرؤ شاتمه أو قاتله فليقل : إنى صائم ، إنى صائم » .

وروى ابن ماجه وأحمد عن أبى هريرة – أيضاً – عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر » .

فهذه الأحاديث تحذر الصائم ، من أن يقول قولاً ، أو يفعل فعلاً ، يتنافى مع فريضة الصيام ومع جلالها ، لأن ارتكاب ذلك قد يذهب بأجرها الجزيل الذى وعد – سبحانه – به الصائمين .

(هـ) كذلك من الأخلاق الفاضلة التى يجب أن يتحلى بها المسلم – ولاسيما وهو صائم-: السخاء والإكثار من تلاوة القرآن ، ومن تجديد التوبة ، ومن المداومة على الاستغفار ، ومن الاجتهاد فى العبادة ، وخصوصاً فى العشر الأواخر من رمضان ، ومن الاشتغال بالعلم النافع ... روى البخارى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : كان النبى – صلى الله عليه وسلم – أجود الناس بالخير ، أى بفعل الخير ، وكان أجود مايكون فى رمضان ، حين يلقاه جبريل ، وكان

جبريل يلقاه كل ليلة فى رمضان ، حتى ينسلخ - أى : ينتهى ، يعرض عليه النبى - صلى الله عليه وسلم - القرآن وفى رواية : فيدارسه القرآن - أى : يقرأ جبريل أولا والرسول يسمع ، ثم يسكت جبريل والرسول يقرأ ثانياً ، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة » .

وروى الترمذى وأحمد ، عن زيد بن خالد الجهنى ، عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « من فطَّر صائماً كان له مثل أجره ، غير أنه لاينقص من أجر الصائم شيئاً » .

وأخرج الشيخان عن عائشة ، أن النبى - صلى الله عليه وسلم - « كان إذا دخل العشر الأواخر من رمضان ، أحيا الليل ، وأيقظ أهله ، وشد المئزر » .

وفى رواية لمسلم : « كان - صلى الله عليه وسلم - يجتهد فى العشر الأواخر ، مالا يجتهد فى غيره »

والخلاصة ، أن شهر رمضان ، هو شهر الخير والصبر والبركة .... فيجب أن يغتنمه المسلم فى تهذيب روحه ، وتطهير قلبه ، وتأديب نفسه ، وكف جوارحه عن كل سوء ، والإقبال - بجد ونشاط - نحو كل طاعة وعبادة .

ولقد قسم الإمام الغزالى الصائمين إلى مراتب ، فقال : الصوم ثلاث درجات : صوم العموم ، وصوم الخصوص ،

وصوم خصوص الخصوص ... أما صوم العموم : فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة .

وأما صوم الخصوص : فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل ... وسائر الجوارح عن الآثام ، وهو صوم الصالحين .

وأما صوم خصوص الخصوص : فهو صوم القلب عن الهمم الدنية ، وعن كل ماسوى الله تعالى بالكلية ... »[1]

مايبطل الصوم ومالا يبطله :

١ - الصوم عبادة لله تعالى ، وركن من أركان الإسلام ، ومن الواجب على كل صائم سواء أكان ذكراً أم أنثى - أن يحافظ على ماتستلزمه هذه العبادة من آداب وسنن وأحكام ... والأمور التى تفسد الصوم تنقسم إلى قسمين :

أمور تفسده وتوجب القضاء والكفارة ، وأمور تفسده وتوجب القضاء فحسب .

٢ - أما مايبطل الصوم ، ويوجب القضاء والكفارة العظمى ، فهو الجماع فى نهار رمضان عامداً متعمداً ، عالماً بالتحريم ، مختاراً لفعله غير مكره ...

والدليل على ذلك ماجاء فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة -

(١) راجع كتاب : « إحياء علوم الدين » جـ ١ ص ٢٣٤ للغزالى .

رضى الله عنه - أنه قال : « جاء رجل إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : هلكتُ يارسول الله ، قال : وقعت على امرأتى فى رمضان - أى : جامعتها - فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - : هل تجد ماتعتق رقبة ؟ قال : لا . قال : فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ قال لا . قال : فهل تجد ماتطعم ستين مسكيناً ؟ قال : لا ...

ثم جلس فأتى النبى - صلى الله عليه وسلم - بِعَرق فيه تمر - أى : بإناء يشبه القفة أو الزنبيل فيه تمر يسع مايطعم ستين مسكيناً - فأعطاه له وقال : تصدق بهذا .... »

ومذهب جمهور العلماء ، أن الكفارة هنا تكون على الرجل والمرأة ، ماداما قد تعمدا الجماع فى نهار رمضان طائعين مختارين ....

ومذهب الشافعية أنه لاكفارة على المرأة ، لافى حالة إكراهها على الجماع ، ولافى حالة اختيارها وإنما يلزمها القضاء فحسب .

ولو تعدد الجماع فى يوم واحد ، فعليه كفارة واحدة ، بخلاف مالو تعدد فى أيام من رمضان ، فعليه كفارات بعدد الأيام ، وعلى ذلك سار جمهور الفقهاء .

٣ - ويدخل فيما يوجب القضاء والكفارة - أيضاً - الأكل والشرب عامداً متعمداً فى نهار رمضان ، ولو لم يكن معهما جماع ، وهذا عند الأحناف والمالكية .

قال بعض العلماء ماملخصه : وأما مايوجب القضاء والكفارة

عند الأحناف – فهو أمران :

الأول : أن يتناول غذاء أو مافى معناه بدون عذر شرعى ، كالأكل والشرب ونحوهما ...

الثانى : أن يقضى شهوة الفرج كاملة .....

وذلك بشروط منها : أن يكون الصائم المكلف مبيتاً للنية فى أداء رمضان .. وألا يطرأ عليه مايبيح الفطر كالسفر .. وأن يكون طائعاً مختاراً لامكرهاً ... وأن يكون متعمداً لاناسياً ....

وشبيه بما ذهب إليه الأحناف ، ماذهب إليه المالكية فيما يتعلق بالقضاء والكفارة .. وأما الشافعية والحنابلة ، فيرون أن القضاء والكفارة ، انما يكونان على المجامع فى نهار رمضان عامداً متعمداً ، طائعاً مختاراً ، عالماً بالحكم ، ناوياً للصوم ......

أما المتعمد للفطر بغير الجماع ، فيجب عليه القضاء فقط .....[1]

٤ – وأما مايفسد الصوم ، ويوجب القضاء فحسب ، فأمور متعددة ، منها :

(أ) الأكل والشرب عمداً – عند الشافعية والحنابلة كما سبق أن أشرنا – وهذا لا يمنع من تعرض هذا المفطر ، للوعيد الشديد من الله تعالى .....

روى الترمذى وابن ماجه وأبو داود عن أبى هريرة ، أن

---

(١) راجع الفقه على المذاهب الأربعة ص ٥٢١ .

النبى – صلى الله عليه وسلم – . قال : « من أفطر يوماً فى رمضان من غير رخصة رخصها الله له ، لم يقض عنه صيام الدهر ، وإن صامه » .

فإن أكل الصائم أوشرب ناسياً أو مخطئاً ، فلا قضاء عليه ، وعليه أن يستمر على صومه .

ففى الحديث الصحيح عن أبى هريرة ، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « من نسى وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه ، فإنما أطعمه الله وسقاه » .

وفى رواية للترمذى : من أكل أو شرب ناسياً فلا يفطر ، فإنما هو رزق رزقه الله » .

وفى رواية للدار قطنى : « من أفطر فى رمضان ناسياً ، فلا قضاء عليه ولاكفارة » . وروى ابن ماجه والطبرانى والحاكم عن ابن عباس ، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان ، ومااستكرهوا عليه » .

ويؤخذ من هذه الأحاديث أن من أكل أو شرب ناسياً ، فإنه لايفطر ، بل يواصل صومه فإنه باق ، ولاقضاء عليه ولاكفارة ، وعلى ذلك سار جمهور الفقهاء .

ويرى المالكية : أن من أفطر ناسياً فسد صومه ، ولزمه القضاء .

(ب) وأيضاً يجب القضاء على من أكل أو شرب أو جامع ، ظانا أن الشمس قد غربت ، أو أن الفجر قد طلع ، ثم تبين له أن الأمر على خلاف ماظن ...

فقد أخرج البخارى وأبو داود عن أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنها - قالت : « أفطرنا على عهد النبى - صلى الله عليه وسلم - فى يوم غيم ، ثم طلعت الشمس . قيل لهشام : فأمروا بالقضاء ؟ قال : لابد من قضاء »

قال بعض العلماء معلقاً على هذا الحديث : فأسماء تقول : كان غيم فى يوم من رمضان ، فظننا غروب الشمس فأفطرنا ، وبعده طلعت الشمس ، فقال قائل لهشام ابن عروة الراوى عن زوجته ، وهى عن أسماء : هل أمرهم الشارع بالقضاء ؟ فقال : القضاء لابد منه .

فمن ظن الغروب فأفطر فظهر خلافه ، فإنه يجب عليه الإمساك بقية اليوم لحرمة الوقت ويجب عليه القضاء لفساد صومه ، ولاكفارة عليه . ومثله من أكل وهو يظن بقاء الليل فبان له أن أكله كان نهاراً ، يجب عليه الإمساك بقية اليوم والقضاء ، لفساد صومه بالأكل وهذا رأى جمهور العلماء ، ومنهم الأئمة الأربعة .

وروى عن مجاهد وعطاء وعروة ... عدم القضاء - فان

الصوم صحيح لأنهم أخطأوا كالناسى ، وقد رفع القلم عنهم »[1]

(جـ) وكذلك يجب القضاء على من تقايأ عمداً ، أما من غلبه القيء فلا قضاء عليه ولاكفارة فقد روى الامام أحمد وأبو داود والترمذى عن أبي هريرة ، عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « من ذرعه القيء – أى غلبه خروج الطعام من معدته – وهو صائم ، فليس عليه قضاء ، ومن استقاء عمداً – أى : تعمداً استخراج القئ – فليقض » .

فيؤخذ من هذا الحديث أن من غلبه القيء فصومه صحيح ، وأما من استقاء عمداً فإن صومه يبطل ويجب عليه القضاء .

وعلى هذا سار جمهور الفقهاء ، إلا أن الحنفية اشترطوا فى الافطار بالقيء عمداً أن يكون ملء الفم .

(د) الاستمناء – أى : إخراج المنى – سواء أكان سببه تقبيل الزوجة .. أو كان باليد ، فإنه يفسد الصوم ، وعلى من يفعل ذلك القضاء .

أما اذا كان خروج المنى لغير ذلك ، كالاحتلام نهاراً ، فإنه لايفسد الصوم ، ولايجب فيه شيء وماسوى المنى – كالمذى

(١) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول جـ ٢ ص ٦٩ .

وهو ماء يخرج عقب البول لا يؤثر فى الصوم سواء أكان قليلاً أم كثيراً .

(هـ) وكذلك يفسد الصوم ويجب القضاء ، على كل صائم أدخل باختياره إلى جوفه مما ينفذ إلى معدته ، كل مطعوم ، أو مشروب ، أو دواء ، أو مايشبه ذلك ...

واعتبروا من المنافذ الطبيعية : الفم ، والأنف ، والأذن والدبر .. أما العين فهى منفذ عند الجمهور . فإذا أقطر الصائم فيها شيئاً ، ووجد طعمه فى حلقه وابتلعه ، فسد صومه ..

هذه أهم الأمور التى تفسد الصوم وتوجب القضاء دون الكفارة ....

٥ - وكيفية القضاء أن يصوم المسلم بدل الأيام التى أفطرها فى زمن يباح فيه الصوم تطوعاً ، فلا يصح أن يصوم فى أيام العيد ....

ويجوز له أن يصوم أيام القضاء متتابعة أو متفرقة ، فقد روى مسلم وأحمد عن عائشة - رضى الله عنها - أنها كانت تقضى ماعليها من رمضان فى شعبان ، ولم تكن تقضيه فوراً عند قدرتها على القضاء .

وروى الدارقطنى عن ابن عمر ، أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال فى قضاء رمضان : « إن شاء فرق وإن شاء تابع » وينبغى لمن عليه قضاء ، أن يبادر بصوم الأيام التى أفطرها ، فإن

الآجال بيد الله تعالى ، وتجب المبادرة إذا بقى على رمضان التالى بقدر مايكفى القضاء ، فإذا أخر ماعليه من قضاء عن شهر رمضان الحاضر ، وجب عليه مع القضاء الفدية عن كل يوم أخره وهى اطعام مسكين عن كل يوم ، وذلك إذا كان التأخير بغير عذر ، فإن كان بعذر فلا فدية عليه مع القضاء ، وهذا رأى جمهور الفقهاء .

ويرى الأحناف أنه لا فدية عليه بسبب التأخير ، سواء أكان بعذر أم بغير عذر .

٦ - ومن مات وعليه صيام ، صام عنه وليه ، سواء أكان عصبة أو وارثا أو غيرهما ، فقد أخرج الشيخان وأحمد عن عائشة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - انه قال : « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » .

وعن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال يا رسول الله : إن أمى ماتت وعليها صوم شهر ، أفأقضيه عنها ؟ فقال : لو كان على أمك دَيْنٌ أكنت قاضِيه عنها ؟ قال : نعم . قال : فدَيْنُ الله أحق أن يُقضَى .

ويرى الأحناف والمالكية والمشهور عن الشافعية ، أنه لا يصوم عنه وليه ، بل يطعم عن كل يوم مسكينًا - نصف صاع من قمح وصاعا من غيره أو ما قيمته ذلك .

واستدلوا بما رواه الترمذى وابن ماجه ، عن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « من

مات وعليه صَومُ شهرٍ ، فليُطعِمْ عنه مكان كل يوم مسكينًا » .

قال بعض العلماء في الجمع بين هذه الأحاديث : ولو قيل بجواز الصيام والإطعام لكان حسنا ، لأن فيه عملا بكل ما ورد .. وحديث : « لا يصم أحد عن أحد » أي : في الحياة ..... »[1] .

* * *

٧ - وأما الأمور التي لا تبطل الصوم ، ولا تؤثر فيه ، فمن أهمها ما يأتي :

(أ) الحقنة على اختلاف أنواعها ، سواء أخذت في العضل أو في وريد الدم ، لأنها وإن وصلت إلى الجوف ، فإنها تصل إليه من غير المنفذ المعتاد .

أما الحقنة الشرجية ، فهي مفسدة للصيام عند جمهور العلماء ...

(ب) الحجامة والفصد ، وهما الدم الزائد عن حاجة الجسم ، لا أثر لهما في الصيام ، فقد روى البخاري وغيره عن ابن عباس أن « النبي - صلى الله عليه وسلم - احتجم وهو محرم ، واحتجم وهو صائم » .

ففي هذا الحديث الشريف تصريح بأن الحجامة لا تفسد الصوم .

---

(١) التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول جـ ٢ ص ٧٨ للشيخ منصور على ناصف - رحمه الله -

وروى البخارى وأبو داود عن أنس أنه سئل : أكنتم تكرهون الحجامة للصائم على عهد النبى - صلى الله عليه وسلم - ؟ قال : لا ، إلا من أجل الضعف » .

أى : أن الكراهة من أجل الضعف لا من أجل الصوم .

وأما الحديث الذى رواه البخارى وغيره عن ثوبان عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « أفطر الحاجم والمحجوم » .

فالمقصود به أن المحجوم يفطر بسبب الضعف الذى يصيبه ، وأن الحاجم قد يصل إلى جوفه دم من الآلة التى يحجم بها فيؤدى إلى فطره ، ولذا قال الأحناف والمالكية بكراهتهما إذا أديا إلى الضعف ويرى الإمام أحمد أن الحاجم والمحجوم يفطران ، بسبب هذا الحديث .

وحجة الجمهور أن هذا الحديث منسوخ بالأحاديث السابقة ، التى يؤخذ منها عدم الفطر .

(جـ) كذلك مما لا يفطر الصائم : الاحتلام بالنهار ، أو الاغتسال والتبرد بالماء لشدة الحر ، أو من أجل إزالة الجنابة .

فعن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا يفطر من قاء ، ولا من احتلم ، ولا من احتجم » .

وروى الإمام أحمد وأبو داود ، عن بعض الصحابة أنه قال : « لقد رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصب على رأسه الماء وهو صائم من العطش أو من الحر » .

وفى الصحيحين عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : « كان - صلى الله عليه وسلم - يصبح جنبًا وهو صائم ، ثم يغتسل » .

(د) الاكتحال ، ووضع القطرة فى العين ، فقد روى الترمذى عن أنس قال : « قال رجل للنبى - صلى الله عليه وسلم - اشتكت عينى أفأكتحل وأنا صائم ؟ قال : نعم » .

وروى ابن ماجه : « أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد اكتحل فى رمضان وهو صائم » .

وإلى هذا ذهب الأحناف والشافعية ، فهم يرون أن الاكتحال ووضع القطرة فى العين ، لا يفطران الصائم ، ولو وجد طعمهما فى حلقه ، إلا أن من الأفضل ترك ذلك لغير ضرورة . وذهب المالكية والحنابلة إلى أنهما يفسدان الصوم ، إذا وجد الصائم طعمهما فى حلقه ، واستدلوا بحديث البيهقى والدارقطنى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « الفطر مما دخل والوضوء مما خرج » .

(هـ) السواك وما يشبهه من تنظيف الأسنان بالمعجون ، فقد أخرج البخارى والترمذى وأبو داود عن عامر بن ربيعة قال : « رأيت رسول الله يستاك وهو صائم ما لا أعد ولا أحصى » .

(و) المضمضة والاستنشاق ولو لغير وضوء ، إلا أنه تكره المبالغة فيهما حال الصيام ، فقد روى أصحاب السنن عن لَقِيط بن صَبْرَة أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « فإذا استنشقت فأبلغ ، إلا أن تكون صائمًا » .
فإذا بولغ فيهما بحيث وصل الماء إلى الجوف ، حدث الإفطار .

(ز) كذلك مما لا يبطل الصوم ، ولا يؤثر فيه : التطيب ، وشم الروائح ، وما لا يمكن الاحتراز عنه كبلع الريق ، وذوق الطعام - لضرورة - ثم لفظه دون أن يصل شيء منه إلى جوفه ، فإن ابتلعه ووجد طعمه كان مفطرًا .... وكذلك الطعام القليل الذى يبقى بين الأسنان ، ويبتلعه الصائم كما يبتلع ريقه ، أما إذا كان كثيرًا وابتلعه - مع قدرته على مجه - فإنه يكون مفطرًا .....

٨ - وهناك امور لا تبطل الصوم ، إلا أن من الواجب على العاقل أن يتجنبها حال صيامه ، ومنها : القبلة ، فقد روى أبو داود والبيهقى ، عن أبى هريرة ، أن رجلا سأل النبى - صلى الله

عليه وسلم - عن المباشرة - أي : القبلة - للصائم فرخص له . وأتاه آخر فسأله فنهاه ، فإذا الذى رخص له كان شيخا ، والذى نهاه كان شابًّا » .

فترخيص النبى - صلى الله عليه وسلم - بالقبلة إنما كان لشخص كبير السن ، يستطيع أن يضبط نفسه فى الوقوع فيما هو أشد من القبلة ...

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : « كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يقبلنى وهو صائم وأنا صائمة ، وكان أملككم لإرْبِهِ » أى : لشهوته .

وقد اتفق الفقهاء على أن القبلة لا تبطل الصوم إلا إذا حصل الإنزال فإنها تبطله .

والمؤمن الحق هو الذى يحرص كل الحرص على أن يؤدى صيامه بكل كمال وخشوع لرب العالمين ، ويبتعد عن كل ما يؤثر فى صيامه بالكراهة أو بالحرمة أو بخلاف الأولى ، فإن من شأن المؤمن الصادق ، أنه دائما ينشد إحسان القول والعمل ، ويبغى فى عباداته الكمال الذى يرفع درجاته إلى أعلى عليين . وصدق الله إذ يقول : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم ، بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾[1] .

---

(١) سورة النحل : الآية ٩٧ .

الفصل الثالث

« من مزايا شهر رمضان »

لشهر رمضان مزايا متعددة ، وخصائص متنوعة ، وفضائل جمة ... ومن ذلك أنه الشهر الذى أنزلت فيه الكتب السماوية ، ففى أول ليلة منه أنزلت صحف ابراهيم ، وفى الليلة السادسة منه أنزلت التوراة على موسى وفى الليلة الثالثة عشرة منه أنزل الإنجيل على عيسى ، وفى ليلة القدر منه أنزل القرآن الكريم ...

وهو الشهر الوحيد الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم ...

وهو الشهر الذى بجانب كونه شهر عبادة وتهذيب للروح ... هو - أيضاً - شهر جهاد لإعلاء كلمة الله ...

ففى السنة الثانية من الهجرة ، وفى شهر رمضان ، كانت غزوة بدر .

وفى السنة الثامنة من الهجرة ، وفى شهر رمضان ، كانت غزوة الفتح الأعظم وفى رمضان من العام الخامس عشر الهجرى ، كانت معركة القادسية ، وفيها قضى على المجوسية بفارس . وفى رمضان من العام الثانى والتسعين ، كان فتح الأندلس ، بقيادة طارق ابن زياد ....

وفى رمضان سنة إحدى وستين وثلاثمائة ، تم بناء الجامع الأزهر بمصر .

وفى رمضان سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، تم طرد الصليبيين من سوريا على يد صلاح الدين الأيوبى .

وفى رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة ، انتصر المسلمون على التتار فى موقعة عين جالوت .

وفى رمضان سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وألف ، تم عبور القوات المصرية لقناة السويس ، وطردت القوات الإسرائيلية ....

وهكذا نرى أن شهر رمضان له من المزايا والخصائص الكثير والجليل ، فهو شهر العبادة والجهاد ، وشهر الجود والخير ، وشهر المغفرة والرحمة ، وشهر البر والبركات ، وشهر التهذيب والتأديب ....

وهاك بعض العبادات والقربات ، التى تكون فى شهر رمضان ، وفى أعقابه .

صلاة التراويح :

١ - فضلها من أعظم العبادات التى يتقرب بها المسلم فى رمضان : صلاة التراويح ، التى يؤديها المسلم فى كل ليلة من رمضان بعد صلاة العشاء ، وقبل صلاة الوتر ، ويمتد وقتها إلى قبيل الفجر . وسميت بذلك ، لأن المصلين لها يستريحون بالجلوس عقب كل أربع ركعات منها ، أو لأن أهل مكة كانوا يطوفون بين كل أربع ركعات ، فينالون فضل الطواف ويستريحون . وتسمى أيضاً بصلاة القيام ، لأن المصلين يقومون لصلاتها عقب صلاة العشاء .

٢ - وقد رغب النبى - صلى الله عليه وسلم - فى هذه الصلاة وفيما يشبهها من صلاة الليل فى أحاديث كثيرة ، منها : ماأخرجه الشيخان عن أبى هريرة قال : كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يرغب فى قيام رمضان من غير أن يأمرهم فيه بعزيمة أى : من غير أن يأمرهم أمراً مؤكداً كما يأمر بأداء الفرض - فيقول : « من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ماتقدم من ذنبه » . فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم والأمر على ذلك - أى : على الترغيب فى القيام لهذه الصلاة منفردين - ثم كان الأمر على ذلك فى خلافة أبى بكر ، وصدراً من خلافة عمر ...

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : « خرج رسول الله -

صلى الله عليه وسلم - ليلة من جوف الليل أى : فى رمضان فصلى فى المسجد ، وصلى رجال بصلاته - أى : مؤتمين به ، فأصبح الناس فتحدثوا ، فاجتمع أكثر منهم فصلوا معه ، أي : فى الليلة الثانية ، فأصبح الناس فتحدثوا ، فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة ، فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فصلى ، فصلوا بصلاته ، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله أى : ضاق بسبب كثرة المصلين إلا أن النبى - صلى الله عليه وسلم - لم يخرج إليهم فى الليلة الرابعة ، حتى خرج لصلاة الصبح ، فلما قضى الفجر أقبل على الناس فتشهد ثم قال : أما بعد فإنه لم يخف على مكانكم ، ولكنى خشيت أن تفترض عليكم ، فتعجزوا عنها ، فتوفى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والأمر على ذلك » (رواه الشيخان وأبو داود)

وروى البخارى عن عبد الرحمن بن عبد القارى قال : خرجت مع عمر بن الخطاب ليلة فى رمضان إلى المسجد ، فإذا الناس أوزاع متفرقون - أى : جماعات متفرقة ، يصلى الرجل لنفسه ، ويصلى الرجل فيصلى بصلاته الرهط - أى : الجماعة من ثلاثة إلى عشرة .

فقال عمر : إنى أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد - أى : على إمام واحد - لكان أمثل ثم عزم فجمعهم على أبى بن كعب ....

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، أنه سأل عائشة : كيف كانت صلاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى رمضان ؟ أي : ماعدد صلاة القيام فى رمضان ؟ فقالت : « ماكان يزيد فى رمضان ولافى غيره على إحدى عشرة ركعة ، يصلى أربعاً ، فلا تسل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلى أربعاً فلا تسل عن حسنهن وطولهن - أى : كان يصلى أربعاً فى نهاية الحسن من الإتقان والتطويل وكمال الخشوع ، ثم يتبعها بأربع أخرى ، ثم يصلى ثلاثاً .... »

وروى الإمام مالك عن يزيد بن رومان قال : « كان الناس يقومون فى زمن عمر بن الخطاب ، فى رمضان بثلاث وعشرين ركعة » أى : منها الوتر ثلاثاً والقيام عشرون .

وروى البيهقى عن السائب بن يزيد ، أنه قال : كانوا يقومون على عهد عمر - رضى الله عنه - فى شهر رمضان ، بعشرين ركعة »

هذا جانب من الأحاديث التي وردت فى صلاة التراويح ، ويؤخذ منها مايأتى :

١ - أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد صلى بأصحابه صلاة القيام بضع ليال ، إلا أنه لم يواصل صلاته بهم خوفاً من أن تفترض عليهم ، فيعجزوا عنها .

٢ - أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد صلى بهم إحدى عشرة ركعة كما يفهم من حديث عائشة - وأنهم كانوا يصلون فى عهد عمر - رضى الله عنه - عشرين ركعة .

قال بعض العلماء : ولا منافاة بين هذه النصوص ، لاحتمال أنهم كانوا مرة يقومون بإحدى عشرة ، وأخرى بثلاث وعشرين بالوتر . أو أنهم صلوا القليل أولاً ، ثم ظهر لهم أنه لاحرج عليهم فى الزيادة ، لأنها صلاة ليل لاحد لها ...[1]

والذى تطمئن اليه النفس ، أن صلاة التراويح من النفل المطلق الذى لاحد لأكثره ، بل ثبت أن أهل المدينة كانوا يصلون التراويح فى عهد عمر بن عبد العزيز ستاً وثلاثين ركعة ، وكانت حجتهم فى ذلك أن أهل مكة كانوا يصلونها عشرين ، ويطوفون بين كل أربع ركعات ، فزادوا هم - أى : أهل المدينة - مكان كل طواف أربع ركعات ، ليساووا أهل مكة فى العبادة ، فكانت تراويحهم ستاً وثلاثين ركعة .[2]

كما أننا نرجح أن صلاتها فى جماعة وفى المسجد أفضل لأن فى ذلك تكثيراً للجماعة ، ومحافظة على عبادة من العبادات التى يتقرب بها المسلم إلى الله تعالى إلا إذا كانت هناك ضرورة تدعو إلى صلاتها فى البيت ...

---

(١) التاج الجامع للأصول ص ٦٦ جـ ٢ .

(٢) التاج الجامع للأصول ص ٦٧ .

والفقهاء متفقون على الجهر بالقراءة فيها ، وعلى أنها تصلى ركعتين ركعتين ، وعلى أن ختم القرآن الكريم فى صلاة التراويح خلال شهر رمضان ، مندوب ومستحب ... كما أنهم متفقون على أن الخشوع والأناة فى صلاتها ، من الأفعال الواجبة فيها ، كما هو الشأن فى كل صلاة أمرنا الله تعالى بأدائها ، فرب ركعات قليلة تؤدى بخشوع وإتقان وإخلاص ، تكون خيراً من ركعات كثيرة لا تتوفر فيها تلك الفضائل ..

ليلة القدر :

١ - ومن فضائل شهر رمضان ومزاياه ، اشتماله على ليلة القدر ، التى مدحها الله تعالى فى قوله : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وماأدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر ﴾ .

٢ - والضمير المنصوب فى قوله تعالى (أنزلناه) يعود إلى القرآن الكريم . وفى الإتيان بهذا الضمير للقرآن - مع أنه لم يجر له ذكر - تنويه بشأنه ، وإيذان بشهرة أمره ، حتى إنه ليستغنى عن التصريح به ، لحضوره فى أذهان المسلمين .

والمراد بإنزاله : ابتداء نزوله على النبى - صلى الله عليه

وسلم – ، لأنه من المعروف أن القرآن الكريم ، قد نزل على النبى – صلى الله عليه وسلم – منجماً ، فى مدة ثلاث وعشرين سنة تقريباً .

ويصح أن يكون المراد « بأنزلناه » أى : أنزلناه جملة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ، ثم نزل بعد ذلك منجماً على النبى صلى الله عليه وسلم .

قال الإمام ابن كثير : قال ابن عباس : أنزل الله تعالى القرآن جملة واحدة ، من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع ، فى ثلاث وعشرين سنة ، على رسول الله – صلى الله عليه وسلم »[1].

٣ – والقدر الذى أضيفت إليه الليلة ، بمعنى الشرف والعظمة ، مأخوذ من قولهم : لفلان قدر عند فلان ، أى : له منزلة رفيعة ، وشرف عظيم ، فسميت هذه الليلة بذلك ، لعظم قدرها ، وسمو شرفها ، إذ هى الليلة التى نزل فيها قرآن ذو قدر ، بواسطة ملك ذى قدر ، على رسول ذى قدر ، لأجل إكرام أمة ذات قدر ..

هذه الأمة يزداد قدرها وثوابها عند الله تعالى إذا ماأحيوا تلك الليلة بالعبادات والطاعات . أى : إنا ابتدأنا بقدرتنا وحكمتنا –

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٦٣ .

إنزال هذا القرآن العظيم ، على رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - فى ليلة القدر ، التى لها مالها عندنا من قدر وشرف وعظم ... لأن للطاعة فيها قدراً كبيراً ، وثواباً جزيلاً .

٤ - وليلة القدر هذه ، هى الليلة التى قال الله تعالى فى شأنها فى سورة الدخان : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم ..** ﴾

وهذه الليلة ، هى من ليالى شهر رمضان ، بدليل قوله تعالى : ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ...** ﴾

٥ - وقوله سبحانه : ﴿ **وماأدراك ما ليلة القدر** ﴾ تنويه آخر بشرف هذه الليلة ، وتفخيم لشأنها ، حتى لكأن عظمتها أكبر من أن تحيط بها الكلمات والألفاظ

أي : ومايدريك بمقدار عظمتها ، وعلو قدرها ؟ إن الذى يعلم ذلك هو الله تعالى وحده . ثم بين - سبحانه - جانباً من مظاهر فضلها فقال : ﴿ **ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾. أى : هذه الليلة أفضل من ألف شهر ، بسبب ماأنزل فيها من قرآن كريم ، وبسبب أن العبادة فيها أكثر ثواباً ، وأعظم قبولاً من العبادة فى أشهر كثيرة ليس فيها ليلة القدر . والعمل القليل قد يفضل العمل الكثير ،

باعتبار الزمان والمكان ، وإخلاص النية ، وحسن الأداء ، ولله تعالى أن يخص بعض الأزمنة والأمكنة والأشخاص بفضائل متميزة .

والتحديد بألف شهر ، يمكن أن يكون مقصوداً ، ويمكن أن يراد منه التكثير ، وأن المراد أن أقل عدد تفضله هذه الليلة على غيرها هو هذا العدد ..

٦ - ثم ذكر سبحانه بعد ذلك مزية أخرى لهذه الليلة المباركة فقال : ﴿ **تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر** ﴾ .

والروح : هو جبريل - عليه السلام - ، وذكره بخصوصه بعد الملائكة ، من باب ذكر الخاص بعد العام ، لمزيد الفضل ، واختصاصه بأمور لا يشاركه فيها غيره .

أى : ومن مزايا هذه الليلة المباركة ، أن الملائكة وعلى رأسهم جبريل ، ينزلون فيها أفواجاً إلى الأرض ، بأمره تعالى وإذنه ، وهم جميعاً إنما ينزلون من أجل كل أمر من الأمور التى يريد الله تعالى إبلاغها إلى عباده ، ومن أجل نشر البركات التى تحفهم ... فنزولهم فى تلك الليلة يدل على شرفها ، وعلى رحمة الله تعالى بعباده .

٧ - وقوله سبحانه : ﴿ **سلام هى حتى مطلع الفجر** ﴾ بيان

لمزية ثالثة من مزايا هذه الليلة . أى : هذه الليلة يظلها ويشملها السلام المستمر ، والأمان الدائم ، لكل مؤمن يحييها فى طاعة الله تعالى - إلى أن يطلع الفجر . أوهى ذات سلامة حتى مطلع الفجر ، أو هى سالمة من كل أذى وسوء لكل مؤمن ومؤمنة حتى طلوع الفجر .

٨ - هذا ، وقد فصل العلماء الحديث عن فضائل ليلة القدر ، وعن وقتها ، وعن خصائصها ، وقد لخص الإمام القرطبى ذلك تلخيصاً حسناً فقال : وهنا ثلاث مسائل :

الأولى : فى تعيين ليلة القدر .. والذى عليه معظم العلماء ، أنها ليلة سبع وعشرين من ليالى شهر رمضان ، والجمهور على أنها فى كل عام من رمضان . وقيل : أخفاها - سبحانه - فى جميع ليالى شهر رمضان ، ليجتهد العباد فى العمل الصالح طمعاً فى إدراكها .

الثانية : فى علاماتها : ومنها أن تطلع الشمس فى صبيحتها بيضاء لاشعاع لها .

الثالثة : فى فضائلها : وحسبك قوله تعالى : ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ . وقوله ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم .. ﴾

وفى الصحيحين : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر الله له ماتقدم من ذنبه »[1] .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ١٣٤ .

٩ - والمأثور عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يتحرى ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان ، فقد روى الشيخان عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : « كان النبى - صلى الله عليه وسلم - إذا دخل العشر الأواخر من رمضان شد مئزره أى : اجتهد فى العبادة ، وأحيا ليله ، وأيقظ أهله . وكان يجاور - أى : يعتكف - فى العشر الأواخر من رمضان ويقول : تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان » .

وفى رواية عنها : « تحروا ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان »

وقد رجح كثير من العلماء أنها فى ليلة السابع والعشرين من رمضان ، لما رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذى ، عن أبى ابن كعب أنه قال : « والله الذى لا إله إلا هو إنها لفى رمضان - يحلف مايستثنى - ، والله إنى لأعلم أى ليلة هى ، إنها الليلة التى أمرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقيامها ، وهى ليلة سبع وعشرين ، وأمارتها أن تطلع الشمس فى صبيحتها بيضاء لاشعاع لها وعلى أية حال ، فينبغى للمسلم أن يكثر من العبادة والطاعة فى كل وقت » ولاسيما فى الأيام المباركة التى هى أيام شهر رمضان ، وخصوصاً العشر الأواخر منه ، التى هى مظنة ليلة القدر .

١٠ - وينبغى على المسلم - أيضاً - أن يكثر من جوامع الدعاء

من القرآن والسنة ، فقد روى أحمد والترمذى وابن ماجه عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : « قلت يارسول الله ، أرأيت إن علمت أى ليلة ليلة القدر ماأقول فيها ؟ قال : قولى : « اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى » .

نسأل الله تعالى أن يهدينا جميعاً إلى صراطه المستقيم .

الاعتكاف :

١ - تعريفه : الاعتكاف فى اللغة : الحبس والمكث واللزوم . يقال : اعتكف فلان فى مكان كذا ، إذا حبس نفسه فيه . وشرعًا : هو اللبث فى المسجد من شخص طاهر بنية الاعتكاف ، ويسمى جوارًا .

وهو من العبادات القديمة ، كما يشير إلى ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين ، والركع السجود ﴾ .

٢ - وحكمه : أنه سنة ، ويتأكد فى العشر الأواخر من رمضان ، ويصير واجبًا إذا أوجبه الإنسان على نفسه ، بأن نذر أن يعتكف يومًا أو يومين ، فإن الوفاء بالنذر واجب .

٣ - وقد ثبتت مشروعية الاعتكاف بالكتاب والسنة والإجماع .

أما الكتاب فيشير إلى مشروعية الاعتكاف قوله تعالى : ﴿ ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ﴾ ، أى : لا تجامعوا زوجاتكم خلال اعتكافكم فى بيوت الله تعالى .

وأما السنة فمنها ما رواه الشيخان عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : « كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يعتكف فى العشر الأواخر من رمضان ، حتى توفاه الله ، ثم اعتكف أزواجه من بعده » .

وروى البخارى وأبو داود عن أبى هريرة ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يعتكف فى كل رمضان عشرة أيام ، فلما كان العام الذى قبض فيه اعتكف عشرين يومًا » .

٤ - ومن الحكم التى من أجلها شرع الاعتكاف : الإكثار من العبادة والطاعة والتقرب إلى الله تعالى ، والتخفف من مشاغل الحياة ومتعها وشهواتها ، والتأمل فى ملكوته تعالى ، ومداومة شكره على نعمه ، فإن الشكر على النعم يوصل إلى المزيد منها ، كما قال تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ...... ﴾ .

٥ - ومن شروط الاعتكاف : النية ، والطهارة من الحدث

الأكبر ، فلا يصح من جنب ، ولا من حائض أو نفساء .... الصوم ، وذلك عند الحنفية والمالكية ، أما الشافعية والحنابلة ، فلم يشترطوا الصوم لصحة الاعتكاف ...

وأن يكون الاعتكاف فى المساجد ، لقوله تعالى : ﴿ ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ... ﴾ فلو كان الاعتكاف فى غير المساجد جائزًا ، لما كان لهذا التخصيص فائدة ، لأن المباشرة محرمة فى الاعتكاف مطلقًا ، إلا أن الحنابلة اشترطوا أن يكون الاعتكاف فى المسجد الذى تقام فيه الجماعة ، واشترط الشافعية أن يكون فى المسجد الجامع .

٦ - ويجوز للمرأة الاعتكاف بعد أخذ الإذن من زوجها أو ولى أمرها ، واعتكافها يكون فى المسجد - أيضا - ، ولكن فى مكان خاص بها ، فقد كان أزواج النبى - صلى الله عليه وسلم - يعتكفن فى المسجد ، وفى أماكن خاصة بهن ...

واجاز الأحناف اعتكاف المرأة فى مسجد بيتها ، وكرهوا اعتكافها فى المساجد ، لأن مبنى حالها على الستر .

٧ - ويفسد الاعتكاف بالجماع ، ويحرم على المعتكف أن يفعل ما يؤدى إليه كالتقبيل ، وما يشبهه ....

كما يفسد الاعتكاف بالخروج من المسجد بدون ضرورة تدعو لذلك ...

أما الخروج لضرورة ، كصلاة الجمعة ، أو كقضاء حاجة طبيعية كالبول والغائط والاغتسال ، وشراء ما يلزمه شراؤه لمأكله ومشربه .... فلا يبطل الاعتكاف .

فقد أخرج الشيخان عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : « كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا اعتكف يدنى إلىَّ رأسَه فأرجله ، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان » . وأخرج الشيخان - أيضًا - عن صفية بنت حيى - رضى الله عنها - قالت : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معتكفًا ، فأتيته أزوره ليلاً ، فحدثته ، ثم قمت إلى بيتى فقام معى لِيَقْلِبَنِى - أى : ليمشى معى إلى بيتى - ، فمر رجلان من الأنصار ، فلما رأيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أسرعا . فقال لهما : على رِسْلِكُما - أى : تمهلا - ، إنها صفية بنت حيى . قالا : سبحان الله يا رسول الله . قال : إن الشيطان يجرِى من ابن آدم مجرى الدم ، فخشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئًا ..... » .

ففى هذين الحديثين ما يدل على جواز خروج المعتكف من مكان اعتكافه ، لضرورة تدعو لذلك ، ولكن بنية العودة إلى الاعتكاف بعد انتهاء تلك الضرورة .

٨ - وليس للاعتكاف مدة معينة ، فهو يتحقق ولو لمدة يسيرة ، ما دام قد نوى أن تكون هذه المدة التى يقضيها فى المسجد

اعتكافاً ، وذلك من فضل الله تعالى ورحمته بعباده ، وهذا بالنسبة للاعتكاف المطلق ، أما إذا نذر أن يعتكف لمدة يوم أو يومين أو أكثر ، فعليه أن يوفى بنذره .

٩ – وينبغى للمعتكف أن يشتغل بذكر الله – تعالى – ، وبقراءة القرآن الكريم ، وبالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل .... وبكل قول طيب ، وعمل صالح ، لأنه إنما حبس نفسه وألزمها الإقامة فى المسجد ، للاشتغال بالطاعة ، والإقبال على العبادة ...

روى ابن ماجه عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال فى المعتكف : « هو يَعْكِفُ الذنوب ويجرى له من الحسنات كعامل الحسنات كلها » .

أى : أن الاعتكاف يحفظ المعتكف من الشرور ، ويكتب له كثواب فاعل الطاعات كلها ، لأنه حبس نفسه فى بيت الله ، طلباً لرضاه .

١٠ – كما ينبغى للمعتكف ألا يشغل نفسه بالأعمال الدنيوية من بيع وشراء وتجارة ... لأن ذلك لا يتناسب مع الأهداف السامية التى اعتكف من أجلها ، وهى التخفف من كل ما يشغله عن طاعة الله تعالى ...

صلاة العيد :

١ – حكمها : صلاة العيد سنة عين مؤكدة ، على كل من تجب عليه صلاة الجمعة ، بدليل أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – عندما سأله سائل عما يجب عليه من الصلاة ؟ قال له : « خمس صلوات كتبهن الله تعالى على عباده . قال له : هل على غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تطوع » .

ويدل على أنها من السنن المؤكدة : مواظبة النبى – صلى الله عليه وسلم – عليها منذ أن شرعها الله تعالى ، وسير السلف والخلف على ذلك ، تأسيًا بالرسول – صلى الله عليه وسلم .. وهذا رأى الشافعية والمالكية .

وقال الأحناف بوجوبها على كل من تجب عليه صلاة الجمعة . أما الحنابلة فيرون أنها فرض كفاية ، إذا قام بها البعض سقطت عن الباقين .

وعلى أية حال فصلاة العيد من شعائر الإسلام ، التى يجب على المسلم أن يحافظ عليها محافظة تامة .

٢ – وكانت مشروعيتها فى السنة الأولى من الهجرة ، فقد روى أبو داود عن أنس بن مالك قال : « قدم رسول الله – صلى

الله عليه وسلم - المدينة ، ولأهلها يومان يلعبون فيهما . فقال - صلى الله عليه وسلم - « ما هذان اليومان » ؟ قالوا : يارسول الله هذان يومان كنا نلعب فيهما فى الجاهلية . فقال : إن الله تعالى قد أبدلكما خيرًا منهما ، يوم الأضحى ويوم الفطر » .

٣ - ويبدأ وقتها عند جمهور الفقهاء بعد ارتفاع الشمس عن الأفق بمقدار ثلاثة أمتار ، - أي ما يقرب من عشرين دقيقة - ، ويمتد حتى الزوال ، فعن جندب - رضى الله عنه - قال : « كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يصلى بنا صلاة عيد الفطر ، والشمس قدر رمحين ، ويصلى بنا صلاة عيد الأضحى ، والشمس على قدر رمح » - والرمح يقدر بثلاثة أمتار .

وقد أخذ العلماء من ذلك استحباب تعجيل صلاة عيد الأضحى ، وتأخير صلاة عيد الفطر .

٤ - وقد شرعت الأعياد فى الإسلام لحكم سامية ، ومقاصد عالية ، من أهمها : أن تكون استجمامًا للأبدان ، وراحة للأجساد ، وشكرًا لله تعالى على نعمه ، وزيادة فى جمع المسلمين على الإخاء والتآلف والتزاور والتعاون ، ففى الحديث الشريف : « مثل المسلمين فى توادهم وتراحمهم ... كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

٥ - وكيفيتها : أنها ركعتان كسائر النوافل ، يصليان قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة ، ينوى بهما صلاة العيد ...

وبعد تكبيرة الإحرام ، ودعاء الاستفتاح ، وقبل التعوذ والقراءة ، يكبر سبع تكبيرات ، يرفع يديه حذو المنكبين فى كل تكبيرة ويفصل بين كل تكبيرتين بقدر آية صغيرة ، وبعد أن ينتهى من التكبير يتعوذ ويبدأ فى قراءة الفاتحة ، ثم السورة ، ويندب أن تكون سورة « الأعلى » ويرى المالكية والحنابلة أن يكبر ست تكبيرات ، ويرى الأحناف أن يكبر ثلاث تكبيرات .... وأما فى الركعة الثانية ، فيكبر بعد تكبيرة القيام وقبل القراءة خمس تكبيرات عند جمهور الفقهاء ، أما الأحناف فالتكبير عندهم ثلاثًا ، ولكن بعد القراءة وقبل الركوع .

ويندب أن يقرأ فى الركعة الثانية بعد الفاتحة سورة « الغاشية » .

٦ - فإذا ما انتهى الإمام من صلاته ، خطب المصلين خطبتين يجلس بينهما جلسة استراحة ، كما هو الشأن فى خطبة الجمعة ، ولكنه يبدؤهما فى العيد بالتكبير ، بغير تحديد عند المالكية ، وعند الشافعية يفتتح الخطبة الأولى بتسع تكبيرات ، والثانية بسبع تكبيرات .. تختتم بقوله تعالى ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين** ﴾ .

وينبغى أن تشتمل خطبة عيد الفطر ، على أحكام صدقة الفطر ، وخطبة عيد الأضحى على أحكام الأضحية ، وعلى غير ذلك من المعانى السامية ، والآداب القويمة .. التى تربط بين المسلمين برباط الإخاء والمودة .

٧ - ويستحسن أداء صلاة العيدين بالصحراء ، أو فى مكان متسع خارج المساجد ، إلا فى مكة فإن من الأفضل صلاتها فى المسجد الحرام ، لشرف البقعة ، ومشاهدة الكعبة .

ويرى الشافعية أن أداء صلاة العيدين بالمسجد أفضل لشرفه ، الا لعذر كضيقه بالمصلين ، فحينئذ يستحب صلاتها فى مكان متسع خارجه .

٨ - ولم يثبت أن لصلاة العيد سنة قبلها أو بعدها .. فقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما ، عن ابن عباس قال : خرج النبى - صلى الله عليه وسلم - يوم الفطر - وفى رواية يوم العيد - فصلى ركعتين ، لم يصل قبلهما ولا بعدهما »

٩ - كذلك لم يثبت أن صلاة العيد كانت بأذان أو إقامة فقد روى الشيخان عن جابر بن سمرة قال : « صليت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - العيدين غير مرة ولامرتين بغير أذان ولا إقامة » .

ولعل الحكمة من ذلك بيان الفرق بينها وبين صلاة الفرائض ، ولكن لابأس بأن يقول المؤذن : الصلاة جامعة ، ليستعد الناس

لها ، فقد أخرج البيهقى من طريق الشافعى ، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان يأمر المؤذن فى العيدين بأن يقول : الصلاة جامعة .

١٠ – ومن فاتته « صلاة العيد مع الإمام ، يسن له أن يقضيها ، وذلك عند الشافعية والحنابلة ، أما الاحناف والمالكية فيرون عدم القضاء .

١١ – وإذا اجتمع العيد والجمعة فى يوم واحد ، وجب عند الأئمة الثلاثة أداء كل صلاة منها فى وقته المحدد له ، دون أن يغنى أحدهما عن الآخر .

ويرى الحنابلة أنه إذا اجتمع العيد والجمعة فى يوم واحد ، سقطت الجمعة عمن صلى العيد ، ويصلى الظهر بدلها ..

١٢ – والتكبير فى العيدين سنة قال تعالى فى آيات الصيام : ﴿ ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم ولعلكم تشكرون ﴾

وقال – سبحانه – فى الآيات التى تتحدث عن الحج : ﴿ كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ماهداكم ولعلكم تشكرون ﴾ويبدأ التكبير بالنسبة لعيد الفطر من بعد فجر يوم العيد ، أو من وقت الخروجَ للصلاة وينتهى بانتهاء صلاة العيد .

أما بالنسبة لعيد الأضحى ، فيبدأ عند جمهور الفقهاء من فجر

يوم عرفة ، وينتهى عقب صلاة العصر من آخر أيام التشريق . وهو اليوم الرابع من أيام العيد ، إذ أن أيام التشريق هى الأيام الثلاثة التى تلى يوم العيد .

أما عند المالكية فيبدأ عقب صلاة الظهر من يوم العيد ،وينتهى بانتهاء صلاة الصبح من اليوم الرابع من أيام التشريق .

والتكبير بالنسبة لعيد الاضحى يكون عند - الحنفية والمالكية - عقب الفرائض . وعند الحنابلة : عقب الفرائض فى الجماعات فقط .. أما الشافعية فيرون - فى أظهر أقوالهم - أن التكبير يكون عقب الفرائض والنوافل ، وفى حال الصلاة فى جماعة والصلاة على انفراد .

وأما صيغة التكبير فالأمر فيها واسع ، ومنها - عند الشافعية - أن يقول المصلى : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، - ثلاث مرات - ، لا إله إلا الله ، الله أكبر ولله الحمد ، الله أكبر كبيرًا ، والحمد لله كثيرًا ، وسبحان الله بكرة وأصيلا . لا إله إلا الله وحده صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده . لا إله إلا الله ولانعبد إلا إياه . مخلصين له الدين ولو كره الكافرون . ويسن الصلاة والسلام على النبى - صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وأنصاره وأزواجه وذريته . وقريب من هذه الصيغة ما اختاره الاحناف .

أما الحنابلة فيكتفون بالصيغة التى تقول : الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله ، والله أكبر الله أكبر ، ولله الحمد » والمالكية يختارون أن تكون الصيغة .. الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر .. ثلاث مرات لاغير .

١٣ – وهناك آداب ينبغى للمسلم أن يلتزمها فى أيام العيد ، منها : الإكثار من ذكر الله تعالى ، والاشتغال بكل ماهو نافع ، ومنها استحباب الغسل ، والتطيب ولبس ماهو نافع ، ومنها الأكل قبل الخروج لعيد الفطر دون الأضحى ، ومنها : إحياء ليلتى العيد بالذكر والدعاء والصلاة .. ومنها : مخالفة الطريق ، بأن يذهب إلى الصلاة من طريق ويعود من طريق آخر ، ومنها : خروج النساء والصبيان لحضور الصلاة .. إلا أن النساء يخرجن وهن ملتزمات بالآداب الإسلامية .. ومنها : التزاور والتواصل فى أيام العيد ولاسيما بين الأقارب .. ومنها : إباحة اللهو البرىء الذى لايصد عن ذكر الله أو عن الصلاة .

والخلاصة : على العاقل أن يلتزم فى هذه الأيام المباركة أداء ماكلفهم الله تعالى به ، وما ورد فى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

صدقة الفطر :

١ - صدقة الفطر : واجبة على كل مسلم حر قادر على إخراجها ، سواء أكان صغيرًا أم كبيرًا ، ذكرًا أم أنثى ، حرًّا أم عبدًا .. فتجب فى مال الصبى والمجنون ، ويخرجها عنهما وليهما .

روى ابن خزيمة ، عن كثير بن عبد الله ، عن أبيه عن جده ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سئل عن قوله تعالى : ﴿ قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى ﴾ فقال : « نزلت فى زكاة الفطر » .

وأخرج البخارى ومسلم عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : « فرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - زكاة الفطر ، صاعًا من تمر ، أو صاعًا من شعير ، على العبد والحر ، والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين » .

وقد أوجبها النبى - صلى الله عليه وسلم - وأمر بها فى السنة التى فرض فيها الصيام ، أى : فى شعبان من السنة الثانية للهجرة .

٢ - وقد شرعها - سبحانه - لحكم سامية ، ومقاصد عالية ، منها : التوسعة على المحتاجين . وسد حاجتهم ، وجبر النقص أو الخطأ الذى يكون قد وقع فيه الإنسان خلال صومه .

روى أبو داود وابن ماجه والحاكم عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : « فرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - زكاة الفطر ، طهرة للصائم من اللغو والرفث - أى : من الكلام الذى لافائدة من ورائه ومن الكلام الفاحش - وطعمة للمساكين - أى : مواساة وعونا لهم - من أداها قبل الصلاة - أى : صلاة العيد - فهى زكاة مقبولة ، ومن أداها بعد الصلاة فهى صدقة من الصدقات » .

٣ - ويخرجها المسلم عن نفسه ، وعمن تلزمه نفقته كزوجته وأبنائه ، وخدمه الذين يتولى أمورهم ، ويقوم بالانفاق عليهم .. ويخرجها أيضًا عن الوالدين وعن الجدين ، اذا كانوا ممن يعولهم ..

قالوا ولايشترط لها ملك النصاب كالزكاة ، لأن المقصود منها جبر الصيام ، فالفقير يخرجها ، ويأخذها من غيره ، لأن هذا يمثل عملية أخلاقية حسنة ، إذ اشتراك الفقير فى العطاء يزيده ثقة وكرامة ، ويملأ المجتمع بروح الأخوة والتعاون .

٤ - وتجب - عند المالكية والحنابلة - بغروب شمس آخر يوم من رمضان ، وعند - الشافعية والأحناف - تجب بطلوع فجر يوم العيد .. ويندب إخراجها بعد فجر يوم العيد وقبل الصلاة . وجمهور الفقهاء على أنه يجوز تعجيل دفع صدقة الفطر ، قبل العيد بيوم أو يومين ، بل إن بعضهم - وهم الأحناف - يرون جواز

دفعها حتى قبل شهر رمضان .

روى أبو داود والترمذى عن على بن أبى طالب « أن العباس ، سأل النبى - صلى الله عليه وسلم - فى تعجيل الصدقة فرخص له فى ذلك » .

ولاتسقط صدقة الفطر بالتأخير ، بل تصير دينًا فى ذمته لزمته حتى يؤديها ولو فى آخر عمره ، وتأخيرها عن صلاة العيد - بدون ضرورة تدعو لذلك - فهو محرم ، لأن هذا التأخير يؤدى إلى فوات المقصود منها ، وهو إغناء الفقراء ، وسد حاجة المحتاجين .

٥ - ومقدارها : صاع من القمح ، أو الشعير ، أو التمر ، أو الزبيب ، أو الاقط - أى : اللبن المجفف - أو نحو ذلك مما يعتبر قوتًا .

والصاع : يساوى بالكيل المصرى وقدحًا ثلثًا ، أو قدحين ، فتجزئ الكيلة - عند جمهور الفقهاء - عن ستة أشخاص ، أو أربعة أشخاص .. ولايجزئ دفع القيمة .. أما الأحناف فيرون ان على الفرد نصف صاع من القمح ، وأن الكيلة تكفى سبعة أشخاص ، ويجوز إخراج القيمة الواجبة من النقود لأن هذا أكثر نفعا للفقير .

٦ - ونقل الصدقة من بلد إلى بلد لايجوز إلا لمبرر قوى ، كأن سنقل لقريب محتاج ، أو بعد كفاية أهل البلد الأصلى .

٧ – ومصارفها هم الذين جاء ذكرهم فى قوله تعالى : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل ﴾ ..

ولايجوز دفعها لمن تجب عليه نفقتهم – كأبويه وأبنائه – وأجاز أبو حنيفة والزهرى دفع جزء منها إلى الذمى ، إن كان محتاجا لقوله تعالى : ﴿ لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ .

٨ – وعلى المسلمين أن يجتنبوا التقصير فى دفع صدقة الفطر ، فقد ورد عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « صوم رمضان معلق بين السماء والأرض ولايرفع إلا بزكاة الفطر » وصدق الله اذ يقول : ﴿ وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ .

الفصل الرابع

فتاوى عن الصيام من دار الإفتاء

الموضوع : الحقنة فى الصيام

المبادئ

١ - الاحتقان سواء كان فى العضدين أو فى أى موضع من ظاهر الجسم غير مفسد للصوم .

٢ - الشرط فى المفطر وصوله إلى الجوف واستقراره فيه وأن يكون دخوله من المنافذ المؤدية إلى الجوف .

سئل :

هل الاحتقان بالحقنة المعروفة الآن فى العضدين أو الفخذين أو رأس الأليتين مفطر للصائم أم لا ؟ .

* المفتى : فضيلة الشيخ محمد بخيت ، س ١٧ - م ١١١ - ص ٢٠ - شعبان ١٣٣٧ هـ - مايو ١٩١٩ م .

أجاب :

نفيد أنه صرح فى متن التنوير وشرحه الدر المختار أن لوآدهن أو اكتحل لا يفطر ولو وجد طعمه فى حلقه قال فى رد المختار عليه أى طعم الكحل أو الدهن كما فى السراج وكذا لو بزق فوجد لزقه فى الأصح بحر - قال فى النهر لأن الموجود فى حلقه أنه داخل من المسام الذى هو خلل البدن والمفطر إنما هو الداخل من المنافذ للاتفاق على أن من اغتسل فى ماء فوجد برده فى باطنه أن لا يفطر وإنما كره الإمام الدخول فى الماء والتلفف بالثوب المبلول لما فيه من إظهار الضجر فى إقامة العبادة . وبالجملة فالشرط فى المفطر أن يصل إلى الجوف وأن يستقر فيه والمراد بذلك أن يدخل إلى الجوف ولا يكون طرفه خارج الجوف ولا متصلا بشىء خارج عن الجوف وأن يكون الوصول إلى الجوف من المنافذ المعتادة لأن المسام ونحوها من المنافذ التى لم تجر العادة بأن يصل منها شىء إلى الجوف . ومن ذلك يعلم أن الاحتقان بالحقن المعروف الآن عملها تحت الجلد سواء كان ذلك فى العضدين أو الفخذين أو رأس الاليتين أو فى أى موضع من ظاهر البدن غير مفسد للصوم لأن مثل هذه الحقنة لا يصل منها شىء إلى الجوف من المنافذ المعتادة أصلا وعلى فرض الوصول فإنما تصل من المسام فقط وما تصل إليه ليس جوفا ولا فى حكم الجوف والله تعالى أعلم .

الموضوع : فدية الصوم

المبادئ

١ - الوصية بفدية الصوم جائزة وتبرأ بذلك ذمة الموصى قطعاً .

٢ - المقدار الواجب عن صوم كل يوم نصف صاع من بر أو دقيقه أو سويقه ومقدار نصف الصاع قدح وثلث بالكيل المصرى ودفع القيمة أفضل .

٣ - إذا لم يوص بالفدية وتبرع بها الوارث أو غيره أجزأه إن شاء الله .

سئل :

شخص أقام فى فرنسا مدة عشر سنوات . ولم يصم هذه المدة شهر رمضان معتقداً أنه يضر بصحته . وقبل وفاته أوصى بأن يعمل اسقاط بدلا عما فاته من الصوم بأن يخرج عن كل يوم مقدار ذلك بالمكاييل المصرية فهل تبرأ ذمته من الصوم أولا ؟ .

---

* المفتى : فضيلة الشيخ عبد الرحمن قراعة ، س ٢٩ - م ١٦٧ - ص ٣٨ - جمادى الآخرة ١٣٤٥ هـ - ديسمبر ١٩٤٦ م .

أجاب :

المنصوص عليه شرعاً أن حكم الصوم فى شهر رمضان إن أفطر فيه المسافر والمريض وماتا قبل الإقامة والصحة فلا يلزمهما الإيصاء به لعدم إدراكهما عدة من أيام أخر وأن من أفطر فيه بغير عذر لزمه الوصية بما قدر عليه وبقى فى ذمته حتى أدركه الموت بجميع ما أفطره لأن التقصير منه . ونصوا على أنه إذا أوصى بفدية الصوم يحكم بالجواز قطعاً لأنه منصوص عليه . وأما إذا لم يوص فتطوع بها الوارث . فقد قال محمد فى الزيادات إنه يجزئه إن شاء الله تعالى فعلق الإجزاء بالمشيئة لعدم النص كما نص على ذلك فى رد المحتار على الدر المختار بصحيفة ٧٦٦ من الجزء الخامس طبعة أميرية سنة ١٢٨٦ هجرية وفى نور الإيضاح وشرحه حيث قال ما نصه : (وإن لم يوص وتبرع عنه وليه أو أجنبى جاز إن شاء الله تعالى لأن محمداً قال فى تبرع الوارث بالإطعام فى الصوم يجزئه إن شاء الله من غير جزم وفى إيصائه جزم بالإجزاء) ا هـ . هو ونصوا على أنه إذا أوصى بفدية الصوم يخرج عنه من له التصرف فى ماله لوراثة أو وصاية من ثلث ما تركه لصوم كل يوم نصف صاع من بر أو دقيقه أو سويقه أو صاعاً من تمر أو زبيب أو شعير أو قيمته ودفع القيمة أفضل لتنوع حاجات الفقير - ونص فى الفتاوى المهدية بالصحيفة التاسعة من الجزء الأول على أن الصاع ما يسع ألفاً

وأربعين درهما عدس ونحوه . وقدره بعضهم بقدحين وثلثى قدح بالمصرى ودفع القيمة أفضل من دفع العين على المفتى به . وهذا فى السعة أما فى الشدة فدفع العين أفضل اهـ .

ومن هذا يعلم أن المقدار الواجب عن صوم كل يوم هو نصف صاع من بر أو دقيقه أو سويقه أو صاع تمر أو زبيب أو شعير أو قيمته وأن دفع القيمة أفضل من دفع العين على المفتى به فى وقت السعة . أما فى الشدة فدفع العين أفضل وأن مقدار نصف الصاع هو قدح وثلث قدح بالكيل المصرى وأن ذمة الموصى المتوفى تبرأ بهذا الإيصاء قطعاً حيث أوصى والله أعلم .

الموضوع : استحمام الصائم فى البحر لا يفطره

المبدأ

الاستحمام فى البحر والاغتسال بالماء للتبرد والتلفف بالثوب المبلول لا يفطر الصائم وإن وجد الماء فى داخله . لأن المفطر إنما هو الداخل من المنافذ .

سئل :

هل يجوز لصائم أن يستحم فى البحر . وهل هذا الاستحمام يفطر الصائم كما يقول بعضهم ؟

أجاب :

اطلعنا على هذا السؤال المتضمن الاستفتاء عن حكم استحمام الصائم فى البحر هل هو مفطر له أولا .

والجواب أن الاستحمام فى البحر وكذا الاغتسال بالماء للتبرد والتلفف بالثوب المبلول لا يفطر به الصائم وإن وجد برد الماء فى باطنه . وأفتى الإمام أبو يوسف بعدم كراهته لما رواه أبو داود من

---

* المفتى : فضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف ، س ٥٩ - م ٣٩٥ - رمضان ١٣٦٧ هـ - يولية ١٩٤٨ م .

أنه عليه السلام صب الماء على رأسه وهو صائم من العطش والحرارة وكان ابن عمر يبل الثوب ويلفه عليه وهو صائم ولأن فى ذلك عوناً له على أداء الصوم ودفع الضجر الطبيعى . ودخول جزء من الماء فى الجسم بواسطة المسام لا تأثير له لأن المفطر إنما هو الداخل من المنافذ وقد كره الإمام أبو حنيفة ذلك لما فيه من إظهار الضجر فى إقامة العبادة لا لأنه مفطر كما ذكره شارح الدر ومحشيه .

والله تعالى أعلم .

الموضوع : الإفطار غير العمد مفسد للصوم وموجب للقضاء فقط

المبادئ

١ - الأكل والشرب فى ليل الصيام مباح حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .

٢ - يحل الأكل والشرب إلى قبيل طلوع الفجر بأيسر زمن ويحرم الأكل والشرب إذا طلع الفجر .

٣ - الأكل والشرب ظنًّا بعدم طلوع الفجر ثم ظهر طلوعه مفسد للصوم وموجب للقضاء فقط عند الحنفية .

سئل :

جرت عادة الناس أنهم لا يكفون عن تناول الأكل والشرب وسائر المفطرات ليلا حتى أذان الفجر ومعلوم أن هناك إمساكاً والفرق بينه وبين الفجر عشرون دقيقة ، فهل يمسك الصائم حسب الإمساك أم حسب الفجر . وهل ما كان يفعله الرسول عليه الصلاة

---

* المفتى : فضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف ، س ٦١ - م ٦٠ - ص ٢٩ - رمضان ١٣٦٨ هـ - يونية ١٩٤٩ م .

والسلام من قراءة خمسين آية بعد الإمساك ويؤذن بعد ذلك للفجر هل هذا من الفضائل أم دليل قاطع على عدم إباحة تعاطى مفطر فى هذه الفترة ؟ .

أجاب :

إن الأكل والشرب فى ليلة الصيام مباح إلى أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر وهو سواد الليل وبياض النهار كما بينه رسول الله ﷺ فى حديث عدى بن حاتم ، وعن عائشة - رضى الله عنها - أن بلالا كان يؤذن بليل فقال رسول الله ﷺ : « كلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر » فأفاد ذلك أن غاية إباحة الأكل والشرب هى طلوع الفجر وهو الفجر الصادق فيحل له أن يأكل ويشرب إلى قبيل طلوعه بأيسر زمن ويحرم عليه الأكل والشرب إذا طلع الفجر ، فإن أكل وشرب على ظن عدم طلوعه ثم ظهر أنه كان قد طلع فسد صومه وعليه القضاء فقط عند الحنفية ، ويستحب تأخير السحور بحيث يكون بين الفراغ منه وبين الطلوع مقدار قراءة خمسين آية من القرآن كما فى حديث زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : « تسحرنا مع النبى ﷺ ثم قام إلى الصلاة وكان بين الأذان والسحور قدر خمسين آية » قال الحافظ ابن حجر فى الفتح : (وهذا متفق عليه فينبغى العمل به وعدم العدول عنه لكونه أفضل وأحوط اهـ .

وقال صاحب البدائع إنه يستحب تأخير السحور وإن محل استحبابه إذا لم يشك فى بقاء الليل ، فإن شك فى بقائه كره الأكل فى الصحيح اهـ . ومن هذا يعلم أن الإمساك لا يجب إلا قبل الطلوع وأن المستحب أن يكون بينه وبين الطلوع قدر قراءة خمسين آية ، ويقدر ذلك زمناً بعشر دقائق تقريباً . ومن هذا يعلم الجواب عن السؤال حيث كان الحال كما ذكر به والله أعلم .

الموضوع : جواز الفطر للأعذار

المبادئ

١ - المريض الذى يغلب على ظنه أن صومه يؤدى إلى زيادة مرضه أو إلى إبطاء برئه يجوز له الفطر فى رمضان .

٢ - المريض بالسكر المعروف إذا كان صيامه يفضى إلى عدم قدرته على أداء عمله الذى يتعيش منه يجوز له الفطر فى رمضان وعليه القضاء فقط بعد زوال عذره .

٣ - إذا تحقق اليأس من زوال العذر وجبت عليه الفدية بشرط استمرار عجزه إلى آخر حياته ولا قضاء عليه بعدها .

٤ - الفدية إطعام مسكين واحد عن كل يوم أكلتين مشبعتين أو إعطاؤه نصف صاع من بر أو دقيقه أو قيمة ذلك .

سئل :

عندى مرض سكر و لايمكننى الاستغناء عن الماء ولا عن الغذاء فإن صمت وامتنعت عن الماء والغذاء يحصل عندى ضعف ،

---

* المفتى : فضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف ، س ٦١ - م ٦١ - ص ٣٠ - رمضان ١٣٦٨ هـ - يونية ١٩٤٩ م .

ولا يمكننى القيام لمباشرة عملى الذى أستعين به على الحصول على معاش أولادى فضلا عما يلحقنى من الضرر . فما الحكم الشرعى ؟ .

أجاب :

إن الحنفية قد نصوا على أن المريض إذا غلب على ظنه بأمارة أو تجربة أو إخبار طبيب حاذق مأمون أن صومه يفضى إلى زيادة مرضه أو إبطاء برئه جاز له الفطر فى رمضان ، وكذلك يجوز الفطر للمريض بمرض السكر المعروف إذا كان صومه يفضى إلى عدم قدرته على أداء عمله الذى لابد لعيشه أو عيش من يعولهم ، وعليه أن يقضى ما أفطره من رمضان فى أيام أخر بعد زوال هذا العذر ، فإن تحقق اليأس من زواله وجبت عليه الفدية كالشيخ الفانى بشرط أن يستمر عجزه إلى آخر حياته ، ولا قضاء عليه فى هذه الحالة ، والفدية هى إطعام مسكين واحد عن كل يوم غداء وعشاء مشبعين أو إعطاؤه نصف صاع من بر أو دقيقه أو قيمة ذلك عن كل يوم .

ومن هذا يعلم الجواب عن السؤال حيث كان الحال كما ذكر به والله تعالى أعلم .

الموضوع : صيام المسافر

المبادئ

١ - الفطر للمسافر فى رمضان رخصة بشرط ألا تقل المسافة عن ٨٢ كيلو مترًا ، وإن صام فصومه أفضل إن لم يضره الصوم .

٢ - إذا كان يخشى الضرر من صيامه أو يظنه يكره له الصوم ، أما إذا كان يخشى الهلاك فإنه يجب عليه الفطر .

٣ - إذا بدأ سفره بعد الفجر لا يرخص له فى فطر هذا اليوم ، وإن أفطر فعليه القضاء والكفارة .

٤ - إذا بدأ سفره قبل الفجر أو واصل سفره لليوم الثانى جاز له الفطر بشرط تحقق المسافة آنفة الذكر .

سئل : من محمود وجدى :

ماحكم صيام المسافر . وهل يجب عليه الفطر بالسفر ، وإذا صام كان ثوابه أكثر ؟

---

* المفتى : فضيلة الشيخ حسن مأمون - س ٧٤ - م ٣٧٥ - ص ٢١٤ - ١٩ محرم ١٣٧٥ هـ - ٦ سبتمبر ١٩٥٥ م .

أجاب :

المسافر إذا ابتدأ سفره بعد الفجر لا يجوز له الفطر فى ذلك اليوم ، وإن أفطر فعليه القضاء والكفارة . أما إذا سافر قبل الفجر أو واصل سفره لليوم الثانى جاز له الفطر بشرط أن تكون مسافة السفر لا تقل عن ٨٢ كيلو مترا وإن صام فى هذه الحالة كان صومه أفضل إن لم يضره ، لقوله تعالى : ﴿ وأن تصوموا خير لكم ﴾[1] ولحديث (المسافر إذا أفطر رخصة وإذا صام فهو أفضل وكان ثوابه أكثر) فإن ظن الضرر كره له الصوم ، وإن خاف الهلاك وجب عليه الفطر . والله أعلم .

---

(١) من الآية ١٨٤ من سورة البقرة .

الموضـوع : مرض الربو مبيح للفطر شرعا

المبـــادئ

١ - استعمال دواء على هيئة نقط من الأنف مفسد للصوم .
٢ - المريضة بالربو يباح لها الفطر شرعًا .
٣ - باستمرار المرض معها طوال حياتها تأخذ حكم الشيخ الفانى وتفدى بإطعام مسكين عن كل يوم .
٤ - إذا برئت وقدرت على الصيام وجب عليها القضاء ولا اعتبار لما أخرجته من فدية .

سئل :

من السيدة / ..... قالت : إنها مريضة بحساسية فى الدم منذ خمس سنوات ، ويأتيها المرض على صورة زكام وانسداد فى التنفس صيفا وشتاء وتستعمل نقطًا للأنف كالماء ، ولا تستطيع التنفس مطلقًا بدونها ، وفى حالة عدم استعمالها يحدث لها ربو صدرى - وفى السنوات الأربع الماضية كانت تصوم مع استعمال هذا الدواء . وسألت هل تستمر فى الصيام مع استعمالها لهذه النقط أم أن صيامها

* المفتى : فضيلة الشيخ حسن مأمون - س ٧٨ - م ٥٦ - ص ٤٠ - ١١ رمضان ١٣٧٥ هـ - ٢٢ أبريل ١٩٥٦ م .

غير جائز . وماهو الواجب اتباعه شرعًا فى هذه الحالة . وهل يجوز لها الصيام مع الفدية ؟ .

أجاب :

إن مرض السائلة الموصوف بالسؤال من الأمراض المبيحة للفطر شرعًا ، واستعمالها هذه النقط يفسد صومها لأنها تدخل من الأنف ، والأنف والفم من المنافذ المعروفة التى يفسد الصوم كل ما يدخل الجوف عن طريقهما - فالأكل والشرب وإدخال نقط من الأنف تصل للحلق وتتسرب منه إلى الداخل كل ذلك مفسد للصوم لقوله عليه السلام : « الفطر مما دخل » وإذا استمرت حالتها كذلك طوال حياتها جاز لها أن تفدى بإطعام مسكين عن كل يوم من الأيام التى أفطرتها ، وتأخذ حكم الشيخ الفانى الذى لا يستطيع الصيام ، وإذا برئت من مرضها وقدرت على الصيام وجب عليها القضاء ولا اعتبار للفدية التى تكون قد أخرجتها قبل ذلك ، لأن شرط الانتقال من وجوب القضاء إلى الفدية استمرار العجز أو عدم استطاعة الصيام والله تعالى أعلم .

الموضوع : استعمال معجون الأسنان فى نهار رمضان

المبــدأ

استعمال فرشة الأسنان وحدها أو مع معجون الأسنان غير مفسد للصوم ما دام لم يتسرب منه شيء إلى الجوف ، فإن تسرب شيء إلى الجوف فسد الصوم .

سئل :

- من السيد - مصطفى مرسى بطلبه المقيد رقم ٥٥٦ سنة ١٩٥٩ كطبيب يخالط المرضى والزملاء والزبائن ويجد غضاضة من رائحة فمه فى الصوم وسأل هل هناك مانع دينى من استعمال فرشة الأسنان مع معجون الأسنان وهو صائم وهل يجوز استعمال السواك أم لا ؟

أجاب :

إن المنصوص عليه شرعًا أن إدخال الماء إلى الفم فى المضمضة لايفسد الصوم مادام لم يدخل شيء منه إلى جوف الصائم ، وكذلك لايفسده استعمال السواك فى نهار رمضان رطبًا كان السواك بالماء أو

---

* المفتى : فضيلة الشيخ حسن مأمون - س ٨٨ - م ٢٠٦ - ص ١٨٦ - ٢٦ رمضان ١٣٧٨ هـ - ٤ أبريل ١٩٥٩ م .

جافا ، ومثل السواك فى ذلك استعمال فرشة الأسنان سواء استعملها الصائم وحدها أو مع معجون أسنان مادام لم يبالغ فى ذلك إلى درجة يتسرب معها شىء من المعجون إلى جوف الصائم ، لأن ذلك هو الذى يترتب عليه إفساد الصوم ، لا استعمال الفرشة والمعجون مع التحرز وعدم المبالغة فى الاستعمال ، فإن لم يؤد استعمال الفرشة مع المعجون إلى دخول شىء من المعجون إلى جوف الصائم كان الصوم صحيحًا ولاشىء فى هذا الاستعمال ، وإن أدى إلى دخول شىء منه إلى الجوف كان مفسدًا للصوم . والله أعلم .

الموضوع : صوم أصحاب الحرف

المبادئ

١ - أباح الفقهاء لصاحب الحرفة الشاقة الذى ليس عنده مايكفيه وعياله الفطر وعليه القضاء فى أوقات لاتوجد فيها هذه الضرورة .

٢ - إن لازمته هذه الضرورة إلى أن مات لم يلزمه القضاء ولم يجب عليه الإيصاء بالفدية .

٣ - إن اعتقد أو غلب على ظنه عدم زوال العذر فى يوم من الأيام أخذ حكم الشيخ الفانى ووجبت عليه الفدية أو القيمة .

٤ - إذا زال عنه العذر وجب عليه شرعًا القضاء .

سئل :

من السيد / عبد الرحمن عيسى - المصرى المقيم بالعراق بطلبه المقيد برقم ٣٣٥ سنة ١٩٧٧ المتضمن أن السائل شاب مصرى يعمل فى بغداد بالعراق ، وعندما حل شهر رمضان الماضى نوى الصيام ولم يستطع أن يصوم فى أول يوم إلا لغاية الساعة العاشرة صباحًا حيث درجة الحرارة مرتفعة جدا هناك ، وظروف

عمله تحتم عليه أن يكون أمام درجة حرارة (٢٤٥°) وحاول أن يكمل اليوم الأول فلم يستطع كما لم يستطع أن يصوم أى يوم منه بعد ذلك ، لأن ظروف عمله والجو الحار الشديد الذى لم يتعوده ، كل هذه العوامل لا تمكنه من صيام شهر رمضان . وطلب السائل بيان الحكم الشرعى فى هذا الموضوع ، وهل يحل له الإفطار شرعًا أو لا ؟ وفى حالة إفطاره هل يجب عليه القضاء فقط أو القضاء والكفارة أو الكفارة فقط وفى حالة وجوب الكفارة هل يمكن أن يقوم بها أهله فى مصر ، أو يقوم هو بإخراج مبلغ من المال للفقراء والمساكين فى محل إقامته وعمله ، وماذا يدفع عن اليوم الواحد ؟

أجاب :

المقرر فى فقه الحنفية أن الصحيح المقيم إذا اضطر للعمل فى شهر رمضان وغلب على ظنه بأمارة أو تجربة أو إخبار طبيب حاذق مسلم مأمون أن صومه يفضى إلى هلاكه أو إصابته بمرض فى جسمه ، أو يؤدى إلى ضعفه عن أداء عمله الذى لابد له منه لكسب نفقته ونفقة عياله - فإنه فى هذه الحالة يباح له الفطر أخذًا بما استظهره ابن عابدين من إباحة الفطر للمحترف الذى ليس عنده ما يكفيه وعياله . وما نص عليه الفقهاء من إباحة الفطر للخباز ونحوه من أرباب الحرف الشاقة - والواجب على هؤلاء العمال إذا أفطروا مع

---

* المفتى : فضيلة الشيخ محمد خاطر - س ١١٣ - م ١٢٩ - ص ١٠٠ - ٢٤ رمضان ١٣٩٨ هـ - ٢٨ أغسطس ١٩٧٨ م .

هذه الضرورة أن يقضوا ما أفطروه من رمضان فى أوقات أخرى لا توجد فيها هذه الضرورة عندهم ، فإن لازمتهم هذه الضرورة إلى أن ماتوا لم يلزمهم القضاء ولم يجب عليهم الإيصاء بالفدية . وتطبيقًا لذلك ففى الحادثة موضوع السؤال يجوز شرعًا للسائل أن يفطر فى رمضان لعدم استطاعته الصوم ، لأنه يعتبر من أصحاب الحرف الشاقة الذين أباح لهم الفقهاء الإفطار ، ويجب عليه شرعًا قضاء ما أفطره من رمضان فى أوقات أخرى لا توجد فيها هذه الضرورة عنده ، فإن لازمته هذه الضرورة إلى أن مات لم يلزمه القضاء ، ولم يجب عليه الإيصاء بالفدية لأن وجوب الإيصاء فرع وجوب القضاء ولم يجب عليه القضاء فى هذه الحالة . وإن اعتقد السائل أو غلب على ظنه أنه لن يزول عنه هذا العذر فى يوم من الأيام فإنه فى هذه الحالة يأخذ حكم الشيخ الفانى - وتجب عليه الفدية - وهى أن يطعم فقيرًا عن كل يوم يفطره كالفطرة بأن يملكه نصف صاع من بر أو صاع من شعير أو تمر أو قيمة ذلك عند الحنفية ، ويقوم بالإطعام أو إخراج القيمة بنفسه أو ينيب عنه من يقوم بذلك ، فإذا زال عنه العذر بأن عاد إلى العمل فى جو يمكنه فيه الصيام وجب عليه شرعًا أن يقضى ما أفطره . ومن هذا يعلم الجواب إذا كان الحال كما ورد بالسؤال . والله سبحانه وتعالى أعلم .

الموضوع : صوم مريض القلب

المبادئ

١ - مريض القلب أو أى مرض آخر عليه أن يستنير برأى الطب فيما إذا كان الصوم يضره أو يستطيعه دون ضرر .

٢ - المريض الذى يرجى برؤه يقضى أيام فطره ، أما إن كان مرضه مزمنًا ولا أمل فى البرء منه فيطعم عن كل يوم مسكينًا .

سئل :

هل يصوم مريض القلب ؟

أجاب :

صوم شهر رمضان من أركان الإسلام . قال الله تعالى فى سورة البقرة ﴿ **يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * أيامًا معدودات فمن كان منكم مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر ..** ﴾ الآيات رقم ١٨٣ ،

---

* المفتى : فضيلة الشيخ جاد الحق على جاد الحق - س ١١٣ - م ١٨٥ - ١١ فبراير ١٩٧٩ م .

١٨٤ ، ١٨٥ ووقال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : (بنى الإسلام على خمس : شهادة أنَ لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج) ولا خلاف بين المسلمين فى فرض صوم شهر رمضان ووجوب الصوم على المسلم البالغ العاقل المطيق للصوم . وقد وردت الأخبار والأحاديث الصحاح والحسان فى فضل الصوم بأنه عظيم وثوابه كبير من هذا ماثبت فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال مخبرًا عن ربه : « يقول الله تعالى كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به .. » وقد فضل الصوم باقى العبادات بأمرين :

أولها : أن الصوم يمنع من ملاذ النفس وشهواتها ما لا يمنع منه سائر العبادات .

والأمر الآخر أن الصوم سر بين الإنسان المسلم وربه لا يطلع عليه سواه ، فلذلك صار مختصا به أما غيره من العبادات فظاهر ، ربما يداخله الرياء والتصنع . والعبادات فى الإسلام مقصود منها تهذيب المسلم وإصلاح شأنه فى الدين والدنيا . ومع أوامر الله تعالى ونواهيه جاءت رحمته بعباده إذا طرأ على المسلم ما يعوقه عن تنفيذ عبادة من العبادات أو اضطر لمقارفة محرم من المحرمات فأباح ما حرم عند الضرورة قال تعالى : ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد

فلا إثم عليه ﴾[1] وفى عبادة صوم رمضان بعد أن أمر بصومه بقوله تعالى : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه[2] ﴾ أتبع هذا بالترخيص بالفطر لأصحاب الأعذار . فقال جل شأنه : ﴿ ومن كان مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر[3] ﴾ كما رخص للمتضرر من استعمال الماء فى الطهارة للصلاة بالتيمم بالتراب - وللمريض فى صوم شهر رمضان حالتان :

الأولى : أنه يحرم عليه الصوم ويجب عليه الفطر إذا كان لا يطيق الصوم بحال أو غلب على ظنه الهلاك أو الضرر الشديد بسبب الصوم .

والحالة الأخرى : أنه يستطيع الصوم لكن بضرر ومشقة شديدة ، فإنه يجوز للمريض فى هذه الحالة الفطر وهو مخير فى هذا وفقًا لأقوال فقهاء الحنفية والشافعية والمالكية . وفى فقه أحمد بن حنبل أنه يسن له الفطر ويكره له الصوم . هذا إذا كان المسلم مريضًا فعلا ، أما إذا كان طبيعيًا وظن حصول مرض شديد له فقد قال فقهاء المالكية إن الشخص الطبيعى إذا ظن أن يلحقه من صوم

---

(١) من الآية ١٧٣ من سورة البقرة .

(٢) من الآية ١٨٥ من سورة البقرة .

(٣) من الآية ١٨٥ من سورة البقرة .

شهر رمضان أذى شديد أو هلاك نفسه وجب عليه الفطر كالمريض ، وقال فقهاء الحنابلة إنه يسن له الفطر كالمريض فعلا ويكره له الصوم وقال فقهاء الحنفية إذا غلب على المسلم أن الصوم يمرضه يباح له الفطر . أما فقهاء الشافعية فقد قالوا إذا كان الإنسان طبيعيًا صحيح الجسم وظن بالصوم حصول المرض فلا يجوز له الفطر ما لم يشرع فى الصوم فعلا ويتيقن من وقوع الضرر منه . من هذا يتضح أن المريض مرخص له فى الإفطار فى رمضان بالمعايير السابق بيانها . وكذلك الشخص الطبيعى إذا خاف لحوق مرض به بالصيام بالتفصيل المنوه عنه فى أقوال فقهاء المذهب . ولكن ما هو المرض الذى يوجب الفطر أو يبيحه ؟ لا جدال فى أن نص القرآن الكريم الذى رخص للمريض بالإفطار فى شهر رمضان جاء عامًا لوصف المرض ولذلك اختلفت أقوال العلماء فى تحديده . فقال الكثيرون إذا كان مرضًا مؤلمًا مؤذيًا أو يخاف الصائم زيادته أو يتأخر الشفاء منه بسبب الصوم ولا شك أنه لا يدخل فى المرض المبيح للفطر المرض اليسير الذى لا يكلفه مشقة فى الصيام ، ولذلك قال فريق من الفقهاء إنه لا يفطر بالمرض إلا من دعته ضرورة المرض إلى الفطر ، ومتى احتمل الضرورة معه دون ضرر أو أذى لم يفطر . ومن هذا يمكن أن نقول إن معيار المرض الموجب أو المبيح للفطر بالتفصيل السابق معيار شخصى ، أى أن المريض هو الذى يقدر مدى حاجته إلى الفطر وجوبًا

أو جوازًا ، وله بل وعليه أن يأخذ برأى طبيب مسلم متدين يتبع نصحه فى لزوم الفطر أو أن الصيام لا يضره . ومن هنا نعلم أن مريض القلب أو أى مرض آخر عليه أن يستنير برأى الطب فيما إذا كان الصوم يضره أو يستطيعه دون ضرر ، وليعلم المسلم أن الله الذى فرض الصوم قد رخص له فى الفطر عند المرض . وإذا أفطر المريض وكان يرجى له الشفاء قضى أيام فطره ، وإن كان مرضه مزمنًا لا أمل فى البرء منه أطعم عن كل يوم مسكينًا ، ومن الأعذار المبيحة للفطر بالنسبة للنساء الحمل والإرضاع . ففى فقه المذهب الحنفى أنه إذا خافت الحامل أو المرضع الضرر من الصيام جاز لهما الفطر سواء كان الخوف على نفس المرضع والحامل وعلى الولد والحمل جميعًا ، أو كان الخوف على نفس كل منهم فقط ، ويجب على الحامل والمرضع القضاء عند القدرة بدون فدية وبغير تتابع الصوم فى القضاء ، ولا فرق فى المرضع من أن تكون أمًّا أو مستأجرة للإرضاع ، وكذلك لا فرق بين أن تتعين للإرضاع أو لا ، لأن الأم واجب عليها الإرضاع ديانة والمستأجرة واجب عليها الإرضاع بحكم العقد . وفى الفقه المالكى أن الحامل والمرضع سواء كانت هذه الأخيرة أما أو مستأجرة إذا خافتا بالصوم مرضًا أو زيادته سواء كان الخوف على نفس كل منهما أو على الولد أو الحمل يجوز لهما الإفطار وعليهما القضاء ، ولا فدية على الحامل بخلاف المرضع فعليها الفدية ، أما إذا خافتا الهلاك أو وقوع ضرر شديد لأنفسهما

أو الولد فيجب عليهما الفطر ، وإنما يباح الفطر للمرضع إذا تعينت للإرضاع . وقد أجاز فقهاء الحنابلة للحامل والمرضع الفطر إذا خافتا الضرر على أنفسهما والولد والحمل جميعا ، أو خافتا على أنفسهما فقط ، وعليهما فى هاتين الحالتين القضاء فقط . أما إذا كان الخوف من الصوم على الولد فقط فلهما الفطر وعليهما القضاء والفدية ، وأوجب فقهاء الشافعية على الحامل والمرضع الفطر فى رمضان إذا خافتا بالصوم ضررًا لا يحتمل فى أنفسهما والولد جميعًا أو على أنفسهما فقط ، وعليهما القضاء فقط فى الحالتين الأوليين أما فى حالة الخوف على الولد فقط فعليهما القضاء والفدية وبعد : فإن الله قد يسر للمسلمين عبادته فقال سبحانه : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم**[1] ﴾ وإن الله سائل كل مسلم عن أمانة العبادة وغيرها من الأمانات حفظ أو ضيع وهو العليم بالسرائر المحاسب عليها ، فليتق الله كل مسلم وليؤد ما فرض الله عليه ولا يتخلق أعذارًا ليست قائمة بذات نفسه توصلا للتحلل من تأدية العبادة . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، ويوفق للخير والحق .

---

(١) من الآية ١٦ من سورة التغابن .

الموضوع : الإفطار بدون عذر فى نهار رمضان

المبادئ

١ - من أنكر ما ثبتت فرضيته - كالصلاة والصوم . أو حرمته ، كالقتل والزنى - بنص شرعى قطعى فهو خارج عن ربقة الإسلام :

٢ - الشاب الذى أفطر فى نهار رمضان عمدًا من غير عذر شرعى إن كان جاحدًا لفريضة الصوم منكرًا لها كان مرتدا عن الإسلام . وإلا كان مسلمًا عاصيًا فاسقًا يستحق العقاب شرعًا .

٣ - يجب عليه قضاء ما فاته من الصوم باتفاق فقهاء المذاهب ، وليس عليه كفارة فى حالة عدم الجحود ، وذلك فى فقه الإمام أحمد بن حنبل وقول للإمام الشافعى .

٤ - يقضى فقه الإمامين أبى حنيفة ومالك وقول فى فقه الإمام الشافعى بوجوب الكفارة عليه إذا ابتلع ما يتغذى به من طعام أو دواء . وهو الذى مالت إليه الفتوى .

---

* المفتى : فضيلة الشيخ جاد الحق على جاد الحق - س ١١٥ - م ١٢٩ - ٢ شعبان ١٤٠١ هـ - ٢٢ يونية ١٩٨١ م .

٥ - كفارة الفطر عمدًا فى صوم شهر رمضان هى تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا .

سئل :

بالطلب المقدم من السيد / أ . ع . أ - المقيد برقم ١٦ سنة ١٩٨١ الذى يطلب فيه إفادته عن الحكم الشرعى لشاب فى الخامسة والعشرين من عمره وليس عنده أى عذر شرعى من مرض أو سفر أفطر عدة أيام فى شهر رمضان المعظم . فهل تجب عليه كفارة أم لا ؟

أجاب :

أجمع المسلمون على أن من أنكر ما ثبتت فرضيته - كالصلاة والصوم ، أو حرمته كالقتل والزنى - بنص شرعى قطعى فى ثبوته عن الله تعالى وفى دلالته على الحكم وتناقله جميع المسلمين كان خارجًا عن ربقة الإسلام لا تجرى عليه أحكامه ولا يعتبر من أهله . قال ابن تيمية فى مختصر فتاويه (ومن جحد وجوب بعض الواجبات الظاهرة المتواترة كالصلاة . أو جحد تحريم المحرمات الظاهرة المتواترة كالفواحش والظلم والخمر والزنى والربا . أو جحد حل بعض المباحات المتواترة كالخبز واللحم والنكاح فهو

كافر) لما كان ذلك : فالشاب الذى أفطر فى نهار رمضان عمدًا من غير عذر شرعى . إذا كان جاحدًا لفريضة الصوم منكرًا لها كان مرتدا عن الإسلام ، أما إذا أفطر فى شهر رمضان عمدًا دون عذر شرعى معتقدًا عدم جواز ذلك ، كان مسلمًا عاصيًا فاسقًا يستحق العقاب شرعًا ، ولا يخرج بذلك عن ربقة الإسلام ، ويجب عليه قضاء ما فاته من الصوم باتفاق فقهاء المذاهب ، وليس عليه كفارة فى هذه الحالة فى فقه الإمام أحمد بن حنبل وقول للإمام الشافعى ، ويقضى فقه الإمامين أبى حنيفة ومالك ، وقول فى فقه الإمام الشافعى بوجوب الكفارة عليه إذا ابتلع ما يتغذى به من طعام أو دواء أو شراب . وهذا القول هو ما نميل إلى الإفتاء به – وكفارة الفطر عمدًا فى صوم شهر رمضان هى كفارة الظهار المبينة فى قوله تعالى : ﴿ **والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير * فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم** ﴾ الآيتان ٣ ، ٤ من سورة المجادلة . نسأل الله لنا وللمسئول عنه قبول توبتنا وهدايتنا إلى العمل بأحكام الدين . والله سبحانه وتعالى أعلم .

الموضوع : بدء الصيام وانتهاؤه فى النرويج

المبادئ

١ - سنة الله فى التكاليف ترد على غالب الأحوال دون التعرض لبيان حكم ما يخرج على هذا الغالب ، وفى كل تكليف تخفيفات من الله ورحمة .

٢ - الخطاب بفرض الصوم موجه إلى المسلمين أيا كانت مواقعهم على أرض الله ، دون تفرقة فى أصل الفرضية بين جهة يطول ليلها ، أو يستمر الليل أو النهار دائمًا .

٣ - المسلمون المقيمون فى البلاد التى يطول فيها النهار ويقصر الليل مخيرون بين أمرين :

(أ) اتخاذ مكة والمدينة معيارًا للصوم ، فيصومون قدر الساعات التى يصومها المسلمون فى واحدة من هاتين المدينتين .

(ب) حساب وقت الصوم باعتبار زمنه فى أقرب البلاد اعتدالاً إليهم . فإن تعذرت المعرفة بالحساب يؤخذ بالساعات التى يصومها المسلمون فى مكة والمدينة .

---

* المفتى : فضيلة الشيخ جاد الحق على جاد الحق - س ١١٨ - م ٢ - ٩ ربيع الأول ١٤٠٢ هـ - ٣ يناير ١٩٨٢ م .

٤ - يبدأ الصوم من طلوع الفجر الصادق حسب موقعهم على الأرض . دون نظر أو اعتداد بمقدار ساعات الليل أو النهار ، ودون توقف في الفطر على غروب الشمس أو اختفاء ضوئها بدخول الليل فعلاً .

سئل :

من السيد السفير مدير إدارة العلاقات الثقافية - وزارة الخارجية ...

بالكتاب رقم ١٦٥ / ٨٠٥٥ - ١٦ / ٦ / ١٩٨١ المقيد برقم ٢١٤ سنة ١٩٨١ قال :

إن سفارتنا فى أوسلو أرسلت برقية بتساؤلات عن أحكام الصيام فى النرويج ، باعتبارها بلدًا له نظامه الجغرافى الخاص من ناحية استمرار ضوء النهار طوال الأربع والعشرين ساعة تقريبًا .

وقد أرفقت ترجمة لصورة هذا الكتاب تخلص فى الآتى :

إنه بمناسبة حلول شهر رمضان على الأمة الإسلامية فإن الجالية الإسلامية فى النرويج فى حاجة إلى أن تعرف - بقدر الإمكان - القواعد التى تتحكم فى الآتى :

١ - إذا كانت بداية كل من الشهر المقدس وعيد الفطر محددة على أساس التقويم .

٢ - قدر مدة الصيام اليومى ، آخذًا فى الاعتبار ظروف الأحوال الخاصة للترويج ، وضوء النهار الذى يمتد تقريبًا كل الأربع والعشرين ساعة خلال فترة الصيف[1].

---

(١) راجع الفتوى كاملة فى « كتاب الفتاوى » المجلد الثامن ص ٢٧٩٩ .

فهرس

الصفحة

الصفحة

« بنك ناصر الاجتماعى »

تعمل الهيئة العامة لبنك ناصر الاجتماعى على تحقيق :

● مجتمع الكفاية والعدل وتوسيع وتعميق قاعدة التكافل الاجتماعى .

● إرساء قواعد نظام مصرفى لا يعتمد على الفائدة أخذاً أو عطاء .

● استثمار أموال المودعين فى مشروعات لخدمة المجتمع والبيئة فى مشروعات بواسطة البنك مباشرة أو المشاركة مع الغير أو المرابحة الشرعية ... إلخ .

● تمويل من لا مال له ومنح قروض حسنة فى حالات الزواج والمرض والحاجات الملحة ودخول المدارس ولطلبة الجامعات ... إلخ .

● منح قروض إنتاجية عينية بقصد تغيير أنماط الإنتاج والوصول بالتطور العلمى التكنولوچى للمواطن لرفع إنتاجيته وزيادة دخله .. وقد بلغ رصيد هذه القروض خلال النصف الأول من العام الحالى ما يقرب من ١٩ مليون جنيه .

● منح معاش لمن لا معاش له وخاصة مساعدة طلبة الجامعات حتى التخرج وبشرط النجاح .

● العمل على إحياء فريضة الزكاة لتصبح تياراً عاما فى المجتمع من خلال لجان الزكاة المنتشرة بالمساجد والمدارس وكليات الجامعات والنوادى والهيئات والمدارس ... إلخ .

بلغت حصيلة الزكاة ما يقرب من عشرة ملايين صرفت فى المصارف الشرعية وفى أماكن جمعها ولنٍ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ومن لا يسألون الناس إلحافاً بمعرفة اللجان والتى بلغ عددها ٣٥٠٠ لجنة .

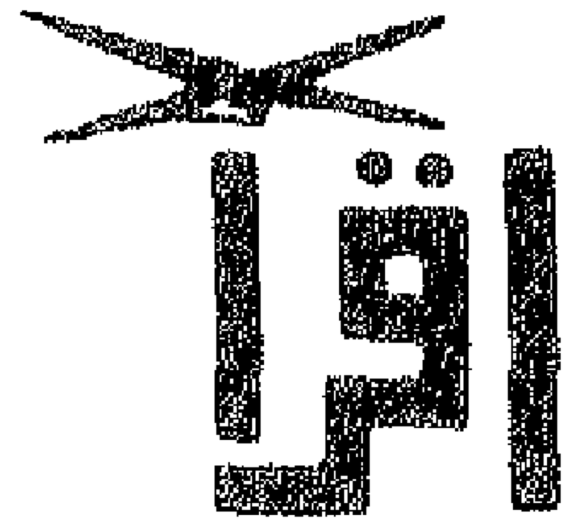
قامت هذه اللجان بحل مشاكل البيئة من خلال تبادلٍ المنفعة - فأنشأت العديد من المشروعات لخدمة البيئة وتحقيقاً لآمال وحاجة الجماهير . فأقامت العديد من المساجد الجامعة (مجمع خدمات) والمعاهد الدينية - ومدارس اللغات ودور الحضانة ومستشفيات ومستوصفات للعلاج الخيرى ودور المناسبات وسيارات دفن الموتى والمقابر وحلقات تحفيظ القرآن. وفصول التقوية وفستان العيد وبدلة العيد لليتامى من الأطفال ومآدب الرحمن لعابر السبيل والمستحق - كما صرفت العديد من الأجهزة التعويضية لأبنائنا الطلبة (١٥٠٠ جهاز شلل أطفال - ١٥٠ سماعة أذن - ٤٠٠٠ نظارة) .

كما قامت بتنظيم أفواج الحج للسادة أعضاء لجان الزكاة والمزكين وعملاء البنك - ويتحمل البنك كافة المصاريف الإدارية لمزاولة نشاط الزكاة على مستوى الجمهورية وبالله التوفيق .

رقم الإيداع		١٩٨٧ / ٣٦٤٥
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢٠٥٠-٧	ISBN

١ / ٨٧ / ٦٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش معهم .. كما عاش الآباء والأجداد .. وتكوِّن في مكتبتك موسوعة متفرقة في فروع المعرفة المختلفة .

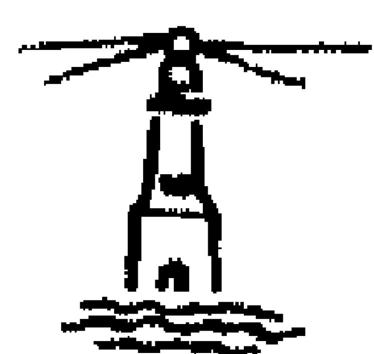
وإيمانًا منا بأن القراءة هي أقصر الطرق إلى الوعي والثقافة .. فقد يسَّرنا لك ذلك في إخراج جيد .. وسعر زهيد .

٤٠٥٨٣٦ / ٠١

اقرأ

فوزية مهران

آية وبشرى



دار المعارف

اقرأ

[٥٣٢]

آية وبشرى

فوزية مهران

آية وبشرى



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

مقدمة

لما رحل عنا رفيق عمرى.. وجدتنى فى غمرة الأحزان أقول:

« لا أفرح بعدها أبدًا »

- ولا يخفق قلبي بسرور مهما حييت ومهما كانت البشرى - وسط الخطب.. وبين الخوف والجزع.. أحسست أنى ظلمت نفسى - أقرر ما ليس لى به علم.. أقول ما لا يصح أو ينفع.. أهتف بما لا يجوز - وأنطق بغير الحق.

- إن هى إلا زلزلة الموقف.

ورفعت وجهى إلى السماء « يارب أعنى »

عدت فتذكرت.

« لاخلاص ولا منجى إلا فى التوجه إلى الله.. والأنس به »

لا يغدو وحيدًا من كان الله معه.. وعلىّ أن أحرص على هذه « المعية » الفائقة.

لا يخشى الوحدة من يذكر الله ويطمئن قلبه به.

لا يعود « فردًا » من يسلم وجهه إليه ولا يعقب لحكمه..

لا يموت من القهر من يأتى الله بقلب سليم.. ويعمل صالحًا..
ويسأل فرجًا وفرقانًا..

سبحانه وسعت رحمته كل شىء.. ووسع كل شىء علمًا
يجعل الله له آية.. وحنانًا من لدنه وعلمًا..
ويجعل له نورًا وودًّا.
هدأت لما تذكرت
تذكرت فأبصرت..
رطبت جوفى ولسانى بآية بينة..

﴿وبشر الصابرين﴾

جاءتنى الآية بالبشرى -
تدفق النور علىّ.. ربط الله على قلبى. عبرت إلى رؤيا مبصرة..
قرن الصبر بالبشرى -
وهكذا آيات الكتاب الحكيم - هدى وبشرى للمؤمنين -
فيها العلاج والشفاء.. ومؤشر الراحة والطمأنينة.. ولمعة الخروج من الظلمات إلى النور..

إقامة القرآن.. تعنى ترقية الضمير والوجدان.. تترك الخوف والحزن.. تربية النفس إعادة صياغتها من جديد.. استلهام المواقف والأحداث.. الموعظة الحسنة.. تقييمنا للأشياء بمقياس الدين.. به نسترد توازننا.. ننمى سلامنا الداخلى والعام.. نقيم الميزان فى كل

ما يصدر عنا من معاملات، ونركن إلى حب الله.

من يحبه الله أكثر.. يختبره دومًا ويبتليه ليظهر معدنه.. ويصقل قوامه.. يصنعه على عينه.. ويوحى إليه بسلاح الصبر الجميل.. أسلوب «أولى العزم من الرسل»

ولا يذرنا أفرادًا فى ساحة الصراع..

تمدنا آياته بالجلاء والوضوح .. وتعمل فينا باستمرار.. تهيئ لنا فرصة الاختيار.. وتجيشنا وسط الملمات والخطوب كتداعى المعانى.. ولحظات التنوير وبشرى الاكتشاف والإدراك.

فإذا الشدة تشد أزرنا، وتثبت أقدامنا.. وتعدنا للجهاد..

وفى ضوء هذه المعرفة يكون التحول.. والتطهر.. والتطوير..

ندرك أن علينا الاحتمال.. والصمود.. والنهوض من جديد..

نحيل الحزن دفعة خلاقة للاستمرار والعطاء.. وتخفيف عناء وشقاء الآخرين..

نمارس الصبر الجميل - حيث لا شكوى فيه - ونقوم للعمل الصالح، ففيه نفع للناس.. ودفء ومشاركة.. وفيه عزاء كبير.

نتصاعد بالحب لتتسع دائرته للناس أجمعين..

نغرس بذرة.. نعلم طفلا.. ننهض بواجب مساعدة ومعونة..

يعود الصبر نبيلا وجميلا

وتأتينا البشرى دائما.. يمدنا بمعجزة الشروق.. وبداية ساطعة كل حين..

ووعد بالنصر والعزة والفوز المبين.

الفرحة لا تخبو فى القلوب المؤمنة أبدًا.

ومن منا لا يخفق قلبه لقطرة ندى تعانق بتلات زهرة واعدة..

من لا ينشرح صدره أمام كلمة طيبة.. رؤيا صادقة.. لمسة دفء ومودة.. بسمة وليد لا ينطفىء شعاع النور الداخلى.. يظل يتصاعد من الأعماق، مع الالتزام بالعمل الصالح، والاهتمام بالآخرين.. والسبق إلى الخيرات.

حقًا يومًا ما يرحل الأحباء..

ولكن يبقى الحب.. ويبقى السعى والطريق.. وموعد باللقاء بهيج.

تعلق نظر الصغيرة بى..

أعرف ما يؤرقها.. ويؤجج الصمت لديها.. حرقة السؤال..

قلت أعيد التلاوة عسى أن نجد مخرجًا لما يضنيها..

﴿ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون. ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾.

سرى فى الغرفة روح جديد.. صار الهواء أرق وأنق.. نظم إلهى اهتزت له الجدران - نعتصم بالصبر الجميل - ولنا البشرى- أضاء وجه الصبية.. تواصل بداخلها العزف المقدس.. تصاعد النور الداخلى الكامن لديها - فى مرحلة النقاء والبراءة والوسع -

قالت فجأة - وكأنها تتخفف من حملها -

- كل ما يأتى من عند الله فهو خير؟

هززت راسى أن نعم - وقبل أن أفتح فمى لأزيد -

قالت : حتى الموت ؟

- الموت قدر بيننا..

سنة الله فى خلقه.. نولد.. ونموت.. ثم نبعث من جديد

- الله الذى خلق الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملا - إن هى إلا رحلة كتبها الله لنا.. منه تبدأ وإليه تعود وأمامنا حرية فسيحة ما بين البدء والرجوع.

وهبنا هداية العقل والدين..

وأمدنا بمنهج العمل الصالح.. والعيش النبيل..

رحل عزيز علينا - وإنا لله وإنا إليه راجعون -

ويبقى وعد اللقاء ممتدًا.. وموعد النعيم قائمًا.. جاء موعده.

- والله لا يؤخر نفسًا إذا جاء أجلها -

ومنذ البدء رحل الأحبة والشهداء والمجاهدون..

- وبنفسى أنت يارسول الله..

وشجرة الإنسانية يانعة ومورقة بإذن ربها -

يستوى من بينها أئمة وعلماء.. ثوار ومصلحون.. ونساء صابرات.. ويبقى دائمًا الطريق.. ومحبة فى الله.. وجهاد فى سبيله.

فوزية مهران

لو كان البحر

البحر يمد بى.

● يعلو رغوه.. تخب خيوله البيضاء وتستبق بلغ الوجد - قاموس البحر - لدى.. وانسكب إلى الأعماق واجتاحنى الشوق..

فيض من الذكريات.. والرؤى الجميلة..

يتراءى لى وجهه بين الأمواج.. تقيًا.. نقيًا.. رائقًا.. يفيض الدمع من عينى.. أتشبث «بحاجز الصبر».. ألتمس الأنس بالله.. أتلو آيات من الكتاب، تأتينى كلمات الله رابية..

موحية.. تبرد الجوف وتربط على القلب وتتنزل بردًا وسلامًا..

فى عالم يموج بالمأساة.. يفيض بالحزن.. ينذر بالانفجار.. ويصخب بالعراك.. لا نركن أبدًا إلى الفرار.. نعمل على تثبيت القلوب، والأقدام نتشبث بكلمات الله.. نستعين بها.. نغوص داخلها.. نستلهم نهجًا ومخرجًا. وهى - من قبل ومن بعد - قائمة باقية.. تهيب بالمجاهدين أن يتقدموا.. والجنود الحق أن يسيروا.. أن يطلعوا..

- وأن لو استقاموا على الطريق ستكون الغلبة لهم والعزة..

ومهما يكن الأمر لا يأفل الأمل أبدًا.. ولا يفقد الجهاد أو الصمود فاعليته أردد ما يحضرنى من الذكر..

أتلو كلمات مبينة.. ومبصرة.. أقرأ..

وجاءتنى الآية بالبشرى.

﴿قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى﴾

فى البدء كانت كلمات الله هى مفاتيح العلم والحكمة والمعرفة.

كلمات عظيمة الجدة.. دائمة النضرة.. ريانة العطاء.. مورقة ومثمرة ولا تفرغ أبدًا.

ولو أن ما فى الأرض جميعًا من شجر أقلام - والبحر يمده من بعده سبعة أبحر - وكل مسطحات الماء مداد.. ما نفدت كلمات الله.

أردت النفاذ فى معني - لا تنفد أبدا.

أى أنها محيطة بكل شيء - وعلمه يسع كل شيء - تهب علمًا وحكمًا ودفئًا

هى جوهر العلم.. وإحاطة العليم.. ووسع العلام.. وهى لذلك لا تنفد أبدًا.

أتتنى فكرة ملهمة.

كما جاءتنى الآية بالبشرى.

- ذلك أننا كلما نعيد التلاوة نكتشف معنى جديدًا.. وتتجسد لنا رؤية «طازجة» معاصرة.

نتبين للموقف بعدًا آخر.. وعمقًا أكبر.. وتبرق لحظة لم نكشفها من قبل. وعيت معنى أن تكون لكل زمان ومكان.

كلمات نتلوها فتبحر بنا إلى آفاق فسيحة.. ومدن بعيدة.. وأقوام غابرة.. وتفعل وتصور كلما أعدنا التلاوة من جديد.

وهى بذلك لا تنفد أبدًا.

تقطر فى النفس عذوبة.. وتمدك بنور الهداية.. وتجذب إلى سواء السبيل.

وفى كل العصور تومض برؤى مستقبلية مبهرة.. وعلى مختلف الأقوام والأزمان والقرى..

نقرأ.. وفى كل مرة نكتشف معنى لم نلتفت إليه من قبل.. ويبرق خاطر لم نكن نلحظه.. ويبهرنا بيان غاب عنا إعجازه فى قراءة سابقة.

ويتبدى الإيقاع موحيًا.. ومؤشرًا متصلا.. ولا ينفد الإيحاء أبدًا.

كلمات مصورة ومجسدة.. نابضة بالحركة.. وبالحياة زاخرة، وتليق بكل العصور.

- علم بها آدم الأسماء كلها - مفردات حب ومودة ومشاركة ترى بها نفسك فردًا فائقًا.. وجمعًا متراصًا متآخيًا.

كلمات تهب بسطة فى العلم والعقل، وتجعل النفوس تشرق بنور

ربها رباطًا للمحبة والقربى.. تجعل لنا ودًا وحكمًا.

إشعاع دفء وسط دياجير العتمة وظلمة القسوة.. وحدة الصراع كلمات باقية.. عاملة.. قديمة.. جديدة.. مفعولة وفاعلة.. تجدها من حولك ومن بين يديك، شاهدة وحاضرة وواعدة.

«هؤلاء الكلمات» - كما سماها رسول الله.. وأشار إليها بإشارة «العقلاء» لأنها من عند الله.. وهي عين الحكمة واليقين - وتنزلت تبيانًا لكل شيء.

فى البحر يرينا الله من آياته الكبرى..

بصائر لنهتدى.

يأخذنا البحر بقوة.. يشحذ منا الفكر.. ويوقظ قوى التأمل لدينا.. يلمس مياهنا الجوفية العميقة.. يجعلها تهتز وتموج بالحركة.. فى البحر تغمرنا كلمات الله.. وتتجلى قدرته.. وتجيئنا آيات بينة.. وضرب الله المثل فى كتابه بالبحر دائمًا.. فى مواضع كثيرة ومتعددة.. عند اشتداد الكرب.. والدعاء الحار بالنجاة. والجزع من الغرق.. بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج.. وريح قاصف.. ثم يحملنا على ذات ألواح ودسر.. لنبتغى من فضله. ونأكل لحمًا طريًا.. ونستخرج حلية غالية.

ويلفتنا إلى بديع صنعه وإعجاز قدرته.

﴿مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخًا﴾. تذكرت

ما الحياة الدنيا إلا برزخ.. الدنيا بحر. والناس مسافرون.

دروب كثيرة.. وهضاب وبقاع خلجان وجزر مهجورة.. وشطآن مزدانة.. وثمة طريقان.

سبيل للعيش الطيب والإقامة النبيلة.. والذود عن كل ما هو حق وعدل، وسبيل للشر والغل وعمل السوء.

لم يتركنا الله الرحيم لهداية العقل والفطرة..

تنزل علينا الكلمات..

وكلمات الله خير زاد.. نفرق بها البحر والطوفان..

بوسعنا نجعلها «رحلة المشتاق»

ألا نشتاق.. إلى العلم.. للمعرفة.. والحكمة ونور اليقين. غاية المشتاق العمل والمجاهدة.. والصبر على الابتلاء والمصابرة.. محاولة التغيير.. واتباع منهج الاستقامة والخير.

السعى وتقديم العون للآخرين محبة الناس وخدمتهم.. من أجل أن يكون للرحلة معنى.. وقيمة.. وحضور حقيق وحياة.

نقول فيها منذ لحظة الوعى الأولى - باسم الله مجريها ومرساها - نجعلها - مدخل صدق ومخرج صدق..

علينا فيها بالمواجهة.. والثبات لا نولى الأدبار أبدًا.. ولا نفر حذر الموت.

فلن نلبث فيها إلا يسيرًا.. ولن نمتع فيها إلا قليلا..

أولى بنا الصلاح والإصلاح.. والتزام جانب الحق.

لا يجب أن نغفل عن ذكر الله.. لاننى عن تسبيحه..

وفيض كلماته - لا ينفد أبدًا - بها نحيا حياة طيبة.. ونحس أداء عملنا.. ونجعلها أسلوب عيشنا.. وتحقق معجزة النجاة لنا..

فى البحر تجد الله حاضرًا - عرشه على الماء - نصنع الفلك بوحيه وبأعينه.. فإذا غشينا الموج.. وتجمعت نذر الخطر.. دعونا الله مخلصين - لا ندعو إلا إياه..

ويمد لنا دائمًا يدًا حانية.. تحملنا فوق الظلمة.. وتفرق بنا الشدة.. وتفرج عنا رياح الغضب.

وتعود تجرى بنا بريح طيبة.. وتجد منا «مقتصد».. وفينا من يجحد بآيات الله - بعد الدعاء.. والاستجابة.

دعوت.

«رب نجنا من قلب الحوت.. ويقطع من الليل مظلمًا.. اللهم اعصمنا من الخوف.. وألا يحاط بنا.. لا تمكن منا.. ولا تجعلهم يصلون إلينا.. وثبت قلوبنا» تذكرت:

حقا وما الحياة الدنيا إلا برزخ.. مرفأ يجرى فيه الاختبار.. ساحل يقوم عليه الابتلاء.. ونتحمل مسئولية الاختيار..

كل إنسان ينتق أدواته.. يتخير وسائله.. يحدد موقفه.. ويتجه شطر غايته.. يرسم لنفسه طرقة السير.. ومسار الإبحار.

يعد الخرائط.. ويستعين بالكتب سبل الهداية ميسرة.. والآيات مفصلة.. والقصص التى تتلى علينا واضحة المغزى والدلالة.. توجد

فرصة للتأمل.. للتبصر.. وإدراك العاقبة.

حقًا - ظهر الفساد فى البر والبحر - واستشرى القتال.. وعربد الشر هائجًا.. ولكنها منذ البداية.. معركة.. صراع.. مشقة وجهاد.. والحياة جديرة أن نحياها.. ونجاهد من أجل أن تكون عادلة.. وستجد وعد الله قائمًا..

البحر يمد بى

تخب الجياد البيض وتعلو.. ساحة السباق والفوز أمامها واعدة أتابع حركة الموج.

تتابع.. تلتقى.. تذوب محبة وشوقًا.

حلقات متصلة.. وميقات تغيب فيه.. تغنى.. تعود تلملم قطراتها تقوم متدافعة.

حركة البحر.. هى نفس حركة الكون.. رقصة الحياة والموت. غاية السعى والتوهج والغناء لدى المحبوب.

حركة البحر.. هى النغمة الأساسية.. والحركة الرئيسية فى الكون، مثلما «يبدأ الخلق ثم يعيده» وهى ذات الحركة، نفس الإيقاع.. ووقع حيويته.. ورجع فعل (كن فيكون).

نجىء. يشتد عودنا.. نستوى.. نهتدى أو نستكبر.. نكون عاملين أو مفسدين فى الأرض يجيئنا الموت بعد حين.. ويوم الفصل نبعث من جديد.

الدنيا محددة الأجل.. ساعتها محتومة براعتنا أن نجعل الرحلة

جميلة.. مبدعة.. نقيم كلمات الله.. نصوغ بها أنفسنا وحياتنا.. نكون وهى شيئًا واحدًا.

نتبع آية ﴿لو كان البحر﴾.. تبحر بنا إلى غاية الرحلة..

﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا﴾.

وهى ذات الفكرة الرئيسية لحركة الخلق والوجود.. بين أن يبدأ الخلق ثم يعيده العمل الصالح إذن هو الشراع.. وطوق النجاة.. ووعد الفوز المبين.

فى هذه الدورة علينا أن نعمل صالحا..

فترة الزمن المتاح لنا.. إبان الاختبار.. يجرى الابتلاء ليرانا أينا أحسن عملا.. وحتى لا تكون حياتنا عبثًا. وقيامنا بلا جدوى وقيامتنا خزيًا وخسرانًا.

علينا أن ندرك غاية وجودنا.

ونعمة حرية الاختيار..

ذلك أننا بين اختلاف الليل والنهار.. ودوران الأرض.. ودورة الزمن، العمل الصالح هو الزاد.. والهدف ووجه النضال.

الحركة بين جعل الشمس ضياء والقمر نورًا.. وتعلم عدد السنين والحساب تتفجر ذرات حياتنا المعدودة.. وعلينا أن نمسك بها نشحنها بطاقة طيبة.. نستثمرها.. نضيفها لرصيدنا.. نثرى بها أيامنا.

نزيدها جلاء ونورًا.. ونجعلها مشعة ونافعة.

فى الزمن المتاح لنا.. وأيًا كانت شدة الاختبار.. وحدة المواقف

وقسوة الطريق.. وفقد الأحبة.. علينا بالسعى والجهاد.. والاتساق مع حركة الكون.

فى الدورة اليومية.. وعلى مدار العام. نكون النماء والاشتياق والعطاء. يكون سعينا الخير.. وخطونا الحق.. وموقفنا إقامة العدل.

نعى ونبصر ما تنطق به كلمات الله.

ننصت لصخب البحر.. وصفق الريح.. وعويل الظلم.. وخطو المتعبين ووقع أقدام الجياع - ثقيلى الأحمال - نحاول أن نتدبر المعنى.. نعد للعمل.. نرابط للجهاد.. وأيًّا كانت الرحلة شاقة وعسيرة.. يجعل الله لنا نورًا.. ويرينا من آياته - وكلماته لا تنفد أبدًا..

له الأسماء الحسنى

﴿هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى﴾.

أدعوه بها. . أرطب لسانى وجوفى بذكرها. . الأسماء التى ذكرها لنا. . وعلمها آدم منذ البداية كلها. . وأودعها خلقه.

أستعين بها. . أذكرها بكرة وأصيلا. . قيامًا وقعودًا. . أناجيها. . بها أحيا وعليها أقضى. . وأحسن بها نطق وخلق.

أذكرها جهرًا وخفية. . أنطقها تضرعًا وخشية. . أقولها بحب وشوق. . ومع استمرار عملية التذكر والتأمل. . تدبر المعنى واكتشاف مراميها. . اكتشفت عملاً باهرًا. .

عندما تصير الأيام صعبة. . والمسيرة عسيرة. . وتتجمع نذر القلق. . نلجأ إلى ذكر الله. . ندعوه بأسمائه الحسنى. . تنزل معانيها علينا بردًا وسلامًا. . ننفذ من قدرتنا المحدودة. . إلى قدرة عالية. . وقوة منيعة. . تذهب عنا الريح العقيم وتنجلى أمامنا سبل السلام. . يصلح الله بالنا ونهدى إلى التفكير المستقيم.

ذكرها الله لنا. . وأكدها. . وختمت بها الآيات. . وكانت

الوقفات المبهرة.. والذرا الفائقة.. لتلفتنا.. وتؤكد لنا المعنى.. وتثبت منا الفؤاد.. وكان **﴿عليمًا حكيمًا﴾**، **﴿عليًّا كبيرًا﴾** **﴿عفوًّا غفورًا﴾**، وكان **﴿على كل شيء شهيدًا﴾**.

تعودت أن ألتصق بها.. أسماء الله الحسنى.. عرفها لنا لنعلم أنه «قريب».«ومجيب»..

تعلمت أن أقترب منها بشوق وحنين.. أدنو بجلال وهيبة.. أتدلى بين نورها.. أركن إلى ظلها الظليل.. ووسع محبتها ورحمتها..

علم الله آدم الأسماء كلها.. منذ البدء.. وميزه بذلك على المخلوقات كلها.. حتى الملائكة المطهرة - لكنها ذات علم محدود، والأسماء هي المسميات.. العلم الحقيق الذى ندرك به المعلومات.. ميزة العقل.. ونعمة الإدراك وحرية الأختيار..

القدرة على التأمل.. والتدبر.. نفحات من روح الله.. والنفحة المقدسة من لدنه وإضفاء علينا من صفاته لنوقن أنه البر.. الكريم.. قيوم يدبر الأمر.. وطوبى لمن جعل الله وجهته.. والعمل الصالح بغيته.. ونفع الناس غايته.. طوبى لمن تواصل مع الله.. وأمسك بحبله المتين وانضم إلى عقده المنظوم.. وجعل ذكره وتسبيحه عبادة وعملا وجهادًا فى سبيله.

والله يمن على عباده.. يجعل لهم ودًّا.. وطريقا يستقيمون إليه.. ومعراجًا للصعود والتألق بصفاته وجلاله.

يفتح أمامهم سبل الفرح والبهجة والرجاء..

يقول تعالى : ﴿**إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا**﴾.

ياسبحان الله فى آية واحدة، يذكر الإنسان : من أى شيء خلقه ﴿**من نطفة خلقه فقدره**﴾ يذكره بالبداية الضئيلة.. ضآلة النشأة الأولى.. لكنه يرتفع به ليكون له ذات صفاته جل وعلا.. يصل ليكون هو الإنسان : سميعًا بصيرًا..

إذن لا حدود لقدرة الإنسان. إذا صاغ نفسه بالدين.. ونبل العقيدة.. وتمثل لنفسه صفات الكمال والجمال.. وسلك سبل السلام.. وتميز بالعمل الصالح المتقن.. والقول الحسن المنزه عن الهوى.. فإنه يرفع من مستواه حقًا، ومستوى الحياة ذاته ويصل بنفسه إلى آفاق عالية من المجد والحكمة والسعة.

من تجربة صديق لنا.. أنه أصيب فجأة - فى أيام نحسات. وبعد أنباء عامة محزنة - أصيب بانفجار فى المخ.

بعد طول علاج ومعالجة وجد نفسه فى حالة يرثى لها.. نطقه ثقل.. ولسانه تثاقل.. وضاعت منه الكلمات.. وهجرته قدرته على التعبير المميزة.

فى لحظة ومضت حياته كلها أمام عينيه.. شريط سريع الأحداث متتابع اللقطات.. صديقنا كان يؤمن منذ البداية أنه جاء إلى الحياة ليقوم بعمل عظيم.. يؤدى مهمة نبيلة.. لا ليحيا حياة سعيدة أو ناعمة.

وبرغم أن الله حباه بسطة من الرزق وسعة المال والجاه.. إلا أنه اختار الطريق الشاق.. وتعود على المصاعب والمتاعب وجولات الفكر الخطرة والمروعة.

ماذا يفعل الآن وقد أخذ الشلل يحيط به.. ويحاصره.. والزمن يمر بطيئًا.. لزجًا متثاقلا.. ممنوع من الحركة.. والقراءة، لا يستطيع مجرد الكلام ولا التفكير خلق مقاتلا.. كانت الأشياء يمكن أن تقدم إليه على صحاف من الذهب لكنه يهوى الاكتشاف والمغامرة.. والسعى وراء التقدم واصطياد الأفكار.. وغزو النظريات الحديثة والفلسفات المتطورة.

كان مؤمنًا فى أعماقه.. يمقت اليأس والاكتئاب ومشاعر الشفقة.

ماذا يفعل فى تلك الوحدة الاجبارية.. والفراغ، الإلزامى وضرورة الخواء والانعزال وتذكر الله.

دعاه بحرقة ومودة.. تبتل إليه بأسمائه الحسنى.. تذكر « القادر » فامتلأ بنور اليقين والثقة..

ذكر « التواب » هدأت نفسه واطمأنت..

« الكبير » له القدرة والقوة وهو أكبر وأعظم..

صار الدعاء والذكر شغله الشاغل.. فشمله الأنس بالله. وغمره نور ومنعه.. برق من بين خواطره اسم « المانع ».

سبحان الله.. كيف به المانع وهو « الرحيم ».. « العفو ».

حاول أن يركز تفكيره.. يعالج تعثر ذهنه.. وتشتت صور

تخيلته.. صمم على التركيز والتفكير..

« المانع » كلمة جامعة.. مانعة يمنع الناس من شرور أنفسهم، قد يمنع عنه صحته فى هذه الفترة وعافيته.. وكان يضج بالحيوية والنشاط والقوة - لعله يتذكر.. يهدأ قليلا ويفكر.. تشحب مشاغل الدنيا.. ويبق مع الله.. بدأ التعرف على الأسماء من جديد..

أخذ يطيل التطلع إلى السماء، جاءته الفكرة كالوحى أو « الإلهام ».

أسماء الله الحسنى..

تكون بداية زرع الكلمات فى ذهنه من جديد.. تعلمها.. نطقها.. تأمل معناها.. أحس أن نبضات الفكر أخذت تعمل.. ومركز الذاكرة ينشط وتتداعى المعانى والكلمات يقول: كأنما كان عقلى صفحة بيضاء ملساء، بدأت عليها النقش من جديد وبأحرف من نور.

أهتف بالاسم.. وأظل أكرره وترطب لسانى بالذكر.. بعد عسر النطق أصبحت يسيرة الكلمات.. وأحسست بفرح عارم.. وخفة كنت أجوب أرجاء الدنيا والسماوات السبع وأفق النور.. ولا أشعر بهمود أو ثقل.. وبدأت مرحلة جديدة من التدريب.

أتأمل المعنى.. وأتدبر أغواره، وأطلق الخيال والتصور.

« المتين » أى شديد القوة.. أعلى مراحل القوة والقدرة. الشدة والصلابة.. تتداعى معها كلمة « حبل » نعم.. حبل الله

المتين.. عندما نتعلق به نزداد قوة وصلابة وقدرة على الاحتمال. نثرى قدرتنا.. نضاعفها.. ترتفع بها لتكون مستنيرة بقوة الله وعزته

تمت مرحلة غرس الكلمات. جعلها الله «بصائر».

بدأت صفحة الذهن تبرق بالمعانى.. بالمسميات المتصلة.. بمدد من السماء والإلهام.

وكان الشفاء..

إنه الطريق الحقيق للتقدم.. للارتقاء..

نسلم الوجه إلى الله.. نرتق سبل السلام.. نسعى تجاه أسمائه الحسنى وصفاته العلية، ذات الجلال والكمال.. حيث تكون لنا العزة والمنعة والقوة.

الميزان

﴿الرحمن﴾

تلك هى النغمة الأساسية فى قصيد الكون والخلود..
وحنانًا من لدنه ورحمة.. وبذكره تطمئن القلوب..
تشف الكلمة حتى لتحلق بنا فى الآفاق بين قمم النور..
حيث العلو والارتقاء.. العزة والسمو.. والشوق الجميل..
الرحمن سبحانه كتب على نفسه الرحمة.. وسعت رحمته كل شىء..
وتأتى بعدها الآيات متتابعة.. متسقة.. مفعمة بالحب..
مترعة بالود الرحيم.

﴿علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان﴾

عزف سماوى فريد
متتاليات منظومة نورانية
ثلاث جمل موسيقية.. تكون كل منها نغمة مزدوجة.. تتصاعد

بنا الى الأفق الأعلى.. تعود وتنساب إلى عمق الإنسان قطرة قطرة.. تبلغ «قاموس البحر» لديه.. تحرك مياهه الداخلية العميقة.. تتدفق فى جوفه وتتصل بنبع النور..

ينتشر أريج العزف المقدس.. تتجلى حركته.. تستبق إلى الخيرات.. تتبدى آلاء الله.

يرينا آياته فى الأنفس والآفاق.

بشرى تعليم القرآن تستبق مع خلق الإنسان.

وكأنها «ماهيته» مقدمة على وجوده.. حكمة الخلق فيه.. وغاية صنعه وعمله وجهاده. من آيات رحمته أنه علم القرآن..

﴿تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾

القرآن.. القراءة الواعية المستنيرة فى صفحة الوجود والخلق.. التأمل والتدبر لأحوال الناس والكائنات..

الاستدلال والعظة.. قياس المواقف والأحداث.. استلهام السلوك القويم.. القدرة على ضبط ومجاهدة النفس..

القرآن.. منهج حياة.. أسلوب للعيش النبيل.. ثراء للحياة الدنيا والآخرة.. خلق عظيم.. سلام مع النفس وجماعة المتقين.

وكما يقول الرسول الكريم: «القرآن لا تنقضي معجزاته أبدًا.. ولا يخلق على كثرة الرد».. أى لا يبلى جديده.. ولا يتوقف كشف الحقائق المبهرة فيه.. واكتشاف المعانى الواسعة الموحية لديه.. على كثرة تردد الأنظار إليه والتقاء العقول به.. وعلى امتداد العصور.

وطوبى لمن يكون أسلوب القرآن.. ويسعى ليصبح والقرآن شيئًا واحدًا. عمله وخلقه.. وحكم القرآن.. هو بذلك يصل إلى قمة تفوقه الإنسانى.. وتألقه النفسى والاجتماعى.

وتتفتح قواه الكامنة.. والطاقات المبدعة لديه.

﴿ **علمه البيان** ﴾ خلقه فى أحسن تقويم.. فضله وميزه على سائر المخلوقات.. جعله ناطقًا.. علمه الأسماء.. دربه على التعبير والإفصاح عما بداخله.. زوده بكل قوى التميز والاختيار.. يبين بالكلمات ما يريد..

- وكلمات الله لا تنفد أبدًا - واللغة هى وعاء الفكر.. واعتياد اللغة يؤثر فى الوجدان.. وحسن استخدام اللغة تدريب على التفكير المنظم والمشاركة، والانتقال بعدها من مرحلة الفكر الى العمل.

جعله الله يفكر ويعقل ويوازن بين الأشياء ويصل إلى المعرفة والحقيقة. نصير بالقرآن أكثر حكمة وعلمًا.. يدلنا على الطريق المستقيم.. وأسس الحياة الطيبة.. يؤتينا به الله خيرًا كثيرًا.. نثرى تجربتنا.. ونزيد من قدرتنا وقوتنا.. تزداد حياتنا دفئًا وجمالا..

فى نور القرآن والعبرة المستفادة منه.. ومن عاقبة المكذبين والتجارب المتباينة لخلق أقدمين.. وأقوام غابرين نستطيع ان نتعلم ونبصر ونتزود بالتقوى.

وعلى ضوء الدراسة المستفيضة المتأنية لآيات مبينة.. مفصلة تقص عن البدء وتمتد حتى مواقفنا المعاصرة.. وعلى نهج الأنبياء

والصالحين.. واتباع جنود الحق والمصلحين نستطيع أن نقيم بناء حياتنا.. وصياغة خلقنا.. وتدريب ارادتنا لاختيار الموقف الحق والجدير بإنسانيتنا.. والعمل على نفع الناس.

﴿والسماء رفعها ووضع الميزان﴾

سبحانه جعل رفع السماء كرفع الميزان..

- والسماء بناء - وبحنو بالغ عطف عليها إقامة الميزان..

هذه النغمة المزدوجة والتتابع المعجز - مثل كفتي ميزان - تصل بنا حتما إلى ضرورة العدل الذى به تمام الاستقامة.. وحتمية التوازن.

لنتأمل التناغم والتوافق الجميل بين السماء رفعها ووضع الميزان. فيها يقرأ الإنسان قدرة الله.. يقيمها الله على ميزان دقيق تجرى عليه أمورها وتتألق ببديع صنعها. سبحانه يدبر الأمر.. يفصل الآيات وخلق كل شيء فقدره تقديرًا.

يريد الله لينبئنا بشيء.. يجذب انتباهنا بشدة. ولكى تتجسد أمامنا الصورة.. ويبرز لنا المعنى.. جاء - بواو العطف - ذلك الحرف العذب الموصل للدفء والقربى، وأواصر الارتباط والمودة - فيجمع بين النغمتين على نفس الدرجة من السلم الموسيقى.

نسلم وجهنا إلى السماء.. نتأمل ملكوتًا علويًّا منظمًا.. السماء مرفوعة بغير عمد زينة للناظرين.. تظلل الناس أجمعين.. ولا تسقط

كسفًا على الكافرين والمستكبرين - وكأنما ميزان هائل - غير مرئى - وتراه قائمًا - وليقوم الناس بالقسط.

دقة حركة النجوم والكواكب.. واختلاف الليل والنهار.. والشمس والقمر - كل فى فلك يسبحون.. ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت أو فطور.

كل شيء بقدر وبحسبان..

دعوة لأن يقيم الناس أمور حياتهم فى ظل هذا الميزان القائم بالعدل.

﴿ قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾

بشرى للمؤمنين أن يكون التزامهم الحق والعدل.. والشهادة على النفس أو الوالدين وذوى القربى.

صورة مجسمة ليكون محور حياتنا العدل.

العلم والمعرفة وإعمال العقل وهداية الدين كلها أدوات إقامة الميزان والوزن بالقسط.

« الحق » علمنا البيان لنبحث وراء الحقائق ونصل إلى اليقين وجوهر الحكمة.. وحكمة الخلق والحياة..

القراءة والتأمل عملية تدريب متصل.. ورحلة عملية نصل خلالها إلى إدراك ضرورة أن يشيع العدل.

وهكذا كلما أمعنا النظر جيدًا وتدبرنا الأمر.. نرقى إلى عملية

تطوير مستمرة نصل فيها إلى ذروة التنوير فى حياتنا.

يقوى لدينا الاعتقاد بأن الله صنعنا على عينه.. نثق بإمكان أن نصبح من أصفيائه وأوليائه.. يثبتنا بالقول الثابت.. نقبل على الحياة ونستمتع بالأعمال الطيبة.. ويجعل لنا نورًا وودًا.

وما أجمل أن تكون أيامنا «رحلة المشتاق».. زادنا التقوى.. ووجهتنا نفع الناس ورضا الرحمن.

خلقنا ليبلونا أينا أحسن عملا - وعلى حسب الوزن الإجمالى للطيبات والعمل الصالح يكون الحساب الختامى.. والمنزلة وحسن المآب.

سبحانه له الأسماء الحسنى.. «العدل» أحد هذه الأسماء.. ندعوه بها.. نقترب منها.. نتسامى لنتصل بها ونحقق وجودنا ويشيع عنا أجمل الصفات.

الرحمن كان بنا حفيًا ورحيمًا.. ميزنا بهبة العقل.. ميزانًا لحركتنا.. وأرسل رسله بالبينات وأنزل معهم - الكتاب والميزان - وكفل لنا حرية الاختيار.

وكان خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام.. ومعجزته القرآن.. نتعلم منه البيان والحكمة وحسن الخلق والعمل.

نكون على الصورة التى أرادها لنا الله..

ندرك نعمة التوازن والوسع.. تتسع حولنا دائرة الدفء الإنسانى وإحساس المودة والمشاركة.. والرغبة فى تغيير العالم من حولنا، وجعله

أكثر عدلا ونبلا. القرآن به نعيد صياغة أنفسنا.. وصقل أرواحنا.. إحياء الروابط بيننا والآخرين.. تجديد خلايا المحبة داخلنا، وإعادة الوحدة بيننا والجماعة.

- نعود كفطرتنا الأولى..

العدل هو محور الارتكاز في الكون - إن تحقق يظللنا كما السماء.

والميزان هو النغمة الرئيسية لإيقاع الحياة واستقامتها، ونبل العيش فيها، ومقرر الدرجات يوم الحساب.

وطوبى لمن يفلح ميزانه... ويتعود محاسبة نفسه دائما قبل العرض الكبير.. قبل أن يدركه - يوما ثقيلا -

المؤمن حقا من يلتحم بقضية العدل.. تكون وجهته.. وقاعدته.. وركيزة جهاده.. ونجمة الميناء لحله وترحاله.

أن يقيم موازين العدل.. يجعل ذلك همه ومهمته.. رسالته وجهاده ووسيلته إلى رضا الله.

الميزان - هو الحقيقة.. والأمل.. والبيان..

بشارة الاعتدال والحق.. والتوازن بين الانسان والعالم الذى يعيش فيه.

بشرى الاستقامة والعدالة والشعور بالرضا والطمأنينة.

العدل يقيم أمر الناس.. يصلحهم جميعًا.. يصلح بالهم وأحوالهم.

النفس البشرية صحتها فى التوازن.. لا تميل مع الهوى.. عدم التمزق بين الأهواء والنزعات.

السلام بين العقل والرغبات.

والمجتمعات يصلحها العدل يقيم شأنها وترتفع بين الأقوام

أمرنا الله ألا نطغى فى الميزان أو نخسره.. ونقيم الوزن بالقسط - ذلك كيل يسير -

فمن ثقلت موازينه بالأعمال الصالحة، يكون له الفوز والنعيم.. والعزة والتقدير .. ومن خفت موازينه، أولئك الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

وحتى فى الحياة الدنيا، لم يحققوا الكسب بمعناه الصحيح.. ربما تمتعوا بالثراء والجاه.. مارسوا حياة الترف وسطوة النفوذ..

لكنهم فى هم وقلق وخوف دائم.. وشك فى كل من حولهم - حتى أقرب الناس إليهم - خوفًا من أن ينكشف سترهم، وأساليب الغش عندهم وأحوالهم الحرام. يحيط بهم الخزى والهوان فى الحياة الدنيا..

ربما نجحوا فى جذب الأتباع وأهل النفاق والمنتفعين، لكنهم يفتقدون الاحترام والثقة والحب الحقيق.. ويتجنبهم أهل النزاهة والاستقامة والكرامة.

سجل عليهم الخسران بالخزى والهوان فى الدنيا.. وفى الآخرة عذاب مقيم.

نبهنا الله سبحانه وتعالى إلى الميزان فى آيات كثيرة.. إشارة إلى الاعتدال المطلوب.. وتأكيد التوسط والاستقامة.. «ربما من هنا جاءت التسمية - أمة وسطا».. لا إفراط ولا تفريط.. لا إسراف ولا تقتير.. إنما دقة للموازين والمعايير..

المؤمن حقًّا من ينمى داخله - ميزانه الخاص - جهاز حساس ودقيق. يعطى كل شىء قدره.. ويزن بسرعة فائقة - وقبل أن يرتد إليه طرف - ويقيس بمقياس الدين.. ويحسب بدقة متناهية.. ويقيم المواقف والأفعال فى ضوء أحكام القرآن.. وحدود الله.

وليكن اسمه الضمير.. أو مجلس شورى داخلى.. أو هيئة محلفين.. فقط يستمر على تطوير ذلك المؤشر الحساس داخله.. والذى يسجل له تلقائيًّا أى ميل أو انحراف عن وضع الاستقامة.

﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا﴾

الاستقامة هى عمود العدالة.. مركز الاعتدال.. مؤشر الانضباط.. والطغيان خسران فى الميزان.. ميل شديد وانحدار عن الحكم العدل. خسران الميزان يكون ابتداء من عمليات البيع والشراء والمعاملات، إلى أجهزة الحكم ومجالس القضاء، وأسلوب إدارة شئون الناس.

يأمرنا ديننا بعدم أكل أموالنا بيننا بالباطل -

﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾

الأمر هنا بصيغة الجمع.. للناس والأموال.

الجماعة هى المخاطبة، وهذا دليل على وحدة الأمة وترابط مصالحها، وإشارة إلى أن المال فى الأساس هو ملك للجميع.

لابد من احترام حقوق الغير والحرص عليها والوفاء بها - وكأنها مالنا الخاص - لو أدركت الأمة العربية.. والدول الإسلامية كيف يرتقى شأنها بالإسلام.. وتتعلم أسلوب الحكم من آيات القرآن.. لارتفعت به وتقدمت وصلح حال إنسانها.

أكل مال الغير جريمة يتعدى شرها إلى نفس الآكل والجميع.. وهو جناية على الأمة كلها باعتبار أنها تكون وحدة عضوية. وبالتالى فإن أعمال السلب والاغتصاب والرشوة تدخل كلها فى جريمة الأكل الحرام.. كذلك الغش والسخرة واستغلال النفوذ.. كل يتعدى على من هو أضعف منه حتى تكتمل الدائرة.. وتحاصر الجميع.

وحتى الدعاية المغرضة التى تروج سلعة رديئة أو فاسدة.. أو تزين حكمًا سيئًا.. هى أيضًا خسران للموازين والقيم.

ويأتى تعبير «الأكل» بالنسبة للأموال بليغًا ومعبرًا.. بمثل عملية الشره والجشع والنهم.. أكل أموال اليتيم أو الضعيف أو ابتلاع حقوق الناس عمومًا..

وحرم أن ندلى «بها إلى الحكام، لنأكل فريقًا من الناس.. نأكل حقهم ابتداء من القوت إلى المكانة وسائر حقوق الإنسان.

الطغاة والمستكبرون دائمًا ﴿يبغونها عوجًا﴾
لا يطيقون الميزان - رمزًا أو حقًا -
العدالة تؤرقهم وتقضى على توسعهم وبغيهم وشراهة « الأكل » لديهم.

ولعل أخطر أمراض المجتمعات الحديثة، هو الخلل الخطير فى الموازين فى بنية المجتمع ذاته، واهتزاز القيم فيه.

الأمة فى هذه الحالة تفقد قوام أن تكون أمة حقًا.. ربما تصبح زحامًا وحشرًا وأناسًا يلتصق وجودهم.. ولكن دون تقارب حقيق أو مودة ومشاركة بينهم.

تضيق عليهم أنفسهم وتضيق الأرض بهم.. لم تعد أمة متجانسة بل مجرد أفراد متفرقين يعانون من اختلال الموازين، وفقد الثقة وانتشار النفعية وحب الذات.

فى حين أن ميزان العدل يصلحهم جميعًا.

إن فى ذلك لآية

دعا شعيب قومه إلى عبـادة الله وحـده، والـوزن بـالحق.

- لا يريد لهم إلا الخير - قد جاءتهم بينـة مـن ربهـم حقًـا.. أن يبعث رسولا يقول فى مسائل الكيل والميزان.

ولأن التوحيد فى حد ذاته اعتدال لميزان الناس.

خلق كل شيء فقدره تقديرًا.. لم يخلق شيئًا عبثًا - سبحانه - يقوى الإنسان ويستقيم بعبادة الله.. لا يصبح نهبًا لأرباب متفرقين.. لا يحيا ممزقًا بين آلهة متعددة.. لا يخضع لقوة أو سلطة.. يسلم وجهه لله العلى القدير.

﴿وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾

ياسبحان الله بعد أمر التوحيد مباشرة، يأتى النهى عن نقص الكيل والميزان.

الإيمان يقتضى العمل بما جاء به الرسول من عند الله.. والعدل

شريعة الله.. لذا وجب على المؤمن الالتزام بجانب الحق والعدل ابتداء من أبسط مظاهر التعامل اليومى إلى أخطر القضايا والمواقف.

نقص المكيال والميزان وأكل حقوق الناس، يعد خطيئة كبيرة موازية للشرك.

المؤمن حقًّا من يحب للآخرين ما يحب لنفسه ويرضاه.. يستشعر أخوة الإيمان.. أما نقيصة الطمع وحب الذات والرغبة فى استغلال الآخرين، فإنها شر يتهدد الجميع ووباء خطير يدمر كيان المجتمع.

جعل الله لكل نبي آية شاهدة على صدق وصحة دعوته.. علامة واضحة بينة.. معجزة على أن ما جاءهم به هو الحق من عند ربهم.. وجعل من اليسير على الناس إدراكها، إذ هم المقصودون بها.

عصا موسى.. والنار تكون بردًا وسلامًا على إبراهيم.. وصالح عليه السلام بعد دعوة التوحيد أبلغ قومه الآية التى أيده الله بها.

﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ آية بينة أى أنها عظيمة القدر واضحة المعنى قوية الدلالة.. وآية الله فى الناقة ألا يمسها أحد بسوء.

قيل إنه لم تذكر الآية التى جاء بها شعيب عليه السلام إلى قومه.

وأشار - الإمام محمد عبده - «إنه قد يؤخذ إنذاره لأهل مدين أن يصيبهم ما أصاب قوم نوح أو قوم هود وثمود، إذ هم أصروا على

شقاقه وعناده على أنه بينة لصدقه - وقد صدق إنذاره بالفعل.. ولكن لابد أن تكون له آية أخرى دالة على صدقه تقوم بها الحجة عليهم».

- ولأن صدق الإنذار ووقوع العذاب ينهى الموقف ولا يقيم الحجة - وإن كان يعد آية.. وموعظة لمن يجىء من بعدهم.. وعبرة تثبت إيمانهم.

وبرغم أن الإنذار يدل على أن الله سبحانه أعلمه بخبر الأنبياء السابقين وقصصهم مع شعوبهم.. أعتقد أن آية شعيب هى الميزان. الميزان كرمز.. وتصور.. وفعل هو البينة التى أتاهم بها شعيب من عند عليم خبير.

وبعد أن فسدت حياتهم واختلت موازين عيشهم..

كانت خطيئة أهل مدين الغش فى الكيل وخسران الميزان وبخس الناس أشياءهم.

هضم حقوق الضعفاء بينهم.. والفساد فى الأرض.. والأمم تعاقب على ذنوبها فى الدنيا والآخرة.. يكون عقابها فى الدنيا أثرًا للسيئة التى يأتونها، فتفسد الأخلاق وتباع الذمم.. وتتمزق الروابط والصلات وتذهب قوتها هباءً.. وضل سعيهم، وقد يترتب على الفساد والاختلاف أن تتسلط أمة أخرى عليها فتسلبها أمنها وثرواتها وحرية أهلها تستبد بهم وتذلهم، المأساة تبدأ دائمًا من الخلاف والفرقة وشدة الحاجة، وعدم إقامة شريعة العدل، وذل السؤال، ثم التبعية

الغذائية والمالية.. تلك هى اللعنة التى أصر أهل مدين على عدم الرجوع عنها، واستمروا فى طغيانهم.. - وما كان الله معذبهم قبل أن يبعث رسولاً - فلما كبروا ولم يسمعوا.. ﴿أخذتهم الرجفة﴾ تمامًا مثل قوم صالح عندما كذبوه فعقروا الناقة. وأصبحوا عبرة على مر الزمان والمدائن والأقوام.

كان لابد لهم من رسول يذكرهم بميزان العدل الإلهى..

بتصور الميزان وماذا تفعل إقامته فى حياتهم.. بالعودة إلى التوحيد، وهو أصل استقامة الأشياء كلها - وهو خير لهم -

ولأن البينة هى كل ما يتبين به الحق.. وجعلها عبرة وموعظة فهى تشمل المعجزات الكونية والأدلة العقلية.

والميزان برهان عقلى قائم.. لو تدبروا أمرهم.. وتفكروا وتأملوا - ونظروا كيف كان عاقبة المجرمين - لعرفوا العلاج لحالهم المتردى.. ووجدوا أن خلاصهم فى العدل وإقامة الميزان الحق.

الإشارة إذن إلى ضرورة اعتدال الميزان.. والعودة إلى الإصلاح وإقامة العدل بين الناس.

وهو هدف التنزيل والعبادات والرسل ﴿إن فى ذلك لآية﴾

حذر «الملأ الأعلى» من اتباع دعوة شعيب.. وترك معتقدات الآباء والأجداد - ودائمًا يفعلون وبنفس الحجة يقولون ويكذبون على أنفسهم وأهليهم -

قالوا إن ذلك ضد حرية التصرف فى أموالهم، وتقييد لحدود الكسب والثراء لهم.

قوم شعيب كانوا من المطففين **﴿إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾** - وتجد أكثرهم «بخاسين» هم يرونه فيهم ضعيفًا.. ربما يبغى من وراء دعوته مكان الصدارة والرياسة بينهم - لذلك قعدوا له بكل صراط.. وهددوه بالرجم لو استمر فى دعوته وجذب العامة إليه وجعلهم يتمردون على سادتهم.

قال لهم إنما يبغى الإصلاح - وإن أجره إلا على الله -

لقد غيب عنهم جشعهم ورغبتهم فى الكسب السريع الرؤية الصحيحة.. وحجب عنهم المنطق السليم للكسب على المدى البعيد.

حسبوا أنهم يخسرون إذا اعتدلت الموازين.. يرون من حقهم حرية التصرف فى أموالهم، وتحديد مقدار الكسب الذى يريدون. يظنونها مهارة عندما يخسرون الميزان ويأخذون أكثر من حقهم.

غابت عنهم بديهية بسيطة.. وحقيقة واضحة.. أن المال الخاص جزء من المال العام، يجب أن يوجه إلى ما فيه مصلحة ونفع الجميع.

والحرية لا تعنى التزوير والغش، والمبالغة فى زيادة المكسب والأسعار.. إن هى إلا حركة شريرة.. ودائرة سوء يمتد أثرها إلى الجميع وتختل بذلك كل موازين المجتمع وقيمه.

لو شاعت تلك الآفة الاجتماعية الخطيرة، لعادت دورة المال إليهم لتسلبهم ما أخذوه فى وجه آخر من وجوه التعامل بين الناس.

وكأننا أمام جماعة تهدم نفسها من الداخل، وتقوض دعائم بنيانها واستقرارها، وكل يتسابق إلى أعمال النهب والسلب وإتقان فنون المساومة والابتزاز والخداع، وفوضى الموازين والمعايير.

مجتمع هذا شأنه، لا يلبث أن ينهار.. وتتمزق فيه أواصر القربى والمودة، وينقلب على نفسه.. تدمره رياح الحقد، ولا يصح أى شىء فيه أو يستقيم. يصبح الفرد عدوا داخليا يتربص بإخوانه ومواطنيه كما يتهددهم أى عدو خارجى يريد أن يستثمر موارد البلاد وجهود أبنائها.

استمر شعيب فى مواجهة قومه..

وياقوم **﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾** إنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط. يخشى أن يصيبهم ما أصاب قوم نوح.. أو أهل هود وصالح.. وما قوم لوط ببعيد..

يدعوهم ليستغفروا لذنوبهم يريدهم أن يتوبوا.. أن كل شىء بالحق والعدل.. أن يبتعدوا عن الفساد والضلال.. يحذرهم:

﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾:

يجب وزن كل شىء بالقسطاس المستقيم.. أى ميل أو انحراف يعمق الفساد والضرر. التوجه إلى الله يستدعى الاستقامة والأمانة والنزاهة وحب الخيرات..

البخس معناه نقص قيمة الشيء الحقيقية.

استغلال الظروف للتهوين من الشأن والتقليل من الثمن.

خسران الموازين والبخس يأتى فى عمليات البيع والشراء، وفى تقييم الأعمال والقدرات والمواهب.

بشارة شعيب لقومه. عن الله تعالى - أن لو اعتدلت الموازين يعتدل كيان المجتمع بأسره.. وبذلك تكون قيم الحق والعدل والحرية ضرورة حيوية.. ليست ترفًا ولا منحة من أحد.. إنما هى الأساس فى فطرة الإنسان والركيزة لبناء الأفراد والشعوب.

وهى أيات بينات من ربهم.. بشرى وهدى ورحمة من لدنه إذ اختاروا لأنفسهم طريق الخير والإصلاح.

البخس - أعم من النقص وتشمل كل أوجه النشاط الإنسانى.

- تلك الآفة اللعينة - منتشرة بصورة مروعة فى أيامنا تلك.

يأتونها على أعين الناس.. جهرة.. ويباهون بها بلا أدنى حياء أو خجل. أغلب التجار يفعلون والشطار من ذوى الثروات والنفوذ.. تجد أكثرهم «بخاسين» عندما تقدم بضاعتك أو إنتاج عمل فنى.. أو رأى رشيد. فى مجال العلم والفن، يتصدر القوم أحيانًا من خفت موازينهم من الحكمة والموهبة، وحسن الأداء، وإرادة الإصلاح..

لا تبخسوا الناس أشياءهم.

جاء النهى بصيغة الجمع - لأن البخس يجىء بين الأفراد وعلى مستوى الجماعة.. كذلك هضم الشعب حقوقه وحريته بتسلط فئة من

الناس وطغيان المترفين. وبخس الناس أقدارهم يخل بالتوازن فى المجتمع كله. وما فقدت أمة ميزان العدل.. الذى هو أساس الاستقامة والحق إلا حل بها التدهور والفرقة والانقسام، وهان أمرها على الناس.

لذلك أنزل الله ﴿**الكتاب بالحق والميزان**﴾ ليثبت الذين آمنوا، وهدى وبشرى للمؤمنين.

الوزن يومئذ الحق

الكلمات تنساب إلى حسى وسمعى.

موجات أثيرية تتدفق إلى الوجدان.. يخفق لإيقاعها القلب..

يسرى الشعاع إلى كل خلايا الذهن.. تتحرك كوامن النفس..

يومض نور داخلى.. تتصاعد موسيق باطنية.. تتسع رغبة العلم.. وتتفتح طاقة الشوق الجميل.

مقدمة بسيطة.. تقود إلى نتيجة منطقية.

فأما من ثقلت موازينه. فهو فى عيشة راضية. وأما من خفت موازينه. فأمه هاوية﴾.

وضعت الآيات متقابلة هكذا.. موزونة..

العمل فى كفة وقيمة الوزن فى الكفة الأخرى..

فريق فى الجنة.. وفريق فى النار..

العمل بين.. والنتيجة ملائمة.. من نفس نوع العمل.. إن خيرًا فخير.. وإن شرًّا فالعاقبة وخيمة. هكذا يقام الوزن بالحق،

وأمامك حرية العمل.. وفرص الاختيار وموارد المعونة.. وينابيع الحكمة وآيات الاستدلال والعبرة.

فاختر لنفسك ما شئت.. وادخر لميزانك ما ترى.

من تثقل موازينه فهو فى عيشة راضية.. ومن يخسر ميزانه وترجح كفة السيئات لديه أمه هاوية.

لفتنى التعبير بشدة.. أذهلنى.. أدار رأسى، كما لو كنت أسمعه للمرة الأولى.. لم أتوقف من قبل لديه.. مئات من الصور والمشاهد اتسعت فى مخيلتى.. رجفة من القلق والوجل هوت فى قلبى.. رهبة وخشية.. يال العبارة الموجزة - المحرقة - أمه هاوية !.

فى رحلة البحث عن المعنى.. وتقصى الكلمات.. أبحرت بين خبايا اللغة.. ورنين المفردات.. وجرس الحروف واستلهام موسيقاها الداخلية اتضحت لى رؤيا أرحب. أمه.. أى مكانه ومقره.. مأواه ومنزله..

« الهاوية ».. المكان الذى أعد له.. نزله ونتيجة لسوء عمله واستكباره وعدم إعمال العقل.

يهرف المعنى حقًا.. سبحان الله الخالق المصور.. يتجلى جوهر الكلمة بذاتها.. تعطى مدلولا أكبر لعمق المعنى فيها.. تتسع حتى لتجسد مشهدًا بأكمله.. تكتمل لترسم خاتمة لقصة حياة بأسرها.

تتجلى الكلمة حتى لتصدر فحواها الداخلى.. حركتها الباطنية.. وتبث صدى نواة خلقها وذروة أدائها..

اختار - سبحانه - لفظ أمه.. دون بقية المترادفات كلها..
هتفت فجأة.. يا ألله.. أى أن الإنسان اختار الرحم الذى يضمه فى النهاية.. يعود بعد رحلة الخلق الأولى ليستقر فى «رحم» لا خروج منها.. لا بعث ولا ولادة.. إلا أن يشاء الله.

الإنسان وهو خلق ببطن الغيب أعد الله له سكنًا ودفئًا. كنًّا ومكمنا فى باطن أمه ليعبر منها إلى الحياة الدنيا..

يكبر ويصير مسئولا عن أعماله.. يختار لنفسه الرحم «الثانية».. يوجدها بأعماله يحددها بمواقفه وحركة أدائه.. يختار بمحض إرادته نزله.. ومأواه..

مساكن طيبة.. غرف تجرى من تحتها الأنهار.. روضة فى الجنة.. أو تكون «النار موعده» حيث التحم الزمان بالمكان.. كونا وحدة.. «رحم» يطبق عليه بالعذاب.

- والوزن يومئذ الحق -

به تحق الأمور وتعرف كل الحقائق.. ويكشف المستور.. ويذاع أمر الإنسان..

- يجد ما عمله حاضرًا -

يوم تشرق وجوه المحسنين.. ويوم الخزى والحسرة للضالين الطاغين.

الجزاء على حسب العمل « وكفى بالله حسيبًا - والعدل قائم والميزان.. ولا يظلم ربك أحدًا - ولو كان مثقال حبة من خردل.

قد أفلح الذين آمنوا وعملوا الطيبات.. وخاب الذين لم يعملو حسابًا لهذا اليوم، ولم يتزينوا للعرض الكبير.. خسروا أنفسهم. ولا يقام لهم يوم القيامة وزن - كانت حرية الاختيار مكفولة لهم.. ويتحلون بنعمة العقل.. وآيات الله تجيئهم مبصرة وتحيط بهم من كل جانب.. والرسل والكتب ومع ذلك أغلقوا قلوبهم وعقولهم وكتبوا على أنفسهم الخسران المبين. ذلك بأنهم استمروا على الكفر والعصيان وأصروا على إغفال آيات ربهم حتى آخر عمرهم.

ويأتى تصويرهم ﴿كانوا بآياتنا يظلمون﴾ والتعبير عن ذلك يعطى انطباعًا بأنها صيغة تمتد حتى المستقبل.. منذ ذلك الزمن السحيق.. من موقف عنادهم وصلفهم حتى المشهد المروع فى النهاية.. عندما تتم عملية الميزان وتعرف النتيجة ويكونون من الأخسرين.

وكثيرا ما تأتى صيغة الماضى أو الحاضر لتعبر عن فعل تمتد حتى مشارف المستقبل والأجل المسمى.. وذلك لتأكيد المعنى وإبراز صورة الحدث واتساع نتائجه.. ولأنه دائمًا ومنذ البدء تجد قومًا « يستحبون » الحياة الدنيا على الآخرة.. « ويصدون » عن سبيل الله.. « ويبغونها عوجًا ».

يقول العرب القدماء - استقام ميزان النهار - أى انتصف اليوم.. والنهار فى أوج ضوئه.. ونضجه.. إبصاره وحدته وسعيه..

- كانوا علماء حكماء - جاء النهار مبصرًا.. واضحًا جليًا..

ونزل عليهم القرآن معجزة فى البيان والحكمة.. هدى وبشرى

للمؤمنين. تتراءى لنا صورة «الميزان» من جديد.

قدرة فائقة لرفع السماء.. واتساق مجريات أمورها.. واختلاف الليل والميزان.. ووضع الميزان.

طوفت بين حنايا التاريخ.. وقصص الأنبياء.. وسير الأقوام الغابرين.. وأحداث عالم معاصر يموج بالأخطار وتضطرب فيه القيم والموازين.. وتغلب عليه أعمال الجور والعنف والطغيان..

لم نجد سوى العدل يصلح الجميع.

إحياء الدين.. وإقامة الموازين.. صحة الوزن وعدم البخس.. وبذلك تصح الأمور وتستقيم.

ما لكم كيف تحكمون

عجيب أمر أمة ينطق «كتابها» بالأيات البينات وبالحق.. ومع ذلك يتحيرون.. ولا يتبينون الرشد من الغى.. وفى هوة الخلاف يقعون.

البعض يترك نفسه هكذا - معلقا فى العراء - بلا يقين أو أمل.. غافلين عن غاية الوجود الإنسانى..

«غلف قلوبهم» كأنهم وجدوا بلا سمع ولا بصر ولا أفئدة.

إن أعظم هبة للإنسان - العقل.

وهو إن لم يقد صاحبه إلى الحكمة والهداية.. وإلى مجالات الرؤية الصحيحة وآفاق الاستدلال المنطق فهو مجرد «موتور» يعجز عن الحركة الصحيحة.. أو يركن للصدأ وقد يصل إلى مرحلة «الاحتراق الداخلى».. والتدمير الذاتى.. يوجد البعض و حل دون أن يكتشف متعة الفكر.. وحلاوة التفكير والارتقاء إلى حسن الإدراك.. ونعمة التدبر والتأمل.

وقد تعمل منهم العقول بحدة وذكاء.. لكنهم يخضعونها لأهواء

النفس.. أو استغلال الآخرين والاستعلاء فى الأرض.

أحيانًا يكون الدليل واضحًا.. وبين أيديهم يسطع البرهان لكنهم يلوون رءوسهم.. ويجاهرون بغير الحق.. ويستكبرون.. يرفضون تحكيم العقل.. أو إعطاء أنفسهم فرصة الفهم والاقتناع.. والوقوف على الحقيقة.

مادام الأمر لا يوافق أهواءهم.. فهو مرفوض حتى ولو كان جلى المنطق.. واضح الحجة.. بالغ البيان.

ويناقشهم (القرآن) - ليعلمنا من فضله ويجعلنا نقتبس بعض نوره.

﴿ مالكم كيف تحكمون ﴾ ما بال المعاندين والمكذبين.. كيف يحكمون على الأشياء.. وطريقتهم فى الوصول إلى استنتاج أو قناعة..

لم يكن أسلوبهم دائمًا التزييف.. والتبرير.. وسائر العمليات المعقدة ليلبسوا الباطل ثوب الحق..

بمنطق رصين.. وصيغة تؤثر فى الوجدان وتنير العقل وتجعل للناس «بصائر» يناقش «القرآن» المكذبين..

الذين ينكرون وجود الله.. أو ينفلتون من اتباع أحكامه. ولا يرون فى إقامة الحق والعدل، «ضرورة حتمية» لصلاح أحوال البشر والمجتمعات.

﴿ما لكم كيف تحكمون. أم لكم كتاب فيه تدرسون﴾.

هل وصلوا إلى كتاب جامع يتحدث عن حقائق الكون والنفس الإنسانية - ولا يكاد يغادر صغيرة ولا كبيرة - وأحكامه الصحيحة التي يعيشون بها حياة طيبة.. نبيلة يشعرون فيها بالعزة والاستقامة والسلام مع النفس كتاب معجز لا اختلاف فيه.. ويقع ما يتنبأ به.. ويثبت التاريخ ومسيرته صدق أحكامه، ووضوح استنباط وقائعه وأحداثه.. ويتلح لكل زمان علم وحقائق علمية لم نتبينها من قبل ويتيحها الله لنا بقدر وفي موعد معلوم.

مساكن ترضونها

تراءت أمامى آيات بينات.. قد جعلها ربى حقًا.. هدى وشفاء لما فى الصدور.. وبشرى..

﴿مائدة من السماء تكون لنا عيدا﴾

نهر يتدفق بكلمات الله فيجعل البيت طهورًا.. ويحيل الأشياء جميعا إلى نضرة وإلى بهجة.. ويدخلنا ظلا ظليلا..

يصقل الجدران.. ويسرى بالنور بين الحجرات.. فتشيع أمنـ وسكينة.. ويفيض القلب طمأنينة.

ما أجمل أن يعيش الإنسان فى بيت يقيم فيه الدين. ويرطب أيامه بذكر الله.. والأنس به.. والتمتع بقربه.. والاشتغال بطاعته. والله مجيب وقريب.. هنا يصير البيت «سكنًا».. ومنزلا فائقًا.. ومقامًا محمودًا ووجدت ما أفكر فيه.. حاضرًا.. قد جعله ربى حقًا.. سطعت فى وجدانى (الآية)..

﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة﴾.

الله سبحانه وتعالى يعلم كم هي شاقة رحلة الحياة وعسيرة..

تتطلب منا الصبر والجهاد.. وتنمية ملكة الثبات والاحتمال. تهون برفقة طيبة وعش صغير هادئ.. لذلك خلقنا «أزواجا» وجعل لنا من بيوتنا.. «سكنًا» حتى من الجبال الواعرة الصلبة.. جعل لنا فيها «أكنانًا».. حضنا دافئًا.. «كن» يفيض بالخيرات والخصب وأسباب النماء.

وإذا آمنا وعملنا صالحًا فإننا وكما كتب لنا - نعيش حياة طيبة ويعدنا بعد ذلك بالنعيم المقيم والرضوان - أعلى مراتب الرضا والعزة - يعدنا بأروع ما كان لنا فى الدنيا - أزواجًا مطهرة - ومساكن طيبة.

والإنسان منا يحب سكنه.. بيته الذى يضمه وقرة عينه.. وسربه.. مع آماله وأحلامه.

وهو حب فطرى متأصل فى النفس.. وهو غاية المنى.. وواحة الراحة من مجاهدة الحياة.. بعد طول عناء وشقاء يومى.

حتى لقد عاتب الله الذين «قعدوا» عن الجهاد فى سبيله. والخروج مع رسوله.. عاتبهم وأنذرهم بشدة.

وهل يكون الأهل والزوج والعشيرة والمال **﴿ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله﴾**.

حب الديار. والبيوت التى شغفتنا حبًّا هى من أسباب التقاعس.. والفرار والهوان وتولى الأدبار.

ولكن أتظل المساكن التى نرضاها.. ونلتصق فيها أحب إلينا من الله ورسوله وجهاد فى سبيله؟

وتستمر هذه الخطيئة حتى قادم الزمان وقرننا العشرين.

هذه البيوت المحبوبة. المرغوبة منا - فى عصرنا الحديث.. تتسبب حقًا فى أخطاء جسيمة.. وكوارث مستحيلة - على المستوى العام والخاص - البعض من أجل أن تبقى مفتوحة.. ومترفة - تلك المساكن التى يرضونها - يزيفون.. وينافقون.. ويسقطون.

وكلما زادت فخامة البيوت.. وتراصت فيها الأدوات الحديثة.. زاد السقوط والجريمة.

يبغونها عوجًا دائمًا - يقفون فى وجه أى محاولة للإصلاح والتغير من أجل أن يظل لهم التميز والغنى.

البعض يبنى «مسكنه» منذ البداية - دون أساس متين - أو سليم ويأكل أموال الناس!

- وتشكل مسألة انهيار العمائر والرجال ظاهرة خطيرة.. ووباء مستفحلاً. كل ذلك من أجل النهم والجشع والرغبة فى التسلط. و- مساكن يرضونها -.

هل يمكن أن تكون غاية ما نريد الوصول إليه من دنيانا.. وحصيلة علمنا.. ونخسر من أجلها أنفسنا وآخرتنا؟

هل يكون الوجود والفكر والطموح والحلم.. من أجل «مسكن» يرضى غرورنا.. ونفقد فيه حقيقة أنفسنا؟.. أمن أجل المظهر

والوجاهة والمخاتلة يكون الثمن فادحًا لهذه الدرجة؟

لماذا لا نعمل من أجل بيوت حقيقية عامرة بالمحبة والرضا.. صحية.. يشب فيها الأبناء معافين.. أتقياء أنقياء..

عتبات مطهرة نقيم فيها الدين.. وكل ما فيها حلال طيب.

بيوتًا لا نرضاها لفخامتها أو زخرفها.. ولكن لأنها تمثل سكنًا وأمنًا.. وكنا دافئًا.

حجرات هادئة ندرك من تأملنا فيها الحقيقة المؤكدة لدينا.. هو أننا مهما كنزنا فيها.. وجلبنا لها من رياش وأثاث فهي خارجة من أيدينا لا محالة.. ولن نملكها أبدًا.. ولابد خارجون منها.

ومن قبل أوحى الله إلى نبيه موسى أن «يتبوأ» وقومه بيوتًا - يجعلها «قبلة» - ولنتأمل اللفظ المعجز «تبوأ».

وتأملت الإشارة الجليلة.. بيوت المؤمنين يجب أن تكون قبلة.. تكون - مبوأ صدق - رفيعة القدر.. عالية المكانة.. عامرة بالخير.. مقامة على ذكر الله.. منيحة بحمده وتسبيحه.. تسطع بنوره.

تتسم بالجلال والعزة والطهر.

هكذا يجب أن تكون بيوت المؤمنين حقًا.

. فهل بيوتنا تليق أن تكون «قبلة».

أم أننا اتخذنا ديننا داخلها مهجورًا.. وعمارها بهتانًا وزورًا؟..

دين النظافة والطهر والنقاء. نظافة الثوب والبدن.. النفس

والأمكنة.. الضمائر والنوايا. ذلك الدين القيم.

فكيف بنا.. ونحن ننتمى إليه نصبر على القذارة داخل البيوت وفى الطرقات وحول السكن.. وتنفذ إلينا - من خلال عيوننا - الأمراض والأوبئة.

لماذا لا نطهر بيوتنا.. «حوانيتنا».. مدننا.. ووطننا إنسانيتنا.. و «السكن الخاص بنا» - طهارة مادية ومعنوية ؟.

كيف لانضع هدفًا لعملنا إشاعة الجمال والنفع والخير من حولنا.

نعمل ونجاهد ونتطلع دومًا إلى ذلك الوعد الرائع.. أن يبوئنا الله - فى الجنة غرفًا تجرى من تحتها الأنهار.

وجاء حين من الدهر خر السقف علينا وغاب الأمان.

اعتلى قوم الجدران.. ودخلوا دون استئذان.

لم يطرقوا الأبواب أو يسلموا.. استرقوا السمع والبصر - أشعلوا - من داخلنا.. حربًا علينا.

استباحوا الحرمات.. وقدسية صلة الرحم.. تبدد الأمن والسكن ظلوا يتربصون لحظة انهيار قادمة.

وانكروا علينا حتى أن نصبر. ندعو الله.. إليه نستجير وبه نعتصم.

لكن الله غالب على أمره.. كتب على نفسه الرحمة.

فأخذتهم الصيحة، وهم ينظرون وليكونوا عبرة للمتقين.

وتأملت دعاء زوجة فرعون. ﴿رب ابن لى عندك بيتًا فى الجنة﴾.

هى مليكة مصر.. تعيش حياة البذخ والقصور..

لها ملك مصر.. وهذه الأنهار تجرى من حولها..

« والملأ الأعلى » بين يديها يرفلون - فرحين بما أوتوا - يسرفون فى الثناء والنفاق والتمجيد للفرعون وزوجه المتوجة.

ومع ذلك أدركت أمام براءة طفل صغير حمله إليها النهر أن كل مظاهر الظلم والجور وأمر تقتيل الأطفال.. واستحياء النساء على الذل والخوف.. وقطع دابر الرجال.. قصر كهذا هو السجن بعينه أو الجحيم.

لذلك دعت الله مخلصة أن يبنى لها « بيتًا » فى الجنة.. وينجيها من فرعون وعمله.. ومن القوم الظالمين.

وجعل لها ربها آية.

لديهم حقًا مظهر السكن.. زخرفة أو ثرائه.. لكن يهم حقيقة ما « بداخله » فلنجعل بيوتنا « قبلة » عامرة بالإيمان.. مترعة بالمحبة.. قائمة بالحق والعدل.

وأعظم حقيقة أن هذا الكون البديع لم ينشأ « بالصدفة » بل له خالق مدبر يقوم بالامر.

﴿أم لكم كتاب فيه تدرسون. إن لكم فيه لما تخيرون﴾

هل يوجد بين أيدى المكذبين.. العاصين كتاب أفضل.. يختارون مما فيه ويجدون القناعة بين آياته؟

هل توجد بين أيديهم أدلة وبراهين أكثر.. ومجال للرؤية والاختيار أفضل..

أم أنهم - وعلى مر العصور - يرفضون ولا دليل.. وينكرون بلا حجة أو منطق.. ويعرضون عن أيات القدرة الدالة على الوحدانية، دون تدبر للنظام المحكم، ولو تأملوا إلى الحكمة، ووصلوا إلى الإيمان واليقين.

﴿أم تسألهم أجرًا فهم من مغرم مثقلون﴾

ربما زاغوا لأن هناك من يطلب منهم أجر هدايتهم.. وهم مثقلون بالغرم، والمال لديهم أعز من أنفسهم.. وهم أحرص على الترف والكنز.. لكن الرسل لا تسأل الناس أجرًا..

إن أجرى إلا على الله - قالها «نوح» وسلالة الأنبياء من بعده.. وإبراهيم وذريته المكرمون إلى موسى وعيسى ومحمد النبي الخاتم الأمين.

لا شيء لديهم على الإطلاق... يتركون أنفسهم فى العراء هكذا - معلقين - رحلتهم إلى الخسران المبين..

يتسابقون إلى حتفهم، ينتظرون حتى تأخذهم الصيحة.. صم بكم لا يعقلون.

وإلى آخر الزمان.. نجدهم كثيرين.. كما وصفهم القرآن.. معزولين عن السمع - بمعزل عن سماع الحق أو الصوت الداعى إلى الإصلاح.. يجادلون بالباطل ويرمون المتقين بالتهم ويفترون.. صفوف متراصة.. ومنذ الأقوام التى خلت من قبل.. وامتداد العصاة المترفين والطغاة المتحكمين.. يستكبرون.. ولا ينظرون إلى أبعد من سلطانهم ومقاعدهم.. وما جمعوه.

مع أن كل ما يعبدون من مظاهر الترف والصنم ووسائل السلطة والنفوذ، متغير لا يدوم، وهو خارج من أيديهم لا محالة..

ويجدون أن حياتهم ضاعت هباءً وعبثًا.. ولم يحققوا من وجودهم سوى الضلال والغواية ومكر السوء.

ومنذ البدء تجدهم.. المترفين والعالين فى الأرض، يمقتون دعوة الصلاح والمصلحين.. يكرهون من يدعوهم إلى الحق والعدل.

يبطلون فى أنفسهم هداية العقل وهدى الدين.. والقوى المحركة للاستدلال وإعمال الفكر، والطاقة الدافعة إلى الفطرة السليمة.

وأقوام كثيرة تعيش كالأنعام.. مسلوبة الإرادة.. مضيعة الحواس.. ذاهلة العقل لا يتدبرون الأمور أو يعقلون. يرهبون الناس ويجعلون لله أندادًا، مع أن الإيمان أقرب إلى الفطرة، والوحدانية تصلح فى آيات الكون.. والدين لم يقدم لهم ما يرهقهم بل

ما ينظم حياتهم ويرتق بأسلوب معيشتهم، ويرفع أقدارهم ويهبهم العزة والجلال. ويجعل صلاتهم وشيجة حب.. ورباط مودة.

يهدينا «الكتاب» إلى صيغة الحوار.. وأسلوب الإقناع وصياغة القياس العلمى.. واستنباط للحقائق.. إلى منهج الاستدلال العقلى.. والاستنتاج المنطق.. ونظرة شاملة لوحدة الخلق والكون.

يعلمنا «النور» الذى أنزل علينا كيف يكون حديث المؤمن.. ودائرة النقاش.. وأسس الجدل ووسائل الإقناع.

دروس وعظات.. وتدريب لنكون من جنود الحق.. ودعاة إقامة العدل. ويبدأ التساؤل (أم) صيغة للعتاب المفحم.. والتأنيب المؤثر فى النفس المثير للانتباه.. مقدمة تستفهم عما وراء تفكيرهم.. وخلفية نظرتهم لقضايا عصرهم.. أدلة يسوقها العلى القدير لشحذ الالتفات واستلهام الفطرة وتنسكب إلى الأعماق فتزيح ذلك الجفاف الروحى.. والجذب الوجدانى منهج للمناقشة جدير بالتامل..

وإقامة للدليل العقلى - كيف يحكمون -

هل أخذوا موثقًا يصلح العمل بـه.. هل يعلمون الغيب ويكتبونه لديهم فليأتوا ببرهانهم أو شركائهم..

كيف ينكرون.. ولا دليل لديهم.

خطاب موجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم، أن يسأل المشركين كيف يحكمون على أنفسهم هذا الحكم الجائر.. ولا يحترمون عقولهم.. وقوة الحجج لهدايتهم.. وموعظة الأجيال السابقة من

الغابرين.. ويتركون أنفسهم فى غيهم سادرين.. لا يحيرون جـوابًا.. ويخزيهم الله فى الدنيا والآخرة.

صياغة موجهة إلى المؤمنين أن تكون دعوتهم بـالمنطق الـرصين.. أن يكون أسلوبهم وخلقهم القـرآن.. ويتعـودون على النقـاش بهــذا القدر من النضج.. ووضوح الرؤية.. وجلاء البصيرة.

نداء ربانى إلى الحكام - ومن يوليهم الله شئـون الآخـرين - أن يلتزموا حدود الله.. ويقيموا أحكامه.. وألا يحيـدوا عنـه إلى أهـواء النفس وغواية النفوذ.. ومنزلق الاستعلاء.. أو ما يزينه لهم المترفـون والمتنفعون وبطانة السوء.

تدريب إلهى نعيد صياغة أنفسنا.. ونعود به إلى نغمة الحـب.. نعمل صالحاً.. ونقيم الدين لله.

إن كنتم للرؤيا تعبرون

كان أول خاطر يرد إلى ذهنى فى الصباح

(بى شوق إلى القرآن عظيم)

القرآن موعدى.. والصبح واعد.. ويجتاحنى الشوق الجميل.

نمت البارحة على هم ثقيل.. دعوت الله أن يباعد بينى واللحظة المضنية.. يمر وقع الألم.. يسرع مؤشر العبور.. يهبنى فسحة من الوقت.. الغد يوم آخر - حدث اليوم يصبح ذكرى فيه.. يحتوينا زمن جديد.

أسلمت وجهى لله.. تهدج صدرى بالدعاء (راحة النعاس يا رحيم.. وأرنا رؤيا صدق من لدنك - واجعلها ربى حقًّا - وعلمنى من تأويل الأحاديث..)

شاعت الابتسامة فى ضباب غفوتى.. تذكرت النبى يوسف الصديق.. وهبه الله حكمًا وعلمًا.. وعلمه من تأويل الأحاديث.. اجعله آية فى الصبر الجميل.

سبحان فالق الإصباح..

صحوت مع نبتة الإصباح الأولى.. تذكرت وعدى وموعدى.. رحلة الشوق الجميل.. يوسف أيها الصديق.. نبدأ يومنا بالتلاوة.. نستمع إلى القص الجميل.. سورة كاملة تستوفى القصة كلها..

أحاطت به البلايا منذ البداية.. نزغ الشيطان بينه وبين إخوته.. أجمعوا رأيهم أن يقتلوه أو يطرحوه أرضًا بعيدة..

استقروا أن يلقوا به فى غيابة الجب.

يتعلق بالدلو ألقاه أحد السيارة.. ويباع بثمن بخس - وكانوا فيه من الزاهدين - ويتعرض للغواية والمساومة - كيد النساء المستبدة الطامعة - أبى واستعصم.. وسيق إلى السجن برغم ثبوت براءته وعفته..

مرة أخرى يلقيه الخطاة الى غياهب السجن - ضحية لذنوبهم - ويعتصم بالصبر الجميل.

ابتسمت لنفسى.. اشرقت البسمة فى حنايا يقظتى.. شغفتنى حبًا قصته وصراعه النبيل..

يملك «إرادة الصبر».. وشجاعة التحول والتطوير لموقف الهوان والخسف والكرب العظيم..

أعيد التلاوة.. ليثبت منا الفؤاد.. ونقتدى بأولى العزم من الرسل. أمامنا طريق البرء والشفاء.. وعلاج الهموم والمحن..

فلنجدف فى البئر العميقة.. ونبحر بزورق الصبر الجميل.. ونغوص فى بحار الحكمة.. نتعلم كيف نسعى ونعمل حتى فى أشق

الظروف.. وأصعب الأحوال.. وتحت أقسى الضغوط.

وبين براثن الظلم والجور.. حتى ولو التقمنا الحوت.. أو قذفوا بنا فى بطنه.. وغيبتنا ستر الظلمة والعزلة.. وابتلعتنا الأسوار والحصون.

تابعت التلاوة..

﴿وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا، وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض﴾

استوقفتنى العبارة:

﴿مكنا ليوسف فى الأرض﴾

أخذتنى الدهشة.. تبدو غريبة بعض الشيء.. كيف تأتى بعد عملية البيع والشراء. حقًا أنقذ من البئر.. حفظت حياته.. لكنه صار عبدًا..

كيف يكون التمكين فى ظل العبودية - فى هذه المرحلة على الأقل من حياته وقصته - حتى ولو ترفق به السيد الذى اشتراه.. وأوصى به زوجته لتكرم مثواه.. هذا الفتى الواعد النضير.. سليل شجرة النبوة الساطعة.. ابن نبى الله يعقوب.. وإسحاق.. وجده الأعلى إبراهيم - كان أمة -

أين بنا إذن فى هذا الموقف بالذات من الرفعة والعلو والتمكين؟

ولكن الذى يبدأ القصة، ويتابع فصولها وتدرج الأحداث الدرامية

فيها.. يجد انه فى مواجهة الموقف العصيب.. تتم المواجهة - والمحن معلم عظيم - يدور الصراع ويتحدد الاختيار.. وبذلك يضاف إلى رصيد الشخصية من القوة والصلابة والالتزام بمبدأ الحق.. فيكون «الخروج» أكثر قدرًا وتألقًا وحكمة، ونصل إلى قمة التطوير وذروة التنوير.

يجب ألا نعيش على ظاهر الأمر فقط.. ونصل إلى نتائج سريعة ساذجة ونقول أين التمكين له فى الأرض وقد صار عبدًا!..

إنه التصعيد فى الموقف الذى بدأ بوصول العبد إلى مصر وتراوده التى هو فى بيتها عن نفسه.. وتحيط شباكها حوله.. ووعد المتعة والنعيم.. وبرغم الفرصة السانحة يتأبى.. يقاوم.. يستعصم.. يقرر الا يخون، ويهتف من أعماقه ﴿**السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه**﴾

ويكون السجن هو وسام الاستقامة والعفة..

يخرج السجن عن معناه.. ويكون الحرية والاختيار..

يرتقى إلى مكان للعبادة ويكون علوًّا فى التضحية.. ومنزلا للتقوى وقوة الاحتمال.

إذن تمخض الموقف عن مفاجأة..

تهيأت الأسباب بمرور القافلة.. وتم بيعه فى مصر.. وكل ما لقيه بعد ذلك ما هو إلاّ تدريب وتمهيد لينال المكانة العالية.. ويمن الله عليه ويمكن له فى الأرض.

انتقلت الأحداث الى مسرح جديد.. مكان يلعب دور البطولة وسط العالم.. وبين أرجاء حضارة عريقة مشعة على الكون. يجعل الحدث البسيط الذى يقع فيها، لا يقتصر أثره على البلاد بل يمتد ليصل إلى أبعاد شاسعة.. وقبائل متفرقة.. ولقد اتخذ البطل موقفًا فائقًا..

وهو تمكين له بالفعل.

نحن فى وسط القصة تماما.. وعنصر التشويق يعمل فى تنوير بصيرتنا.. والرغبة فى اكتشاف الحكمة واستلهام العبرة يدفعنا لتتبع حركة الحدث وأثر نموه وتطوره..

فى مواجهة السجن.. موقف جديد ينبثق عن قمة الموقف الآخر..

ثبتت براءته لكنهم رأوا أن يضعوه فى السجن حتى ينسى الناس ما كان بشأن الفضيحة والخيانة.. وتكف نسوة المجتمع عن التشدق بالحكاية.. وكف الأفواه أن تلوك سيرة امرأة العزيز.

يوسف فى مواجهة تجربة السجن - كما لم يعانها أحد من قبل - هو قلب الحوت.. وحوله ظلمات فوق ظلمات.. ظلمة الليل والقهر وجوف السجن. ألقى به نسيًا منسيًا.. لا يذكره أحد.. ولا تتم له محاكمة أو خروج..

قذفت به السلطة إلى الداخل السحيق.. وراء الجدران

الصماء.. لا أحد يسأل عنه لا أحد يجيء.. وحيد منفى بين ضحايا الطغاة وعتاة المذنبين.

لو وقع لحظة فى هوان الوضع.. وذلة المطاف.. لو استسلم للحزن ومشاعر الشفقة على النفس.. إذن لانهار وانكسر وأحاط به حقًا كيد الخائنين. لكنه رأى الوجه الآخر من العملة التى بين يديه.. تحول إلى الضفة المقابلة من التجربة.. عبر للرؤية البعيدة الزاهية..

درس الموقف بعناية.

تقرير حالته يقول إنه يواجه ظروفًا خارجة عن إرادته - وإن كان اختار الموقف الحق الذى هو جدير به.. والتزام جانب الأمانة، وقيم التضحية، ومجاهدة النفس والخطأ..

حق النجاة كتبه الله على نفسه - سبحانه -

مصيره بين يدى من رفع الميزان.. وبقدرة من يبدئ ويعيد..

الباعث الشهيد، يحيى بوار الأرض والناس.

القيوم.. من يدبر الأمر.

إذن ليس أمامه إلّا أن يصبر.. ويتق.. ويعمل صالحًا.

(نعنى الصبر الخصيب الذى لا مجال فيه للشكوى أو الأنين.. ومذلة الإشفاق على النفس.. إنما يحوله الإنسان إلى طاقة عمل.. وتزود بالقوى.. وجمع شتات النفس.. واستجماع أدوات الجهاد، ورسم منهج الانتصار).

- الصبر الخصيب، معناه الخروج من سجن المحنة إلى الاهتمام بالآخرين، وبما يجرى حوله من أحداث.. ورفض الظلم والضيم، والاعداد ليتحول ميزان القوى.. واحتمال الشدة حتى نأخذ بأسباب القوة.. ومحاولة نفع الآخرين ووضع المشكلة الخاصة فى إطارها العام مع قضية معاناة الناس. حول السجن إلى مركز تدريب وإعداد.. ساحة للمعرفة والتعبد والاكتشاف.. مسرحًا لعمل خلاق.. ومنبرًا لدعوة التوحيد.. معملا للتعلم وتحسين الأداء. حاول أن يوقظ عقول السجناء.. من هبطت أرواحهم إلى الحضيض.. عانوا الظلم والقهر.. أو ركنوا إلى المذلة والخوف.

دعاهم للتأمل والتدبر وإعمال العقل والتفكير ﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾.

عمل بينهم.. كسب ثقتهم.. فتح أمامهم باب الأمل والتوبة والرجاء.

حتى أحلامهم وهواجسهم النفسية، اعترفوا له بها، وطلبوا تفسيره وتأويله.. ورؤياه المستقبلية لهم.

- كان التطبيق العملى للعلم النابع من نور الإيمان.. وعظمة التوحيد.. وهداية العقل والدين..

وهكذا تداعت مع ذكره صفات العلم والحكمة.. وبراعة التصور ودقة البيان. ولما رأى الملك حلمه العجيب - أن سبع بقرات سمان

يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات.. ونادى فى المدينة:

﴿ يأيها الملأ افتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾

لم يفلح الكهنة او الندماء.. ولا السحرة ولا الوزراء.. وقالوا أضغاث أحلام.. وهواجس منام..

وتذكره صاحبه فى السجن.. وتفسيره للحلم الذى رآه.. وتحققه بعد ذلك.. وهرع إليه برؤيا الملك.

- استطاع يوسف ان يحل رموزها.. ويحل الشفرة الكامنة فيها.. ويستخرج الإشارة الموحية -

(وهبه الله نورًا وعلمًا ونفاذ بصيرة.. كان يحلل الحلم من منظور واقعى.. ويجيد تفسير الرموز على أسس علم الاجتماع ودورة الاقتصاد وأحوال الناس) وثبت لديهم صدق فراسته.. عمق نظرته.. واقعية تحليله.. وسعة علمه وخبرته.

﴿وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين. قال اجعلني على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم. وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض..﴾.

وكذلك أعيد تكرار الآية مرة أخرى..

﴿مكنا ليوسف فى الأرض﴾

يأتى تكرار النغمة الرئيسية.. لتؤكد المعنى.. وتنبه إلى يقين الغلبة والانتصار لمن يلتزمون بمنهج الله..

ومن منا يخرج من السجن إلى قمة الحكم والمسئولية.. لم يهزم داخل الأسوار، ولم يتمزق من العزلة والحصار..

مكن له فى الأرض حقًا.. لأن ساحة المحنة اكتسب منها المزيد من القوة الروحية.. وصفاء الذهن.. واللياقة النفسية.. والإعداد لما يلزم لإقامة العدل بين الناس..

خرج من السجن مرفوع الرأس عالى الهمة.. عميق الخبرة.. اختار موضعه بعناية ودقة.. قال اجعلنى على خزائن المال.. وهو حفيظ أمين..

(أى أنه وضع نفسه.. الرجل المناسب.. فى المكان المناسب.. فى الوقت المناسب أيضًا) يعلم بخبرته ودرايته أن الاقتصاد أساس الحكم.. وإدارة شئون الناس.. قاعدته الأولى كانت عدالة التوزيع..

مارس تحقيق العدل والحق والمساواة.. «ولكل كيل بعير» ليس للمواطنين فقط بل الجيران والدول القريبة والمحيطة، وكل من يطلب العون من مصر والغوث من القحط والبوار والجوع.

هى نظرة إنسانية تشمل الجميع.. صدرها من مصر - قلب العالم - وقبلة الجميع. وهو كيل يسير على مصر.. مع تقديمه الإخوة والصداقة وإكرام الضيف والإشراف الدقيق على التنفيذ.

ذلك لأن العدل يصلح الجميع.. والعدالة ترنو إلى ازدهار إنسانية الإنسان.

(لم يخترع مبدأ التبعية الغذائية والتبعة الاقتصادية مثل هذه الأيام) بل صدر من مصر قواعد الحق والعدل.. وقوانين المساواة والإخاء.. بشكل لم تشهد الدنيا له مثيلا - وحتى هذه الأيام.

هدف القصة يتضح إذن..

من العبارة البليغة المكثفة..

عندما يواجه المؤمن حدثًا فوق طاقته.. خارجًا عن إرادته.. محنة ابتلاء عظيم.. عليه ألا ينهار.. يهن أو يذل ويقبل المساومة وفتنة المراودة عن النفس والكرامة..

يبدأ بتحليل المشكلة.. معرفة جوانبها المختلفة.. يقيس موقفه بمقياس الدين.. بحرية الاختيار التى وهبها الله له وعلمه المنهج والبيان..

يصبر ويبق ويعمل صالحًا..

حتى فى أسوأ الظروف لا يتوانى عن أداء مهمته.. وبين الناس - وهو يفكر فيهم يمكن ان يستلهم حركته.. ويكمل عدته.. ويكشف الطريق الصحيح.

الحلم المشترك!

قالت الصغيرة:

«من أحب صفات أبى أنه - يحلم معى -

وتذكرت كيف كان يصغى لخيال طفلته.. ويعيش معها ومضات حلمها.. ويجدف إلى عالم البراءة والنقاء.. والرؤى البهيجة الواعدة.

كان يقول: الأسرة تعنى حلمًا مشتركًا.

حقًا.. الأسرة لا تعنى مجرد أشخاص يعيشون معًا.. ويلتصق وجودهم بين صيغة الزمان والمكان.

قوام الأسرة أن يكون لها «حلم مشترك».. يعيش بين جنوبهم.. وتسعى أعمالهم وتفكيرهم لتحقيقه..

«حلم» يصنع على أعينهم.. ويوحد بينهم.. يخفف معاناتهم.. ويوثق روابط المحبة بينهم..

أروع تعريف للأسرة

فما بالكم بأمة؟!

الأمة ليست مجموعة افراد.. يعيشون متجاورين.. فوق أرض

واحدة.. لكنها «حلم مشترك» يوحد الجهود.. والفكر.. والعمل.

دنيا قادمة من أجل غدنا ومستقبل أحبائنا.. جهاد ليوم نحقق فيه الخير والعدل للجميع..

وإلا فلننظر لحال أمة تفرقت فيها الكلمة.. واستبدت بها الأهواء.. وجنحت بسفينتها عوامل الشراهة والأنانية والجشع.

نجدها وقد تفتت قواها.. وفقدت الارتباط والألفة.. وشاعت الفرقة والأنانية.. وعم الفساد.. وضاعت بين أهليها الثقة..

شقاء.. وعذاب أن تعيش مجتمعًا تغلب فيه المنافع الشخصية على المصلحة العامة ويتبدد فيه نسيج الوحدة.. ودفء المشاركة.

ونظرة إلى تاريخنا القريب والبعيد.. نجد أنه ما اجتمعت الأمة والتفت حول أحد أبنائها او أبطالها. إلا أنه يمثل لهم «ذلك الحلم الجماعي الجميل» ويعبر عنه.. ويسعى فى مقدمتهم لتحقيقه..

تلك هى الشرارة المقدسة التي تنطلق فإذا الأمة كلها رجل واحد.. وإذا الجهود موحدة.. والعمل متسق ومتصل من أجل تحقيق الهدف..

كذلك الشعوب كلها..

كذلك تبع الناس الأنبياء والصالحين.. لأنهم كانوا يجسدون «حلم الإنسانية كلها»..

حيث يعيش الناس فى سلام ومحبة.. وحرية واسعة.

والإنسان يوجد وقد زوده الخالق العظيم بتلك القدرة الفائقة على

« الحلم ».. قوى نورانية تجعل عيونه مشدودة دائما إلى أمام.. لا يكف عن البحث.. والاكتشاف والتقدم..

والعالم يدين للحالمين العظماء.. الذين تصاعدت نظراتهم إلى السماء.. وفوق الماء حيث يحلمون بجسوم طائرة تحمل الإنسان وتصله.. وفلك تجرى فى البحر بما ينفع الناس.

وفى كتابنا الكريم يخاطبنا الله تعالى على أننا « أمة ».. ويؤكد لنا ضرورة وحدة الأمة.. وارتباطها وتكافلها أيضًا..

يقول تعالى:

﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ﴾

الخطاب هنا موجه إلى « الأمة » بأسرها..

والنهى فيه عن سفك دم بعض.. وإخراج فريق منا من ديارهم أو أوطانهم.. فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر.. وكل تشريد من الديار والأوطان يقع فيه التيه والضياع فوق رأس كل منا..

يقول الإمام محمد عبده: « هذا التعبير المعجز يبدى الأقوام للأمم إلا بالتحقق بما تضمنتها هذه الحكم.. وشعور كل فرد أن نفسه هى نفس الآخرين.. ودمه دمهم - لا فرق بين الروح التى تجول فى بدنه والدم الذى يجرى فى عروقه، وبين الأرواح والدماء التى يحيا بها إخوانه ».

والحجة قائمة إلى الأمة الإسلامية - المخاطبة بالقرآن - بالعمل بهذا الميثاق وتطبيقه حتى ينصلح حالنا.. ولا ننفي داخل ديارنا.. ونفقد إيماننا وأمننا..

ونحن أمة العرب.. هل يجمعنا «الحلم المشترك».. ويوحد بيننا..

لقد أهدرنا «دمنا» وسفكنا دماء بعضنا.. وشاهدنا بعيون باردة.. أو «محروقة» خروج بعضنا من ديارنا.. وتقتيلهم وتشريدهم.. وأسر الآلاف من أسرنا وأبنائنا.. صارت أحلامنا «هزيلة».. وسقيمة..

وتفشى وباء النفعية والانتهازية.. وأكلنا أموال بعض.. وحقوقهم بالباطل.. فهل نعود - كما أرادنا الله أن نكون -..

قوم عدل وخير.. نقيم قرآننا.. ولا نجعله مهجورًا بيننا.. ونشفى فيه من الأوبئة المتفشية بيننا.. ونسعى بالعمل الصالح..

حتى يسطع حلم الحرية والإنسانية بيننا..

يمشى فى الأسواق

أنصت للتلاوة..

الشوق يمد بى.. نفسى حاضرة السمع.. تعلو إلى الدرجات العلا.. تتدرج فى الارتفاع الى النور المقروء.

استوقفنى المعنى فجأة.. تنبهت بشدة.. عجبت للمنطق الغريب.. يلوون عنق الكلمات.. ليًا بألسنتهم عن صدق البيان والوضوح.. تبدت الحجة شاهدة.. واستوت الآيات بينة.. وسطع الحق قائما - وبنفسى أنت يا رسول الله - وهل كنت إلا بشرًا رسولا -

ماذا يقول الظالمون عن الكتاب.. الفرقان.. الهدى والنور.. بشرى القلوب المؤمنة، وتبيانًا لكل شىء وتثبيتًا للأفئدة.

يقولون افتراه.. أو هو نوع من التأليف الجماعى ﴿أعانه عليه قوم آخرون﴾.

و ﴿أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه﴾

﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ﴾

ربما استمعوا إليه لو أنزل معه ملك.. أو امتلك كنزًا وجنة.. عميت بصيرتهم حتى أشاروا إلى موطن العظمة فيه.. إلى منطقة الجذب التى شدت الجميع إليه.

هو إنسان بسيط وعظيم فى الوقت نفسه.. يأكل الطعام.. وأحيانًا لا يجد ما يأكله أو يقدمه لآل بيته.. ويمشى فى الأسواق.. بل ويزيد على ما يقولون «ابن امرأة تأكل القديد».

لم تختلف حركته.. ولم يعزل نفسه عن أحبائه وأصحابه الذين آمنوا برسالته.. لم يتغير طبعه عندما أتاه نصر الله وكتبت للمسلمين الغلبة والفوز.. ظل كما هو كأنه القلب النابض لجماعة المؤمنين.. قلب الخلية الأولى الحية فى العمل والأداء.. فى الحركة والسلوك.

لم ينأ بنفسه عن الجمع أو يحيط نفسه بالحراس والأتباع.. ظل «ببردته» الوحيدة ونفسه السمحة.. وتفانيه فى إبلاغ الرسالة.. والقيادة.. وإدارة أحوال المسلمين.

هو نفس الفتى - الصادق الأمين - الذى كان قبل المهمة النبيلة التى اضطلع بها.. والذى كانت تلجأ إليه قريش فى خلاف المترفين بها.. ومزايداتهم المظهرية.. فيحل لهم النزاع ببساطة.. وحسن روية.. وبتلقائية فى التفكير، سليمة ومستنيرة.

بهذه المقومات الإنسانية النضرة.. والنهج المعتدل والأسلوب البسيط من العيش، اكتسب محبة الناس وتقديرهم.. وأهلته لأن يقود أروع ثورة تحرير فى تاريخ البشرية.. وتبقى الرسالة ساطعة إلى الأبد.. ونموذج الإنسان فيه فائقًا.

هو أمل البسطاء والكادحين.. المعذبين فى الأرض.. ممكن أن يرتفع الإنسان بنفسه.. ينفض الذل والهوان.. تملؤه رسالة التوحيد قوة وثقة.. يصوغه الإسلام، وأيًا كان موقعه من الحياة.. يكتسب العزة والجلال.. ويعيش حياة طيبة.. مليئة بقيم المجاهدة والسعى، وتحسين الأداء والعمل الصالح. لقد تحققت المعجزة.. وهى قائمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.. رأينا كيف بعثت أمة من جديد.. وكيف صارت حضارة ومنارة.. استجاب لدعوة الحق فى البداية، العبيد والإماء والمستضعفون فى الأرض، آمنوا.. فعلت قاماتهم.. وأشرقت نفوسهم بنور الإسلام.. والتزموا منهج القرآن.. صار كل منهم كتيبة.. جيشًا بأكمله.. أمة..

لم يشعر الواحد منهم أنه فرد.. بل إنسان فى جماعة المؤمنين.. قوة داخل كيان هائل للمجاهدين.. طاقة لمحرك النور.. ووحدة فى البنيان المرصوص.

صاغهم الإسلام من جديد.. وحد بينهم.. طبع أسلوب حياتهم.. أصبحت الحياة أكثر نبلا وعدلا.. تذوقوا معنى الإخاء والمحبة والمساواة.

وبنفسي أنت يا رسول الله..

أنت فينا الأسوة الحسنة.. والقدوة العظيمة.. ولدينا الكتاب والحكمة.. ومع ذلك تدهورت أحوال المسلمين وانفرط عقدهم.. عندما اتخذوا القرآن مهجورًا.. واشتروا بآيات الله ثمنًا قليلا. واعتقد البعض منهم أنهم مركز الكون، وأن العظمة تأتى من كثرة الاتباع والحراس وجماعات المتنفعين، والقصور والحلى وأسباب الترف الكثيرة.

يعيشون عيشة أفراد.. يتربصون بالكسب من أى اتجاه.. ولا يعيشون كأمة واحدة.

العظمة الحقيقية تنبع من أن يملك الإنسان نفسه، لا يتركها تتبع الهوى وتركن إلى من يزينون السوء حسنًا.. العظمة تكمن فى النفس فى تقوى الله.. وعدم الاستكبار.. فى الوقوف بجانب الحق والعدل.. الخلاص كله أن نقيم القرآن.. يكون نهجنا.. وأسلوب عملنا.. وخلقنا..

الرسول عليه الصلاة والسلام.. هو عظمة التطبيق والالتزام بالعقيدة السمحة - خلقه القرآن -

السماحة والمشاركة وحب الآخرين والعمل من أجلهم.. والسبق فى الخيرات والعقلية المستنيرة.. والقياس بمقياس الدين. وإقامة ميزان العدل - إعمال العقل ترك الأثرة والفردية المقيتة..

ترك هوس التعصب والغلظة..

مفردات الشخصية الإنسانية النضرة.. من الود والحنان، والاهتمام

والمشاركة والرغبة فى نفع الناس.. أغلى من كنوز الدنيا ومظاهر الترف وأدوات الاستعلاء.

ماذا كانوا يريدون من الرسول..

أن يأتى جبارًا إلى الأرض.. من الملأ الأعلى.. يعتو عتوًا كبيرًا..؟ أم إنسانًا عذبًا.. رقيق المشاعر.. يجادل بالتى هى أحسن.. ويشاورهم فى الأمر.. ويحفظ العهد والود.. ويعانى كل لحظات المخاض للدين الأكمل.. ويحتمل الشدة ويصبر.. ويضرع إلى الله بالدعاء.. «الدعاء الخصب» وهو موقن بالاستجابة.. لأنه يعمل مثل الجميع ويشق الخندق معهم.. ويحفر فى الأرض.. ويعد العدة.. ويدير الخطة.. ويسهر على الإعداد النفسى والروحى لجنود الحق.

«أمل بديع» يظل مشعا كل زمان ومكان.. أمل عظيم للبسطاء.. عمل الإنسان هو ما يقيمه ويحدد قيمته.. به يسمو ويحقق وجوده.. ويؤدى مهمته.

وصفه الله سبحانه وتعالى «سراجًا منيرًا».. وأفسح لنا - سبحانه - المجال لنرتفع بالتقوى إلى منزلة نورانية ربانية كبيرة.. أن يكون الواحد منا سميعًا.. بصيرًا..

نور نهتدى به فى أيامنا العسيرة.. مرتفقًا نصعد إليه ونفر من هوان أيامنا.

نموذج أمثل للمعذبين منا.. البسطاء الكادحين.. الطريق إلى الرفعة والسمو واسع وفسيح جدًا.. لا يملك أحد أن يعطله ويحول دونك.. متاريس الأرض وصواعق الزمان.. لا تهدم الطريق أو تعرقله.. طريق يقف على قمته الرسول القدوة الإنسانية..

كان ناضجًا وواعدًا وهو فتى صغير.. الصادق الأمين وهو راع بسيط.. يأتى ذكره بالخير والانبهار فى كل مكان.. ويدخل طيب ذكراه إلى الدور والنفوس.. والصادق القوى الأمين، وهو يعمل بالتجارة ويتنقل بين القبائل.. ويرعى حقوق الآخرين.. وينمى أموالهم.

ثم وهو المعلم والقائد والرسول..

(هل كان الراعى الفقير يقتدى به ويضع أسلوبه فى عقله وقلبه.. ويستعفف بالآيات فى حواره مع الحجاج.. عندما دعاه على تأفف منه للطعام.. وتعرفون ما الحجاج - الخطيئة والعورة بين حكام المسلمين - كلمات الراعى كانت تقطر حكمة واستقامة وبيانًا وتفصيلًا:

« دعانى الذى هو خير منك - إنى صائم - ما عند الله خير وأبقى.. هل أفطر اليوم وأصوم غدًا؟.. أو يضمن لى الأمير أن أعيش إلى غد.. »

ما الذى يجعل أسلوب الراعى الفقير مترعًا نفرًا.. زاهيًا ويفحم

الحجاج الطاغية..

أسلوب هذبه الإسلام.. وصاغته السماحة والعفة وحلاوة المجاهدة في سبيل الله.)

إن مقياس الثراء والترف - مقياس فصلك لمعرفة أقدار الرجال..

المقياس الحق عمل الإنسان..

العظمة الحقيقية أقامها الرسول..

مجاهدة النفس.. القدرة على الاحتمال.. كظم الغيظ. دراسة الموقف. للجماعة دائمًا.. وعمل تحليل للموقف. وحسن الإعداد.. ودقة الاختيار ثم تأتى مرحلة العمل.

ويتهاوى منطق الجهلاء..

لو كان له من السماء ملك.. لقالوا إنه يقدر على أشياء لا قبل للبشر لها.

حتى منطقهم يتهاوى عند مناقشته وتفنيده..

ولو كان ملكًا.. لقالوا إنه أهل للسمو والتفوق عليهم.. إذ أن طبيعته وقدرته تعلو عليهم كثيرًا.

هو الجدل إذن ما يرجون.. والاختلاف هدف فى حد ذاته.. وبذر بذور الفتنة والانقسام.

قاتلهم الله - كانوا قومًا بورًا -

هم القوم البور حقًا.. إذ يتركون ما يمكن إدراكه ببساطة..
بوضوح رؤيته والمنطق الفطرى السليم.. ويزرعون منطقًا زائفًا..
يحسبون أنهم بمكرهم سيخدعون الناس جميعًا.

بدر مثل الأرض الخراب لا يحيى موتاها المطر.. وتظل خامدة
هامدة حتى بعد أن يُنزل الله عليها من السماء ماءًا طهورًا..

جدباء تصرخ بعارها..

وهم أيضًا.. أمامهم الآيات البينات.. والحق الواضح ومع ذلك
يستمرون فى الخداع.

النبى العظيم، كان بسلوكه الإنسانى، وصفاته المحببة، عامل
جذب ومؤثرًا للاستماع للدعوة، والدخول إلى دين يتساوى فيه
الناس.. والإنسان يقدر فيه بما يعمل وما يحققه من عمل نافع..
ويتبادلون الإخاء والمحبة والمشاركة.

يصبحون قوة.. جمعًا.. بعد أن كانوا عبيدًا.. أرقاء..
منبوذين.. أو أفرادًا متفرقين..

أحسوا بدفء الانتماء.. وحرارة المشاركة.. وصيغة الجماعة..
وقيمة العدل والمساواة.

كان الأثرياء بالطبع يقاومون خوفًا على ممتلكاتهم وامتيازهم..
كان نزغ الشيطان يعمل بينهم.. كيف يتساوون مع الإماء والعبيد..
والرسول يمشى لهم فى الأسواق..

يدعو لدين الحق.. دعوة لتحرير الإنسان.. انطلاقه من العبودية والخوف والمهانة..

من ذلته أمام أصنام وأحجار لا تنفع ولا تقدر ولا تغني عنهم شيئًا.

حرية كاملة للإنسان..

يمشي في الأرض.. يقرأ.. ويسمع. ويعي ويتأمل.. ثم يختار لنفسه الموقف الجدير به.

هكذا بدأت رحلته.. لا يقتنع بعبادة الأصنام.. يدير وجهه إلى السماء.. كان يعد نفسه لأمر عظيم..

تدريب شاق.. وصيام.. وعكوف على التدبر والتأمل.. يبني نفسه وينمي قدراته ويعتقد أن أمامه مهمة كبيرة.

- كان يصنع على أعين الله

ونحن نستطيع أن نقتدي به. ونبدأ في التدريب والإعداد.. وبناء أنفسنا ومجتمعنا.. الصياغة بخلق القرآن من جديد..

وبذلك نتحول إلى قوة.. جمعًا.. طاقة خلاقة.. ومحركًا للتاريخ.

إياك نعبد وإياك نستعين

كنت أدرس بعض لمناهج عن الأداء المسرحى.. والخاصة بتدريب الممثل.

تتلخص التجربة فى المعمل الفنى على اكتساب القدرة على التركيز، والسيطرة على إيقاع التفكير والوسائل النفسية والجسدية، بحيث تتوافق الحركة الداخلية مع سائر الأعضاء والجسد..

- يسمح الممثل للدور أن يتخلله.. ويحيا الشخصية بصدق، حتى ليهب نفسه تمامًا ويقدمها كل ليلة للمشاهدين.

وهو بذلك يخرج من حدود فرديته إلى صيغة جماعية.. ويحيل اللحظة المحدودة إلى لحظة إنسانية زاخرة.

والفنان هنا بقدر ما يبنى نفسه ويثرى من قدراته ويحسن أسلوب عمله.. بقدر ما يسعد بالتجاوب مع الآخرين.. والمشاركة معهم وتنمية متعة الفهم والإدراك لديهم.

ويشعر بعد العرض أنه أكثر حكمة ونضجًا.

قلت لنفسى :

يحتاج الممثل والعازف، إلى هذا النوع من التدريب الممتع الشاق، حتى يكتسب تلك القدرة غير المحدودة، على الحب والتأثير والنفاذ داخل النفس البشرية، وإلغاء المسافة الزمنية بين الإحساس الداخلى والحركة العضوية خارجه.

كل هذا التدريب المعملى وتمارين اللياقة البدنية والروحية.. والصبر وحسن الإعداد.. من أجل توصيل معنى.. الكشف عن قيمة إنسانية وبثها حياة لتزدهر فى قلوب الآخرين وعقولهم.. وتدفعهم إلى مناقشة أحوالهم إلى الرغبة فى التغيير والتقدم.. إلى اتخاذ موقف.. والنضال من أجل حياة إنسانية أفضل.. ومعيشة أكثر عدلا ونبلا.

أحسست بغيرة دينية شديدة.

فما بالك بالإنسان المسلم.. وعليه أن يدعو لدين الحق.. ويلتزم فى سلوكه وعمله وأسلوب تعامله مع الآخرين بشريعة العدل وصبغة القرآن.

يمكن للفرد المسلم أن يتحول إلى «أمة».. قوة.. طاقة عمل مشعة.. وجهد فائق يسعى للوحدة مع مجتمعه وإصلاح الأحوال.

لماذا لا نقوم على تربية أنفسنا بالقرآن؟.

والأمر جاء بإقامة الصلاة..

(ذروة التدريب النفسى.. وفرض الإعداد واكتساب اللياقة..

والقوة الروحية.. والتدرج إلى صيغة الوحدة مع الجماعة. والسعى إلى «كلية» نورانية عالية)

ونحن نصلى فى اليوم خمس مرات..

لحظات على مدى اليوم.. وحدتنا الزمنية المتاحة والمعجزة التى تتكرر وتوضع بين يدينا من جديد كل صباح.. رأسمال يغدق علينا، ومؤشر «الحساب» يسجل كيف كانت حركتنا وفيما أنفقنا اللحظات والثمار وذرات العمر ودورة الأيام.

فكيف لا تكون الصلاة معملنا الروحى.. ومكان وزمان انطلاقنا الى عملية التطوير والتغيير والانضاج.. وتكون الصلاة وسيلتنا لتحسين الأداء.. والتدريب على التفتح الإنسانى والعقلى.. ورابطة اتصال ومودة.. وشحنة دافعة لإعادة الوحدة بيننا والناس. وجعلها أسلوب عمل وحياة.

نتدرب أن نعطى الحركة العضلية فيها مضمون كلمات الله.. ونعيد صياغة أنفسنا بها.. وتوافق الإيقاع الخارجى مع يقظة الروح الداخلى وفعل الترتيل والسعى إلى التقدم والارتقاء.

تشغلنا صغائر الأمور.. وهموم الحياة، حتى لتنفذ داخل الصلاة.. وتقعد لنا عن يمين وشمال ولا تدعنا نتحرر منها لحظة المثول بين يدى الله.

وبذلك يشرد من الذهن.. ويضيع التركيز.. ويفرغ الركوع

والسجود من معناه، ويتحول إلى تحرك عضلى مجرد.. «وتأفل» الروح برغم الصلاة.

قلت لنفسى..

ولماذا لا نبدأ من جديد.. ونقيم «معملنا» للتدريب على المستوى الخاص والعام.

نعقد العزم على التدريب.. ونؤدى التمارين العقلية والنفسية التى تكسبنا اللياقة، لإقامة الصلاة وتصل بنا إلى التفوق والازدهار.

- وما الحياة الا مسرح كبير.. وهى دار امتحان وبلاء.. والتقدير فيها يكون على حسن العمل.. ودقة الأداء، والتزام حدود الله.

الصلاة هى الأساس..

قدرها الرحمن خمس مرات.. بين الإصباح. ووقت الظهيرة.. والعصر.. وحين الغروب.. وعند المساء.

وحتى تستمر دورة التحسين.. والتقدم.. والتفوق والإتقان.. لنظل اليوم عاملين.. متقين.. ملتزمين بقيم الدين.. والخلق الحسن.. وطهارة النفس والبدن والحواس.

ندخل إلى المثول بين يدى الله..

وإن هى إلا لحظات.. ونقوم إلى اللقاء..

(كيف لا نجعل الصلاة تتخللنا.. ونهب أنفسنا تمامًا إلى الله.. ونصر بوعى وإدراك على التقدم.. والارتقاء)

تأملت الموقف من جديد..

يجمع الإنسان فى الصلاة بين شيئين..

الخضوع التام وقمة الإحساس بالقوة..

يحس المرء بمنتهى الخشوع والتضرع.. وذروة مشاعر الثقة والعزة والخشية والرهبة.. وغاية التحرر.

الاستعانة بالله.. ونبذ الخوف من سلطان الطغاة.

يحدث الواحد ربه كفرد.. ويناجيه بصيغة الجماعة.

الصلاة عمود الدين..

والفاتحة فيها العماد..

تتكرر كل ركعة.. وحتى نقضى على التشتت.. والسهو والنسيان، علينا أن نتمثل الكلمات.. جعلها تتخللنا - تلك السبع المثانى من الآيات - وبذلك ندخل إلى جوف القرآن.. إلى حمى الطاعة والاستعانة والهدى والشفاء.

نحرر أنفسنا من الغوص إلى الصغائر والمشاعر الضارة ونزغ الشيطان. نتحرر من توافه الأمور.. ورواسب الأنانية وضيق الأفق والمنات. نحصل على فسحة من التركيز.. الصفاء والانتباه..

نصغى إلى التسبيح.. نحس بالرفعة والرغبة فى احتضان الكون.. تخفت كل الضوضاء..

ونقف بحضرة الله.. معه.. نلتحم بدعوته.. نسجد له سبحانه نقدم أنفسنا تماما. نهبه إياها.. يعيدها إلينا مليئة بالنور.. مشحونة

بطاقات مبدعة، وننمى لدينا متعة التفكير والتدبر والعكوف على حل الصعاب والمعوقات.

هذا الدخول من وإلى الصلاة.. وإقامتها ينضج النفس.. ويرق الوجدان.. ونظل فى التدريب حتى نملك أمر أنفسنا.. ونملأ الفراغ داخلنا.. ينمو الفكر.. يدفعنا إلى السلوك الصحيح. ونحقق أنفسنا.. ويكون سعينا إلى مزيد من العمل الصالح، والإنتاج النافع، وتحقيق الخير والازدهار.

(الفاتحة) تجمع فى إيجاز عميق جوهر الدعوة والمنهج والطموح. نبدأ فيها بذكر الله - الرحمن الرحيم - نحمده ونثنى عليه.. له الملك والحساب..

﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ تلك هى النغمة الأساسية للالتزام.. موثق وعهد.. نقيمه ونؤكده ونلتزم به .

عبارة موجزة.. مكثفة.. عميقة المعنى..

العبادة لله وحده.. ﴿**إياك نعبد**﴾، التخصيص له وحده ﴿**وإياك نستعين**﴾، الاستعانة به فى كل أمر.. لنكون كحكمة خلقه فينا.. فى أحسن تقويم.. صالحين.. نافعين.. متقين.

هى القلب - من أم الكتاب -

حتى وأنت فى داخل دارك.. وبزاوية ضيقة داكنة.. تصلى بمفردك.. لكنك تدعو ربك بصيغة الجماعة.. بلسان المؤمنين..

أنت فرد حقًّا.. وأنت جمع أيضًا..

هنا حددت موقفك.. وعرفت منهجك.. واتخذت موقفًا. تبغى الاستقامة والطريق المستقيم..

حددت اختيارك - الهبة التى منحها الله لك، وفضّلك على العالمين.

أدركت وجود الطريقين..

طريق الاستقامة وطريق الضلال.

تختار..

اخترت.. فالزم.

لذا تدعوه سبحانه بصيغة الجمع.. أنت عضو فى حزب الله..

جندى بجيش الحق.. ومجاهد داخل كتيبة النضال.

من حقك أن تضفى هذه الجماعية على نفسك.

والله يعلى من قدرك أيضًا، ويخاطبك من خلال المؤمنين.

روح الفريق هى التى تدفعك للحركة السليمة واتجاه التقدم..

«وإقامة القرآن» تقدم لنا الحل لمشكلات الحياة.

والتربية على القرآن تبنى أمتنا من جديد.

وكان أبوهما صالحا

كان نموذجًا فائقًا من الإيمان الثابت والراسخين فى العلم.

حباه الله بسطة فى الجسم والعقل ولسان صدق وحكمة.. أعجبنى منطقه.. يقول: وأين تذهب الحسنات الطيبات من العمل.

تدخر لنا فى السماء.. تسجل فى كتابنا.. وهى ميراث الأبناء فى الحياة الدنيا - ومن بعدنا.

فى قريتنا يقولون دائمًا.. اعمل خيرًا وألق به فى البحر.. (النيل البديع يدعونه بحرًا.. وروافده)

تأملت هذا المثل.. حقًا دورة الماء لا تلبث أن تعود إليك من جديد.. محملة بالخير والأمل.. والمزيد من العطاء والنماء.. وتجده - الخير - أمامك حاضرًا.

وإن طوتك صفحة الزمان - وجاء موعدك - فإن ابنك من بعدك - إن كان صغيرًا ضعيفًا - أو اشتد عوده، وتعمل صالحًا.. فهو يورثه ويناله أثر سعيك المستقيم.. وثمر غرس يديك.. ويدركه الحصاد رابيًا. وهو ميزان الحق والعدل.

نتاج الحرث الطيب والزرع.. حتى ولو كانت كلمة طيبة لا تلبث أن تنمو فى حقل عملك شجرة طيبة.. ثابتة..

ويثبتهم الله بقول الحق والذكر الحسن.

وجاءتنى الآية بالبشرى.. عندما تبع موسى العبد الصالح - الذى آتاه الله من لدنه علمًا حذره أنه لن يستطيع معه صبرًا - وموسى يؤكد أنه سيجده إن شاء الله صابرًا..

فمن يرد أن يتعلم ويعرف فلابد أن يصبر.. ويتأمل كثيرًا.. ويتدبر الأمر.. ويمعن فى الاستدلال والبحث

وصار الرجل يأتى بأمور غريبة ومثيرة حقًا.. بدايات لا تنبئ عن نهايات صحيحة أو حكيمة.

هنا لم يطق موسى صبرًا - وكيف يصبر على ما لم يحط به خبرًا - بل لقد نفد صبره.. ولم يحتمل رؤية الأمور تكاد تكون مقلوبة والتصرف يأتى عكسيًا.. مناقضًا لطبيعة الخير والصلاح. وأخذ العبد الصالح فى التفسير.. وتحليل الواقعة تلو الأخرى.. وإبراز جوانب أخرى للموضوع كانت خافية، بحيث يستقيم الفعل وتتبدى معقولية الحل.

هو درس لنبى الله.. ودرس لنا.. وعبرة..

يجب الا تأخذ بشواهد الأمور.. بل علينا أن نتعمق فى الفهم وننظر من كل جوانب المسألة..

قد تبدو الحكمة خافية علينا.. أو غير منطقية.. ولا منسجمة

مع بدايتها والهدف من الإتيان بها..

ولكن عندما نتعمق الموقف أكثر. ونقيس بمقياس المصلحة العليا والنظرة البعيدة الثاقبة، التى تستشرف النتيجة الخير بدل مظهرية الحلول والنفع قريب المدى.. يتبين لنا الأفضل.. وجوهر الحقيقة أكثر هذه مرحلة..

ومرحلة أخرى أعلى درجة ويقينًا.. هو الأخذ بأن كل ما يأتى من الله فهو خير.. ما دمنا نعمل صالحًا ونقيم الدين ولا نتعدى حدود الله.. فحتى لمّا جاءت النتيجة على غير ما نتوقع ونظن.. فلابد أنها خير.. وأراد الله لنا فرجًا ومخرجًا.. وفرقانًا مبينًا..

علينا أن نجاهد أكثر.. ونتعلم ونتدرب حتى تبين لنا الحكمة وتتجلى الصورة.. أو يمدنا الله بآية مبينة.

العبد الصالح وموسى أتيا قرية لئيمة.. أبت أن تضيّفهما أو تطعمهما..

وفى طريق الخروج.. جائعين متعبين أتيا جدارًا يريد أن ينقض فأقامه.

هنا ثار موسى.. ولم يسكت عند الغضب..

قال **﴿لو شئت لتّخذت عليه أجرًا﴾** هنا مجرد الرؤية المسطحة للواقعة.. لماذا العبد الصالح.. يقيم جدارًا يتداعى.. ويسند حائطًا يخر عليهم.. وهم أهل سوء وقوم بور لا يستحقون.. وأبوا أن يلقوا إليهما بكسرة خبز تسد ألم الجوع.

وتجىء الآية بالبشرى وبتفصيل ما خفى من حكمة..

﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرًا﴾.

هو الثراء الحقيق إذن.

والذى ادخر لهما.. هو ميراث السماء.. ورعاية الله لذرية ضعاف - كان أبوهما صالحا -

إذ يهيئ لهما الأسباب.. ويحفظ كنزهما - ويوحى إلى العبد الصالح أن يقيم الجدار، فلا يصل إليه أحد من الأشرار والمستغلين وأكلة أموال اليتامى.. وحقوق الغير..

- حتى يبلغا أشدهما - ويكتشفا الكنز..

فإن سارا على نفس المنهج القويم والعمل الصالح.. نمت الثروة وربت..

وإن سلكا الطريق الآخر.. ضل سعيهما.. فالاختيار يبق قائمًا أبدًا.. والعمل الصالح يأتى ثمره حتى ليحصن الصغار الأبرياء.. هو لنا الخير والثواب.. ونعيم الدنيا والآخرة.. وهو رصيد لأبنائنا من بعدنا يحفظه الله إليهم حتى يبلغوا الرشد ويتحمل كل منهم تبعة عمله واختياره.

وهو ليس الكنز المادى فقط تحت الجدار.. أو صرة النقود

والعملات، بل هو كنز حقيق من عند الله لأبنائنا من بعدنا..

حنانًا من لدنه وودًا.. ويجعل لهم آية..

وأفئدة من الناس تهوى إليهم..

ويجعل لهم نورًا.. ورزقًا.. وسلطانًا نصيرًا..

فأى ضمان.. وطمأنينة واستثمار لعملنا الطيب وسعينا النافع للناس.

لمن المودة؟

كانت الآية واضحة مبهرة ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾، ومع ذلك لا نتدبر القرآن.. ولا نعى عاقبة التحذير الإلهى.. ونسر إليهم بالمودة والابتسام لأعداء الحياة.

لما يسكت عنى الغضب.

وقد استمعت إلى أنباء عن أمتنا العربية.. تبثها إذاعات بعيدة منذ اللحظات الأولى من الصباح.

اشتعل القلب غيظًا.. وانتفضت على يوم حارق تشوى فيه الجباه والصدور. تصاعد مد الغضب.. تحمل أسباب ريح عقيم - تجعل كل شيء - وبتعبير القرآن الكريم - كالرميم!

لما جاء فى الذكر «تذكرت».. استعذت بالله مما نحن فيه.

تمالكت نفسى..

الله واسع عليم.. واسع التصرف والقدرة عليم بوجوه الحكمة..

أمرنا أن نتدبر كلماته.. نبصر بها.. نقيس الواقع والماضى..

تمتد رؤانا إلى المستقبل الرحيم.

هى بيان لنا.. وشفاء.. وهدى ورحمة..

«التلاوة».. بها نهدأ ونستريح..

نزداد سعة من العلم.. وبسطة فى الفهم.. وتنقلنا المعرفة إلى مرحلة العمل الصالح.. والفعل المجاهد..

ويجعل الله لنا «آية».. ونورًا.

- كتاب فصلت آياته - من لدن عليم خبير..

- نتلوها بقلب سليم - وقد جعلها ربى «حقًّا».

﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾.

سبحان الله.. أتريد وضوحًا أكثر من هذا.. وحكمًا وعلمًا؟.

ترى هل نسير ضد سنة الله ونتخذ كتابنا مهجورًا.. ونولى وجهتنا الاتجاه الخطأ.

ما الذى يجرى على مسرح الوطن العربى الآن.

المذابح.. وقطع دابر الفلسطينيين، وتحريق لبنان.. ووأد الفدائيين.. واستئصال المجاهدين.. سحق المخيمات والبيوت بجدرانها ونسائها وأطفالها..

أخرجونا من ديارنا.. وأبنائنا وأموالنا..

ورفضوا أى اعتراف بالحقوق.. أو الأرض.. أو الانتماء

فلماذا نلق إليهم بالمودة.. ونبرهم..

ونعقد لهم فى المغرب العربى مؤتمرًا.. يتم تحت شعارات التسامح الفكرى والدينى.. وروح الحضارة..!

هل وصل بنا الأمر بالتزييف حتى على أنفسنا..

نستر الحقيقة الموضوعية لما يدور.. ونعلن للناس شعارات مزيفة.. ومسميات غير حقيقية تجنح مع الأهواء.

إن الأمم إذا قهرها عدوها.. ونكل بها.. واستبد فى الاستهانة بقيمها.. وعمل على تصعيد عمليات الإرهاب والانتقام.. أفسد مكانتها وجعل من أقوامها «بورًا» وناسها «خشبًا مسندة» لا أشخاص حقيقيين.. تغلب عليهم الذلة والمهانة والخزى والخذلان..

إن الحد الأدنى من الموقف الواجب اتخاذه هو القطيعة أو الصمت، وهو أضعف الإيمان.

أما أن نحتفل بهم ونقيم المهرجانات.

ويتم ذلك على أرض إسلامية، نكون بذلك - كما وصفتنا الآية - من الظالمين.. الذين ظلموا أنفسهم وضلوا هداية الفطرة السليمة.. وخالفوا الشرع المستقيم.

ينهانا الله عن ذلك السلوك.. ويصمنا «بالظلم» وهو سبحانه حق وعدل لا يحب المفسدين..

وقد جاء التساؤل القرآنى أيضًا ولم لا نقاتل وقد أخرجونا من

ديارنا وأبنائنا.. وكانت القصة القديمة عن قوم أخرجوا من ديارهم وتم سبي أبنائهم..

فأي شيء يقعدهم عن القتال.. وهو جهاد في سبيل الله. ومن يذود عن الحرية.. والكرامة والحمى.. ومستقبل الأبناء.. يجاهد في سبيل الله.

وإن كانت تعوزنا الإمكانات المادية الآن.. فلا يجب أن تنقصنا الروح.. أو العمل الصالح والإعداد.. وحسن التربية والأداء.

المجاهدة للفساد.. والمذلة.. والهوان على الناس. تحت نير الظلم والاستبداد. لا تصير «فروسية» أن نقيم اللجان والمؤتمرات.. ونعطى لهم فرصة أن يزعقوا بنداء «السلام».. وهم حرب على السلم والحياة. لا نستطيع أن نسمى أنفسنا متحضرين.. ومتسامحين.. وهم يمثلون بنا ويقتلون أبناءنا.. ويسلبون الأرض التى وهبنا الله إياها..

قضية فلسطين بمثابة القلب فى أمة العرب.. خرجنا معهم.. وتشردنا بين دروبنا.. وتساقط منا الشهداء والأبناء.

وهنا يأتى دور المصلحين.. والمؤمنين حقًا.. والراسخين فى العلم وعليهم أن ينبهوا إلى خطر الاستكانة.. وتزييف الحقيقة.. وخداع تصوير الواقع.. عليهم أن يثبتوا ويجاهدوا بقيم الدين والتزام الحق.. علينا واجب إعادة إحياء روح الأمة.. وبث روح الشجاعة والإقدام.. وتأدية الشهادة.. والاستشهاد فى سبيل الله.

لنجعل قبلتنا الله ومرضاته.. وجهادًا فى سبيله وذلك يكتب لنا النصر والعزة..

لقد أعطانا الإسلام قاعدة أصولية فى طريق العيش.. وتدبير شئون المجتمع.

ونهانا عن المذلة والخداع.. والابتعاد عن صبغة الله. ومحاولة فرض ذلك من منبر قوة.. أو منصة سلطة ونفوذ.. وتبين لنا فى كتابه وآياته الكبرى دليل الرشد من الغى.

ومن ذريتى

أحب الدعاء

يستقيم به قلبي ولسانى.. يتجدد به عقلى ويومى ووجدانى.. يتصل بالعزف الداخلى.. يحرك قوى كامنة.. ويطلق فى النفس طاقات الخير.

يومض نورًا فى الحس.. ويخلق نوعًا من الحدس الغنى.. ويوجد حالة من الجلاء البصرى والرؤية المستقبلية.

الدعاء يشحذ الإرادة.. ويفجر الرغبة فى العمل.. ويؤكد سبل الانتصار.

(الدعاء لا يمثل ضعفًا أو استكانة.. وإحساسًا بالعجز.. بل هو سلاح للمواجهة.. وتدريب وإعداد للنفس.. وأخذ بأسباب التفوق والفوز.. وتزود بالتقوى وخلق القرآن)

إيحاء بالغلبة والثبات.. وتثبيت للخطو والفؤاد.

هو المناجاة.. والبث إلى الله.. تطهير النفس من الروع والجزع والمشاعر الضارة والإشفاق على الذات.

إعلاء للهمة.. وتصعيد للقوة.. وراحة ومتعة وإشراق.. محاولة الخروج من القدرة المحدودة إلى سعة الواسع.. وقدرة العليم.. القرب من الله.. التشبث بحبله المتين.. التطلع إلى الميزان.. الالتزام بقيم العدل والصلاح.. التدرج إلى مراحل الأنس والود والحنان.

الدعاء يتطلب طهارة القلب والكسب.. وعفة اليد واللسان.. نظافة الثوب والبدن - حتى نوقن بالإجابة -.

تمرينات عقلية وروحية.. عمل وسعى وجهاد.

وسيلة لإعادة تقييم الموقف.. وبيان تقرير عن الحالة. وبذلك ينمو فعل الدعاء.. يعيننا على التطور.. التحول.. والاكتشاف.. يتنزل علينا بردًا وسلامًا.

نعود لنمسك بزمام أنفسنا.. نستعيد السكينة.. وترتفع نغمة الطمأنينة نصبح قادرين على القياس والمنطق.. وتبين الحال.

أدعو بالعشي والإصباح

يبحر فى دورة الدم - يتنزل إلى قاموس البحر فى الأعماق.. يلثم شغاف الخلايا.. يوقظ مراكز الحس والأعصاب.. تتفجر النواة.. تنطلق قوى الحركة الصحيحة والأداء.

الرحمن علمنا القرآن.. علمنا البيان.. طلب أن ندعوه فهو قريب ويستجيب.. أتلو الدعاء القرآنى الجميل.. أقتدى برسول الله

عليه أفضل الصلاة والسلام (وهو المصطفى.. وهو القرآن فى التطبيق والخلق والعمل والجهاد - هو الرسول - مبشرًا ونذيرًا.. وسراجًا منيرًا - ويدعو الله آناء الليل وأطراف النهار - يشعر بحاجته أن يشكو إلى الله.. يديم عليه نعمة الحمد والشكر والثناء.. يتلو الدعاء فى السجود والركوع والقيام وحين المنام.

يقود أعظم ثورة فى الإصلاح والعدل والتحول فى النفس الإنسانية والكون وإعادة الوحدة بين الناس.. والفتح فى طريق العمل والسعى وحكمة الخلق.. ويبتهل بالدعاء).

صارت هواية ومتعة لى.. التدرب على الدعاء.. جعله على النسق الحكيم. وترتيب السياق.. النفاذ إلى جوف الكلمات.. والاحتماء برحم الحب والحنان.

أقوم بعملية بناء.. وتجربة معملية موصولة بعلم السميع المحيط.

أحدد موضع الألم لدى.. نوع المعاناة.. نسب الاحتياج.. أستدعى ذات اللحظة من قلب الآيات.. من قمم «القصص الحق»..

وأنظر كيف تمت المواجهة.. وتطور الموقف.. وماذا جمع له أولو العزم من الرسل - وما كان الدعاء - أصوغ دعائى من جديد.. أجعله رابيًا.. مواثمًا لمقتضى الحال.. وملائمًا لما أنا فيه.. أتبع أمر «قل» إذا صدمنا سؤال.. أو ألق إلينا بمحاجاة. - وتجىء

الآية بالبشرى - أجدها حاضرة.. شاهدة.. تومض بالكشف.. تبرق بالمعرفة.. ترسم فرجًا ومخرجًا.

أرفع صوتى.. أو أخافت به.. أتابع الشدو والنشيد.. أقيمه صامتة فيدير «المحرك الداخلى» وتستجيب لحركته سائر الأعضاء.. - أجعله يتخللنى - أهب نفسى تمامًا للكلمات.. أصل إلى مرحلة التشبع.. وقمة التصور والتجسيد.. والتركيز.. وامتلاك اللحظة الإنسانية.. والسيطرة الكاملة على كل الأجهزة والانفعالات.. وتبرق الحلول ويبين أسلوب الأداء.

أحب دعاء خليل الله إبراهيم عليه السلام - (لا يكاد يخلو سجود لى من دعاء على نحو ما كان يفعل ويقول: أشعر بذلك أنى أدخل منطقة الظل الظليل.. تحتوينى شجرة النبوة وارفة الثمار.. نحتمى من تفاقم الصراع.. ونيران الحريق.. ولهيب المعاناة والمحاجاة.. وهجير الكيد والمكر والدهاء.

فى لحظة نسكن إلى الظل.. ونركن إلى النجاة.

أحب قصته وهو فتى نضير يقلب وجهه فى السماء.. تنمو فى قلبه بذرة التوحيد بفطرته السليمة - يقول: «لا أحب الآفلين» الشمس والقمر - إذ لابد للكون من إله واحد بديع.. كامل.. ويتقن كل شىء صنعًا.

قصة حياة رائعة تصنع فصولها - على أعين الله - وبوسعنا

وتحت ضوئها.. أن نتوقف بقصتنا كل حين.. ونجدد أسلوب العمل والحياة.

استوقفني خاطر جميل حقًا.

هذا النبي.. يدعو دومًا - بصيغة الجمع - يرى نفسه «جمعًا».. ويرجو الله ألا يذره فردًا - يسعى إلى ذات كلية.. يسأل الله تعالى أن يجعل بلده آمنا.. ويرزق أهله من الثمرات.. ويجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم. كلماته «تضم».. تنظم الناس فى عقد فريد: تمدهم برباط المودة والحب والرزق الوفير.. والقلوب المتآلفة..

يحس بنوع من «الوسع» والأبوة.. والمشاركة الإنسانية الحقة. فى كل مناجاة له لله.. يطلب الرحمة والمغفرة والخيرات للناس.. للمؤمنين.. لقومه - ومن ذريته - يحب الامتداد والنمو.. والغلبة.. ووحدة الأمة والجماعة - كان أمة قانتا لله حليمًا.. (جعله الله شجرة للأبوة والبنوة حقًا.. ودعاه الخليل).

﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إمامًا قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين﴾.

هكذا يأتى الحديث الربانى على نسق مركز وسريع.. صور مكثفة.. مجسدة. موحية.. توقد الذهن وتتنفس حياة.

لم يقل لنا سبحانه «الكلمات» ولكن المهم بالدرجة الأولى أنه

«أتمهن».. أقام كلمات ربه على أحسن وجه. وأكمل أداء.. جعلها أسلوب حياته وعمله.. أنجز المهمة.. ومارس ما كلف به.. (قد تكون هي دعوة التوحيد.. أو الابتلاء بالشدة) لكن نقطة الانطلاق في الجملة والتصعيد نحو غاية الحديث هو القرار.. والإخبار بجعله إمامًا للناس - ولم يقل لنا أيضًا أن الاختبار كان بسبب إتمام الكلمات - ولكننا نفهم أن الذى يجاهد ويصبر ويسعى للمعرفة والعلم ويتقن عمله كان يتأمل ويفكر.. ويلتزم بالاستقامة والعمل على نفع الناس.. والصمود أمام العقبات وألوان الشدة والعنت جدير بالاختيار.. والاصطفاء.. والتقدم والرفعة وتحمل المسئولية.. ومكان الريادة للجموع.. وإمامة الصفوف.. والطليعة في مسيرة النضال.

لما جاءت البشرى إبراهيم.. في ظل الفرحة الغامرة.. وقمة الرضا.. وتمام الحمد.. وإدراك تبعة المهمة الجليلة هتف على الفور:- ومن ذريتى -

عرف الرسالة.. وتقبل التكليف.. وانشرح صدره لرضاء الله.. والتمكين له فى الأرض، وسأل بكل العرفان والخشوع.. أن يجعل من ذريته أئمة أيضًا. (ليس ملكًا يورث.. ولا ترفًا يسعى إليه.. أو جاهًا ومكانة.. لا يسأل من أجل أن يتمتعوا بالعلو والثراء..).

بل لأنه عمل أشد وأكبر.. ومسئولية أضخم.. وطريق أرحب للقرب من الله، والعمل لكسب رضاه.. والجهاد فى سبيله.. والمزيد من الخضوع والتقوى وتحمل الابتلاء بالحكم والرئاسة.

هى المسئولية المتصلة بالله - وذلك هو المجد والشرف والعزة التى يريدها للموهوبين من ذريته - لابد لرسالة التوحيد من دعاة أبرار.. ومناضلين أشداء - هى الامتحان بالتمكين فى الأرض.. والابتلاء بمنصب الراعى الإمام أو الأمير.. والتى تعلى من قدر الإنسان وذكره.. إذا جعلها عدلا وتقوى.. والتزامًا بحدود الله.

المسئولية المتصلة بالله التى تجعل من تولى الأمر خادمًا للقوم.. وأكثرهم قدرة على التضحية وإنكار الذات.. والاهتمام بالآخرين والسهر على رعاية مصالحهم وأحوالهم.

كان يتسم بالحكمة.. والخلق الحسن.. ويلتزم بأدب الدعاء.. (لم يقل - فى ذريتى - بل قال: ومن ذريتى)

فهو يعلم أن الذرية لا تكون صالحة كلها - أو جديرة بتحمل الرسالة.. وشرف الدعوة.. وتبعة المسئولية. (منهم محسن وظالم لنفسه مبين)

هو لا يسأل من أجل أن تتمتع بعض الذرية بأهمية الوضع او علو المكانة.. ومركز الصدارة من القوم.. بل يطلبها للمختارين الذين يقدرون على تحمل الأمانة.. ويحملون التبعة ويكونون أهلا للمسئولية والقدوة الحسنة. هو يرجو لهم حلاوة العيش النبيل فى ظل رسالة مقدسة..

حياة فاضلة فيها التزام بالحق وإقامة للعدل والأمر بالمعروف بين الناس. أدرك أن «الإمامة ليست منصبًا» لكنها أسلوب حياة..

وطريقة عمل وجهاد فهتف بالدعاء بصوت يقطر حنوًا ومحبة.

﴿قال لا ينال عهدى الظالمين﴾

أجاب الله سبحانه سؤال إبراهيم - بأن يجعل من ذريته أئمة - تتواصل فيها دعوة التوحيد..

- الإجابة ضمنية - ولكن التنبيه.. والحقيقة المؤكدة - العهد لا يناله الظالمون - هذا هو الأساس..

وهى الفكرة الرئيسية.. والفضيلة الأولى..

من يظلم لا يصح أن يكون «إمامًا».. ولو كان من بيت نبوة.. وصلب أنبياء.. ودعوة بظهر الغيب لخليل الله - إبراهيم.

إذا كان من الذرية.. ومن السلالة.. ومن الجذور الطيبة من يظلم نفسه.. ويأخذ بأسباب الاستكبار والإسراف.. يريد العلو فى الحياة الدنيا.. أو جاء بسلوكه شبه ظلم وانحراف.. فهو لا يصلح للعهد..

وتلك تذكرة.. وهى مؤكد.. وآية بينة لبنى إبراهيم.. وأبناء العالمين.

من يريد إعداد نفسه لمهمة كبيرة أو يتصدى للمسئولية العامة وإدارة شئون الناس.. يجب أن يطهر نفسه من كل ظلم.

شرط الإمامة والقيادة والرئاسة ألاّ يكون المرء «ظالمًا».

من يريد أن يصل إلى مكان الرفعة والعزة والمحبة من قلوب

الناس، فليذهب عنه خطيئة «الظلم» - الظالم لا يصلح لتولى منصب الإمامة -

- العدل - جواز المرور.. وزورق العبور إلى العزة والجلال والثناء ومحبة الله والناس.

العدل يصلحهم.. ويصل ما انقطع.. ويقرب بينهم.. ويجعل صلة مودة ورحمة.. قربى ومشاركة.. ويعتدل الميزان.

وهى قاعدة أساسية وهامة فى تربية النشء والذرية.. وبناء الإنسان والشخصية.

- الحق والعدل - القاعدة التى يجب ان يكبر الأبناء عليها.. ومنها تنطلق حركتهم وسعيهم..

القيمة التى تغرس فى قلوبهم.

وبذلك يثمر «التوحيد» فى جوف الإنسان.

- لا ينال عهدى الظالمين -

نقولها لهم.. نرددها بينهم كل حين.. نتلوها عليهم.. نجذبهم فى اتجاهها نجعلها - نجمة ميناء - ومرفأ الإبحار والوصول.

(موجزة العبارة.. بليغة ومركزة.. كأنها جرعة دواء وشفاء.. حبة نادرة للتداوى والعلاج.. خير حصانة ووقاية - وأشد تثبيتًا -)

الظلم هو المانع من منصب الإمامة..

- وياويل من يستعملون عمالهم وولاتهم على الأقاليم والقرى والحدود من الظالمين.

- لقد حذرهم الله نفسه -

الحق بين.. والصحيح معلن.. والشهادة واجبة.

كيف تولى الأمور لمن يظلمون؟

هى مسئوليتنا جميعًا - ورثة عبادة التوحيد - أفرادًا وجماعات.

وكذلك تبين الآية - أو بالقياس عليها - أن من يبررون الظلم للحكام - يقعون فى بئر الشرك والظلم - (هم وأوثانهم.. والأصنام من الحجارة والملوك والحكام).

وتحل اللعنة دومًا على الظالمين -

معيشة ضنكًا لهم - فى الحياة الدنيا.. حتى ولو كان لهم من الثراء والأبهة والحراس مثل حظ - قارون -

وفى الآخرة يردون إلى أشد العذاب.

فى الدنيا يلفظهم الناس.. ويسقطون من عرش القلوب - حتى قبل أن ينتزع منهم الملك - وينفض عنهم وعن مجلسهم أولو العلم والحكماء والمصلحون التقاة.. ويغيب عنهم كل مهابة أو عزة أو جلال. يعزلهم الناس - حتى لو كانوا يلتصقون بالمنصب على أسنة الرماح

الظالم لا يصلح أصلا للإمامة - للريادة.. القيادة أو تولى الأمر.

هو يفسد حال الدنيا والدين.

يصبح وجوده علامة مضللة.. وراية خبيثة.. وقدوة سيئة..

ومركزًا لدائرة شريرة تتسع للفساد والضلال.. وتشمل الأسر. والمجتمع.. والحياة.

ندعو الله..

نعالج نظم الدعاء.. نمد بيننا والأنبياء والعلماء والمصلحين والمجاهدين بصلات محبة وقربى

يغمرني الدعاء .. فلا أعود مجرد «فرد».. أنفذ إلى وسع المحبة الإنسانية.. ودفء المشاركة.. وحرارة اللقاء..

أرنو لخليل الرحمن..

يدعو «جمعًا».. (كان أمة.. منيبًا.. قانتًا وحليمًا)

نقول بصيغة الجمع.. ولسان الجماعة..

«رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات.. واجعلنا مسلمين لك - ومن ذريتنا».

القوى الأمين

لحظة تساوى عمرا بأكمله..

فيها تشعر أن حياتك لم تضع سدى.. وغرس يديك قد أينع.. وأسلوب تربيتك أثمر وربا.. وتجسد بشرًا سويًا.

يأتيك الابن أو البنت يتحدث لديك بصراحة.. يعبر عن نفسه فى مواجهتك.. يبدى الرأى بقوة.. وحرية.. يعلن عن وجهة نظره.. والموقف الجدير به.. وأنت تسمع وترى.. تناقش بسرور عظيم.. وتستمتع بالأمر شورى بينكم.

شعور يساوى عمرًا بأكمله.. وحياة ثانية.

حين ترى الأبناء لا تنقصهم الشجاعة والإرادة.. ويسعون فى بناء أنفسهم وشخصياتهم.

هنا تشعر بالرضا - وهو العمل الصالح أيضًا.. وميراث التدين والإيمان.. قد خلفت ذرية حقًا - وهم ربيعك على الأرض..

شكرت نعمة الله وبطريقة عملية.. ساهمت فى إقامة إنسان..

قدته إلى إعمال الفكر.. والتأمل.. دربته ليكون رأيًا.. ويملك إرادة مستقلة..

تتابعت خواطرى وأنا أسمع الآية عبر الشرفة.. وكأنها موجات أثيرية تتدفق إلى حسى.. وتتصاعد أمام بصرى ووعيى.

﴿يأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين﴾

أدرك الأب - النبي شعيب عليه السلام نبرة الصدق.. ولهجة الإعجاب لدى ابنته - كان قد أرسلها تدعو «الرجل» ليجزيه أجر ما سق لابنتيه. (وصفت الابنة - النبي موسى - بدقة وإكبار. ضمنت حديثها الإعجاب بشهامته وكرم أخلاقه.. ومسارعته لإعانة فتاتين على سقيا الأغنام.. وتلطفه بهما. سعى لهما عند ورد الماء.. ثم تولى إلى الظل يحمد الله ويشكر أنعمه.

لم يحاول أن يستغل الموقف.. ويتودد إلى الفتاتين.. أو يصرفهما عن العودة مباشرة.. ودعوتهما إلى الظل والراحة وتبادل الحديث.. وهى فرصة مواتية للترويح عن النفس.. والتسلية - وكما يحدث فى مواقف مشابهة -

كان سباقًا لفعل الخير.. أقدم على المساعدة.. وسارع فى تقديم العون.. ثم أوى راضيًا قانعا إلى الظل يدعو ويبتهل **﴿فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير﴾**

ببساطة وفصاحة.. وصوت - لابد مغلف بالحياء التلقائى الجميل - والانبهار العفوى.. أشارت إلى قوته.. وأشادت بكرمه

ونبله.. ومتانة خلقه.. إذ دعاها للسير وراءه.. وهى تدله على طريق البيت - وكى لا يدع لنفسه فرصة أن يلمح قوامها وهيئتها وطريقة مشيتها.

تتبع الأب الحانى ما تقوله البنت.. أحس بمدى الحرارة فى الوصف.. والدفء فى المشاعر والكلمات.. والتأثر بنبل الأخلاق.. وعفة النفس وأمانة التصرف.

« الدقة والاهتمام فى التقرير.. وحسن تقييم الموقف. »

وأراد أن يطمئن قلبه.. فدعاه.. ووجد أن ما قالته حقًا.. موسى يستحق بالفعل.

ومنه عرف تفاصيل حكايته.. ونضاله.. وتآمر القوم به.. وفراره من القوم الظالمين - بعد أن دافع عن الحق.. وانتصر له.. وقومه بيده -

(لم يرع حتى أنهم ربوه فيهم صغيرًا.. فالحق أحق أن يتبع - وهو أقرب من صلة الدم.. والروابط الاجتماعية.. وأواصر القربى والنشأة والتربية)

- الوقوف بجانب الحق - هو غاية خلق الإنسان.. واحترامه لنفسه.. ومعنى وجوده - (وتلك الميزة الأولى.. والعلامة البينة بشخصية الأبطال.. والثوار.. والمصلحين.. والكتاب.. وذوى الرسالات والمناضلين)

درس الأب الموقف بعناية..

البنت معجبة - وصوتها يقطر أملا - تريد أن ينتهى الموقف نهاية سعيدة.. وموسى يستحق الإعجاب والمودة.. وينتظره عمل عظيم.. ومهمة جليلة. لم يكن الأب ليقل جرأة وشجاعة.. ووضوح رؤية..

- الارتباط فى صالح الجميع

الأسرة والدعوة..

مستقبل ابنته.. ورباط القربى والصداقة.. ومستقبل دعوى الحق والعدل. حسم الموقف. وبلا مناورة أو مداراة طلب منه أن يتزوج ابنته.

قالها بصراحة - يريد ليزوجه احدى ابنتيه - التى جاءته على استحياء - على أن يعمل لديه ثمان سنوات - ومن عنده لو جعلها عشرًا - فلا يريد أن يرهقه..

(طلب مهرها - وقدره - ستكون سنوات عمل.. وتدريب وجهاد.. إعداد للمواجهة.. ونشر الدعوة.. ومنازلة البغى والضلال).

وما فيها أن يخطب الأب لابنته..

مادامت المودة بادية.. وطيب الخلق.. وأصالة السلوك.. والقيم التى تبنى عليها الشخصية التصرف والتعامل مع الآخرين.

لماذا يضيع الفرصة.. أو يموه الأمر.. ويدور حول الهدف.. ويزين الأحاديث ويشد الكلام حتى يوحى للرجل بطلب الزواج.

لماذا لا يكون من حق الأب أو الأم وولى الأمر.. أو الفتاة.. أن تعلن عن رغبتها بكل الوضوح والصدق..

فى مسائل العقود والارتباط.. والمواثيق.. والعهود.. والرفعة فى طريق الحياة.. والمشاركة والمحبة والزواج.. الشجاعة أجدى.. وتحديد الهدف أكثر قيمة واحترامًا.. ويبى. عن الثقة بالنفس والطرف الآخر.

وللقصة دلالة بديعة أيضًا..

الصراحة والثقة لابد أن تكون متبادلة بين الأهل والأبناء. الفهم الواضح المشترك بينهم.. تعويد الأبناء على قول الحق.. وحديث الصدق.. وتقرير الواقع.. تربيتهم على الاعتقاد أن قيمة الإنسان فى عمله.. موقفه..

تدريبهم على الحكم الصحيح على الأشياء.. وممارسة النظرة السليمة.. والشجاعة فى إعلان الرأى.

تقدير الكبير لمشاعر الصغار.. واحترام عواطفهم والعمل على تمكينهم من أهدافهم النبيلة.. ومن أخذ القرار..

نضىء لهم الطريق بواقع تجربتنا.. ونتيح لهم ما تعلمناه من خبرات.. ونبذل لهم النصح ونكون قدوة فى العمل والإيمان.

- أين نحن الآن من هذه العلاقات الأسرية الحميمة؟

وإلى أى مدى يعانى الشباب!..

هذه القسوة السائدة فى مواجهة إعلان الرأى.. القيود التى توضع على حرية التعبير..

(أحيانًا إذا ذكر الحب.. والرغبة فى الاختيار - وحق تقرير المصير.. واختيار شريك الحياة - تهب رياح الحرب.. وينشب الخلاف.. ويتحزب أعداء الحب والحياة).

لحظة لهذه - التى نصت عليها الآية - من أحسن القصص.. من قصص القرآن.. والذروة الفائقة التى وصلت إليها اللحظة المضيئة.. تساوى عمرًا بأكمله..

تعنى حياة مشتركة.. سكنًا.. مودة ورحمة.. ولقاءً إنسانيًّا يصنع وحدة اجتماعية سليمة.. متفاهمة.. ويتيح الاستقرار والتعاون وتبادل المعرفة والخبرات فى جماعة طيبة.. ومجتمع سليم.

قمة علينا بلوغها.. واستلهام الحكمة فيها.. والوصول إلى غايتها.. والقياس بمقياس الدين.

أن يكون «ولى الأمر» هكذا.. مفعمًا بالود والحنان والمشاركة الوجدانية.. وإدراك مشاعر الصغار..

أن يكون فى معاملته.. وأسلوب حياته قد أقام الدين حقًّا.. وأقام القرآن..

(وأقصد بولى الأمر - الأب والأم.. المسئول.. الحاكم أو الإمام) أن يكون هو نفسه ميزانه العدل.. ومقياسه الحق.. لا يستبد ولا يطغى ويستهويه التحكم بمصير الناس.. ويقرر حسب هواه).

ويكون من ذلك النوع الذى يدرك أن معنى الوجود فيما يحققه من مصالح الناس.

(العدل يصلح كل الأشياء.. والظلم يعطب الأنفس.. العواطف والأسرة والأوطان).

ومن جانب الأبناء عندما يستمع إليهم ذووهم.. يشجعونهم على حرية الرأى. واتخاذ القرار.. يحسون بالأهمية.. بالمسئولية.. بالحب والانتماء.

- القوى الأمين -

صفتان لو اجتمعتا فى رجل لكان نعم الزوج،. الصديق.. الزعيم.. القائد أو السلطان.

ويضرب لنا الأب النبي - المثل.. هو يطرق السبيل الطبيعى لبلوغ غايته.. - الطريق المستقيم أقرب الطرق - وجده حقًّا - القوى الأمين - نعم الزوج للابنة..

ويعلموننا فى أسس التربية السليمة أن نكون أصدقاء لأبنائنا.. نتفهم ظروفهم المستقبلية..

ونتعرف على مشاعرهم وأفكارهم.. نحترم اختيارهم - ماداموا على حق -.. ومن خلال القيم والمبادئ الإنسانية الحقة.

فأين نحن الآن من ذلك الزمن البعيد؟

ما بالنا - وندعى التقدم والتحضر ورسوخنا فى العلم والمعرفة ودراسة أساليب التربية الحديثة.. نبتعد عن الحكمة التلقائية.. ونهجر

القرآن. « الذى يقص علينا أحسن القصص - ونزل ليكون هاديا ومرشدًا ونورا »

ما بالنا نرغم فتياتنا على الزواج من الأثرياء.. من يملكون فقط فى مقدمة المكرمين بالنسب والزواج - دون النظر إلى حقيقة الشخصية.. مقومات الخلق والعمل.. دون البحث عن المصدر الحقيقى للثراء.

نحرم نساءنا اختيار (القوى الأمين)، وفرصة المجاهدة فى الحياة.. والسعى من أجل إقامة المعيشة.. والتزود بزاد التقوى والثبات. نزين لهم طريق الترهل.. وحب المظاهر والترف.. والاعتماد على الغير دائمًا.

يحررنا الإسلام.. ويضرب لنا الأمثال.. ويعلمنا بطريق الحق.. وأن العمل الصالح غاية حياة الإنسان.. فنأبى إلاّ أن نكون عبيدًا للمال.. أذلاء للجاه والسيطرة.. والركون إلى حياة الكسل والمظاهر والإثراء من أى سبيل أو اتجاه.

نترك قيم الحب والمودة وطريق الاستقامة والعمل الحلال وأمانة النساء والرجال.

الإنسان لا يعيش بالتناقض داخله.

لا يمكن أن يكون تاجرًا غشاشًا وزوجًا أمينًا..

عاملا مزيفًا.. ورب أسرة مخلصًا..

كاتبًا يدعو للتقدم والحرية ويخون الأسرة والأصدقاء..

مسئولا يرعى مصالح الناس.. ويأكل هو وذووه المال الحرام..

الإنسان وحدة.. لا يوجد هذا الانفصام الشبكى داخله.

فاختاروا لبناتكم.. وأسركم.. ولشعوبكم - القوى الأمين - يقوى على العمل والجهاد.. ومقاومة الشر والفساد..

ويؤمن على المسئولية.. والالتزام والتمسك بقيم الحق والعدل.

فهرس

اقرأ فى هذه المجموعة

صوت أبى العلاء	د . طه حسين
أحلام شهر زاد	د . طه حسين
فى بيتى	عباس محمود العقاد
الشيخ الرئيس ابن سينا	عباس محمود العقاد
المهدى والمهدية	أحمد أمين
الصعلكة والفتوة فى الإسلام	أحمد أمين
خاتمة المطاف	على الجارم
أبو نواس	د . عبد الحليم عباس
دماء وطين	يحيى حقى
العشاق الثلاثة	د . زكى مبارك
سيكلوجية الجنس	د . يوسف مراد
النسيان	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الحب والكراهية	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الوجودية والإسلام	محمد لبيب البوهى
الأمن والسلام فى الإسلام	د . جمال الدين الرمادى
الغزالى	طه عبد الباقى سرور

الإمام المراغى	أنور الجندى
بنت قسطنطين	محمد سعيد العريان
شاعر الشعب	د . سامى الدهان
قصص الحب العربية	د . عبد الحميد إبراهيم
غرائب الرحلات	محمد عبد الغنى حسن
عود على بدء	إبراهيم عبد القادر المازنى
غرام الأدباء	عباس خضر
أبو زيد الهلالى	محمد فهمى عبد اللطيف
عبد الرحمن الجبرتى	خليل شيبوب
ليلى العفيفة	عادل الغضبان
نساء محاربات	صوفى عبد الله
أبو القاسم الشابي	رجاء النقاش
جابر بن حيان	محمد محمد فياض
الصديقة بنت الصديق	عباس محمود العقاد
الكعبة على مر العصور	د . على حسنى الخربوطلى
غادة رشيد	على الجارم
الأحلام والرؤى	د . عبد العزيز جادو
النوم والأرق	د . أحمد فؤاد الأهوانى
جحا فى جامبولاد	محمد فريد أبو حديد
عمر بن عبد العزيز	أحمد زكى صفوت
نديم الخلفاء	عبد الستار فراج

رقم الإيداع		١٩٨٧ / ٤٤٥٥
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢٠٧٨-٧	ISBN

١ / ٨٧ / ٥٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

اقرأ

بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش معهم .. كما عاش الآباء والأجداد .. وتكوِّن فى مكتبتك موسوعةً متفرقة فى فروع المعرفة المختلفة .

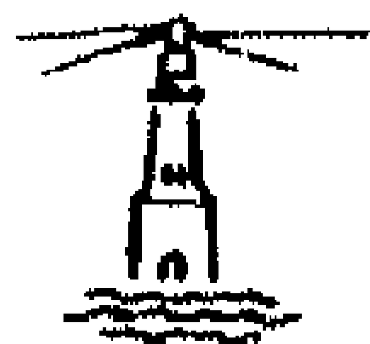
وإيمانًا منا بأن القراءة هى أقصر الطرق إلى الوعى والثقافة .. فقد يسَّرنا لك ذلك فى إخراج جيد .. وسعر زهيد .

٤٠٥٨٠٩/٠١

اقرأ

نجوى كامل

محمود عزمي
رائد الصحافة المصرية



دار المعارف

اقرأ

[٥٣٣]

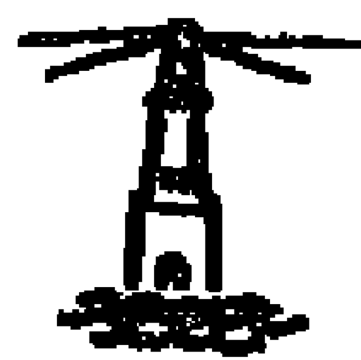
محمود عزمي

رائد الصحافة المصرية

نجوى كامل

محمود عزمي

رائد الصحافة المصرية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

تقديم

ولد محمود عزمى فى قرية (شيبة قش) مركز منيا القمح عام ١٨٨٩ من أسرة متوسطة متدينة تنحدر من أصل عربى : فشب على التمسك بالواجبات الدينية ووجد نفسه منذ الصغر يصلى ويصوم كأبويه. واستمر هكذا حتى التحق بالقسم الفرنسى بمدرسة التوفيقية الثانوية بالقاهرة فتأثر بالآراء الحرة التى كان ينشرها الأساتذة الفرنسيون. . وبدا التزامه يقل تجاه الواجبات الدينية من صيام وصلاة.

أما عن اتجاه محمود عزمى السياسى فى هذه الفترة فنجد أنه آمن إيمانًا كاملا بمبادئ الحزب الوطنى، وأخذ يدعو زملاءه فى المدرسة لنصرة هذه المبادئ.

وبعد انتهاء محمود عزمى من المرحلة الثانوية يلتحق بكلية الحقوق ويختار ليكون أحد أعضاء إرسالية الجامعة إلى فرنسا عام ١٩٠٩ والتى ضمت أحد عشر طالبًا.

واشترك محمود عزمى فى مجلس إدارة الجمعية المصرية التى كونها

الطلبة المصريون بباريس عام ١٩٠٩ ونصت هذه الجمعية فى قانونها على عدم الاشتغال بالسياسة.

وفى باريس بدأ اتصال محمود عزمى بالحضارة الغربية القائمة على العقل، حيث نظر إليها نظرة إخاء وتضامن لا نظرة عداء وتنافس فيقبل على محاضرات دور كايم فى علم الاجتماع حيث يتأثر به تأثيرًا كبيرًا، ويؤمن عن طريق الاقتناع العقلى الثقافى بالعلم، والعلم وحده، ويدعو محمود عزمى أن يكون للعلم ميدان وللدين ميدان آخر وبأن توجه جهود العقلاء فى سبيل الفصل بين الميدانين، حتى لا يعرقل تداخلهما دور الدين ودور العلم معًا.

وهكذا عاد محمود عزمى إلى مصر وهو مؤمن إيمانًا كاملا بهذه الأفكار وليصبح من أكبر دعاة الاتجاه العلمانى والتحرر، رافضا عددًا من الأسس التقليدية للمجتمع فينادى بثورة اجتماعية على فوضى التربية المنزلية، وعلى تعاليم الأسرة، وعلى ضعف الأخلاق وسطحية التعليم.

ويعمل محمود عزمى فور عودته من فرنسا فى جريدة العلم من مارس ١٩١٢ إلى أكتوبر من العام نفسه، حيث يختار أستاذًا للاقتصاد فى مدرسة التجارة العليا. ويستمر محمود عزمى فى التدريس حتى توشك الحرب العالمية الأولى على الانتهاء ويتوقع وقوع الهدنة، فيستقيل من مدرسة التجارة أواخر عام ١٩١٨ ويبدأ جهاد

محمود عزمى السياسى والصحفى الذى يستمر حتى وفاته فى نوفمبر ١٩٥٤.

أما لماذا أخذتُ محمود عزمى ليكون موضوع هذه الدراسة.. فإن عوامل كثيرة ساعدتنى وجذبتنى إلى هذا الموضوع منها:

أولا: أن هناك كثيرًا من الشخصيات المصرية التى كان لها تأثير فى الحياة السياسية والفكرية فى مصر، قد أشبعتها مجالات الدراسة والبحث تمحيصًا لجوانبها المتعددة، فى حين نجد أن هناك بعض الشخصيات الأخرى التى لم يقل دورها الوطنى والفكرى عن الشخصيات الأولى قد أهملتها الدراسات والبحوث، ومن هذه الشخصيات محمود عزمى الذى كان صاحب دور بارز فى الحياة السياسية والاجتماعية والصحفية فى مصر.

ثانيًا: يعتبر محمود عزمى صاحب دعوات اجتماعية جريئة، هزت عصره وجيله وعرضته لكثير من الاتهامات (بالفرنجة) والخروج على تقاليد الجماعة، خاصة وأن محمود عزمى عاش فى عصر يتسم بكثير من مظاهر التحول والتطور والتجدد، الذى شمل آفاق العالم كله، فحاول أن يكون رأيًا فى هذه التطورات، وأن يصل بها إلى مواطنيه المصريين لكى يبعث فيهم روح التمدين

ثالثًا: يعتبر محمود عزمى من أوائل المصريين الذين نادوا بمصر (العربية)، فى الوقت الذى سادت فيه الدعوات الإقليمية الانفصالية التى تعزل مصر عن العالم العربى.. ولهذا يعتبر محمود عزمى أحد

أوائل دعاة الوحدة العربية والقومية العربية فى عصرنا الحديث؛ ولهذا وجدنا أن دراسة مثل هذه الشخصية الصحفية الثرية بمواقفها واتجاهاتها.. ستكون استكمالا للدراسات والأبحاث التى بدأها الباحثون عن شوامخ صحفيى مصر قبل ثورة يوليو ١٩٥٢.

وفى النهاية.. فهى دراسة أهديها إلى شباب الصحافة المصرية عن واحد من رواد هذا الفن وأساتذته الذى يعيش تراثه فى وجدان الأجيال التالية..

نجوى كامل

محمود عزمى والقضايا الصحفية منذ الحرب العالمية الأولى إلى قيام ثورة ١٩٥٢

ساهم محمود عزمى مساهمة فعالة فى إثراء النهضة الصحفية فى مصر، من خلال عمله فى عدد كبير من الصحف المصرية ما بين صحف وفدية أو صحف الأحرار الدستوريين أو صحف مستقلة. فقد بدأ محمود عزمى حياته الصحفية محررًا فى جريدة (العلم) لأمين الرافعى على مبادئ الحزب الوطني، وذلك فى الفترة من مارس إلى أكتوبر ١٩١٢.

واستمر محمود عزمى طوال سنوات الحرب العالمية الأولى بعيدًا عن العمل الصحفى المنتظم إلى أن التحق بجريدة (المحروسة) رئيسًا لتحريرها فى أكتوبر ١٩١٩.

ثم عمل مراسلا للأهرام فى فرنسا وإنجلترا فى أثناء مفاوضات سعد - ملنر عام ١٩٢٠.

ويبدأ الخلاف بين ممثلى الحركة الوطنية فى ذلك الوقت، فيصدر محمود عزمى جريدة (الاستقلال) عام ١٩٢١، لتصبح لسان حال عدلى يكن فى خلافه مع سعد زغلول. ويستمر عزمى فى (الاستقلال)

مديرًا لتحريرها بعد أن نقل امتيازها إلى أصحاب الأهرام.

وفى أكتوبر ١٩٢٢ يصدر الأحرار الدستوريون صحيفة (السياسة) اليومية وينضم محمود عزمى إلى أسرة تحريرها، حيث يتولى تحرير باب شئون البرلمان، ويصبح مدير التحرير بها. ويشارك أيضًا فى تحرير (السياسة) الأسبوعية التى أصدرها الحزب عام ١٩٢٦: ويصبح عزمى أحد الأعمدة الرئيسية التى تقوم عليها (السياسة) الأسبوعية إلى أن يخرج عن حزب الأحرار فى يوليو عام ١٩٢٨، ويساهم مع توفيق دياب فى إصدار عدد من الصحف المعارضة لحكم محمد محمود، فقد أعاد إصدار جريدة (وادى النيل) فى الإسكندرية، وجريدة (الشرق الجديد) فى القاهرة، إلا أن الجريدتين لم تستمرا طويلا إذ يأمر محمد محمود بإغلاقهما الواحدة تلو الأخرى.

ويختار محمود عزمى السفر إلى لندن هربًا من تعنت وزارة محمد محمود، ومن هناك يراسل صحيفة (السياسة) الأسبوعية التى تميزت فى ذلك الوقت ببعدها عن المواضيع السياسية الحزبية، ثم يعود ليشترك مع توفيق دياب فى إصدار جريدة (اليوم) أوائل عام ١٩٣٠ على مبادئ حزب الوفد.

وفى عام ١٩٣١ - ١٩٣٢ يهاجر محمود عزمى إلى فرنسا فى فترة حكم إسماعيل صدقى حيث يعمل مستشارًا صحفيًا للخديوى عباس الثانى. وفى عام ١٩٣٣ يصدر فى لندن صحيفة (العالم العربى) باللغة الإنجليزية للدفاع عن القضية المصرية ومناهضة حكم إسماعيل صدقى.

ويعود محمود عزمى إلى مصر عام ١٩٣٤، ويشارك فى تحرير جريدة (الجهاد) التى أصدرها توفيق دياب، ويصبح محمود عزمى المحرر الدبلوماسى لها.

وفى فبراير ١٩٣٥ يتولى محمود عزمى رئاسة تحرير جريدة (روز اليوسف) اليومية، التى برزت فى ذلك الوقت فى مجال التجديد فى الفن الصحفى وخاصة فى تبويبها، فقد أخذت عن (بارى سوار) و(ديلى هرالد) تقليد نشر الأخبار الهامة والصور الفوتوغرافية عن الحوادث البارزة فى الصفحة الأولى، وأخذت عن الصحافة الفرنسية نشر الأخبار فى الصفحة الثانية مباشرة بدل جعل صفحتى الوسط المختصتين بنشر الأنباء الداخلية. وفى عام ١٩٣٦ يصدر محمود عزمى صحيفة (الشباب) الأسبوعية لصاحبها محمد على الطاهر التى حفلت بالمقالات الناقدة لمفاوضات ومعاهدة ١٩٣٦.

ويترك محمود عزمى مصر إلى العراق حيث يعمل أستاذًا للاقتصاد بجامعة بغداد، وبعد عودته إلى الوطن يعمل فى مصلحة الضرائب.

وفى عام ١٩٤١ ينتدب محمود عزمى للتدريس فى معهد التحرير والترجمة والصحافة، إلى أن يستقيل من المعهد عام ١٩٤٦ ليستأنف كتاباته فى الصحف المصرية مثل (الكاتب المصرى) الشهرية التى صدرت عام ١٩٤٥ و (صوت الأمة) و (المصرى) الوفديتين و (أخبار اليوم) المستقلة التى صدرت عام ١٩٤٤. وغلبت على مقالاته فى هذه

الفترة موضوعات السياسة الخارجية، حيث زاد احتكاكه بالمجال الدولى من خلال متابعته لأنشطة الأمم المتحدة.

أسلوب محمود عزمى الصحفى:

آمن محمود عزمى بوظيفة الصحافة الاجتماعية فى توجيه الشعب وإرشاده وتهذيبه، ومن هنا جاء اهتمام عزمى بالمقال. واتفق فى هذا مع معظم جيله من الصحفيين.

إلا أن اهتمام عزمى بالمقال لم يمنعه من العناية بباقى الفنون الصحفية وخاصة الخبر والحديث الصحفى.

وأدى تعدد مناهل ثقافة عزمى بين العربية والفرنسية والإنجليزية ودراسته القانونية إلى أن يهتم فى كتاباته بصفة عامة بالأفكار والمعانى قبل اللفظ، ولهذا لم يحفل محمود عزمى بالألفاظ الرنانة الضخمة، واعتمد فقط على سلامة الفكرة وترابط المعنى.

واعتقد محمود عزمى بأن العنوان الجذاب الذى يعبر حقيقة عن فكرة المقال هو اللافتة الأولى له ولهذا جاءت عناوين المقالات بسيطة اللفظ واضحة المعنى.. واستخدم محمود عزمى أحيانًا الأسلوب الاستفهامى فى العناوين مثال على ذلك فى جريدة (اليوم) نشر عزمى مقالاً بتاريخ ١٩٣٠/٢/٨ بعنوان «بعد تفويض البرلمان ماذا يجب أن يكون عليه خطة المصريين؟». أما مقدمة المقال فكانت فى الغالب تحتوى على عرض تاريخى لأبعاد المشكلة أو المسألة التى يناقشها عزمى

فى المقال، مثال على ذلك مقال نشر فى (وادى النيل) بتاريخ ١٩٢٨/١١/٢٢ بعنوان «نحن والإنجليز وما يجب أن يتعهد بيننا من علاقات «جاء فى المقدمة» بيننا وبين الإنجليز قضية ترجع إلى ست واربعين سنة إن لم ترجع فى الواقع إلى عهد الاحتلال الفرنسى وموقعة (أبى قير) وما تبين خلال صلح (لميان)، والواقعة التى حدثت بين أسطول بريطانيا العظمى وجيش محمد على الكبير منذ مائة واحدى وعشرين سنة، وموضوع النزاع بيننا وبين الإنجليز أن المصريين يريدون أن تكون سيادتهم وأن يكون استقلالهم هما الاعتباران الوحيدان اللذان يستند إليهما الحكم وكيانه فى مصر وأن الإنجليز يريدون أن يكون لهم النفوذ الأول فى طريق الهند الذى كان فيما مضى بريًّا من الإسكندرية إلى القاهرة، ومن القاهرة إلى السويس والذى أصبح الآن بحريًّا من بور سعيد إلى السويس».

وفى أحيان أخرى كانت المقدمة تتناول أحد الأخبار التى يعن لعزمى التعليق عليه. ففى مقال بعنوان «مشكلة العمال مشكلة اقتصادية» نشر فى جريدة (الجهاد) بتاريخ ١٩٣٤/٧/٢، جاء فى المقدمة: «إلقاء القبض على أربعين ونيف عاملا واجراء التحقيق معهم على اعتبار اتصالهم بحركة شيوعية، وتصادم بين البوليس وعديد من العمال حاولوا الاجتماع فيما يقولون أنه مقر لاتحادهم العام واجتماع بمكتب حضرة صاحب السعادة النائب العام يضم إليه ثلاثة من كبار رجال الأمن ويقال أن له علاقة بأمر المقبوض عليهم فى تلك

الحوادث، وقبض على زعيم أولئك العمال واستصدار لأمر من القاضى بحبسه أربعة عشر يومًا».

وبعد أن يوضح محمود عزمى فى المقدمة الفكرة الأساسية للمقال يبدأ فى عرض المعلومات والأفكار والحقائق التى يتناولها المقال، وينتهى منها إلى خاتمة توضح مضمون المقال وهدفه، سواء كان اعلان رأى أو توضيح فكرة أو شرح موقف.

وهكذا تميزت مقالات عزمى بالتسلسل المنطق من حيث العناية التامة بالمقدمات والنتائج والاعتماد على التحليل والبرهان لتوصيل الحقائق. كذلك اتسمت مقالاته بالإيجاز من حيث استخدامه للجمل القصيرة دون استطراد فى المعنى أو اللفظ، وابتعاده عن الأسلوب الإنشائى الخطابى الذى يحرك مشاعر الجماهير، مكتفيًا بمخاطبة عقلية الخاصة منهم مما أدى إلى ابتعاد مقالاته عن صفة الجماهيرية. كذلك ابتعد عزمى بقلمه عن الانغماس فى المهاترات الحزبية، كما كان يفعل فى العادة الصحفيون الحزبيون فى ذلك العهد.

وابتدع محمود عزمى عددًا من المصطلحات التى كانت غريبة على كتابات ذلك الوقت مثل «الاممية» و «التدويل» و «التأميم» و «الإعلام» و «الماجريات». كما كان يكتب مستخدما التاء بدلا من الطاء، فكان يكتب (إيتاليا) بدلا من إيطاليا، و (بريتانية) بدلا من بريطانيا، و(دبلوماتية) بدلا من دبلوماسية، على أساس أن هذه

الكلمات تنطق فى الأصل بالتاء فى ما عدا الأخيرة.

ومن ناحية الموضوع، اهتم محمود عزمى بأبواب السياسة الخارجية وأصبح يشرف على باب الأخبار الدبلوماسية فى معظم الصحف التى عمل بها إلا أنه على الرغم من هذا قد كتب فى جميع المجالات سواء السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الفكرية، ولهذا نجده ينادى الصحف المصرية بضرورة الاهتمام بأبواب البحوث الاقتصادية والبحوث الاجتماعية لإيمانه بأن كل تطور سياسى لا يستند على عمد متينة من التطور الاجتماعى لا يصلح ولا يبقى.

وإن كان أساتذة الصحافة قد حددوا من بين أنواع المقال لثلاثة رئيسية وتنحصر فى المقال العرض الذى يهدف فيه الكاتب إلى عرض فكرة معينة أو مشكلة محددة، والمقال النقدى الذى يهدف فيه الكاتب إلى نقد فكرة أو مشكلة، والمقال النزالى الذى يهدف فيه الكاتب إلى مساجلة كاتب آخر حول مذهب سياسى أو اجتماعى أو علمى أو دينى. فإننا نستطيع أن نقول إن مقالات محمود عزمى كانت فى معظمها تندرج تحت النوعين الأول والثانى ويقل فيها بشكل واضح النوع الثالث، حيث سبق أن ذكرنا أن عزمى قد ابتعد عن المهاترات الحزبية أو الشخصية ولا نذكر لعزمى فى هذا الصدد سوى مقال كتبه فى (وادى النيل) بعنوان «قلم تحرير جريدة السياسة وحركة الانقلاب السياسى المصرى». ومقال آخر يهاجم فيه توفيق دياب ومكرم عبيد بعنوان «وليم الكذاب»، وإن كان هذا بالطبع لا يمكن

أن يرقى إلى المساجلات التى قامت على سبيل المثال بين العقاد وطه حسين، أو بين العقاد وتوفيق دياب.

الخبر:

على الرغم من أن الصحافة المصرية كانت فى ذلك الوقت صحافة المقال فى المقام الأول فإن عزمى لم يشغله المقال عن العناية بالخبر، ولهذا لام محمود عزمى الصحف المصرية على ما بها من نقص فى أسلوب ما ينشر من الأخبار.

وتولى محمود عزمى الإشراف على أبواب الأخبار الخارجية فى عديد من الصحف التى عمل بها، ففى (السياسة) الأسبوعية تولى محمود عزمى تحرير باب «أسبوع السياسة الخارجية» وفى (الجهاد) تولى تحرير باب «التطور السياسى يومًا بعد يوم»، وكان يحتوى على مجموعة من الأخبار الداخلية والخارجية. كما تولى تحرير باب «دبلوماتيات» فى (روز اليوسف اليومية) الذى تناول أيضًا أخبارًا داخلية وأخرى خارجية. وفى (الشباب) حرر محمود عزمى باب «الشئون الدولية»، وفى (الكاتب المصرى) تولى محمود عزمى تحرير باب «شهرية السياسة الدولية»، الذى كان يضم مجموعة من الأخبار العالمية.

الحديث الصحفى:

كانت الأحاديث الصحفية التى أجراها محمود عزمى قليلة نسبيًا، فقد نشر حديثًا مع حسين رشدى باشا رئيس الوزراء فى جريدة (المحروسة) بتاريخ ١٩١٩/١٠/٢٣، كما نشر فى (وادى النيل) حديثين أحدهما مع قنصل العراق فى مصر بتاريخ ١٩٢٨/١٠/٢٤ والثانى مع رياض الصلح بتاريخ ١٩٢٨/١٠/٢٦.

وقد أدى أسلوب محمود عزمى العلمى فى تحرير مقالاته، واستخدامه ألفاظًا ومصطلحات غريبة على القارئ العادى، وتركيزه على الموضوعات السياسية خاصة الخارجية التى لا تستأثر باهتمام العوام إلى أن تكون شعبيته - وإن صح التعبير - بين الخاصة من القراء.

أما الصحف التى كان لمحمود عزمى دور فى توجيه سياستها الإعلامية فنستطيع أن نحصرها فى جريدة (المحروسة) التى تولى رئاسة تحريرها منذ أكتوبر ١٩١٩، وجريدة (الاستقلال) التى أصدرها فى مايو ١٩٢١، وكان مديرها وصاحب امتيازها، وجريدة (وادى النيل) التى استأجرها هو وتوفيق دياب من صاحبها محمد أحمد الكلزة فى سبتمبر ١٩٢٨، و (روز اليوسف) اليومية التى تولى رئاسة تحريرها منذ عددها الأول الصادر فى ٢٥ فبراير ١٩٣٥، وجريدة (الشباب) الأسبوعية التى تولى تحريرها منذ ١٧ فبراير ١٩٣٦. ونلاحظ أن هذه

الصحف جميعها - عدا روز اليوسف - كانت مستقلة عن الأحزاب.

وسنحاول أن نتبين مدى اهتمام هذه الصحف بالمضمون والشكل.

جريدة (المحروسة):

غلب على (المحروسة) الاهتمام بالمضمون دون الشكل، حيث تميزت بصفحات جافة تحتوى على مجموعة من المقالات والأخبار المتراصة دون فواصل واضحة كما أغفلت الاهتمام بالعناوين والصور الصحفية، أما من ناحية المضمون، فكانت صفحاتها الأربعة تحتوى على عدة مقالات ومجموعة من الأخبار والحوادث الداخلية والتلغرافات العمومية.

جريدة (الاستقلال):

لم تختلف (الاستقلال) كثيرًا عن المحروسة سواء فى الموضوعات التى تنحصر أيضًا حول مجموعة من الأخبار الداخلية وأخرى خارجية منقولة عن صحف أجنبية بالإضافة إلى عدة مقالات وإن زادت عن (المحروسة) فى اهتمامها بنشر القصص العالمية.

أما من ناحية الإخراج، فنجد عدم اهتمام بالعناوين سواء الرئيسية أو الفرعية وخلت الاستقلال من الصور الصحفية، كما خلت من الفواصل بين الأخبار مما أدى إلى تزاحمها وتشابكها خاصة وأن

العناوين غير بارزة ولا يفرق بينها وبين الخبر أو المقال مساحة من البياض الكافى لراحة العين وسهولة القراءة.

جريدة (وادى النيل):

تميزت وادى النيل باستخدام الصور أحيانًا كما تميزت عن الصحف السابقة بتعدد الموضوعات التى تحتويها، من حيث اهتمامها بنشر أخبار الفنون والرياضة والعلوم، مما أدى إلى تميزها عن الأخبار والمقالات السياسية، كما برز فى هذه الجريدة الاهتمام بالعناوين، خاصة العناوين الرئيسية لمقالات محمود عزمى وتوفيق دياب، حيث كان العنوان يطبع ببنط مناسب يسمح بالتفريق بينه وبين حروف المقال ذاته، كما كانت مساحة بيضاء تفصل بين العنوان والمقال، واستخدمت الصحيفة فى أحيان كثيرة العنوان العريض (المناشيت).

جريدة (روز اليوسف) اليومية:

تعتبر روز اليوسف اليومية فى فترة عمل محمود عزمى فيها إحدى صور الاهتمام الكامل بالشكل والمضمون معًا.

فمن ناحية الشكل، جدد محمود عزمى بنقل الاشتراكات والاعلانات من رأس الصفحة الأولى إلى الصفحة الثانية، كما أدخل الفهرس الذى يتناول أهم موضوعات العدد. وبرز فى روز اليوسف الاهتمام بالعناوين الموجزة القوية التى تشد القارئ لقراءة الموضوعات

التى بها، كما استحدثت (روز اليوسف) الكاريكاتير بالصفحة الأولى الذى غالبًا ما يعبر عن موقف الجريدة تجاه شخص أو حدث.

وتميزت روز اليوسف باستخدام الصور الصحفية، سواء لشخصيات مصرية أو عالمية فى مجال السياسة والرياضة والفنون.

أما من ناحية المضمون، فقد تميزت (روز اليوسف) بالصفحات المتخصصة مثل : صفحة السيدات، وصفحة الصناعة، وصفحة الزراعة، وصفحة الآداب والفنون، وصفحة الشرقيات، بالإضافة إلى اهتمامها بالقصة، سواء كانت مصرية أو عالمية، كما استحدثت صفحة أسبوعية بعنوان تسالى، كانت تحتوى على عدد من المسابقات الطريفة.

الشباب الأسبوعية :

كانت (الشباب) مجلة ثقافية شاملة، فقد عرضت لمستحدثات الفكر المصرى والعالمى فى كافة الفروع، سواء السياسية أو الاقتصادية أو الإسلامية أو العلمية، فكانت أبواب الشباب الثابتة تحتوى على باب التنظيم الاقتصادى، وباب الشئون الدولية، وباب السياسة الداخلية، وباب إسلاميات، وباب أزهريات. وباب شرقيات، وباب فى الثقافة، وباب اقرأ مع الشباب، وباب بسائط العلوم، وباب للسيدات، وباب السياحة، وباب اليد العاملة، وباب محيط الشباب، وباب الرياضة، وباب شتى الفنون الذى يتناول الموسيقى والنحت

والتصوير والمسرح والسينما. بالإضافة إلى القصص العالمية والمصرية.

وهكذا لم تترك (الشباب) فرعًا من فروع الثقافة دون أن تتطرق إليه على صفحاتها.

ولم يكن اهتمام (الشباب) بالمضمون إلى هذا الحد على حساب شكلها العام، وطريقة إخراجها، فامتازت بثبات أبوابها وعناوينها الرئيسية، كما امتازت باستخدام العناوين الفرعية فى موضوعاتها، كما كثر فى (الشباب) استخدام الصور الفنية العالمية.

وهكذا نستطيع أن نقول إن (روز اليوسف) اليومية و(الشباب) الأسبوعية فى أثناء تولى عزمى شئون تحريرهما قد اهتمتا بالدرجة نفسها وبالوقت نفسه بالشكل والمضمون معًا.

المجالات التى أسهم فيها محمود عزمى فى الصحافة المصرية:

أولا: دفاع محمود عزمى عن حرية الصحافة ضد القوانين والتشريعات المكبلة لها.

ثانيا: ما قدمه محمود عزمى للصحافة على المستوى الدولى.

ثالثا: معهد التحرير والترجمة والصحافة.

رابعًا: جمعية الصحافة.

أولا : محمود عزمى وحرية الصحافة :

آمن محمود عزمى إيمانًا عميقًا بمهمة الصحافة ودورها فى خدمة المجتمع، حيث اعتبرها «معلمة الأمم من الوجهة السياسية، ومربيتها من الوجهة الخلقية ومذيعة الأخبار المتنوعة والآراء المختلفة بين الجمهور، وواقفة القراء على مستحدثات العصر ومبتكرات الفكر.

الصحافة وظيفة اجتماعية :

رأى محمود عزمى أن الصحافة كوظيفة اجتماعية هى «توجيه الرأى العام عن طريق نشر المعلومات والأفكار الخبرة الناضجة معممة ومنسابة إلى مشاعر القراء خلال صحف دورية».

واعتبر محمود عزمى الصحفى مربيًا للخلق العام ومعلمًا للرأى العام ومحاميًا عن المصلحة العامة

وهكذا سما محمود عزمى بمهمة الصحافة من كونها مجرد وسيلة إعلامية فقط إلى اعتبارها وسيلة لتعريف الشعب بحقوقه وواجباته السياسية، ولتربية الخلق ونشر الحميد من الصفات بين الجمهور.

الرأى العام والصحافة :

قسم محمود عزمى الرأى العام من حيث علاقته بالصحافة إلى ثلاثة أنواع :

رأى عام نابه:

مؤلف من أكمل العناصر ثقافة وأصحها وزنًا للأمور وأقدرها على إسداء النصح فى سبيل الصالح العام، وهو بطبيعة تكوينه الأقل عددًا والأقل تأثرًا بالصحف ولكنه الأكثر تأثيرًا فيها بما يصدر عنه من نشاط مستند إلى الوعى القومى السليم.

رأى عام قارئ:

يتألف من المتعلمين فى عمومهم ويختلف عدده باختلاف انتشار التعليم فى الجماعات، كما تختلف ملكة إدراكه باختلاف متانة التعليم ذاته. وهو متعادل التأثر بالصحف والتأثير فيها.

رأى عام منساق:

مؤلف من العامة صاحبة الكثرة العددية فى كل جماعة ويختلف مستواه الإدراكى باختلاف انتشار التعليم وتعميم الثقافة، لا حول له فى التأثير من تلقاء نفسه ولا قوة، بل هو دائمًا متأثر وهو دائمًا مقود.

واعتبر محمود عزمى الرأى العام القارئ هو الأكثر اتصالا بالصحافة، ذلك لأنه (النوع الوسط) الذى يحس الرغبة، فى استكمال معلوماته من ناحية كما يحس الرغبة فى أن يهيمن على سير

الأمور فى بلده من ناحية أخرى.

ويبين محمود عزمى أن الصلة بين الصحافة والرأى العام القارئ تكمن فى قيام الصحافة بمعالجة الرأى العام القارئ لتوجهه الوجهة التى تراها، ولترده عن الطريقة التى يكون قد سلكها من تلقاء نفسه قبل أن تدله الصحافة عليها.

واعتبر محمود عزمى الضمان الوحيد لكى تقوم الصحافة بوظيفتها الاجتماعية يتوفر فى حرية الإدلاء بالمعلومات وحرية تناول هذه المعلومات بالشرح والتعليق، واعتبر هذين الشرطين أساسيين لكى تؤدى الصحافة وظيفتها الاجتماعية.

حرية الصحافة:

اعتبر محمود عزمى أن الحرية هى كيان الصحيفة إذ لا يمكن تصور وجود صحافة بالمعنى الصحيح إلا إذا كفلت لها حرية إبداء الرأى على أوسع ما يمكن من الصور.

وآمن بأن حالة الصحافة فى بلد، ميزان صحيح لحالة البلد ذاته، من جميع نواحيه الثقافية والخلقية والسياسية.

وهكذا كان إيمان محمود عزمى بحرية الصحافة فى إطار إيمانه بحرية الرأى والفكر، وعاش مدافعًا عن هذه الحرية. مندِدًا بكافة القيود والعراقيل التى تكبل حرية الصحافة سواء كان ذلك عن طريق التشريعات والقوانين التى تمنع الصحافة من ممارسة حريتها بشكل

أكيد، أو عن طريق حرمان الصحفى من التعبير عن رأيه الحر، سواء عن طريق الترغيب أو الترهيب.

تكلم محمود عزمى عن الصحافة (كسلطة رابعة) وتمنى أن تعامل الحكومات المصرية صحافتها بمثل ما تعامل به الحكومات الراقية صحافتها وصحافات العالم أجمع، واعتبر أن مظهر الرقى لهذه الحكومات، هو أن تعد الصحافة سلطة رابعة إلى جانب الهيئات التشريعية والقضائية والتنفيذية عليها تبعتها فى توجيه الرأى العام ولها حقوقها فى الوقوف على الاتجاهات العامة التى تريدها الحكومة لصالح هذا الرأى العام، بل حقوقها فى الاشتراك قدر المستطاع فى تقرير هذه الاتجاهات أو فى إنارة طريقها للقائمين بالأمر، ورأى أن تكون الصلات وثيقة بين الصحافة وبين الحكومة، حتى تستطيع استعمال هذه الحقوق المقابلة للتبعات الملقاة على عاتقها.

دستور ١٩٢٣ وحرية الصحافة:

أفرد الدستور مادة خاصة لحرية الصحافة نصت على أن: «الصحافة حرة فى حدود القانون والرقابة على الصحف محظورة وإنذار الصحف أو وقفها أو الغاؤها بالطريق الإدارى محظور، كذلك إلا إذا كان ذلك ضروريًا لوقاية النظام الاجتماعى».

ويكتب محمود عزمى مبديًا رأيه فى المادة (١٥) من الدستور والتى نصت على حرية الصحافة موضحًا تأثير العبارة الأخيرة التى

أضيفت على مشروع لجنة الثلاثين على حرية الصحافة، فيقول: «نصت المادة (١٥) على أن الصحافة حرة فى حدود القانون، وهو نص معقول ومشروع إذ ليس مستطاعًا عقلا وشرعًا أن تطلق الحرية الصحفية من غير قيد مادام القيد هو قيد القانون العام بنصوص مواد قانون العقوبات، غير أن الشارع المصرى أراد إلى ما قبل العهد الدستورى أن تكون إلى جانب قيود القانون العام قيود إدارية تحكمية لا رقيب عليها ولا حسيب. فقد كانت الصحف المصرية معرضة فى عهد التحكم الفردى السابق لعهد الدستور الذى أعلن إلى الإنذار والوقف والإلغاء، وجاءتنا الحرب ببدعة الرقابة على الصحف ودلت التجربة على فساد هذه الإجراءات الإدارية الاستبدادية، واقتنعت لجنة الثلاثين بهذا الفساد فنصت فى مشروعها على أن كل هذه الإجراءات محظورة حظرًا تامًا غير معلق على شرط. لكن الدستور خرج لنا بذيل إلا إذا كان ذلك ضروريًا لوقاية النظام الاجتماعى.

ويؤكد محمود عزمى أن هذا الاستثناء يبطل مفعول حرية الصحافة تمامًا ويخضع الصحافة المصرية إلى ما كانت خاضعة له فى عهد التحكم الفردى، فقانون المطبوعات ينص على أن لوزير الداخلية ولمجلس الوزراء أن ينذر الصحف ويقفها ويلغيها إذا حكم الوزير أو المجلس من غير رقيب أو حسيب أن الصحف نشرت ما يمكن أن يمس (النظام العام)، والدستور المصرى يقول بهذا تمامًا وقاية (النظام الاجتماعى)، ولم يكن فى استطاعة أحد أن يعين لك أين يبدأ النظام

العام وأين ينتهى وليس اليوم فى استطاعة أحد كذلك أن يحدد لك النظام الاجتماعى.

ويشرح محمود عزمى ما تقوم عليه فكرة وقاية النظام الاجتماعى من أخطار تهدد الصحافة فيقول: «إنا إذا أحسنا الظن من تفهم معنى وقاية النظام الاجتماعى» بالنظر لما يقع الآن فى العالم فإنا نفهم أن هذه الوقاية معناها الحيلولة دون دخول مبادئ المذاهب الضارة بالأفراد والجماعات كمذاهب الاشتراكية والبلشفية، ولكن من يضمن لنا أن هذا التفسير الذى لا يفهم سواه كل عقل مستنير، ومن يضمن استمرار هذا التفسير؟ من يضمن لنا أن نعتبر مجرد الشرح العلمى لرأى واحد من فلاسفة الغرب تهديدًا للنظام الاجتماعى يقوم الوزير على وقف الصحيفة التى نشرته أو إغلاقها إغلاقًا؟.

وفى ٣٠ أبريل ١٩٢٣ يصدر قانون الانتخاب، وتبدأ وزارة يحيى إبراهيم فى سلسلة من الإجراءات التى تهدف إلى تخفيف حدة التوتر بين الحكومة والصحافة.

قانون جديد للصحافة:

إلا أنه فى هذه الأثناء يصل إلى علم الصحف أن الحكومة بصدد إعداد قانون جديد للصحافة، فتقف صحيفة (الأخبار) و (البلاغ) و(المقطم) ضد هذا القانون، فى حين ترحب (السياسة) بوصفه وتقترح أن يتضمن شروطًا ينبغى توافرها فى الصحفيين، مثل أن

يكون الصحفى حائزًا لشهادة عالية، وأن يكون على قسط من الأخلاق العالية، ويكون المثل الأعلى فى أخلاقه وممن يميل بطبيعته إلى الخير.

وتقوم مجلة (الهلال) بأخذ رأى بعض الصحفيين فى هذا القانون المزمع إصداره فتسأل محمود عزمى عما إذا «كان يجب أن تبقى الصحافة حرة بلا قانون أم يجب تقيد من يديرونها بشروط كشهادات مدرسية وخبرة فنية، أو قضاء زمن فى مزاولتها ؟».

ويجيب محمود عزمى قائلا : «أعتقد أن الصحفى فى البلاد الناهضة مرب للخلق العام، ومعلم للرأى العام، ومحام عن المصلحة العامة فلا أستطيع أن أفهم عدم تقيد التصريح له بالكتابة والنشر بمثل ما يقيد به التصريح للمعلم بالتدريس والمحامى بالمرافعة. على أنى لا أنسى أن الكفاءة الفنية يجب أن تكمل الكفاءة العلمية وتلك الكفاءة تجنى بالمران طبعًا، لذلك تجدنى من القائلين بضرورة تقييد من يمنحون امتياز الصحف ومن يعملون فى رياسة تحريرها بقيود علمية ومقياسها الحاضر هو الشهادات العالية - وبقيود فنية هى الاحتراف الفعلى بالصحافة زمنًا معينًا - لكنى أكتفى مؤقتًا بتوافر واحد من القيدين نظرًا لظروف العصر الحاضر.

ويستطرد محمود عزمى مبينًا أنه لا يقصد وضع أى قيود على الصحافة عدا القيود الخاصة بكفاءة الصحفى قائلا : «فأنا ماعدا القيود الخاصة بكفاءة الصحفى لا أقبل قيدًا للصحافة ولا أفهم تطبيق

نظام إدارى عليها، بل أنا من أنصار حرية الكتابة وحرية الرأى كاملة فى يد من يحسنون تقديرها».

وهكذا بين محمود عزمى موقفه من هذا القانون فنى الوقت الذى يطالب بأقصى حد من الحرية للصحافة والصحفيين، ينادى بأن يقوم على رسالة الصحافة من هم مؤهلون لها تأهيلا علميًّا وعمليًّا.

وفى عام ١٩٢٥، أخرجت وزارة أحمد زيور، مشروع مرسوم بقانون يعدل نصوص بعض مواد قانون العقوبات الخاصة بالصحافة والمطبوعات، وما يرتكبه الصحفيون بواسطتها من جنح أو جنايات.

وتبدأ الصحف المصرية فى التعليق على مثل هذا المشروع، ويدخل محمود عزمى فى هذا النقاش حيث يرى أن هذا المشروع خطر على الصحافة كلها بما ينبغى أن تتضامن جميعًا دون اعتبار حزبى أو مصلحى فى سبيل درئه، ويبين محمود عزمى أنه لا ينكر أن أمر الصحافة فى مصر غير منظم التنظيم الذى ينبغى إلا أنه يعترض على أن تنفرد الحكومة بوضع النصوص، وبوضعها دون إعلانها من قبل، بل إحاطتها بشىء من الإبهام والغموض.

ويستمر محمود عزمى فى مناقشة هذا التشريع الجديد مبينًا خطره على حرية الصحافة، حيث نص على ضرورة الحصول على ترخيص سابق لإصدار الصحيفة، ويطالب محمود عزمى بإجراء تعديل للقواعد العتيقة التى تضمنها قانون المطبوعات وللإجراءات الإدارية التى ابتكرها العمل من حيث اعتبار الصحفيين مماثلين لأولئك الذين

يطلبون (رخصة) لحانة أو بؤرة.

ويقترح محمود عزمى لهذا التعديل طريقتين:

الأولى: فتح باب الترخيص على مصراعيه لإصدار الصحف، بحيث يكتفى فى صدد الصحف السياسية بما يكتفى به عادة فى صدد الصحف غير السياسية، أى بمجرد إخطار يبعث به مصدر الصحيفة يذكر فيها اسم الصحيفة واسم المطبعة التى ستطبع فيها.

الثانية: تقييد الصحفيين أنفسهم بشروط فنية وخلقية يجب أن تتوافر فيهم قبل أن يمارسوا مهنتهم، على أن يكون لكل من تتوافر فيه هذه الشروط حق إصدار الصحيفة دون تحكم الإدارة وتعنتها، على ألا يكون لغير من تتوافر فيهم هذه الشروط نفسها حق إصدار الصحف أو تولى أمور تحريرها.

الأزمة الدستورية عام ١٩٢٨ وحرية الصحافة:

أصدر محمد محمود عام ١٩٢٨، مرسومًا بإيقاف العمل بالدستور وتعطيل الحياة النيابية، ونتيجة لذلك استعادت الحكومة سلطتها فى تعطيل الصحف إداريًا تطبيقًا لنصوص قانون ١٨٨١.

وانضم محمود عزمى إلى صفوف المعارضين لحكم محمد محمود، معتبرًا قيام مثل هذه المعارضة دليلا على أن فى البلاد من يحرصون على قيام نظام حكمها المقرر، ومن يحرصون على أن تظل أحكام القوانين كلها نافذة.

ونتيجة لمقالات محمود عزمى فى (وادى النيل) ضد وزارة محمد محمود، يصدر مجلس الوزراء قرارًا بإيقافها.

دستور ١٩٣٠ وحرية الصحافة:

فى يونية ١٩٣٠، يؤلف إسماعيل صدقى الوزارة، ويقوم بإلغاء دستور ١٩٢٣، ويصدر دستور ١٩٣٠، الذى أبقى المادة (١٥) من دستور ١٩٢٣ كما هى دون حذف أو تغيير، إلا أن الوزارة عمدت إلى إجراء آخر لإبطال نص حرية الصحافة، حيث عدلت من قانون العقوبات بتشديد العقوبات، على الجنح والجرائم الخاصة بالقذف والسب.

قانون تنظيم الصحافة:

يتولى عبد الفتاح يحيى رئاسة الوزارة خلفًا لإسماعيل صدقى فى عام ١٩٣٤، وتبدأ الوزارة فى إعداد مشروع قانون جديد لتنظيم الصحافة، يكمل المرسوم بقانون رقم ٩٨ لسنة ١٩٣١ الصادر فى عهد صدقى.

ويقوم هذا المشروع على أساس تعديل قانون العقوبات وقانون المطبوعات، تعديلا «يضع حدًّا للتحامل البذىء والهزء والسخرية لأسباب لا يبررها المنطق ولا يسيغها الذوق ولا العرف، ومن ناحية ثانية يجعل من الصحافة «صناعة رسمية لا يستطيع أن يحترفها إلا من

توافرت فيه مؤهلات علمية وشخصية ونال من الحكومة رخصة رسمية».

وانبرى محمود عزمى خلال سلسلة من المقالات يفند فيها هذا المشروع ويبين تأثيره على حرية الصحافة.

ففى المقالة الأولى بين محمود عزمى موافقته على أن يعمل التشريع على أن يضع حدًّا للتحامل البذىء والهزء والسخرية لأسباب لا يبررها المنطق، مؤكدًا ضرورة أن توفق القوانين المصرية إلى أن يتضمن من النصوص ما يعين إعانة جدية على تحقيقه على أن تكون هذه النصوص الواقية من الدقة فى التعبير والوضوح فى المعنى بحيث لا تدع مجالا للتحايل عليها من ناحية ولا للتحامل عن طريقها من ناحية أخرى.

ويناقش محمود عزمى بعد ذلك فكرة تحويل الصحافة إلى وظيفة من وظائف الحكومة مبينًا تعارضها مع اعتبار الصحافة (سلطة) رابعة من سلطات الدولة تتاخم حين تؤدى واجباتها على وجه كامل السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية ويكون من اختصاصها نقد ما يصدر عن هذه السلطات جميعًا من الأعمال التى تستوجب مصلحة الدولة العظمى أن تنقد وأن يقف الناس على وجه النقص فيها.

أما عن الشروط التى ذكرها المشروع والواجب توافرها فيمن يعمل بالصحافة، فيرى محمود عزمى استحالة تطبيق الشروط التى وضعها

تشريع صدق لرؤساء التحرير، على كل من أراد أن يخط حرفًا فى صحيفة ولو لم يكن رئيسًا لتحريرها، على أساس أن شرط المؤهلات العلمية لن يفيد، لو لم تكن إلى جانبها سعة فى الأفق والتجارب.

وفى المقالة الثانية يشرح محمود عزمى خطورة اتجاه النية خلال ذلك التشريع إلى معاقبة «مجرد التشكيك فى قانونية الهيئات وتأليفها وانتخابها إذ يعتبر إهانة لها» واعتبر محمود عزمى أن هذه المعاقبة تسلب الصحافة أهم وظائفها وهى وظيفة السهر على أن يكون كل تشريع داخلا فى حدود الدستور وأن يكون كل تصرف مستكملا الشرائط القانونية.

ويضرب مثلا على ذلك افتراض أن السلطة التنفيذية اتخذت من الإجراءات ما يتنافى مع الأصول الدستورية المقررة وفرض إلى هذا أن السلطة التشريعية سكتت عن هذه الإجراءات المنافية للأحكام المدونة وأخذت السلطة القضائية بمبدأ عدم اختصاصها بالفصل فى دستورية تلك الإجراءات أو عدم دستوريتها ونشأ من ذلك كله قيام هيئة أو سن تشريع أفتظل هذه الهيئة المخالفة لأصول الدستور قائمة ويظل هذا التشريع المخالف لأحكام الدستور نافذًا ولا يستطيع أحد أن يتقدم لهما بنقد أو يعرض لوجودهما بملاحظة ؟.

ويتساءل محمود عزمى : «ومن أولى بهذا التقدم وهذا العرض من الصحفيين وأى معنى لوجود الصحافة إذا لم تقم بواجبها الأساسى خلال هذا التقدم وهذا العرض ؟

ويكتب محمود عزمى مبينًا خطورة أخرى تأتى عن طريق ما تضمنه المشروع من معاقبة (العرض بالنقد للحكام والخديويين السابقين والوزراء المتوفين)، حيث يصف هذه العقوبة بأنها تحرم التاريخ مهمته الطبيعية وهى مهمة الكشف عن الحقائق بعيدًا عن المؤثرات الوقتية.

ويعلل لهذا بأنه إذا اعتبر تحليل نفسية عظيم راحل أو حاكم سابق إهانة له فكيف يستطاع إذًا تدوين التاريخ الصحيح ولو بعد حين؟ وكيف يستطاع الاستفادة من الماضى فى تصريف شئون الحاضر؟ ويطالب محمود عزمى رجال التاريخ بالتضامن مع الصحفيين فى سبيل الدفاع عن حرية رأيهم وضميرهم العلمى.

وفى المقالة الثالثة بين محمود عزمى اعتداء هذا المشروع على المبادئ الدستورية حيث نص على أن «لوزير الداخلية فى حالة إمعان بعض الصحف متعمدة فى نشر الأخبار الكاذبة أن يأمر بحجز الجريدة أو ضبطها إداريًا حتى ثلاث مرات فى الشهر الواحد، وله أن ينظر فى مسألة التأمين المطلوب من الراغب فى إصدار جريدة، فيزيد هذا التأمين أو ينقصه ويصادره فى حالة نشر الأخبار الكاذبة» ويشرح محمود عزمى تعارض هذا النص مع المادة (١٥) من الدستور التى تنص على أن إنذار الصحف أو وقفها أو إلغاءها بالطريق الإدارى محظور على أن تعطيل الجرائد والنشرات الدورية جائز من شهر إلى ثلاثة أشهر، على أن يكون أمر التعطيل بقرار من محكمة الاستئناف.

كما بين محمود عزمى تعارض نص «ليس لرئيس التحرير أن ينشر شيئًا إلا إذا كان يعرف كاتبه وأن عليه أن يحفظ الأصل عنده لمدة سنة للرجوع إليه عند الحاجة» مع أعرق مبدأ قانونى يقرر سر المهنة، حيث سيفرض على رئيس التحرير أن يبوح للنيابة العامة أو لغيرها من السلطات باسم أولئك الكتاب الذين يبلغونه خبرًا أو ينشر لهم كلمة.

ويستمر محمود عزمى فى مهاجمة الوزارة لتصميمها على إصدار هذا التشريع المقيد لحرية الصحافة، ويطالبها «بالتريث وهى تعالج أمر الصحافة الدقيق، فليس الشأن فيما تعالجه على نحو ما يذاع قاصرًا على أشخاص الكتاب والمصورين والصحفيين، بل إنه سيتجاوز هؤلاء إلى الجمهور الذى تعتبر الصحافة فى عمومها له مدرسة يأخذ عنها ويتعلم منها. والصحيفة إذا هى عطلت أو هى أوقفت لمدة من المدد، إنما هى فى الواقع مدرسة أغلقت، وهى إذن تعاليم يحرمها الناس وتهذيب يمنع عنهم»

وتستمر الوزارة فى تحديها للصحافة والصحفيين، فتعتزم تعديل نصوص قانون العقوبات فيما يخص بطوائف الجرائم وأنواع العقوبات التى تنزل بالصحفيين وتتجاوز هذا إلى تدعيم العقوبات التى توقع على الصحف نفسها ويقضى عليها بالإيقاف المؤقت أو التعطيل الدائم.

ويؤكد محمود عزمى أن الالتجاء إلى معاقبة الصحف بالتعطيل أو الوقف التجاء استثنائى بتشريع قاس حسبه الناس اختصاص من

اختصاصات صدقى ووزارته وكانوا يحسبون أية وزارة تجىء بعد صدقى، تعنى برفع تلك الوصمة من صلب التشريع المصرى الذى عرف بتمشيه مع المبادئ القانونية الحديثة والاعتبارات التشريعية السليمة.

وهكذا فند محمود عزمى بنود هذا المشروع بالحجة والبرهان مبينًا تعارضه مع نصوص الدستور ومع مهمة الصحافة ومع وظيفة التاريخ. إلا أننا نلاحظ أن محمود عزمى الذى كان يدعو دائمًا إلى ضرورة أن تتوافر فى الصحفى الثقافة العالية والكفاءة العملية، يندد بقيد الشهادة والخبرة اللتين نص عليهما هذا المشروع، ويمكن أن نعلل هذا بأن محمود عزمى اعتبر هذه الشروط ما هى إلا قيود يقصد منها منع عدد كبير من الصحفيين الذين تخشى الحكومة بأسهم من مزاولة مهنة الصحافة.

وينضم محمود عزمى بعد ذلك إلى أسرة تحرير روز اليوسف اليومية فى أثناء وزارة توفيق نسيم عام ١٩٣٥.

وقد اتخذت الصحيفة فى بادئ الأمر سياسة الوفاق مع الوزارة، أملا فى أن تقضى على المشروعات والقوانين المكبلة للحريات، والتى صدرت فى عهد صدقى وعبد الفتاح يحيى.

ويصدر توفيق نسيم بالفعل قرارًا بتأليف لجنة تتولى إصلاح إدارة المطبوعات للعمل على خدمة صحافة البلاد، وتغذيتها بما يساعدها على المضى فى أداء شتى مسئولياتها على الوجه الأكمل.

ويجد محمود عزمى فى هذا القرار فرصة ليدلى برأيه فيما يجب أن

تكون عليه العلاقة بين الصحافة والحكومة.

فيتكلم أولا عن العلاقة السائدة بالفعل بين الصحافة والحكومة، مبينًا أن كثرة الوزارات المتعاقبة فى مصر فى أثناء عهودها الحديثة كانت تعتبر الصحافة عدوة للحكومة، خطرة على الجماعة تجب مطاردتها، وتجب مراقبتها، كما يطارد الأشقياء، وكما يراقب المجرمون، ومن أجل هذا كانت قوانين المطبوعات قوانين جزائية، وكانت إدارة المطبوعات تابعة لإدارة الأمن العام، ومن أجل هذا كانت الروح المرفرفة على العلاقات بين الصحافة وإدارة المطبوعات روح توجس شرًا متبادلا وروح سوء تفاهم مستمر وروح تباعد منظم.

ثم يبين محمود عزمى تصوراته لما يجب أن يقوم بين الحكومة والصحافة من علاقة قائلا: «حيث أن الحياة العامة الحديثة تجعل من الصحافة قائدة للرأى العام وأداة من أصلح أدوات الإرشاد فى سبيل العمران، بل تجعلها (سلطة) رابعة فى الدولة تعنيها شئون الجماعة، كما تعنى للسلطات التنفيذية، والتشريعية، والقضائية، وتسأل عنها كما تسألن بل فوق ما تسألن. ومن أجل هذا فقد أفسح لها المجال وأطلقت لها الحرية وافترض فى رجالها حسن النية واعترف لهم بالرغبة الصادقة»

ويدعو محمود عزمى اللجنة أن تأخذ فى اعتبارها فى أثناء مباشرة مهامها هذا (الاتجاه الإصلاحى) الحديث الذى يعرف للصحافة (رسالتها) فى الجماعة.

لكن سرعان ما ينتهى عصر الوفاق بين (روز اليوسف) ووزارة توفيق نسيم ويبدأ محمود عزمى فى شن حملة على الوزارة لتخاذلها فى إلغاء القوانين والإجراءات الاستثنائية الرجعية التى صدرت فى غيبة دستور ١٩٢٣.

فيهاجم الوزارة لتباطئها فى إلغاء قانون المطبوعات الذى وضعه إسماعيل صدقى وأدخل فيه من الأحكام والإجراءات المخالفة لمبادئ الحرية الواردة فى دستور ١٩٢٣، ويشير عزمى إلى أن الوزارة تتشدد فى تنفيذ مواده تشددًا لم تعرف قسوته فى عهد صدقى ذاته، خاصة مادة (التأمين النقدى) الذى يوجب قانون المطبوعات على طالب الترخيص بإصدار جريدة، أن يدفعه فى حين أن هذا القيد فى ذاته مخالف لحرية الصحافة التى نص عليها الدستور.

ويندد عزمى أيضًا بموقف الوزارة من قانون العقوبات لإبقائها على ما تضمن من مبدأ إنزال العقاب بالصحيفة والمطبعة بدل الاكتفاء بمعاقبة الصحفى والكاتب «وكأن الصحافة فى ذاتها مهمة حرام، يجب أن تصادر أدواتها، كما تصادر أدوات القمار وآلات التزييف»

ويستمر محمود عزمى فى مهاجمة وزارة نسيم لموقفها من الصحافة والصحفيين مبينًا أن الصحافة فى عهد هذه الوزارة لا تزال ترسف فى أغلال، ولا يزال تفرض عليها قيود، ولا يزال ينقص نظامها ما يجب أن يتوافر فيه من أحكام تتفق ومالها من مكانة فى الاجتماع

وما للعاملين فيها من منزلة.

ويقدم محمود عزمى عددًا من الأمثلة ليبين حقيقة موقف وزارة نسيم من الصحافة، مثل الإبقاء على مبدأ إلصاق التهمة بالصحيفة بدل قصرها على الصحفى وتوقيع العقوبة على الصحيفة بالتعطل والإلغاء. كذلك الإبقاء على مبدأ دفع تأمين نقدى قبل إصدار الصحيفة فى قانون المطبوعات برغم مخالفة ذلك المبدأ لنصوص الدستور مخالفة صريحة.

كما يبين محمود عزمى أن الوزارة مازالت مستمرة فى معاملة الصحفيين المحكوم عليهم بالسجن فى جرائم النشر معاملة المحكوم عليهم فى جرائم عادية.

ويشرح محمود عزمى أيضًا موقف الوزارة بالنسبة لتوزيع الاعلانات الحكومية حيث تحرم بعض الصحف نصيبها من تلك الاعلانات «كأنها تريد أن تعاقبها من هذا الطريق على موقفها الذى تقفه من الوزارة وتصرفاتها أو كأنها تريد أن تكافئ غيرها من هذا الطريق نفسه على تأييدها لها التأييد كله».

وتستدعى وزارة الداخلية محمود عزمى بوصفه رئيسًا لتحرير (روز اليوسف) اليومية، حيث يتهمه وكيل الداخلية بنشر خبر كاذب فى الصحيفة مهددًا إياه بأن «الحكومة لا تريد أن تضطر للالتجاء إزاء الصحافة إلى إجراءات ولأخذها بغير ما أخذتها به حتى الآن ولذلك فهى ترجو من الصحافة أن تعاونها فى هذه الظروف الدقيقة

على استقرار الأمن واستتباب الهدوء وألا تلجئها إلى تلك الإجراءات الشديدة».

وينتهز محمود عزمى فرصة هذا الاستدعاء ليبين أن سوء العلاقة بين الحكومة والصحافة إنما يرجع إلى الخطة التى تلتزمها الحكومة إزاء الصحافة والصحفيين.

ويخلص محمود عزمى إلى القول بأن هذا الاستدعاء إنما هو «إنذار إدارى» يناقض النص الخاص بحرية الصحافة من أن «إنذار الصحف وتعطيلها بالطرق الإدارية محظور» ويضيف لائمًا الوزارة على هذا الإنذار متسائلا: «هل أبطلت وزارة نسيم باشا ذلك الحكم الدستورى الأصيل، أو أنها تسابق الحوادث فتفترض الأحكام العرفية معلنة والمراقبة على الصحافة مفروضة وتكون تلك إذن علامة من علامات الساعة؟».

وفى ٣٠ يناير ١٩٣٦، يتولى على ماهر رئاسة الوزارة ويعين محمود عزمى مستشارًا صحفيًا له.

ويبدأ على ماهر فى العمل على استصدار تشريع لتنظيم الصحافة ويبارك محمود عزمى هذه الخطوة بسبب وجود إحساس عام فى بيئة الصحافة ذاتها وفى الهيئات الحكومية والاجتماعية التى تتصل بها باندساس أشخاص فى زمرة الصحفيين ليسوا هم فى الواقع إلا بلاءً على المجتمع كله، والرغبة صادقة فى تنظيف المهنة الاجتماعية الشريفة منهم».

ويتولى النحاس الوزارة فى مايو ١٩٣٦، ويشيد عزمى بما جاء فى خطاب العرش من اعتزام الوزارة خص الصحافة بما هى أهل له من الامتيازات التى تمكنها من تأدية رسالتها الاجتماعية فى حرية واحتفاظ بالكرامة ومن اعتزامها استصدار عفو شامل عن الجرائم السياسية التى وقعت فى فترة الحكم الاستثنائى والتى أخضعت له مصر من سنة ١٩٣٠ إلى أواخر سنة ١٩٣٤. ويطالب محمود عزمى الوزارة بأن تبادر بعرض مشروعات القوانين المقررة للعفو السياسى والحرية الصحفية على البرلمان، وبأن تصدر أعمال الوزارة وأعمال البرلمان بشأن الحريات الفردية والعامة دائمًا على اعتبار هذه الحرية الصحفية وذلك العفو السياسى.

لكن سرعان ما ينشب الخلاف بين النحاس ومحمود عزمى لموقفه المعارض من مشروع معاهدة ١٩٣٦، وعلى أثر ذلك تحرم الوزارة صحيفة (الشباب) من الإعلانات الحكومية كذلك تحرم كلا من جريدتى (البلاغ) و (روز اليوسف) المعارضتين. ولهذا يتوجه عزمى باللوم للوزارة مذكرًا النحاس أنه قد صرح فى بداية عهده (بأن لا حزبية اليوم).

وفى سبتمبر ١٩٣٩ تقوم الحرب العالمية الثانية وتعلن الأحكام العرفية وتفرض الرقابة على الصحف، ويثير تنفيذ الرقابة تذمرات الصحفيين فسعوا عند على ماهر رئيس الوزارة مقترحين تولى محمود عزمى أمر الرقابة. وقد علل جبريل تكلا صاحب الأهرام هذا

الاختيار قائلا : «فإن كان لابد من شد الحبل على عنق الصحافة فإن محمود عزمى سيختار لهذا الشد شريطًا من القطيفة أو الحرير.

وفى ١٩ سبتمبر ١٩٣٩ ينتدب وزير المالية محمود عزمى مديرًا لمراقبة النشر، فيحتج عزمى على هذا الندب، فيقال له إنه أمر عسكرى صدر من الحاكم العسكرى ولابد من تنفيذه.

ويخفف ذلك على محمود عزمى كما يقول : «وهو الداعى لحرية الصحافة، والمقدس لحرية إبداء الرأى، إن الإلحاح فى انتدابه لمراقبة النشر إنما جاء بناء على طلب بعض الزملاء الصحفيين».

ويعين محمود عزمى رقيبًا على الصحف بالفعل، ويشترط على الجانب المصرى والجانب البريطانى أن تكون الرقابة محصورة فى أضيق ما فرضت من أجله من حدود عسكرية وألا تصبح وسيلة لأى سلطة، وذلك لأنها كما يقول عزمى : «شرعت للدفاع عن أحكام المعاهدة فليست لمصلحة الحكومة المصرية أو الحكومة البريطانية أو الاثنين معًا.

وفى أثناء عمل محمود عزمى فى إدارة الرقابة يكتب مدافعًا عن فرض قيود على الحريات فى أوقات الحروب. محددًا هذه القيود فى ثلاثة أنواع : هى القيود السياسية، والقيود الاقتصادية، والقيود الاخلاقية. وقد عرف محمود عزمى القيود السياسية بأنها التوجه بكل قوانا إلى غاية واحدة هى سلامة الوطن، وأن نبذل له من مال ودم وروح. كما عرفها بأنها طاعة ما يصدر من أمر الحاكم العسكرى من

أوامر «وأن نكره لأنفسنا أن نفعل ما نهى عنه». وعرف القيود الاقتصادية بأن يفكر كل منا فى زيادة إنتاجه قدر ما تتسع طاقته للإنتاج، وذلك فى كل ميدان، ومهما يكن العمل الذى يقوم به الفرد. وأن يقلل كل فرد استهلاكه فلا يزيد فى حده إلا على ما هو ضرورى ولازم. وحدد محمود عزمى القيود الأخلاقية فى الابتعاد عن الفردية فى تفكيرنا وسلوكنا «فينبغى ألا يكون لنا وجود مستقل بأفرادنا، بل يجب أن يكون وجودنا بوطننا وبأمتنا وبمجموعنا» وعلى الرغم من دفاع محمود عزمى عن فكرة فرض القيود فى أثناء الحروب فإنه لم يستطع الاستمرار فى عمله رقيبًا على الصحف، مع تدخلات السلطات البريطانية فيما يباح ولا يباح نشره من موضوعات وأخبار غير عسكرية.

ويعود محمود عزمى إلى عمله فى مصلحة الضرائب إلى أن يندب للتدريس فى معهد التحرير والترجمة والصحافة فى عام ١٩٤١.

وهكذا يتضح دفاع محمود عزمى عن حرية الصحافة، وتوجيهه نظر الوزارات المتعاقبة لما يجب أن يكون عليه حال الصحافة فى البلاد الراقية داعيًا إلى أن تتمتع بما يؤهلها لحمل مسئولياتها الاجتماعية فى توجيه الشعب ومراقبة السلطات.

ثانيًا: محمود عزمى وحرية الصحافة فى المجال الدولى:

ترك محمود عزمى عمله فى الرقابة وعاد إلى وظيفته الحكومية

مستشارًا فى مصلحة الضرائب إلى أن انتدب من عام ١٩٤١ للتدريس فى معهد الصحافة إلى عام ١٩٤٦.

وفى هذه الفترة بدأ اتصال محمود عزمى بمنظمة الأمم المتحدة فدأب على متابعة اجتماعاتها وملاحقة أعمال مختلف مجالسها ولجانها، مما جعله أحد الصحفيين المتخصصين فى مجال الأمم المتحدة ولهذا اختارته وزارة الخارجية المصرية لتمثيل مصر فى لجنة حرية تداول الأنباء التابعة للأمم المتحدة عام ١٩٤٩

ويفوز محمود عزمى فى تمثيل مصر فى هذه اللجنة التى ضمت ١٢ صحفيًا يمثلون كلا من لبنان والولايات المتحدة وشيلى والصين ويوغوسلافيا والهند وفرنسا وبراجواى والفلبين وإنجلترا والاتحاد السوفيتى. حيث عهدت إليهم المنظمة الدولية القيام بوضع المبادئ أو القوانين التى تصون حرية الصحافة وحقوق الصحفيين، وكذلك واجباتهم فى توجيه الرأى العام توجيهًا صادقًا أمينًا.

وهكذا بدأ جهاد محمود عزمى لخدمة الصحافة على المستوى الدولى.

مشروعات محمود عزمى فى لجنة حرية الإعلام:

قدم محمود عزمى فى يونية عام ١٩٤٩ مشروعًا من ١٩ مادة لتنظيم حرية تداول الأنباء يقضى بحماية المراسلين الأجانب فى أثناء

سعيهم للحصول على الأنباء ويبين خطر الرقابة غير المشروعة وحق الحكومات فى تصحيح الأنباء الكاذبة أو المشوهة.

عهد الشرف الدولى الصحفى:

وفى يونية ١٩٥٠، تنتهى لجنة حرية الأنباء إلى وضع نصوص قانون فخرى للصحفيين ويرى محمود عزمى أن الفكرة الجوهرية لهذا القانون تقوم على التوازن بين الشعور بالمسئولية للصحفى وبين حرية الصحافة، حيث ينص القانون بإلحاح على ضرورة تأكد الصحفى من حقيقة الحوادث التى يرويها كما يندد بأعمال التشهير وكذلك بالحملات الموجهة ضد بعض الأفراد.

وأكد محمود عزمى بصفته عضوًا فى اللجنة على أن حرية تداول الأنباء لا تكتمل إلا بالمحافظة على كرامة المهنة الصحفية.

ويرجع الفضل الأكبر فى الوصول إلى هذا القانون إلى محمود عزمى الذى قدم للجنة مشروع عهد الشرف الدولى للصحفيين الذى يعتبر قانون السلوك المهنى لرجال الصحافة، حيث يطالبهم بتوخى الأمانة والصدق فى بسط الوقائع وشرحها وتفسيرها.

وقد حوت وثيقة العهد على خمس مواد تنص على ضرورة التحقق من صحة المعلومات والإخلاص للمصلحة العامة، والمحافظة على أمانة المهنة وكرامتها والاحتفاظ بسرية المصادر وعدم جواز تفسير أى مادة من مواد هذا العهد على نحو يسوغ تدخل الحكومات.

ويستمر محمود عزمى فى العمل على إعلاء شأن الصحافة وتأكيد حريتها فيقدم مع مندوبى فرنسا وكوبا وهولندا مشروعًا للجنة الاجتماعية التابعة للمجلس الاقتصادى والاجتماعى يقضى بإنشاء لجنة من خبراء ١٥ دولة من دول الأمم المتحدة لوضع شروط اتفاق دولى لحرية الأنباء.

وفى يوليو ١٩٥١ يفتتح فى مدينة إيفيان بفرنسا مؤتمر الشئون الصحفية بحضور ١٥٥ صحفيًا يمثلون ٤٦ دولة حيث مثل مصر محمود عزمى، وكانت من الموضوعات المدرجة فى جدول أعمال المؤتمر وجوب استمتاع الصحفيين بحرية البحث والتعبير فى كل مكان، والعلاقات بين الصحف والهيئات الدولية الكبيرة ومساهمة الصحافة والراديو والسينما والتليفزيون فى تعزيز قوة الرأى العام ومناقشة أساليب العمل فى إدارات الصحف بمختلف أنحاء العالم.

محمود عزمى رئيسًا للجنة حرية الأنباء:

أدت مواقف محمود عزمى فى لجنة حرية الأنباء إلى اعتباره المدافع الأول عن حرية الصحافة فى الأمم المتحدة، وكان لهذا أثره فى انتخابه رئيسًا للجنة حرية الأنباء فى مارس ١٩٥٢. وبدأت اللجنة فور انتخاب عزمى رئيسًا لها فى وضع الأسس لاتفاقية دولية تقرها ويتعهد بتنفيذها جميع أعضاء الأمم المتحدة المؤمنين بالنظام الديمقراطى، وتنص هذه الاتفاقية على أن يكفل للصحفى والصحيفة جميع الضمانات

اللازمة لأداء الواجب الصحفى فى حرية وصدق وأمانة.

كما قامت اللجنة بإقرار عهد الشرف الصحفى الذى يضع المبادئ الخلقية التى يجب أن تتوافر فى العاملين فى الصحافة والذى قدمه محمود عزمى للجنة عام ١٩٥٠.

وأوصت اللجنة بعقد مؤتمر دولى للصحفيين المحترفين للموافقة على قانون دولى للآداب الصحفية ذلك على الرغم من اعتراض المندوب الأمريكى على فكرة عقد المؤتمر وكذلك المندوب الروسى.

وأيد هذه الدعوة لعقد المؤتمر مندوبو مصر ولبنان ويوغوسلافيا وأرجواى وشيلى والفلبين.

اتفاقية تصحيح الأنباء:

يقدم محمود عزمى مع مندوبى فرنسا ولبنان ويوغوسلافيا، مشروع اتفاقية لتصحيح الأنباء. تقضى بأن لكل دولة نشر عنها خبر داخل حدود دولة أخرى، وتلاحظ عليه عدم الصحة أن تبلغ الدولة الأخرى تصحيحًا تطلب إليها نشره وإذاعته وضعًا للأمور فى نصابها، فإذا لم ينشر التصحيح فى فترة معينة من الوقت أبلغته الدولة المصححة إلى السكرتير العام للأمم المتحدة كى يذيعه بوسائل الأمم المتحدة جميعًا مع سريان أحكام الاتفاقية على جميع الدول والأقاليم المستقلة منها وغير المستقلة.

وفى نوفمبر ١٩٥٢ يقر المجلس الاقتصادى والاجتماعى عهد الشرف

الصحفى الدولى كما قدمته لجنة حرية الأنباء، وبعد أن استمر محمود عزمى يواليه بالتدعيم والدفاع عنه ضد المتألبين عليه من وفود بريطانيا وأمريكا وكندا واستراليا.

مؤامرات الدول الكبرى على مشروعات حرية الإعلام:

وتتجه النية إلى عرض الاتفاقيات الخاصة بحرية الصحافة على الجمعية العامة لإقرارها، وتبدأ الدول الكبرى فى محاولة إحباطها فى الجمعية العامة، فتعارض أمريكا مثل هذه الاتفاقيات لسيطرة شركات الإعلانات والمؤسسات التجارية والأحزاب السياسية على الصحافة، ويعارضها الاتحاد السوفيتى لأن الصحفى فى النظام الشيوعى أداة من أدوات الدولة مسخر لخدمة أغراضها، وتسير كل من بريطانيا وفرنسا فى ركاب أمريكا للنزعة الاستعمارية التى تتملك الدولتين، حيث نصت هذه الاتفاقيات التى وضعت لحرية الصحافة على تطبيقها فى البلاد غير المتمتعة بالحكم الذاتى.

وتذكر صحيفة (الأهرام) الجهود التى بذلها محمود عزمى بالتعاون مع ممثلى الدول الصغرى والمتوسطة، لإنقاذ حياة الصحافة وحريتها من المؤامرة الدولية التى حبكت أطرافها بين الاتحاد السوفيتى وأمريكا.

وتثمر مجهودات محمود عزمى وتوافق الجمعية العامة على قرارات لجنة حرية الأنباء الخاصة بعهد الشرف الدولى للصحفيين وباتفاقية تصحيح الأنباء وبالمعاونات الفنية لمنشآت الصحافة والإعلام فى البلاد

التى لا تتوافر فيها أسباب تطوير هذه المنشآت، وبالحث على نشر قرارات الأمم المتحدة فى بلاد الدول الأعضاء تعريفًا بها وتمكينًا للناس من المطالبة بتنفيذها.

دور محمود عزمى فى إخراج قرارات لجنة حرية الأنباء:

كان محمود عزمى صاحب الفضل الأكبر فى إصدار معظم هذه القرارات. فعهد الشرف الدولى للصحفيين، إنما هو من اقتراح محمود عزمى، حيث قدمه إلى اللجنة فى الدورة الرابعة لها التى انعقدت فى مونتفيديو عام ١٩٥٠، وأولاه بالتدعيم حتى أقرته اللجنة فى دورتها الخامسة التى رأسها محمود عزمى فى نيويورك عام ١٩٥٢، ثم تابعه بالدفاع عنه فى المجلس الاقتصادى والاجتماعى ولدى اللجنة الاجتماعية.

أما اتفاقية تصحيح الأنباء، فكان لمحمود عزمى فضل الحث على إبدال مادة عدم التطبيق على المستعمرات وما إليها بمادة التطبيق المطلق على جميع الأقاليم دون قيد أو شرط بالإضافة الى اشتراكه فى تقديم الاتفاقية من البداية.

وساهم محمود عزمى كذلك فى اقتراح تقديم المعاونات الفنية لمنشآت الإعلام القومية، كما اقترح تعميم نشر قرارات الأمم المتحدة فى بلاد الدول الأعضاء فى المنظمة.

وهكذا يتبين الدور المهم الذى قام به محمود عزمى، لخدمة

الصحافة والدفاع عن حريتها وكرامتها وكرامة العاملين بها على المستوى الدولى، كما دافع عنها على المستوى الداخلى المصرى.

ثالثًا: دور محمود عزمى فى معهد التحرير والترجمة والصحافة:

آمن محمود عزمى بأن الصحفى المثقف هو القادر على القيام بأعباء مهنة الصحافة والقادر على أداء مهمتها الاجتماعية، ولذا طالب بضرورة وضع قيود على العاملين فى مهنة الصحافة تنحصر فى الشهادة العالية والكفاءة العملية، كما نادى منذ أوائل العشرينيات بضرورة إنشاء معهد يتولى إعداد الصحفيين على أن تتكفل الجامعة المصرية بتنظيم ذلك المعهد.

فقد اعتبر محمود عزمى أن «للموهبة الصحفية فضلها العظيم بلا مراء ولكن صقلها بالإعداد العلمى المنظم ينتج بلا ريب أقرب الصحفيين إلى الكمال، وأقدرهم على القيام بأعباء المهنة على أنه لم يقل أحد إن الغريزة الصحفية متوافرة لدى كل العاملين فى الصحف، بل إن كثرة الصحفيين تنقصهم تلك الغريزة التى لا يحظى بها إلا الأقلون فيجب أن تعوض عليهم عن طريق الإعداد المنظم فى معاهد الصحافة».

وهكذا لم يكتف محمود عزمى بأن يكون الصحفى حاصلا على شهادة عالية، بل نادى بأن يكون الصحفى بالإضافة إلى ذلك دارسًا

للصحافة بشكل علمى منتظم فى معاهد خاصة للصحافة.

ولهذا تمنى محمود عزمى أن تصبح (إجازة) معاهد الصحافة شرطًا أساسيًا لابد للصحفى من الحصول عليها حتى يمارس العمل الصحفى «كما انتهى الأمر إلى اشتراط توافر إجازة الحقوق فى المحامين، والطب فى الأطباء والتعليم فى المعلمين، وبعد أن مرت المحاماة والطب والتعليم بأدوار مخضرمة، كالتى تمر بها الصحافة هذه الأيام».

وهكذا اعتبر محمود عزمى الموهبة الصحفية وحدها، غير كافية لكى تنتج صحفيًا كفئًا للعمل الصحفى، ونادى بضرورة صقل هذه الموهبة بالدراسات الصحفية.

ولم يكتف محمود عزمى بالأمنيات فى إيجاد معهد عال للصحافة، بل ساهم فى أن تخرج هذه الفكرة إلى النور أولا، ثم بتقديمه علمه وخبراته الصحفية إلى طلبة المعهد بعد إنشائه ثانيًا.

إنشاء معهد التحرير والترجمة والصحافة:

بدأ التفكير الجدى فى إنشاء معهد عال للصحافة يلحق بكلية الآداب فى أثناء وزارة على ماهر عام ١٩٣٦ التى شغل فيها محمود عزمى منصب مستشار صحفى للوزارة وفى هذه الأثناء بدأ النقاش حول الشروط الواجب توافرها فيمن يلتحقون بالمعهد، فنادى البعض بأن يلتحق به حملة الشهادة الثانوية فى حين طالب البعض الآخر بإطلاق الالتحاق بالمعهد من كل قيد ورأى آخرون بأن يقصر هذا

المعهد على خريجى كلية الآداب الذين لهم من ثقافتهم ما يؤهلهم لهذا.

وباستقالة وزارة على ماهر فى مايو ١٩٣٦ تتوقف فكرة إنشاء المعهد إلى أوائل عام ١٩٣٩ عندما قرر مجلس كلية الآداب تأليف لجنة - لتقديم اقتراحات عن مشروع مدرسة الترجمة والتحرير - من شفيق غربال ومصطفى عامر وأحمد أمين ومستر فرنس وهنرى بير.

وفى ١١ أبريل ١٩٣٩، تقدم شفيق غربال بمشروع إنشاء معهد التحرير والترجمة والصحافة، يكون الغرض منه التخصص فى التحرير باللغة العربية وإحدى اللغتين الإنجليزية أو الفرنسية، وفى الترجمة من اللغة العربية للغتين الإنجليزية أو الفرنسية وبالعكس فى أعمال الصحافة. واشترط المشروع لقبول الطالب بالمعهد أن يكون حاصلا على درجة الليسانس من كلية الآداب وتكون مدة الدراسة بالمعهد سنتين.

وعرض هذا المشروع على مجلس الجامعة فى ١٧ نوفمبر ١٩٣٩ فوافق عليه بعد تعديل شرط حصول الطالب على ليسانس الآداب حيث اكتفى بأن يحصل الطالب على درجة جامعية واجتيازه امتحان المسابقة الذى يضع نظامه مجلس الجامعة بناء على اقتراح مجلس كلية الآداب. وانتهى الأمر باستصدار على ماهر المرسوم الملكى بإنشاء معهد التحرير والصحافة والترجمة فى نوفمبر ١٩٣٩.

وتضمن المرسوم ١٩ مادة تبين الغرض من إنشاء المعهد،

والإشراف عليه وإدارته، واشترط المرسوم لقبول الطالب أن يكون حاصلا على درجة الليسانس أو درجة البكالوريوس من إحدى كليات الجامعة وأن يؤدى بنجاح امتحانًا لدخول المعهد ومدة الدراسة بالمعهد سنتان.

دور محمود عزمى فى إنشاء معهد الصحافة:

نلاحظ أن بداية التفكير الجدى فى إنشاء معهد الصحافة برزت فى عهد وزارة على ماهر عام ١٩٣٦، وصدر مرسوم إنشاء المعهد بالفعل فى عهد وزارة على ماهر عام ١٩٣٩. ولا نعتقد بالقطع أن هذا كان من قبيل المصادفة، فلو علمنا علاقة محمود عزمى القوية بعلى ماهر، وتولى عزمى منصبين رسميين فى كلتا الوزارتين، وإيمان محمود عزمى العميق بضرورة إنشاء معهد عال للصحافة، لتأكدنا من دور محمود عزمى، سواء فى بث الفكرة أو فى متابعتها والإقناع بها إلى أن صدر مرسوم إنشاء المعهد.

نظام الدراسة فى معهد التحرير والترجمة والصحافة:

بدأت الدراسة بالمعهد فى فبراير ١٩٤٠، وانتدب محمود عزمى وكان مديرًا لقسم التشريع والمباحث فى مصلحة الضرائب فى ذلك الوقت للتدريس فى المعهد.

وتولى تدريس قواعد الصحافة ومبادئها والتمرينات العملية فى الصحافة.

هيئة التدريس بالمعهد :

وتكونت هيئة التدريس من: محمود عزمى، وطه حسين، وأحمد الشايب، ومحمد مندور، ومصطفى مشرفة، وعزت عبد الكريم، وأمين روفائيل، وثلاثة من الأساتذة الأجانب لتدريس اللغات.

مواد الدراسة :

السنة الأولى :

الصحافة : خمسة دروس فى الأسبوع.

النظم المصرية : ثلاثة دروس فى الأسبوع.

اللغة العربية : درسان فى الأسبوع.

اللغة الأوربية : درسان فى الأسبوع.

تمرينات عملية فى التحرير والترجمة وأعمال الصحافة.

السنة الثانية :

الصحافة : أربعة دروس فى الأسبوع.

التاريخ المعاصر : درسان فى الأسبوع.

الجغرافيا السياسية : درسان فى الأسبوع.

اللغة العربية وآدابها : درسان فى الأسبوع.

اللغة الإنجلزية وآدابها، أو اللغة الفرنسية وآدابها : درسان فى الأسبوع.

تمرينات عملية فى التحرير والترجمة والصحافة.

اقتراحات عزمى لتطوير الدراسة فى المعهد:

فى يونيه ١٩٤٠ يتقدم محمود عزمى بتقرير إلى عميد كلية الأداب يتعلق بنظام المعهد ومواد الدراسة، متضمناً اقتراحات يرى عزمى أن من شأنها دعم الهدف من الدراسة بالمعهد.

أولا: أن تكون الدراسة دراسة بحوث أكثر من دراسة تلقين، حيث إن الصحافة الحديثة ولا سيما العلمية يجب أن تستند إلى دعائم متينة من الثقافة العامة، وإلى أنواع الثقافات الخاصة المتصلة موضوعاتها بالنشاط البشرى الذى من رسالة الصحفى أن يوجهه فى بيئته.

ثانيًا: ضرورة أن يتذرع طلاب الصحافة بدروع التحرير بالعربية وبالإنجليزية أو الفرنسية والترجمة، كما يجب أن يتذرعوا بدروع النقد الأدبى فى هذه اللغات جميعا على أن يكون التحرير وتكون الترجمة متصلين كليهما بموضوع من مواضيع الثقافة العالية والإصلاحات العامة التى قد يدعوهم العمل الذى يعدون أنفسهم له إلى معالجتها.

ثالثًا: أن يستند التدريس فى معهد الصحافة إلى محاضرات وبحوث فى الأنظمة العامة، وفى المذاهب الاقتصادية والاجتماعية وفى التاريخ السياسى وتاريخ المعاهدات وفى الدستور. بالإضافة إلى محاضرات تتصل بجرائم النشر.

رابعًا : ضرورة إفساح مجال الاطلاع والبحث الشخصى لطلاب المعهد - وهم يعملون جميعًا فى مصالح حكومية أو غير حكومية قبل الظهر - بألا يتضمن جدول حصصهم شيئًا من الدروس أو المحاضرات يوم الاثنين أو الثلاثاء مثلا، وبأن تفتح لهم أبواب المكتبة بعد ظهر هذا اليوم وبعد ظهر الجمعة يقبلان فيها متفرغين على البحث والاطلاع.

وفى بداية العام الدراسى التالى ١٩٤١ - ١٩٤٢، يقترح محمود عزمى إدخال تعديلات على مواد الدراسة، واضعًا جدول دراسة على النحو الآتى :

المادة	السنة الأولى	السنة الثانية
تاريخ صحافة	٢	١
مبادئ الصحافة العامة	٢	-
الصحافة الفنية	-	٢
النظم المصرية السياسية والإدارية	٢	-
النظم المصرية والاقتصادية	١	١
جرائم النشر	١	-
التاريخ المعاصر	-	٢
الجغرافيا السياسية	-	١
المذاهب الاجتماعية الحديثة		١

المادة	السنة الأولى	السنة الثانية
اللغة العربية	٢	٢
اللغة الأوربية	٢	٢

وهكذا يقترح محمود عزمى أن تكون الدراسة فى المعهد شاملة كل الثقافات بحيث تؤدى إلى خلق الصحفى المثقف ثقافة عامة تشمل جميع التخصصات والفروع.

ونلاحظ أن المواد التى يقترحها محمود عزمى لتكون نواة لثقافة دارس الصحافة هى تقريبًا نفس المواد التى تدرس الآن فى كلية الإعلام.

ويجمع تلامذة محمود عزمى فى معهد الصحافة الذين أصبحوا الآن من كبار رجال الإعلام والصحافة على أن محمود عزمى قد أعطى لمعهد الصحافة الكثير من وقته وجهده وعلمه، حتى ارتبط معهد الصحافة باسم عزمى. ويؤكد هؤلاء، أيضًا على أن محمود عزمى لم يغفل أهمية العلاقة الجامعية بين الطالب والأستاذ سواء داخل المدرجات أو خارجها، فكان حريصًا على الالتقاء بتلاميذه خارج المدرج سواء فى منزله أو فى المنتديات العامة يقدم لهم تجاربه ويحدثهم حديث الأب لأبنائه.

محاضرات محمود عزمى فى مبادئ الصحافة العامة:

تولى محمود عزمى تدريس مادة مبادئ الصحافة العامة لطلبة

السنة الأولى من خلال محاضرتين فى الأسبوع. وقد قام أحد تلاميذه وهو الأستاذ محمد فائق الجوهرى بجمع هذه المحاضرات فى كتاب نشر تحت اسم «ملخص مبادئ الصحافة العامة».

وسنحاول من خلال هذا الكتاب أن نلق الضوء على أهم الموضوعات التى تناولها عزمى فى مادة الصحافة.

مصطلحات الصحافة:

عرف محمود عزمى الصحافة بأنها «مظهر من مظاهر التطور فى رصد الحوادث ونشرها».

واهتم بالرجوع إلى الأصول اللغوية لكلمة (الصحافة) و(الصحفى) مبينًا تطور استخدام لفظ صحيفة للتعبير عن الدورية، واطراد استعمال لفظ (الصحافة) للتعبير عن صناعة الصحف وللتعبير عن مجموعة الصحف إلى معنى الفن الصحفى ذاته.

كما بين التطور اللغوى للتعبير عن العاملين فى الصحف الذى استقر إلى استعمال لفظ (صحفى). ويطالب محمود عزمى أن يستأنف الاجتهاد اللغوى فى سبيل الوصول إلى أسماء، تطلق على عديد من المشتركين فى صميم العملية الصحفية ولا تنطبق عليهم الشروط التى وضعتها نقابة الصحفيين على من يطلق عليهم لقب (صحفى). ويحصر محمود عزمى هؤلاء فى ثلاث فئات هم ملاك الصحيفة والصانعون التابعون للصحيفة والمساهمون غير الملحقين بهيئة الصحفية.

ويقترح التعبير عن مالك الصحيفة بلفظ (صاحف) وعن العامل فى صناعة الصحيفة فنيًا عن طريق التحرير بلفظ (صحاف) وعن المساهم فى تحرير الصحيفة بلفظ (مصاحف).

منهج مبادئ الصحافة:

بعد أن بين محمود عزمى الأصول اللغوية لكلمة الصحافة والصحفى حدد المنهج الذى سيقوم بإلقائه على تلاميذه وينحصر فى:

أولا: دراسة (الصحف) من حيث وجودها القانونى والنظريات التى تشرف على إصدارها، ومن حيث كيانها العقلى، ومن حيث أنواعها بالرجوع إلى طبيعتها وإلى مكانها وإلى موضوعاتها ومواعيدها، ومن حيث معاوناتها وكالات الأنباء والمقالات والقصاصات والأسانيد ودور النشر والتوزيع.

ثانيًا: دراسة (الصحفى) أولا: من حيث تحديد شخصيته والعمل الذى يزاوله فى الصحيفة، وثانيًا من حيث تكوينه وإعداده، وثالثًا من حيث اتصاله بحرفته انتظامًا فى نقابات واستمتاعًا بامتيازات.

ثالثًا: دراسة (الصحافة) أولا: من حيث ناموسها وما يفرضه من سر للمهنة وواجبات الزمالة وما يقتضى مراعاته من حق الرد وحقوق للتأليف، وثانيًا: من حيث علاقتها بنظام الدولة والجماعة عن طريق ما تحمل لها النصوص الدستورية وقوانين المطبوعات من أحكام

وما يكون لقوانين العقوبات قبلها من اتجاهات وثالثا: من حيث ما تخصها به الحكومة من أدوات اتصال كإدارات المطبوعات ومصالح الصحافة ودواوين الرقابة.

الصحافة وظيفة اجتماعية:

حدد محمود عزمى وظيفة الصحافة الاجتماعية فى توجيه الرأى العام عن طريق نشر المعلومات معممة ومناسبة لمشاعر القراء.

ويشرح محمود عزمى موضوع النشر الذى يوجه الرأى العام عن طريقه، إما أن يكون موضوع معلومات وأخبار أو موضوع أفكار وآراء.

ويبين محمود عزمى للدارسين ضرورة أن تؤخذ المعلومات على أوسع معانيها. وأعمها وأفسحها فيقول: «فمن مجرد سرد الحوادث اليومية التى تعطى القارئ صورة لما يجرى فى الحياة التى يحياها، إلى البرقيات التى تصف ما يجرى خارج بلاده، من وقائع تفتح ذهنه إلى المقارنة بين الحياة التى يحياها والحيوات التى يحياها غيره من الناس، وطرق المواصلات إلى أسعار الحاصلات وأخبار الأسواق التجارية وأنباء المنشآت الصناعية وذلك إلى المعلومات الإدارية والسياسية بل التشريعية وحتى القضائية»

كذلك يبين محمود عزمى ضرورة أن تؤخذ الأفكار والآراء أيضا بأوسع معانيها هى الأخرى، بحيث تتصل بأية ناحية من نواحى

النشاط الثقافى فى اللغة والدين والفقه والطب والصحة والعلم والسياسة والاقتصاد والفن والذوق والخلق والتربية والتعليم وجوانب الإصلاح فى ذلك كله.

ثم يشرح محمود عزمى الفرق بين الصحيفة والكتاب العلمى المتخصص حيث أن الثانى يتجه إلى فئة محدودة من المثقفين فى حين أن الصحف تتجه على الغالب إلى جمهرة من القارئين وعامة المتعلمين، لهذا يوجه محمود عزمى نظر الدارسين إلى وجوب أن تكون الأفكار التى تقوم الصحف بوظيفتها الاجتماعية عن طريق نشرها (معممة) أى مقدمة بأسلوب يستطيع أن يستسيغه الرأى العام القارئ.

كما ينبه إلى وجوب أن تقصد الصحف إلى مشاعر القراء أكثر من أن تقصد إلى عقولهم «حيث أن قراء الصحيفة على عجل يحسون أكثر مما يعون»

الصحافة هل هى علم أم فن؟:

يطرح محمود عزمى هذا السؤال على الدارسين، ويجيب بأنه يرى أن الصحافة مازالت فنًا من الفنون ولم تبلغ بعد مرتبة العلوم، ويعلل لهذا الرأى قائلا: «إذا كانت الصحافة تعنى بناحية من نواحى النشاط البشرى، وإذا كان لكيانها نوع من القواعد المقررة تستند إليه وكان من المحتم أن تستند دراستها إلى معلومات معاونة من

التاريخ وعلوم الاجتماع والنفس والفقه، فإن قواعدها لم تبلغ بعد درجة الثبات والعموم التى تتميز بها قوانين العلوم، وللشخصية بخاصة أثر واضح فى مظاهرها جميعًا».

التكييف القانونى للصحيفة :

حدد محمود عزمى فروقًا أربعة تفصل بين صناعة الصحافة وباقى الصناعات الأخرى وتنحصر فى :

١ - العنصر المعنوى.

٢ - مهمتها فى تكييف الأجيال، لا الحالية وحدها، بل المقبلة أيضًا.

٣ - خطورة إساءة استعمال حرية الصحافة فى تسليم العقول.

٤ - الحيطة من اعتبار إصدار الصحف فى أول الأمر اختصاصًا من اختصاصات الدولة.

نظريات إصدار الصحف :

حصر محمود عزمى هذه النظريات فى أربع هى :

١ - الإصدار بترخيص.

٢ - الإصدار بإخطار معلق على شىء.

٣ - الإصدار بمجرد الإخطار.

٤ - الإصدار المطلق من كل قيد.

واعتبر محمود عزمى أن الإصدار بترخيص أشد نظريات الإصدار وأقساها، لأنها تستند إلى فكرة التنازل عن اختصاص من اختصاصات الدولة (إذاعة الأنباء) فلا يمكن النزول عنه إلى فرد أو جماعة إلا أن ترخيص الحكومة بهذا النزول فى صك رسمى خاص وإلى اعتبار التحكم فى تقدير ظروف منح التنازل ومنعه، وظروف استمراره وسحبه.

ويبين محمود عزمى أن الأخذ بنظرية دون الأخرى إنما يتصل اتصالا محكما بفكرة حرية الصحافة فحيث تكون حرية الصحافة مبدأ تعتنقه الحكومات ويؤمن به الأفراد، فلا يمكن أن تكون إلا وسيلة الإصدار المطلق، أو على الأقل وسيلة مجرد الإخطار، وحيث يكون تقييد الصحافة مبدأ من مبادئ الجماعة تكون النظرية السائدة هى نظرية الترخيص السابق تتاخمها نظرية الإخطار المعلق على شىء.

عناصر كيان الصحيفة:

حدد محمود عزمى عناصر كيان الصحيفة فى الآتى:

أولا: العنصر المادى ويشمل مستلزمات الصحافة كصناعة ضخمة تحتاج إلى ملايين من الجنيهات.

ثانيًا: العنصر الفنى ويستند إلى فكرة (الجذب) بحيث يكون كل شىء فى الصحيفة جذابًا للقارئ ومالكًا عليه مشاعره.

وبين محمود عزمى أن الجذب فى الأوضاع يقتضى التنسيق فى الصفحات ويقتضى الإبراز للحوادث الهامة.

واعتبر التبويب شرطًا أساسيا من شروط جاذبية الأوضاع، إذ يجب ألا يتعب القارئ فى البحث عن مكان الموضوع الذى يريد أن يقرأه أو الأخبار التى يريد أن يقف عليها.

أما الجذب فى المواد، فيستند كما ذكر عزمى إلى حسن اختيار الموضوعات التى تعالج فى الصحيفة على أن تكون موضوعات هينة يعنى بها أغلب القراء لا من الموضوعات الخاصة التى لا يقبل عليها إلا عدد محدود من المثقفين.

ثالثًا : العنصر النفسى وهو العنصر المستند إلى إحساس الصحفى برسالته السامية رسالة تهذيب الرأى العام والدعوة إلى الصالح العام.

ويتحدث محمود عزمى عن ضرورة توازن عناصر كيان الصحيفة، أى التوفيق بين الضرورات المادية والاعتبارات المعنوية. وبين أن الصحافة فى مصر يسودها مبدأ عدم التعادل على العموم بين العناصر المكونة للصحيفة ولهذا فهو يقرر «أن لا صحافة فى مصر بالمعنى العلمى الصحيح وهو المعنى الذى تتوافر معه تلك العناصر الثلاثة المكونة للصحيفة من ناحية، والذى يتوافر معه من ناحية أخرى التوفيق بين تلك العناصر جميعًا.

أنواع الصحف :

عرف محمود عزمى أنواع الصحف من حيث دوري
صحف يومية، وصحف أسبوعية، وصحف شهرية.

وقد بين محمود عزمى انعدام العنصر السياسى الج
الصحف الأسبوعية المصرية، بالإضافة إلى عدم وجود شهر
اختصاصها على السياسة والاقتصاد، والعلم والأدب والفن،
والفلسفة والتاريخ، والصناعة والمعلومات العامة، وتعاون بي
نشر الثقافة وتعميم المعرفة وتعهد ملكة القراءة والإقبال على الب
الجدية.

الصحفى :

تحت هذا العنوان يشرح محمود عزمى من هو الصحفى؟ مبين
عدم وجود تعريف محدد وإن كانت كل التعريفات تحوم فى عمومها حول فكرة الكتابة والتحرير فى الصحف. ويعلل محمود عزمى سبب هذه الصعوبة فى تحديد من هو الصحفى فى عدم اشتراط إجازة علمية معينة للعاملين فى الصحافة.

ويشرح محمود عزمى المحاولات التى جرت لتعريف الصحفى، أو لتحديد فئات الصحفيين من خلال قوانين نقابات الصحافة التى وجدت منذ العشرينيات، وكانت كلها ترمى إلى تحديد أنواع المشتغلين

يعتبرون صحفيين، ولكن هذا التحديد كان يتفاوت
روف التى تنشأ فيها النقابة ويتفاوت الظروف التى
نتخابات لأجل مجالس النقابة.
محمود عزمى بعد ذلك لقانون نقابة الصحفيين الذى
بريل ١٩٤١، وقصر التعبير بالصحفى على أعضاء النقابة
ن ناحية، وحصر اختيار أعضاء النقابة فى فئات معينة من
صل أعمالهم بإخراج الصحيفة من ناحية ثانية وفرض توافر
خاصة فيمن يختار من هذه الفئات المعينة.

ويبين محمود عزمى أن تنظيم الشروط التى نص عليها قانون
بة، والتى يجب أن تتوافر فيمن يستطيع حمل لقب صحفى يرجع
ثلاثة اعتبارات رئيسية وهى الجنسية والشخصية والنشاط الصحفى.
أما الجنسية: فقد اشترط أن تكون هى المصرية من حيث
لقاعدة.

اعتبار الشخصية: فقد اشترط لها:

١ - توافر سن الرشد المصرى وهو سن ٢١.

ويرى محمود عزمى أنه كان ينبغى اشتراط عدم قلة السن عن ٢٣ سنة مادام شرط المران يحتم سابقة العمل الصحفى مدة سنتين على الأقل، وذلك حتى لا يلتحق بعمل صحفى - وإن لم يحمل لقب صحفى - إلا من كان بالغًا سن الرشد على الأقل.

٢ - التمتع بالأهلية المدنية.

٣ - حيازة ما يؤهل للاحترام الواجب للمهنة.

وقد اعتبر محمود عزمى هذا الشرط نصًّا عامًّا لا يمكن تحديده بمقاييس ثابتة أو معايير معلومة، خاصة وأن النص على اشتراط عدم الحكم فى جريمة مخلة بالشرف، قد رفع مشروع قانون النقابة بقصد التيسير على حرية الكتابة.

ورأى محمود عزمى فى رفع هذا النص إسرافا لا يقلل من خطورته اعتبار الحرية التى ترد مطلقة للكتابة والصحافة ومن الخير، ومن المصلحة العامة ألا تكون هذه الحرية فى يد من يخلون بشرفهم، وهم المؤتمنون على شرف الناس وعقولهم وعلى توجيهها فى سبيل الشىء العام.

٤ - شرط التثقيف: حيث قرر القانون إما الحصول على شهادة دراسية عالية من مصر أو من الخارج، أو التسلح بدرجة الثقافة التى تقتضيها مهنة الصحفى.

٥ - المران بالاشتغال بالصحافة مدة سنتين.

اعتبار النشاط الصحفى:

يشرح محمود عزمى هذا الاعتبار الثالث الذى حدده القانون بالاستناد إلى الأصول الآتية:

١ - أصل الامتلاك بأن يكون طالب القيد فى الجدول مالكًا لصحيفة.

٢ - أصل الإدارة بأن يكون مديرًا لصحيفة أو وكالة استعلامات.

٣ - أصل التحرير بأن يكون رئيسًا للتحرير أو محررًا فى صحيفة.

٤ - أصل تخصيص الصحف بالجرائد والمجلات ذات الموضوعات العامة من ناحية، وذات الدورية الشهرية على الأكثر من ناحية ثانية.

٥ - أصل الاحتراف بأن تكون مهنة طالب القيد فى الصحافة.

٦ - أصل عدم احتراف التجارة فيما ليست له صلة بمهنة الصحافة.

النقابات الصحفية:

يعرض محمود عزمى للدارسين عليه تطور الحركة النقابية الصحفية، فى كل من فرنسا وانجلترا وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية. كما يعرض المحاولات المصرية لقيام نقابة للصحفيين، فبين أن هذه الفكرة قامت فى أول الأمر على مبدأ حصر أعضاء النقابة فى أصحاب الصحف من ناحية وعلى مبدأ مطالبة الحكومة بالامتيازات الصحفية من ناحية ثانية دون التفكير فى راحة المحررين وإقرار القواعد التى تستند عليها العلاقات بينهم وبين أصحاب الصحف.

ويشرح محمود عزمى أن أولى المحاولات لإنشاء نقابة والتى ترجع إلى أواخر القرن الماضى، فإنها والتى تلتها حتى سنة ١٩٢٠ كانت

تتميز بطابعها الأجنبي، إذ كانت الصحافة الأجنبية هي التي تدعو إليها عادة وبطابع التكتل للتضامن فى سبيل مناهضة الحكومة المصرية فى كنف الامتيازات الأجنبية.

وبين محمود عزمي أن النقابة المصرية التي وجدت فى سنة ١٩٢٠، واستمرت متراوحة بين القيام والقعود إلى سنة ١٩٣٦ كان يغلب فيها اعتبار أصحاب الصحف واعتبار امتيازات الصحف، وكان يتضاءل فيها اعتبار أرباب الأجور من العاملين فى الصحف، واعتبار اطمئنانهم فى عملهم وحمايتهم من استبداد أصحاب الصحف بهم.

ثم يتعرض محمود عزمي بعد ذلك لقانون جمعية الصحافة الذى وضعه وصدر به مرسوم عام ١٩٣٦ «والذى ظل بدون تنفيذ من الحكومات التى تعاقبت منذ ذلك التاريخ وكان عليها لتنفيذه أن تعين أعضاء مجلس الإدارة الأول، فلم تقدم واحدة منها على تعيينهم وظلت أمور الصحافة على شيء من الفوضى إلى أن صدر قانون نقابة الصحفيين عام ١٩٤١».

موقف محمود عزمي من قانون نقابة الصحفيين:

أكد محمود عزمي استناد هذا القانون إلى مبادئ تتفق فى كثير من نواحيها مع المبادئ التى تقوم عليها أحدث النقابات الصحفية فى البلاد الديمقراطية وذلك لعدة أسباب:

فهو ينشئ نقابة (للصحفيين) مختلفًا فى هذا عن جميع المحاولات

السابقة لإنشاء النقابة التى كانت مجمعة على تسمية النقابة نقابة (الصحافة)، فانتقل من اعتبار الصحيفة وملكيتها وامتيازها إلى اعتبار العاملين فى الصحيفة وحقوقهم وواجباتهم. وهو يجمع فى النقابة بين ملاك الصحيفة والمحررين، فلا يجعل منهما طائفتين متحاربتين، بل يعمل على تضامن عناصر الطائفة الصحفية كلها فى سبيل كرامة المهنة وتقرير قواعد مزاولتها مزاولة تدعو الى الاحتراف. وهو يسهر على بيان العادات المرعية فى المهنة الصحفية بدل أن يترك أمرها فوضى من غير ضابط ولا وازع، فيعمل بهذا على تدعيم الصحافة بما يثبت تقاليدها ويؤكد نظامها. وهو يقرر وضع القواعد الخاصة بعقد استخدام الصحفيين والتعويضات التى تستحق لهم عند فسخه فيحميهم من استبداد أصحاب الصحف.

وهو ينظم قواعد تسوية المنازعات التى قد تنشأ بين أعضاء النقابة أو بينهم وبين غيرهم، فيضمن لهم ولها ما ينبغى من هيبة ووقار بفض الخلافات فى دائرة مغلقة بدل عرضها على الملأ.

وهو ينشئ صندوق ادخار يق أعضاء النقابة شرور العوز والحاجة عند الكبر والعجز عن العمل. وهو يقرر حق الانتفاع بالمزايا التى تسهل مزاولة المهنة.

الحكومات والصحافة:

بين محمود عزمى وجود علاقة بين الحكومة والصحافة، تتعلق

بمدى ما تتمتع به الصحافة من كيان وحرية. فإذا كان نظام البلد نظام طغيان واستبداد، فإن الصحافة تخضع فيه للرقابة، وكذلك فإن العقوبات الجنائية التى يتضمنها التشريع العام لبلاد الطغيان والاستبداد، تتجلى فيها قسوة معاملة الصحفيين ومعاقبتهم لا على جريمة النشر وحدها، بل على جريمة الرأى والتفكير أيضًا.

أما البلاد الديمقراطية فتقرر حرية مبدأ من المبادئ الدستورية الأصلية، وتكون العقوبات المنصوص عليها فى القوانين العامة خفيفة لا تتعلق بالرأى بل بالنشر وحده.

ويصنف محمود عزمى الرقابة بثلاثة أنواع :

الرقابة المسيرة :

وهى التى تعتبر الصحافة فى عهد إدارة من إدارات الحكومة يقوم بتحرير الصحف وإصدارها، موظفون فيها يتلقون الأوامر من رؤسائهم ويخضعون لتوجيهاتهم.

الرقابة المعاقبة :

وهى التى لا تتدخل مقدما فى سياسة الجريدة وكتابة المحررين، فإذا تضمنت الجريدة خبرًا من الأخبار، أو مقالا من المقالات، أو إشارة من الإشارات التى لا ترضى عنها الحكومة، تدخلت الرقابة لتنزل بالصحيفة عقوبة المصادرة والتعطيل والإغلاق.

الرقابة الواقية :

هى التى تقف وسطًا بين الميسرة والمعاقبة حيث تترك للكاتب حرية اختيار الموضوعات التى يعالجها والأنباء التى يذيعها، لكن تشترط عليه عرض كتاباته قبل طبعها حتى تحذف منه ما تراه معارضًا لوجهة نظرها.

ويبين محمود عزمى أن النظام فى مصر قد استقر على نوع الرقابة الواقية، لا يسمح به إلا وقتيًا زمن الحرب أو فى أثناء قيام الأحكام العرفية إذ أن حرية الصحافة حكم من أحكام الدستور المصرى الذى تنص مادته (١٥٥) على عدم جواز تعطيل واحد منها إلا إذا كان ذلك وقتيًا فى زمن الحرب أو فى أثناء قيام الأحكام العرفية.

كانت هذه أهم الموضوعات التى تحدث فيها محمود عزمى فى أثناء تدريسه لمادة مبادئ الصحافة على طلبة السنة الأولى بالمعهد. ويورد لنا كتاب «ملخص مبادئ الصحافة العامة» ملاحظة مهمة وهى أن محمود عزمى لم يكن يكتفى بالشرح النظرى للمادة فقط، بل يحاول أن يربط بين ما يقوله وما هو واقع فى الصحافة المصرية بالفعل، مقارنًا وناقدًا.

ويصف دكتور خليل صابات علاقة محمود عزمى بمعهد الصحافة قائلا : «كان محمود عزمى يريد لمعهده أن يكون نموذجًا للمعاهد التى من نوعه.. كان يريد أن يرسل خريجيه المتفوقين إلى أوربا

وأمريكا للحصول على درجة الدكتوراه فى التخصصات الإعلامية المختلفة.. كان يريد أن يكون له مبناه الخاص يتفق ونوعية الدراسات الصحفية التى تحتاج إلى تطبيقات عملية إلى جانب المحاضرات النظرية. كان يريد لمعهده أساتذة من طراز خاص.. كان - باختصار - يريد أن ترفع عنه وصاية كلية الآداب، لا بل أى وصاية أخرى وكان من الطبيعى أن يصطدم محمود عزمى مع «كهنة» الجامعة آنذاك وأن يترك المعهد فى سنة ١٩٤٦.

رابعا: جمعية الصحافة:

بدأت فكرة إنشاء نقابة الصحافة منذ بداية هذا القرن عندما فكر الشيخ على يوسف فى إنشاء أول نقابة تضم العاملين فى الصحافة، وظهرت هذه الدعوة على صفحات «المؤيد»، ثم تحمست لها الصحف الوطنية الأخرى.

ونجح الصحفيون المصريون فى العشرينات فى إنشاء تجارب نقابية متعددة تحت أسماء: نقابة الصحافة و نقابة الصحفيين و رابطة المحررين و رابطة أصحاب الصحف. - وكان مقر هذه التشكيلات على الأغلب الدور العلوى لمقهى بار اللواء الذى كان منتديًا تقليديًا لغالبية الصحفيين.. وكان كل تشكيل من هذه التشكيلات يخلف الآخر بعد عام، أقل قليلا أو أكثر قليلا.

وساعد على ذلك أن مهنة الصحافة ذاتها كانت فى ذلك الوقت

من المهن التى لا تحوز التقدير الكامل من المجتمع، فكان الجميع ينظرون إلى الصحفى كإنسان طفيلى يعيش على أخبار الآخرين، وكان الصحفيون يعانون من أزمة الحرية وأزمة لقمة العيش فى آن واحد. ويصف سلامة موسى الأوضاع السيئة للصحفيين قائلا: «كان الصحفيون المصريون نجد أحدهم قابعًا فى غرفة أو شقة، وقد تأخر عليه إيجارها لخمسة أو ستة أشهر، أو كنت تجده يصدر الصحيفة وهو لا يملك المطبعة، أو وهو يملك المطبعة ولا يملك صحيفة».

وقد وصل الأمر إلى اعتبار الصحفى صاحب مهنة مزرية، فلما تزوج الشيخ على يوسف صاحب (المؤيد)، ابنة الشيخ السادات أقام الأخير دعوى يطالب بإلغاء عقد الزواج بدعوى أن الزوج صحفى وأن الصحافة محتقرة. وحكمت المحكمة الشرعية بإلغاء الزواج على هذا الأساس، أى على أساس أن الصحافة مهنة غير شريفة، ومحترفها لا يليق بمصاهرة أسرة (شريفة).

واستمر هذا الوضع إلى أن قامت ثورة ١٩١٩ إذ أن الثورة بمفهومها الشعبى دفعت عددًا كبيرًا من الشباب إلى التعبير عن آرائهم بواسطة الصحف، وبدأت الصحافة تشهد لأول مرة محررين من حملة الليسانس.

فلما أنشئت جريدة (السياسة) عام ١٩٢٢، اشترطت أن يكون المندوبون فيها وليس المحررون فقط من حملة الشهادات العليا، وقد فشلت هذه التجربة فى البداية ثم نجحت فيما بعد. ذلك أن الذين

اقبلوا على هذه الوظيفة أول الأمر كان معظمهم من حملة ليسانس الحقوق. وعند ممارسة العمل لوحظ أن حامل ليسانس الحقوق يجد غضاضة فى أن يقف موقف المندوب الصحفى الذى يستقى الأخبار من (زميله) القاضى أو وكيل النيابة أو غيره من أصحاب الوظائف الأخرى، وهى الحساسية التى قضى عليها الزمن بظهور طبقة من المندوبين الصحفيين استطاعوا أن يكسبوا احترام كبار المسئولين كما جربت (السياسة) الاستعانة بحملة المؤهلات الأخرى غير ليسانس الحقوق.

واهتمت (السياسة) أيضًا بمستوى ومظهر محرريها، فعهدت إلى إعطائهم مرتبات مجزية وتقديم الملابس المناسبة للظهور بالمظهر اللائق فى المناسبات.

وبدأت الصحف الأخرى تسعى سعى السياسة فى الاهتمام بمحرريها فزودت مرتباتهم وتحسن وضع الصحفيين المادى والاجتماعى نسبيًا.

ولم تحاول نقابات الصحافة التى تكونت فى الفترة من عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٣٦ - والتى كانت تضم فى معظمها فئة أصحاب الصحف - الاهتمام بأحوال العاملين فيها بسن القوانين والتشريعات التى تكفل طمأنينة الصحفيين فى عملهم وحمايتهم من استبداد أصحاب الصحف بهم.

وقد وضع محمود عزمى هذه الاعتبارات موضع اهتمامه، وهو

يفكر فى إنشاء جمعية منظمة للصحافة بعد أن آمن من تجارب إنشاء النقابات السابقة أن النقابة لايمكن أن تقوم وأن تدوم إلا بقانون ينظم كيانها تنظيماً رسميًا معترفًا بـه، كما آمـن بضرورة أن تهتم النقـابة فى المقام الأول بأحوال الصـحفيين العـاملين فى الصـحف قبـل الاهتمام بأصحاب الصحف بتوفير الضمانات الكافية لهم، حتى يقوموا بعملهـم دون خشية المستقبل أو الفقر أو الحاجة عنـد اصـطدامهم بـأصحاب الصحف التى يعملون فيها.

وهكذا راعى محمود عزمى كل هذه الاعتبارات فى مشروع جمعية الصحافة الذى وضعه عام ١٩٣٦ وسقطت وزارة على مـاهر قبـل أن تبدأ فى تنفيذه.

وقد هدفت جمعيـة الصـحافة فى المقـام الأول إلى المحـافظة على كرامة الصحافة والصحفيين، فقد حددت المادة (٢) من مرسوم جمعية الصحافة أغراض الجمعية فى الآتى:

١ - العمل على رفع شأن الصحافة والمحافظة على كرامتها.

٢ - السعى للاعتراف بحقـوق الصـحافة والصـحفيين وتحقيـق ما يجب لهم من مزايا.

٣ - تنمية روح الإخاء والتعاون بين الصحفيين وتسوية ما بينهـم من المنازعات المتعلقة بالمهنة.

٤ - تنظيم علاقة الصحافة والصحفيين بالحكومة والجمهور.

كما حددت المادة (٤) الشروط الواجب توافرها فى أعضاء الجمعية فى الآتى :

١ - أن يكون مصريًّا.

٢ - ألا تقل سنه عن ٢١

٣ - ألا يكون قد صدرت عليه أحكام فى جريمة من الجرائم المخلة بالشرف.

٤ - أن يكون حسن السيرة.

٥ - أن يكون حاصلا على شهادة دراسية عالية من مصر أو من الخارج، أو أن يكون على درجة من الثقافة تلائم مهنة الصحافة.

٦ - أن يكون صاحب صحيفة أو ممثلا له أو محترفًا الصحافة.

٧ - أن يزكى طلب انضمامه اثنان من أعضاء الجمعية.

٨ - أن ترفق بطلب انضمامه قيمة رسم الدخول فى الجمعية.

وهكذا يتضح أن محمود عزمى قد عاش يدافع عن حرية الصحافة وكرامتها، فلم يوافق على أى تشريع أو قانون يحد من حرية الصحافة ويمنع الصحفيين من التعبير الحر عن آرائهم وأفكارهم.

واعتبر أن حرية الصحافة لازمة لزومًا حيويًّا حتى تستطيع الصحافة أن تقوم بوظيفتها الاجتماعية فى توجيه الرأى العام وتعليمه وتثقيفه وتهذيبه.

ووصل به إيمانه بدور الصحافة العظيم فى المجتمع إلى المناداة

بدعوة كانت غريبة فى ذلك الوقت، وهى أن الصحافة سلطة رابعة تنضم إلى السلطات الثلاث ولها واجباتها، وعليها تبعات، ولهـا أ نادى بأن تتمتع الصحافة بما تتمتع به السلطات الثلاث من امتيازات حتى تستطيع أن تؤدى واجباتها فى توجيه الرأى العام ومراقبة السلطات الثلاث للصالح العام.

ولم يكتف محمود عزمى بتقديس دور الصحافة فى المجتمع، بل تعدى هذا إلى الصحفى نفسه فاعتبره معلمًا للأمة وموجهًا للصالح العام ومحاميًا عن قضايا الشعب المختلفة.

ولهذا نادى بالمحافظة على كرامة الصحفيين بتوفير الأجور المناسبة لهم والامتيازات التى تسهل عملهم. واعتبر الصحفى المتعلم المثقف هو الصحفى القادر فقط على القيام بتبعات مهنة الصحافة وأداء واجباتها. ولهذا ساهم بدور فعال فى تأكيد دور معهد الصحافة فى خلق هذا الصحفى المثقف، فلم يتوان عن تقديم جهده ووقته وخبراته لدارسى الصحافة.

واستغل محمود عزمى عمله مستشارًا صحفيًا لوزارة على ماهر عام ١٩٣٦، وقدم للصحافة والصحفيين مرسوم قانون جمعية الصحافة الذى يهدف فى المقام الأول إلى الدفاع عن كرامة الصحافة والصحفيين وتوفير الظروف المواتية لهم للقيام بأعمالهم. ويعد هذا القانون اللبنة الأولى التى قام عليها قانون نقابة الصحفيين فى أبريل ١٩٤١.

ولم يكتف محمود عزمى بالدفاع عن
التشريعات والقوانين المكبلة لها. إذ كان
وحبه لها، أكبر من أن يحصره فى هـ
فرصة تمثيله لمصر فى لجنة حر
ليقدم للصحافة على المس
ننسى أن محمود
الذى يضع
الصحفيون وه
من الاتفاقيات التى

ا العربية

ـب عـديد

ى الخـطيرة

ى الصـلة بتـطور

الحكم العثمانى.

بمهـاجمة الفـكرة العـربية،

ـينا وسـائل العمـل لمصـلحتنا

لكن يعوزنا شيوع الاعتقاد بـأن مصر

ـبين عن الأخـذ بمنعتهـا، وتتـواكل فى

ى الاتحـاد العـربى، ويسـميها الآخـرون

ـيار الإسلامى مـوقفًا معـارضًا للفـكرة العـربية

ى أساس تناقضها مع الوحدة الإسـلامية الشـاملة

عربى وغير عربى فيقـول مصـطفى المراغـى شـيخ

لى رأى فى الوحدة العربية لا أشتغل بها لسـت مـن

أنصارها، ولا من أعدائها، غير خاف عليكم أن الدين لم يذهب إلى القضية الجنسية، ولم يفرق بين العربي وغير العربي وجعل الأمة الإسلامية وحدة لا فرق بين أجزائها، وأن الاتجاه بالتفكير إلى الوحدة التي يتطلبها القرآن هو الذي يتحتم على المسلمين. وهكذا عانت الفكرة العربية في مصر من الليبراليين، كما عانت من السلفيين على حد سواء.

وفي العشرينيات بدأت أصوات قليلة تنادي باهتمام مصر العربي، إلا أن هذه الأصوات كانت تذوب وسط الاهتمام بالقضية المصرية.

وفي هذه الفترة برز التيار الشرقي الذي ينادي بتدعيم الصلات بين البلاد الشرقية الذي عبرت عنه جمعية (الرابطة الشرقية).

محمود عزمي.. والفكرة الشرقية:

أصبحت الفكرة الشرقية تعبر عن تيار عام، آمن به مجموعة كبيرة من المفكرين والكتاب، ومن بينهم محمود عزمي الذي اعتبر «الشرقية» حلاً وسطًا بين الفكرة الإسلامية والفكرة العربية.

وقد عبر عن هذا بقوله: «المصريون في عموم مفكريهم لا يعتبرون أنفسهم عربًا وهم في الوقت نفسه يحلو لهم أن يتداعبوا بأنهم زعماء بلاد العرب جميعًا، وهم من ناحية أخرى يذكرون في كل مناسبة أنهم يتزعمون الإسلام بأزهرهم العتيد، وإذن فهم يعنون الوحدة الإسلامية الواسعة التي تنتظم العروبة، والإيرانية، والتركية

وما إليها، حتى بلاد الصين، ثم هم فى الوقت عينه يقولون لك: إنهم يخشون نعت الوحدة بالإسلامية قد يثير شيئًا من الأشباح أمام إخوانهم الأقباط، ولذلك يؤثرون استبدال «الشرقية» بالإسلامية وبالعروبة أيضًا».

إلا أن محمود عزمى لم يكن يعنى بالشرقية المدلول الشمولى الواسع لها، من حيث أنها تضم كافة البلاد الشرقية عربية وغير عربية، حيث حدد عدة عوامل تضيق مجال (الشرقية) وتحصرها فى النطاق العربى فقط.

فقد نادى بالشرقية المقيدة، والمقيدة باعتبار الجوار، وبرابطة اللغة وبفعل التاريخ. ورأى أن هذه العوامل تتوافر فقط فى سوريا الكبرى التى تضم لبنان وسوريا وفلسطين حيث قرر امكانية قيام حلف بينها وبين مصر، وفى نفس الوقت نادى بضرورة الاهتمام بأحوال البلاد العربية الأخرى التى تربطها بمصر رابطة اللغة والتاريخ واعتبار الجوار.

الدعوة إلى اتحاد مصر مع الشام والعراق:

قسم محمود عزمى البلاد العربية إلى ثلاث وحدات مترابطة هى فئة شبه الجزيرة العربية وفئة بلاد المغرب التى تتألف من مراكش وتونس والجزائر وليبيا، وفئة ثالثة تتكون من البلاد التى كانت مهبط الحضارات، وهى مصر والشام والعراق، مؤكدًا على أن هذه البلاد هى الرافعة لواء النهوض والتقدم بين فئات البلاد العربية جميعًا،

ونادى بأن تسعى كل فئة من هذه الفئات فى سبيل تأليف حلف منها على حدة.

واعتبر محمود عزمى مصر والعراق والشام بأجزائه كتلة متماسكة تماسكًا تامًا، من حيث اللغة ومن وجهة الاتصال التاريخى الذى لا تتوافر مع غيرها من البلاد الأخرى التى تتكلم العربية.

ويفند محمود عزمى هذا الرأى، مؤكدًا على وحدة الظروف التاريخية بين هذه البلاد جميعًا، سواء فى العصور القديمة أو الحديثة.

ففى العصور القديمة كان الاتصال محكمًا بين: الكلدانيين، والآشوريين، والفنيقيين، والمصريين، ثم خضعت هذه البلاد فى وقت واحد للنفوذ اليونانى، ثم للنفوذ الرومانى، ثم كانت الخلافة الإسلامية التى أخضعت هذه الدول جميعًا وتنقلت بين عواصمها، ثم جاءت دولة المماليك وجاءت الحروب الصليبية، فكانت هذه البلاد هى المسرح الأعظم لما قام به الفريقان من حروب، فزاد ذلك ما بينهما جميعًا من صلات متينة.

أما فى العصور الحديثة، فقد تعرضت هذه الدول جميعًا للنفوذ الغربى الذى شمل على نحو واحد هذه المناطق جميعًا، فزاد ما بينها من روابط إحكامًا.

ويرى محمود عزمى أن قيام هذه الكتلة المتماسكة المتداخلة، لا يعنى عدم الاتصال ببقية البلاد العربية، ولكن يعنى «أن عصر التحالف كما يستدعى الخروج من دائرة الفردية الضيقة، يستدعى

كذلك الاحتياط من عدم التوسع فى حدود الكتلة توسعًا يعوق العمل المنتج ».

أما عن الروابط التى يجب أن تكون بين هذه البلاد وكيفية توثيقها، فقد رأى محمود عزمى أن التعليم وتوحيد مناهجه، بالإضافة إلى انتشار صحف مصر فى هذه البلاد أهم الروابط الاجتماعية.

أما الروابط الاقتصادية، فيرى محمود عزمى أهمها إزالة الحواجز الجمركية بين هذه البلاد، وتوحيد النقد المتداول فى بلاد الكتلة جميعًا من حيث وحدة التعامل وتقسيماتها، وذلك بأن يقوم النظام النقدى فى كل منها على قواعد واحدة.

ويقترح محمود عزمى أن تكون الوحدة الكبرى فى كل منها قطعة من الذهب محددة العيار والقيمة، ويكون تقسيمها إلى قطع معينة العيار والقيمة أيضًا، وإلى قطع من النيكل معينة العيار والقيمة كذلك، على أن تكون هذه القطع كلها متساوية فى كل تلك البلاد.

ويطالب محمود عزمى حكومات هذه البلاد وقد اتفقت على تفضيل مبدأ التقسيم إلى مائة قرش وألف مليم، أن تجعل وحدة التعامل الذهبية قطعة تعادل الجنيه المصرى عيارًا وقيمة وبذلك تتساوى الوحدة الذهبية الكبرى فى مصر وجاراتها الشرقية، وتتساوى قيم أقسامها المئوية والألفية كذلك، فتتم عناصر الاتحاد النقدى العربى.

فوائد الاتحاد النقدى :

بين محمود عزمى أثر هذا الاتحاد النقدى، فى ألا يحس المتنقل بين واحد من تلك البلاد إلى الآخر بأى مشاق، يخضع لها دائمًا أولئك المتنقلون بين بلاد اختلفت بعضها عن بعض، فى التقاليد واللغة وجميع مظاهر التفاهم، المتوافرة توافرًا تاريخيًا طبيعيًا بين مصر وجاراتها الشرقية، بالإضافة إلى أن هذا التوحيد النقدى، سيؤدى أيضًا إلى تسهيل اتساع نطاق التجارة، ويوفر على التجار متاعب الخضوع لتقلبات أسعار التحويل.

وبمناسبة التفكير فى إنشاء فرع لبنك مصر فى فلسطين، يشيد محمود عزمى بهذه الفكرة، ويدعو إلى أن يكون إنشاء هذا البنك خطوة أولى يتبعها إنشاء بنك مصر - سوريا، وبنك مصر - العراق، مما يؤدى إلى توطيد العلاقات الاقتصادية.

ويطالب محمود عزمى ألا تقتصر الجهود فى مجال العلاقات الاقتصادية على إنشاء البنوك فحسب، بل أن يتعدى ذلك إلى أن يتوحد أيضًا استثمار رءوس الأموال فى كل ميادين النشاط الاقتصادى كإنشاء الشركات وغيرها برءوس أموال مختلطة يشترك فيها المصريون والفلسطينيون والسوريون والعراقيون. «يقومون على إدارتها متوحدة غاياتهم موجهة جهودهم جميعًا إلى خير أوطانهم الشقيقة وصالحها».

اعتبارات الجنسية السياسية :

يتحدث محمود عزمى أيضًا فى مجال تنمية العلاقات بين مصر وجاراتها الشرقية عن اعتبارات الجنسية السياسية حيث يشيد بالتشريع المصرى « الذى لم يشترط ترك الديار لمختار غير جنسيتها » ويرى محمود عزمى أن هذا التشريع مبعثه الرغبة الأكيدة الصادقة فى الاحتفاظ بالعناصر المقيمة فيها. ويطالب البلاد الشرقية العربية أن تحذو حذو مصر» بأن يكون التسامح هو الذى يسود كل قانون يصدر وكل إجراء يتخذ قبل الإخوان النازلين فى مختلف تلك البلاد جميعًا حتى يساعد ذلك التسامح على ما يرد الأهلون كلهم لدولهم من تفاهم وتآزر.

وهكذا دعا محمود عزمى إلى اتحاد مصر بجاراتها الشرقية والعمل على توثيق الروابط بينها، مؤكدًا على أن اتحادها فى صالحها جميعًا وعلى أن تكوين هذه الوحدة ليس أمرًا عسيرًا وليس من فكرة تأباها الطبيعة والظروف، إذ أنه أمر يحض عليه الواقع والظروف من ناحية التاريخ المشترك، ووحدة اللغة واتحاد العادات أو تقاربها، والإسلام الذى كان منذ القدم الدين الشائع بين سكانها.

ويؤكد محمود عزمى، على أن العمل على توثيق الروابط، وتمكين العلاقات بين مصر وجاراتها الشرقية، هو ما يرغب فيه أهل مصر وأهل تلك البلاد جميعًا.

صدى فكرة اتحاد مصر مع جاراتها الشرقية.

لاقت مقالات عزمى حول اتحاد مصر بجاراتها الشرقية صدى واسعًا فى هذه البلاد.

فقد نقلت (السياسة) الأسبوعية مقالا نشر فى جريدة (مرآة الشرق) التى تصدر فى القدس بقلم حسن صدقى الدجانى، أكد فيه كاتبه على تأييده لدعوة الوحدة مع مصر، وإيمانه بأنه «لا خوف على فلسطين من الصهيونية إذا ألحقنا فلسطين بمصر، إذ لو أتى الصهيونيون بمليون نسمة (وهو أمر غير ممكن)، لما خشينا بأسهم بين أربعة عشر مليونًا ونصف المليون من أبناء مصر وفلسطين.

وهكذا اعتقد هذا الكاتب الفلسطينى أنه لاخلاص لفلسطين من الصهيونية إلا باتحادها مع مصر.

واهتمت (السياسة) أيضًا بنقل صدى هذه المقالات فى كل من العراق وحيفا وسوريا.

فنقلت عن جريدة (العراق) مقالا يؤكد فيه كاتبه على أن الشعبين المصرى والعراقى، شعبان تربط بينهما روابط الدين واللغة العربية، وصفحات كثيرة من التاريخ، فضلا عن الأخلاق والعادات والتقاليد. ويشير المقال إلى ابتعاد الفكرة العربية فى مصر فيقول كاتبه: «إنه لولا النزعة التى ولدها البعض فى أدمغة جمهور كبير من المصريين من تطويق الجنسية بحلقة أوسع من المصرية لكان الشعب

المصرى فى رأس الأقطار العربية، ولفنيت هذه النزعة فى الجامعة العربية، ولاكتسبت القضية العربية طورًا غير الطور الذى لها الآن.

كما نقلت (السياسة) الأسبوعية مقالاً نشر فى جريدة (اليرموك) التى تصدر فى حيفا، يحث الطبقة المتعلمة فى مصر على حمل علم القومية العربية، كما حملت علم الثقافة العربية، مؤكدًا على أن مصر أقدر هذه البلاد على حمل علم القومية العربية، بطبيعة مركزها الجغرافى الذى يجعلها نقطة الدائرة بين أقطار العرب، وبطبيعة مكانتها العلمية، غدت موئل الثقافة العربية، وبطبيعة نفوذها وسبقها فى التجارب، عدت الشقيقة الكبرى التى يتوجب عليها واجبات الشقيق الأكبر لأشقائه.

وتنشر (السياسة) الأسبوعية مقالاً نشر فى جريدة (المقتبس) السورية، يؤكد فيه كاتبه تأييده الكامل لدعوة محمود عزمى، لتمتين الروابط الاجتماعية والاقتصادية بين مصر وجاراتها الشرقية، ويعلن سرور السوريين بما اقترحه محمود عزمى لتوثيق الروابط ورغبتهم فى الإسراع إلى تنفيذها.

وعلى الرغم من هذا التأييد لاتحاد مصر بجاراتها الشرقية، فإن الأمر لم يسلم من الاعتراض الذى وصل إلى حد اتهام مصر بأن لها مطامع من وراء استغلال القضية العربية، حيث «إنها كانت من قبل بمعزل عنها مكتفية بالجهاد فى سبيل حريتها».

ولم يكتف محمود عزمى بالدعوة إلى الوحدة، وإنما حاول التعرف عن قرب على مشاكل هذه البلاد وظروفها، فيذكر، أنه «كان من قلائل المصريين الذين جابوا - فى سبيل تعرف الأوضاع الصحيحة للقضايا العربية - أطراف العالم العربى».

وهكذا زار محمود عزمى معظم البلاد العربية واهتم بالكتابة عن احوالها، فيكتب عن موقف فلسطين ولبنان من الأنظمة السياسية الجديدة فى سوريا بعد إجراء انتخابات جمعية سوريا التأسيسية، لسن دستور سوريا الصغيرة، ويطالب المؤتمر الفلسطينى السابع بالانعقاد، حتى يحدد موقف فلسطين من هذه الأنظمة التى تدخل على سوريا ويشير إلى ضرورة التفاهم بين لبنان وسوريا على نوع العلاقات التى تربط بينهما، وهل تقوم على قاعدة (الوحدة)، أو على قاعدة (الاتحاد)، وهل يكون تحديد نوع هذه العلاقات من الآن، أو أن أمرها يترك فيما بعد؟ وهل يبدءون بتقرير قواعد العلاقات الاقتصادية فى انتظار قواعد العلاقات السياسية، أو ينتهون من تقرير الاثنين معًا؟.

وبمناسبة تبادل التمثيل الاقتصادى والاجتماعى بين مصر والعراق فى سنة ١٩٢٨، يجرى محمود عزمى حديثًا مع أول قنصل لحكومة العراق فى مصر، يهتم فيه بأحوال العراق الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والصحية، ويؤكد على المشاعر الطيبة التى تربط بين مصر والعراق.

محمود عزمى والبلاد العربية غير الشرقية :

اهتم محمود عزمى بأحوال باقى البلاد العربية التى قسمها، كما سبق أن ذكرنا، إلى فئتين : فئة شبه الجزيرة العربية، وفئة بلاد المغرب، واعتبر كلا منها كتلة منفصلة لها مقوماتها الحضارية والتاريخية.

وقد اهتم محمود عزمى بالسفر إلى المملكة العربية السعودية عدة مرات للتعرف على أوجه نشاطها، وحاول من خلال هذه الزيارات ومن خلال كتاباته أن يقرب بين وجهة النظر المصرية، ووجهة النظر السعودية فيما حل بينهما من خلاف عام ١٩٣٤، بسبب ثلاثة أمور، يتعلق أولها بالمحمل والكسوة، ويختص الثانى بأموال الحرمين، ويرتبط الثالث بجنسية المصريين المقيمين فى الحجاز.

محمود عزمى والسودان :

ركز محمود عزمى على السودان لا باعتباره قطرًا عربيًا شقيقًا، بل على أساس أن السودان جزء لا يتجزأ من مصر.

حيث كانت الحركة الوطنية المصرية تعتبر السودان وحقوق مصر فيه، أمرًا متعادلا تمامًا مع مسألة الاستقلال المصرى، وهكذا أصبحت السودان أحد أوجه الاختلاف والتشدد فى العلاقات المصرية البريطانية، وعبر سعد زغلول عن هذا الموقف المصرى من السودان

بقوله «إن السودان ألزم لمصر من الإسكندرية».

ويؤكد محمود عزمى على أن مسألة السودان، كانت دائمًا محل عناية المفاوضين المصريين فى كل المفاوضات التى جرت بين الجانب المصرى والجانب البريطانى، ويوافق على فكرة «اتحاد تام بين مصر والسودان» فيذكر رأى وزير مصر المفوض السابق بلندن فى تدليله على فائدة هذا النظام، من الوجهة العسكرية ومن الوجهة الاقتصادية، لا لمصر والسودان فحسب، بل لبلاد الحبشة وكل البلاد الواقعة على مجرى النيل أيضًا، محتفظًا بحقوق مصر التاريخية فى وادى النيل والتى يجب ألا تتصادم مع ما للسودان من الحق فى تبوء مكانه عندما يتقدم تقدمًا كافيًا معترفًا بفضل المحالفة ما بين إنجلترا ومصر والسودان.

وبمناسبة توقيع اتفاقية بين إنجلترا وإيطاليا حول تعديل الحدود السودانية الليبية وتسليم واحة العوينات للإيطاليين.

يؤكد محمود عزمى على أهمية العوينات، بالنسبة لموقعها ولما فى باطن أرضها من مياه، ويندد محمود عزمى بأن تقدم الحكومة البريطانية العوينات لإيطاليا فى حين تقف مصر صاحبة السيادة الوحيدة على السودان موقفًا سلبيًا.

ويؤكد محمود عزمى على أن السبيل الطبيعى للنهوض بالأحوال الاقتصادية فى السودان، هو فى الاتصال المحكم بين البلدين، ولذا يرجو محمود عزمى أن تكلل المساعى لربط القطرين بأمتن الصلات

الاقتصادية والمالية عن طريق الجمعيات الزراعية وعن طريق بنك مصر.

محمود عزمي.. وبلاد المغرب:

لم يغفل محمود عزمى الاهتمام بدول المغرب أيضًا، ففى أوائل الخمسينيات سافر محمود عزمى إلى المغرب، لتقصى أحوال أهلها والوقوف على الخلاف الدائر بين السلطات المغربية والسلطات الفرنسية، وكتب فى هذا الصدد عدة مقالات فى جريدة (الأهرام) عرض فيها وجهات النظر المختلفة فى المسألة المغربية، حيث أجرى أحاديث صحفية مع سلطان مراكش ومع الجنرال جوان المقيم العام لفرنسا فى المغرب ومع رؤساء الأحزاب فيها.

وقد لاقت مقالات محمود عزمى عن المسألة المغربية صدى واسعًا على المستوى العالمى، حيث كتب المراسل الخاص لوكالة الأنباء العربية عن اهتمام الدوائر الأمريكية المختصة بهذه التحقيقات، كما ذكر أن لجنة تحرير شمال أفريقيا قد استخدمت المعلومات التى تضمنتها هذه المقالات والحديث مع سلطان مراكش لتكون أساس بيان أصدرته وجاء فيه أن نسخة من مقالات عزمى أرسلت إلى الجامعة العربية وتلقت أمريكا نسخة أخرى منها، وتضمن بيان اللجنة النص الكامل للحديث الذى أجرى مع السلطان المغربى، كما نشرت جريدة نيويورك تايمز أجزاء من المقالات فى ثلاثة أعمدة من صفحاتها.

محمود عزمى.. والوحدة العربية:

وهكذا يتضح اهتمام محمود عزمى البالغ بالقضايا العربية، وأنه إن دعا إلى اتحاد مصر مع جاراتها الشرقية فقط، إلا أنه لم يعن بذلك ابتعاد مصر عن باقى البلاد العربية، فطالب بتوثيق العلاقات بينها وبين مصر، وحاول أن تسير هذه العلاقات فى جو ودى.

وهكذا بدأ محمود عزمى منذ الثلاثينيات يهجر لفظ «الشرقية» إلى العربية ويوسع نطاق دعوته نحو الاتحاد، بحيث يشمل كافة البلاد العربية.

ولذا يشيد محمود عزمى بانتقال الاهتمام بالوحدة العربية من صفوف الشعب والمثقفين، إلى صفوف الحكومات على مستوى البلاد العربية، ويؤكد على أن البلاد العربية تؤمن فى سعيها لتحقيق الوحدة، أن مصر يجب أن تساهم فى سبيل هذا التحقيق بنصيب وافر، يتفق مع ما يعترف لها به الجميع من التقدم والزعامة.

ويبين محمود عزمى أن الآراء فى مصر أصبحت متفقة إلى حد ما مع هذه الآراء العربية، بحيث تطورت إلى حيث أصبح الزعماء والقادة، يرون ما كان يراه فردان أو أفراد قلائل منذ سنوات قليلة، من ضرورة التضامن مع الشقيقات العربيات فى سبيل الحلف العربى أو الوحدة العربية.

ويحث محمود عزمى منذ عام ١٩٣٤، الحكومة المصرية على أن

تقوم بدورها فى تحقيق هذه الوحدة، بعد ما أخذت الفكرة تنتقل من حظيرة الدعوة عن طريق المثقفين، إلى حظيرة السعى عن طريق الحكومات.

وقد أيقن محمود عزمى من أن جبهة الشعوب العربية حقيقة قائمة لامرية فيها، مؤكدًا على اجتماع الشعوب العربية حول فكرة الوحدة، وعلى رغبتها فى تخطى الحواجز التى تفصلها بعضها عن بعض، واعتبر هذا الاجتماع وهذه الرغبة دليلا على إمكانية قيام جبهة الشعوب العربية فيقول: «إذ أنك لو تحادثت مع قادة الرأى وزعماء النهضات وأفراد الناس من تلك الأقطار جميعًا، إنما تستمع إلى المناجاة بالعروبة، وتلمس وحدة فى الاتجاه الجدى نحو التحرر من قيود الاستعمار، وتجد اتفاقًا فى المثل الأعلى، وتجد إجماعًا على توحيد الثقافة بتوحيد برامج التعليم، وعلى وجوب تعارف الزعماء تعارفًا شخصيًّا، وتبادل الزيارات بين مختلف الشباب، وإحكام الصلات بين مختلف المؤسسات، وتنظيم عقد المؤتمرات، والسعى فى سبيل رفع الحواجز الجمركية، وتوحيد النقد، وإقرار العلاقات الاقتصادية، كما تجد توجهًا بالآمال إلى الملوك والرؤساء وتوقانًا إلى قيام الأحلاف بينهم، وإلى العمل على ضم الصفوف فى متعدد جيوشهم».

معوقات الوحدة العربية:

ويحدد محمود عزمى عددًا من العقبات التى يراها حائلا دون قيام

الوحدة العربية أو جبهة الشعوب العربية، حيث أرجع بعض هذه العقبات إلى (غشاوات)، والبعض الآخر أرجعها إلى الظروف السياسية لمختلف شعوب الجبهة من ناحية أخرى.

أما (الغشاوات) التي ذكرها عزمى فنستطيع إيجازها فى:

أولا: طغيان الاعتبار الدينى فى بعض البيئات العربية على الاعتبار الاجتماعى والسياسى، مما يقلل من تركز الجهود بين مختلف شعوب العربية فى سبيل الوحدة، خاصة وأن هذا الاتجاه كان من شأنه أن يثير اتجاها آخر مقابلا بين مسيحيى لبنان، خشية أن تكون النعرة التى تبعث عن الوحدة العربية نعرة إسلامية.

ثانيًا: المغالاة فى الحصرية، بمعنى الإحساس بأن العمل فى سبيل الوحدة، يقتضى الوقوف موقف العداء من العناصر غير العربية داخل البيئات العربية وخارجها. ويضرب محمود عزمى مثالا على ذلك بما يحدث فى العراق التى تتجه بشىء من الكراهية نحو الأكراد، ولا ترضى كثيرًا عن توطيد العلاقات بين العرب والإيرانيين أو غيرهم من المتاخمين لأراضى شعوب العربية.

ثالثًا: تناقض الاتجاهات التى تسير فيها الفكرة العربية فى مصر، حيث يعتبر المصريون أنفسهم زعماء البلاد العربية فى نفس الوقت الذى يفخرون بأنهم زعماء الإسلام، إلى جانب شكوى البعض منهم من كثرة التكاليف التى يلقيها على عاتقهم مركز مصر الجغرافى،

الذى يملى عليها أن تحصر جهودها فى سبيل الاتجاه نحو البحر الأبيض المتوسط ونحو الغرب، وعدم تحميل كواهلها بأعباء ثقيلة تجىء عن طريق الاتجاه نحو الشرق.

أما العقبات التى ترجع إلى الأوضاع السياسية للبلاد[1] العربية، فإنها نتيجة لاختلاف الظروف السياسية لهذه البلاد، فمنها ما هو فى حكم المستقل استقلالا مطلقًا كالعربية السعودية، ومنها ما هو مستقل استقلالاً مقيدًا كاليمن والعراق ومصر، ومنها ما لا يزال استقلاله المقيد فى حيز المفاوضة كسوريا ولبنان، وما هو تحت الانتداب البسيط كشرق الأردن أو الانتداب المركب بمشكلة الصهيونية كفلسطين، ومنها ما هو تحت الحماية كالمغرب وتونس، وما هو مجموعة أقاليم من أقاليم الدولة مع موقف يقل فى الاعتبار عن هذه الأقاليم التى يتممها كالجزائر، بالإضافة إلى اختلاف أصحاب السلطان، والنفوذ والتحالف والتعاهد فى تلك المناطق جميعًا بين فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وأسبانيا.

وهكذا بين محمود عزمى عدة صعوبات تعترض قيام وحدة عربية شاملة، ولهذا نادى بأن ترتبط الأجزاء المستقلة بأحلاف تعقد بين مختلف أجزائها، معللا لهذا الرأى بأن «الروح (الذاق) ما يزال ينمو فى مختلف هذه الأجزاء، ومهما يسع الساعى فى سبيل (العربية) من عبارات الإخاء والتضامن ومحو الفوارق، فإن الواقع يصبح فى مواجهته كل يوم بأن المصرى لا يريد أن يزاحمه فى مصره شامى أو عراقى والعراق لا يريد أن يقاسمه فى عراقه شامى أو مصرى،

بالإضافة إلى ما بين الأقطار العربية من تفاوت فى الثروة والحياة الاجتماعية، وهو تفاوت يحول حتماً دون توحيد الأحكام التى تطبق فيها، والتى يجب أن تكون واحدة فيها جميعًا إذا اندمج بعضها فى بعضها الآخر ونتج منها كيان سياسى واحد.

ولكن على الرغم من اقتناع محمود عزمى بهذه الصعوبات التى تقوم فى وجه الجبهة المتحدة من شعوب العربية، واقتناعه بديلا عنها سياسة التحالف، فإن محمود عزمى مازال يشرح الوسائل الممهدة التى يراها تحقق قيام هذه الجبهة.

أولا: الوسائل السلبية:

١ - أن يخفف الداعون من غلواء العروبة، وإقحام القومية العربية والأصل العربى، خاصة وأن بعض الشعوب العربية مازالوا حريصين على أن يزهوا بمجدهم القديم، مجد الفراعنة، أو مجد الفنيقيين.

٢ - أن يخفف بعض المشتغلين بالقضية العربية من اعتبارهم كل ما هو غير عربى - وإن كان إسلاميًا - عدوًا للعرب والعروبة.

٣ - إبعاد الاعتبارات الدينية عن وسائل السعى فى سبيل تحقيق الجبهة، «وقد ثبت بالتجربة المادية أن إقحام الدين فى المسائل السياسية والاجتماعية العامة فى بلاد تتعدد بين أهلها الأديان، ويقول دينها العام بتعدد الأديان، لا ينتج غير أخطر النتائج بالنسبة للكيان القومى الذى يريده العاملون».

ثانيًا : الوسائل الإيجابية :

١ - توحيد الثقافة بين مختلف شعوب العربية، بتوحيد برامج التعليم فى مدارسها، وتبادل البعوث العلمية بينها.

٢ - توحيد قواعد النقد فيها، ورفع الحواجز الجمركية عن منتجاتها.

٣ - عقد معاهدات التحالف بين الدول المستقلة منها، وتوحيد سياسات هذه الدول الخارجية وتكاتفها فى المواقف الدولية جميعًا.

٤ - الاستعانة بهذه المواقف فى تخفيف الأعباء عن كواهل شعوب الجبهة، وعلى إقناع إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وأسبانيا وتركيا وإيران مجتمعة باعتبار تلك الشعوب جميعًا كتلة واحدة.

وقد لاقت مقالات محمود عزمى، حول الوحدة العربية وتأليف جبهة من شعوب العربية الرفض من بعض المغالين فى فكرة القومية المصرية، وكان من أبرز هؤلاء الرافضين أحمد لطفى السيد، الذى أكد على أن تأليف جبهة من الشعوب العربية فكرة من العسير تحقيقها فى الآونة الحاضرة، نتيجة للأوضاع السياسية المختلفة فى البلاد العربية بين الاستقلال والاستقلال المنقوص والانتداب والحماية والاستعمار. وأشار إلى ضرورة الاكتفاء بتوثيق الروابط الثقافية والتعاون الاقتصادى والاجتماعى بين الأمم العربية.

إلا أن الهجوم على الفكرة العربية، لم يثن محمود عزمى عن المضى فى الدعوة إلى التقارب بين البلاد العربية، واستمر يشجع كل خطوات التآخى والاتحاد بين هذه البلاد ولهذا يشيد بالمعاهدة التى وقعت بين اليمن والمملكة العربية السعودية، ويعلق على الخطابات التى تم تبادلها بين البلدين، التى جاء فيها إشارة إلى توثيق الأخوة والاتحاد بين الأقطار العربية الشقيقة، التى رأى فيها عزمى دلالة على أن «فكرة الوحدة العربية قد أخذت تتصل اتصالا وثيقًا بمشاغل الدول العربية، وقد أخذت تلوح فى أفق التحقيق وتحتل منه مكانا جليًا».

إلا أن عزمى كثيرًا ما كان يتحفظ على توقيع معاهدات بين بلد عربى وآخر، إذا ما وجد أن مثل هذه المعاهدات قد تؤدى إلى مزيد من النفوذ الغربى داخل المنطقة العربية، أو تؤثر بشكل ضار على أوضاع هذه البلاد، لذلك نجده يعترض على إبرام معاهدة التحالف بين العراق وشرق الأردن، على أساس أن هذه المعاهدة قد نصت على توثيق الصلات العسكرية والاتصال العسكرى، وحيث أن هذا الاتصال الوثيق سيتم بمقتضى الأوضاع القائمة فى كل من البلدين مما سيؤدى إلى نقل الإشراف البريطانى العسكرى والسياسى والاقتصادى، من شرق الأردن إلى العراق، وضع القواد البريطانيون أيديهم على الجيشين الأردنى والعراقى معًا.

كما أن هذه المعاهدة ستؤدى أيضًا، كما أشار محمود عزمى، إلى مد اليد الأمريكية إلى العراق، ويستبدل بها اليد الإنجليزية.

وهكذا اعتبر محمود عزمى إبرام المعاهدة الأردنية والعراقية، وعقد المعاهدة التركية العراقية نوعًا من التطويق الانجلوسكسونى (للهلال الخصيب) من جوانب الشمال والشرق والجنوب، ومن ناحية أخرى رأى محمود عزمى أن ما انطوت عليه معاهدة الصداقة وحسن الجوار بين تركيا والعراق، من التزامات تميل بالاتجاه العراقى نحو الثقافة التركية وتؤدى إلى تجاوز حدود الجامعة العربية، وحدود فكرة العروبة ذاتها.

محمود عزمى.. وجامعة الدول العربية:

فى أواخر عام ١٩٤٤ بدأت المشاورات لتأسيس جامعة الدول العربية، التى نظرت إليها الشعوب العربية باعتبارها خطوة فى سبيل الوحدة العربية الحقه، واعتقدت هذه الشعوب أن الجامعة ستكون مسئولياتها فى المحل الأول، العمل على تحقيق هذه الوحدة، إلا أن الجامعة، فشلت فى تحقيق آمال الشعوب العربية فى قيام وحدة حقيقية بينها، والتى كان محمود عزمى يسعى إلى تحقيقها.

ولذلك يكتب محمود عزمى بعد سنوات قليلة من تأسيس الجامعة مبينًا إخفاق الجامعة فى تحقيق آمال الشعوب العربية فيقول: «الحق أن جامعة الدول العربية محل إشفاق، فقد تقبلها المتحمسون يوم أنشئت على أنها المقيلة أم العروبة جميعًا وشعوبها كافة من عثراتها،

وقد غذت آمانتها العامة حماسة أولئك المتحمسين بكثرة ما وعدت، ثم جاءت وقائع الحال وإذا بالسراب يتكشف، وإذا بالقصور يتجلى فانقلب نفر من الناس يكاد ييأس، وراح بعضهم ينادى بحل الجامعة وفضها سيرة. ومن هنا شاع التساؤل هل المصلحة فى أن (تكون) أو فى (ألا تكون)، والخير عندى فى أن تكون، لكن على أن تتوافر فيها عناصر الكينونة الصحيحة وهى عناصر الفهم السليم للوضع المحدد والعمل الرزين فى سبيل الإنتاج المادئ وإلا فطبيعة الأشياء تقضى عليها بألا تكون..

دعوة عزمى إلى عدم الانحياز:

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، ظهرت بوادر الحرب الباردة بين الكتلة الشرقية، ويتزعمها الاتحاد السوفيتى والكتلة الغربية، وتتزعمها أمريكا. وبدأت كل كتلة تحاول أن تضم إليها أكبر عدد ممكن من الدول والأقاليم إلى جانبها قصد الوقوف فى وجه الكتلة الأخرى.

ويهب محمود عزمى مناديًا بأن تلزم البلاد العربية سياسة الحياد بين هاتين الكتلتين.

ويشير عزمى إلى إن كانت جامعة الدول العربية هى المنظمة الإقليمية المنوط بها المحافظة على السلام فى المنطقة العربية، فإن العلاقات بين أعضاء الجامعة العربية وسائر الدول فى العالم يجب أن تكون علاقات مودة وصداقة دون تمييز أو إجحاف. ويرى شرطين

أساسين لابد منها لاستقرار الأمور فى الجامعة العربية.

أولهما: شرط انحصار التكوين فى العناصر المحلية المتجانسة لي غير.

وثانيهما: الاحتفاظ بالحيدة قبل الغير جميعا.

وينادى عزمى بكسر احتكار السلاح مع الغرب إذا كان ذلك الانضمام إلى الكتلة الغربية، ويشير إلى إمكانية الحصول على الس من السويد وهى الحريصة على حيادها. كما يقترح أن تحصل الب العربية مقابل بعض صفقات القطن التى تعقدها مع الاتحاد السوف وتشيكوسلوفاكيا على سلاح أو ذخائر.

أما عن الموقف الذى يسلكه العرب فى حالة قيام حرب، يق محمود عزمى على أن الحياد غير مستطاع بالنسبة للدول الأعضاء الأمم المتحدة، مادام ميثاق هذه الهيئة التى تنخرط فى سلكها ق فرض عليها القيام فى وجه المعتدى وتنفيذ القرارات التى يصدر مجلس الأمن لوقف الأعتداء.

ولهذا يدعو محمود عزمى البلاد العربية أن تنهج نهج الهند سياستها الخارجية، حيث تقف موقف الحياد إلى أن تقع الحر بالفعل، فتتبين المعتدى وتقف الموقف الذى يستدعيه مصلحتها.

محمود عزمى والأفرو أسيوية:

تتسع دعوة محمود عزمى العربية فتتخرج إلى آفاق أوسع، عندما

ى بأن تؤلف البلاد الأفريقية والأسيوية «منطقة حرام» بين الجبابرة
لطامعين السيطرة على العالم، والمتنافسين فى سبيل هذه السيطرة.

ويرى محمود عزمى أن فكرة الجمع بين جزأى (المنطقة الحرام)
با وأفريقيا، ستؤدى إلى أن يكونا العنصر الذى ينبغى أن يقام
انه وزن فى النظرة الدولية إلى الأشياء، لا على اعتبار أنهما ذيلان
ربا، بل على اعتبار أنهما حقيقة راهنة مستقلة عن أوربا تمام
ستقلال.

وقد عبر محمود عزمى عن مجموعة الدول الأفريقية والأسيوية
مطلاح (أفر أسيا) التى اعتبرها وسيلة هامة لشعوب أفريقيا وآسيا
إظهار وحدة قضاياها المصيرية أمام قوى الاستعمار فيقول: «إنها
اذ من مناقشات الإنجليز حول العنصر والأصل فى شمال السودان
جنوبه، ومن مناقشات الفرنسيين حول نسبة العرب والبربر فى شمال
ريقية، ومن تساؤل المتسائلين عن وجه اهتمامنا بمشكلة العنصرية فى
ريقية الجنوبية، وبحوادث (ماو ماو)* فى كينيا وتطور الشئون فى

---

* (ماو ماو) هى حركة المقاومة المسلحة التى نظمها جيموكينياتا فور عودته من
انجلترا لمقاومة الاستعمار البريطانى فى كينيا، فى أوائل الخمسينيات. ويلاحظ أنه بينما تلقى
جيمو كينياتا تعليمه فى الجامعات البريطانية فإنه لدى عودته إلى كينيا استخدم كافة الرموز
الأفريقية التقليدية كشعار لحركة التحرر الوطنى التى قادها مثل: دق الطبول، وانتهت
الحركة بالانتصار على الاستعمار البريطانى، واستقلال كينيا عام ١٩٦١، وتولى جيموكينياتا
رئاسة كينيا.

أوغندا ونيجيريا والكونغو وأفريقية الغربية وأفريقية الاستوائية، وعن حكمة اهتمام مصر فى البيئات الدولية بحق تقرير المصير حيث تكون (أفروآسيا) هى الجواب القاطع على تلك الأسئلة.

وهكذا نجد أن محمود عزمى الذى سار فى العشرينيات فى اتجاه الشرقية المقيدة، وفى الثلاثينيات دافع عن الوحدة العربية والتضامن العربى، نجده فى الخمسينيات ينادى بدعوة أشمل وأعم، هى دعوة التضامن الأفرو أسيوى وإنشاء كتلة ثالثة تقف فى وجه الكتلة الغربية والكتلة الشرقية ويصير لها وزن فى المجال الدولى. ولهذا يشيد محمود عزمى بقرارات مؤتمر الدول الأفروأسيوية الذى عقد فى القاهرة أواخر عام ١٩٥٢، لبحث قضيتى تونس والمغرب وقضية فلسطين، واعتبر هذه المؤتمرات التى تعقد دليلا واضحًا على تضامن شعوب اسيا وأفريقيا مع القضايا العربية.

محمود عزمى وقضية فلسطين

حتى نستطيع أن نتبين موقف عزمى من القضية الفلسطينية لابد أن نتبين أولا موقف القوى السياسية المصرية منها، خاصة وأن قضية فلسطين بالنسبة للرأى العام المصرى فى العشرينيات لم تنل حظًا وافرًا من الاهتمام فى إطار ابتعاد الفكرة العربية فى مصر فى هذه الفترة، وهكذا لم تنل هذه القضية سوى التعاطف دون أى مشاركة إيجابية، أو تضامن فعلى فى سبيل درء خطر الصهيونية، وذلك حتى أواخر الثلاثينيات.

موقف القوى السياسية فى مصر من الحركة الوطنية فى فلسطين :

حزب الوفد :

لم يول حزب الوفد اهتمامًا كافيًا بالقضايا العربية، غير أن موقع حزب الوفد على رأس الحركة الوطنية وكفاحه ضد الاستعمار أدى إلى اقترابه من الحركات الوطنية فى العالم العربى من خلال استجابة الجماهير المصرية المتعاطفة مع قضايا الإسلام فى الوطن العربى،

وخصوصًا حادث البراق* الذى اهتز له الشعب المصرى، بعمق وكان نقطة تحول مهمة فى موقف حزب الوفد من القضية الفلسطينية.

وهكذا بدأت نظرة الوفد إلى القضايا العربية تتطور شيئًا فشيئًا منذ أوائل الثلاثينيات، باشتراكه فى المؤتمر الإسلامى العام الذى انعقد فى القدس عام ١٩٣١.

وفى أثناء المفاوضات المصرية البريطانية عام ١٩٣٦ نشبت ثورة فلسطين الكبرى، وأكد النحاس «أن مصر لا تستطيع أن تقف مكتوفة الأيدى تجاه ما يجرى فى فلسطين» وأعلن عن مساندتها لمطالب الشعب العربى فى فلسطين.

حزب الأحرار الدستوريين:

وقف حزب الأحرار الدستوريين موقفًا متباعدًا من القضايا العربية بوجه عام، بسبب الخط الفكرى للحزب، الذى يقوم على أيدولوجية القومية المصرية التى أرسى قواعدها حزب الأمة الأب الروحى لحزب الأحرار الدستوريين، ووقف الحزب موقفًا معارضًا للحركة الوطنية

---

* وقعت حوادث البراق فى أغسطس ١٩٢٩، بسبب خلاف بين العرب واليهود حول حائط المبكى، وبدأت هذه الحوادث بقيام مظاهرة من اليهود فى ١٤ أغسطس تنادى بأحقيتهم فى حائط المبكى، مما أدى إلى قيام العرب بمظاهرة أخرى ضد اليهود. ونتج عن ذلك سلسلة من المصادمات بين الطرفين فى مختلف أنحاء البلاد، وفى مقدمتها حيفا ويافا والخليل، وأسفرت هذه المصادمات عن مقتل ١٣٣ وجرح ٣٣٩ من اليهود ومقتل ١١٦ وجرح ٢٣٢ من العرب.

الفلسطينية، فنجد أحمد لطفى السيد يذهب مندوبًا عن الجامعة المصرية لحضور احتفالات افتتاح الجامعة العبرية عام ١٩٢٥. كما وقفت حكومة محمد محمود ضد ثورة شعب فلسطين عام ١٩٢٩. وهددت (السياسة) لسان حال حكومة الحزب الوطنيين الفلسطينيين فى مصر بالطرد لاتهامهم بإثارة الفتنة الطائفية لدى الشعب المصرى وتهييجهم للرأى العام.

ودأبت صحافة الحزب على التركيز على أن حل القضية الفلسطينية لن يتأتى إلا بالاتفاق بين اليهود والعرب فى فلسطين.

موقف السراى من قضية فلسطين:

عبر عن موقف السراى من قضية فلسطين صحيفتا (الاتحاد) و(الشعب)، وقد ركزت الصحيفتان على ضرورة الاتفاق بين الفريقين لتسوية ما بينهما من خلافات.

موقف الاحتلال البريطانى من قضية فلسطين:

عبرت صحيفة (المقطم) عن موقف الاحتلال من المسألة الفلسطينية، وحظى المدافعون عن الفكر الصهيونى والدعوة الصهيونية بنصيب وافر فى إبداء وجهات نظرهم على صفحات هذه الصحيفة.

موقف محمود عزمى من القضية الفلسطينية فى العشرينيات :

اتفق موقف محمود عزمى من القضية الفلسطينية مع الموقف المصرى العام، فى إهمال المسألة الفلسطينية والحركة الوطنية فى فلسطين.

فقد أغفل محمود عزمى إغفالا تامًا طوال السنوات الأولى من العشرينيات الحديث عن فلسطين، برغم ما حفلت به هذه السنوات من أحداث جديرة بالتعليق عليها، خاصة الانتفاضات العربية التى قامت فى فلسطين ضد اليهود مثل انتفاضة عام ١٩٢٠ فى القدس التى قتل فيها عدد من اليهود والعرب وجرح فيها أكثر من مائتين وانتفاضة عام ١٩٢١.

حتى حوادث البراق التى وقعت عام ١٩٢٩ وأدت إلى مقتل عدد كبير من اليهود والعرب، وآثارت الشعور المصرى العام وأخرجته من عزلته، لم تنل من محمود عزمى أدنى اهتمام. حيث انشغل بالأزمة الدستورية التى وقعت فى مصر فى هذه الفترة عن الاهتمام بهذه الحركة الوطنية فى فلسطين.

الوحدة بين مصر وفلسطين :

وعلى الرغم من تقصير محمود عزمى تجاه القضية الفلسطينية فإنه لم ينس فلسطين كبلد شرقى فى زمرة اهتمامه بالبلاد الشرقية (العربية)

المجاورة لمصر فى هذه الفترة.

فقد نادى بضرورة توثيق العلاقات الاقتصادية بين مصر وفلسطين وتنظيمها وتغذيتها بما يقوى دعائمها. ورأى فى اتصال البلدين بخط حديدى مما يجعل وسائل التنظيم الاقتصادى بينهما أقرب للتحقيق، وذلك بأن تعامل البضائع الذاهبة والآتية بينهما معاملة خاصة، من حيث النقل الحديدى بتخفيض الرسوم الجمركية وأجور النقل على الخطوط الحديدية.

ورأى فى تبادل الأموال المصرية والفلسطينية فى كل من البلدين عاملا آخر من عوامل تقوية العلاقات الاقتصادية، فتكون أموال مصرية عاملة فى بنك فلسطين وأن تكون أموال فلسطينية عاملة فى بنك مصر أو فى شركات مصرية. كما طالب بأن يقوم بنك مصر بإنشاء فروع له فى القدس ويافا وحيفا مما يؤدى إلى مزيد من الاتصال الاقتصادى ويوفر التدريب لكثير من أبناء فلسطين على العمل لما يمكن أن يقوم فيها من منشآت مالية خاصة.

ورأى محمود عزمى ضرورة تسهيل الانتقال بين مصر وفلسطين لأهل البلدين، الذين يتنقلون بينهما لغايات تجارية بخاصة، وذلك عن طريق تيسير الإجراءات الخاصة بجوازات السفر والتأشير عليها.

ويظهر عقب حوادث البراق عدد من الآراء حول حل المسألة الفلسطينية، فيذكر محمود عزمى أن بعض اليهود (دون أن يحدد من هم) قد نادى بأن حل القضية الفلسطينية والخلاف بين العرب

واليهود لن يتأتى إلا بانضمام مصر إلى فلسطين انضمامًا كليًا. ويشير محمود عزمى إلى أن هذه الآراء لها تأييدها بين المسلمين والمسيحيين من أهل فلسطين ولا تقتصر فقط على اليهود.

ويؤكد محمود عزمى ترحيب مصر بانضمام فلسطين إليها.

أما عن الطريق الذى يتحقق به ذلك الضم وعن الكيفية التى يتم بها، فيرى محمود عزمى أن مصر لا ترضى أن تكون علاقتها بفلسطين علاقة انتداب لأن المصريين جميعًا لا يستطيعون أن يتصوروا ذلك الضم إلا بصورة اندماج كتلة فى كتلة شقيقة، تكون عناصر الاثنين متساوية فى كل الحقوق والواجبات، مشتركة معًا فى تسيير شئون الكل المقدس الجديد الذى ينشأ عن الانضمام.

ويتحفظ محمود عزمى تحفظًا خاصًا بوقوع فلسطين تحت الانتداب البريطانى فيقول: «إن صك الانتداب وقد كرس وعد بلفور بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين وبما ورد فيه من نصوص خاصة بفئة خاصة من الناس فى حين أن مصر لا تريد أن تنظر إلى أبنائها موزعين على طوائف دينية أو جنسية يعامل بعضهم معاملة خاصة بالرضوخ إلى اعتبارات معينة أو بالتمتع بامتيازات معينة».

ولذلك يدعو محمود عزمى إلى التفكير الجدى فى هذه المسائل كلها، وتقديرها تقديرًا دقيقًا قبل البحث فى مسألة ضم فلسطين إلى مصر.

محمود عزمى وقضية فلسطين فى الثلاثينيات:

استغل محمود عزمى فترة وجوده فى أوربا السنوات الأولى من الثلاثينيات للسفر إلى فلسطين ومحاولة التعرف على أبعاد المشكلة الفلسطينية عن قرب، فاتصل بعرب فلسطين كما اتصل بالجماعات اليهودية حتى يستطيع أن يكون وجهة نظر مبنية على العقل دون العاطفة.

وبالفعل عاد محمود عزمى إلى مصر عام ١٩٣٤م، واتضح من كتاباته ودفاعه المجيد عن المجاهدين الفلسطينيين أنه آمن إيمانًا كاملا بعدالة القضية الفلسطينية وآمن بأن هناك مخططًا صهيونيا بالفعل يرمى إلى ابتلاع فلسطين.

وسجل محمود عزمى تأييده الكامل لعرب فلسطين المجاهدين حين قال: «نتحفز للجهاد جهادها وتضحية أبنائها وبذلهم فى سبيل الاحتفاظ بكيانها ونرحب بمن وفدوا على مصر يمثلونها ويدعون إليها بيننا، وإن كانت القضية الفلسطينية فى غير حاجة إلى دعاية فى مصر وقد امتزجت قضايا الشرق العربى جميعًا، وأصبح تفاعلها مما يجب أن يفيد منه زعماء هذا الشرق كله فى نضالهم ضد الاستعمار ولأجل حريتهم واستقلال بلادهم ويقيننا أن النصر آخر الأمر للمجاهدين المثابرين.

ويشيد محمود عزمى بقرار محكمة الاستئناف فى القدس بعدم تنفيذ حكم الحبس على الأحرار الفلسطينيين، والاكتفاء عنه بتعهد منهم

«بحسن سلوكهم» مدى ثلاث سنين. حيث يرى عزمى فى هذا القرار عدة اعتبارات جديرة بالتسجيل وجديرة بالتقدير.

الاعتبار الأول: فى استناد المحكمة فى قرارها إلى أن حالة البلاد هادئة وإلى أنها لا ترغب فى إثارة الخواطر «حيث يرى محمود عزمى أن كثيرًا ما تتولد حوادث متصلة بالشعور القومى والرأى العام من أمور تكون بنت ساعتها، فإذا ما مضت هذه الساعة وهدأت معها عواصفها، فإن قيمة تلك الحوادث لا تلبث أن تنقضى حتى تزول ولا يكون من إعادتها إلى الأذهان عن طريق التشدد فى معالجتها، غير إثارة الخواطر من جديد بإذكاء ما كان قد انطفأ وإظهار ما كان قد كمن.

الاعتبار الثانى: اعتبار أن «المتهمين جماعة من المتنورين»، حيث رأى محمود عزمى أنه ليس من العدل أن يسوى فى المؤاخذة والمعاملة بمناسبة حوادث متعلقة بالشىء العام والمصلحة العامة بين الدهماء والفئة المتنورة.

الاعتبار الثالث: يكمن فى إعلان المحكمة أن قبول الإصرار للتعهد لا يعنى عدم اشتغالهم بالسياسة فى حدود القانون.

حيث يقرر محمود عزمى أن فى هذا نزولا من المحكمة عند اعتبار ما لابد منه «للمتنورين» من ضرورة اشتغالهم بمسائلهم العامة واستحالة استطاعتهم الحياة بغير هذا الاشتغال ماداموا يحسون بأن بلادهم فى حاجة إلى جهودهم وتضحياتهم.

ثورة فلسطين عام ١٩٣٦ :

بلغ شعور عرب فلسطين من السخط مداه، نتيجة لازدياد الهجرة اليهودية لفلسطين، ولشعورهم بخيبة الأمل واليأس من أن يستجيب البريطانيون إلى دعواهم، فقامت فى البلاد ثورة عربية عنيفة موجهة ضد الإدارة البريطانية وضد اليهود على السواء، واستمرت هذه الثورة ثلاث سنوات، اضطرت بريطانيا خلالها أن ترسل لجنة (بيل) لبحث أسباب الاضطرابات وأكدت هذه اللجنة على عدم إمكانية التوفيق بين الوعود البريطانية للعرب واليهود على السواء، وأن الانتداب غير عملى، وحددت ضرورة إيجاد دولة يهودية ودولة عربية عن طريق التقسيم.

موقف محمود عزمى من الثورة :

لم يتابع محمود عزمى أحداث الثورة فى مقالاته، ولعل اهتمامه بالمفاوضات المصرية البريطانية التى انتهت بعقد معاهدة ١٩٣٦ التى جرت فى أثناء حوادث الثورة، حال دون متابعته للثورة.

ونضيف إلى ذلك أن محمود عزمى كان دائما وهو يبحث فى الموضوعات الخاصة بالبلاد العربية، يبتعد عن إثارة ما يتعلق بأى حركات وطنية تقوم ضد الاستعمار فى هذه البلاد، وهذا نفس ما فعله بالنسبة للحركات الوطنية التى قامت فى فلسطين.

إلا أننا على الرغم من ذلك نجد محمود عزمى يندد بموقف النحاس من شكرى جاسر أحد الوطنيين الفلسطينيين، الذى أمرته الحكومة المصرية بمغادرة مصر بناء على طلب حكومة فلسطين، موضحًا للحكومة المصرية أن ظروف فلسطين الشقيقة فى هذه الفترة كانت تستدعى تريثها فى تنفيذ ما طلبته منها حكومة فلسطين.

ويبين محمود عزمى عاقبة هذه التصرفات فيما ينال علاقات مصر بشقيقاتها العربية مؤكدًا وحدة النضال العربى ضد الاستعمار، حيث لا يمكن تصور حل قضية مصر على انفراد، دون اعتبار تفاعلها مع قضايا: سوريا، وفلسطين، والعراق، وتونس، وسائر البلاد العربية والإسلامية.

محمود عزمى والقضية الفلسطينية فى الأربعينيات:

تبدأ فى الأفق فى هذه الفترة فكرة تقسيم فلسطين التى يرفضها محمود عزمى تمامًا ويصفها بأنها بتر جزء من فلسطين وإعلانه دولة يهودية. ويقرر أن هذه الفكرة لن ترضى العرب ولا اليهود على السواء، ففريق العرب سيجد أن فلسطين العربية قد انتقصت انتقاصًا، وفريق الصهيونيين الذى سيجد الدولة اليهودية لا تضم أرض إسرائيل كلها. ويشير محمود عزمى إلى أن السير بالمشكلة الفلسطينية شطر هذا الاتجاه يخرج بها من الإطار الذى وضع لها فى بروتوكول جامعة الدول العربية، ويدعو الدول العربية فى الجامعة إلى

أن يكون لها كلمة عاجلة وملحة فى موضوع التقسيم.

تنديد عزمى بالموقف العربى من قضية فلسطين:

بحث محمود عزمى موقف العرب من قضية فلسطين، فكتب مسجلا صمود أهل فلسطين للمحنة، وتحفزهم للجهاد، واستعدادهم للتضحية فى حين ندد بموقف العرب من قضية فلسطين.

فوصفهم بأن مالهم شحيح وتفكيرهم أعوج وتدبيرهم أعرج.. أصدروا فى هيئاتهم وفى حكوماتهم وفى جامعة دولهم قرارات وقرارات ولكن لم يكتب لواحد منها التنفيذ العاجل أو التطبيق الحكيم. ويضرب عزمى مثلا على هذه القرارات بالقرار الخاص (بإنقاذ أراضى فلسطين) فيتساءل هل أسست له شركة؟ هل جمعت له اكتتابات؟ هل خصصت له فى ميزانيات الدول اعتمادات؟ وفى المقابل يعرض محمود عزمى لموقف يهود العالم من مسألة فلسطين قائلا: «إن يهود العالم من وراء يهود فلسطين، ووكالاتهم الصهيونية يمدونهم ويمدونها بالعصب المالى، وبالنفوذ الدينى والسلطان السياسى والاجتماعى، فالمساهمة المالية مفروضة على كل يهودى ويهودية، ورجال الدين لا يفتئون يذكرون (بأرض الميعاد)، ويحضون على الاستمساك بأهدابها وأعضاء مجلس العموم البريطانى ومجلس الممثلين، والشيوخ الأمريكيون من اليهود يقفون من مناقشة المسألة الفلسطينية حين تطرح موقف يهود، لا موقف نائب بريطانى أو ممثل أو شيخ أمريكى،

والمنظمات الانتخابية فى البلدين تساوم بأصوات الناخبين اليهود، مقابل تصريحات عن فلسطين تصدر عن المرشحين والرؤساء، ولجان الأحزاب الإدارية ذاتها.

ويبين محمود عزمى نتائج هذا النشاط اليهودى، الذى جعل الرئيس ترومان يصدر تصريحًا بضرورة قبول مائة ألف يهودى فى فلسطين، وتأليف لجنة مشتركة بريطانية أو أمريكية توصى بفتح باب الهجرة إليها على مصراعيه، وبإطلاق بيع أراضى العرب وأراضى الحكومة إلى اليهود.

وهكذا يقارن محمود عزمى بين موقف اليهود وموقف العرب (الغافلين خارج فلسطين)، مكتفين بالتشدق بالأمل فى الخير لفلسطين.

البعد الدولى للقضية الفلسطينية :

ركز محمود عزمى فى بحثه فى مسألة فلسطين على دور إنجلترا وأمريكا فى الأزمة، فيرى أن المشكلة الفلسطينية قد خلقتها إنجلترا بما أعطت لليهود من وعد بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين، مخالفة بذلك وعدها للحسين بن على بتركه يحقق (الوحدة العربية) الكبرى، شاملة الحجاز والعراق والشام، التى تعد فلسطين جزءًا منها. كما يذكر محمود عزمى دور الإنجليز فى مد اليد الأمريكية إلى فلسطين، تفريجًا لأزمة الانتخابات، لما لليهود فيها من ركن ركين. فتتألف لجنة

مشتركة من أمريكا وبريطانيا تقضى على سياسة الكتاب الأبيض، إذ فتحت أبواب الهجرة إلى فلسطين، ولغت قيود انتقال ملكية الأرض إلى اليهود، ثم تعرض هذه التوصيات على لجنة خبراء مشتركة من أمريكا وإنجلترا أيضًا تقول بتقسيم فلسطين إلى أربع مناطق : منطقة يهودية، وثانية عربية، وثالثة قدسية، ورابعة نجفية، يكون للأولى والثانية نوع من الحكم الذاتى، وتكون الثالثة مميزة عن النظام الإدارى ويكون السلطان السياسى على المناطق الثلاث وعلى المنطقة الرابعة لإنجلترا.

ويشير محمود عزمى أيضًا إلى قيام أمريكا بعملية استثمارات كبيرة لرءوس الأموال الأمريكية، لا فى منطقة النجف الجنوبية فقط، بل فى وادى الأردن أيضًا، وبالاتفاق مع اليهود.

فيذكر محمود عزمى أن مشروع وادى الأردن قد كتبت فيه الجرائد والمجلات الأمريكية والصهيونية، وهو معتبر طريقًا للاستيلاء على شرق الأردن. كما أن مشروع النجف واستنباط المياه من بطن الأرض، مدروس هو الآخر من جانب الصهيونيين واليهود الأمريكيين.

ويشير محمود عزمى إلى أن إنجلترا لم تكتف بالنشاط الاقتصادى لأمريكا فى فلسطين، بل استغلت حوادث الإرهاب التى وقعت فى فلسطين عام ١٩٤٦ لاستدراج أمريكا إلى تحمل جزء من الأعباء العسكرية، كذلك مهددة إياها بالتنازل عن الانتداب على فلسطين

مما يعنى أن يكون لروسيا رأى ووضع فى موقف فلسطين الجديد، وهو ما تخشاه أمريكا.

وهكذا بيّن محمود عزمى أبعاد المؤامرة الأمريكية الإنجليزية على فلسطين، بعد أن بيّن مَن قبل سلبية العرب تجاه فلسطين، ولهذا يفقد محمود عزمى الأمل فى إمكانية إيجاد حل للمشكلة الفلسطينية يأتى عن طريق إنجلترا أو أمريكا.

ولهذا يرفض محمود عزمى قرار جامعة الدول العربية بالذهاب إلى لندن لحضور المؤتمر الذى دعت إليه إنجلترا دول جامعة الدول العربية واللجنة العربية العليا فى فلسطين، والهيئة الصهيونية وشخصيات يهودية أخرى للتباحث فى مشكلة فلسطين، بعد الحوادث التى وقعت عام ١٩٤٦، ويؤكد عزمى ضياع الفرصة أمام الساعين فى الميادين الدبلوماسية، حيث أقرت هذه الميادين الأوضاع بالفعل، ولا ترمى من وراء هذه التمثيليات فوق مسارحها إلا أن تتوافر لديها مظاهر استكمال شروط الاستشارة العربية».[١]

قضية فلسطين فى الأمم المتحدة:

يفشل مؤتمر لندن كما توقع محمود عزمى وتضطر بريطانيا إلى تحويل قضية فلسطين إلى الأمم المتحدة للفصل فيها، وبالفعل تعرض قضية فلسطين أمام هيئة الأمم فى مايو ١٩٤٧ فى دورة استثنائية وتقرر الهيئة تأليف لجنة لبحث القضية.

وبهذه المناسبة يذكر محمود عزمى أربع عبر تجلت خلال تأليف هذه اللجنة :

العبرة الأولى : أن الأمم المتحدة بطبيعة تكوينها، وطريقة تعيين الممثلين لأعضائها، إنما هى (هيئة سياسية) تنظر إلى الأمور المعروضة عليها بمنظار الاتجاهات المقررة لكل دولة من دولها، وهى الاتجاهات المستندة حتماً إلى اعتبارات المصلحة الخاصة بها دون دخل لاعتبار العدالة، أو اعتبار الحق، ودون الوقوف عند الوثائق والأسانيد، أو أخذ بتدليلات الفقه والعهود. ويضرب محمود عزمى على ذلك مثلا بوقوف مصر والدول العربية تنادى بضرورة إعلان استقلال فلسطين كما أعلن استقلال شرق الأردن من قبل، ومناداتها من باب الاحتياط بمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين حتى تنتهى اللجنة من تحقيقها على الأقل. فلم يؤبه لقولها الذى أيدتها فيه روسيا.

ويرجع محمود عزمى هذا الموقف الذى تقفه الهيئة الدولية من المسألة الفلسطينية إلى الاتجاه السائد عند الولايات المتحدة بإدخال الألف المئة من المهاجرين الذين نادى بهم الرئيس ترومان لاعتبارات (انتخابية) من ناحية ولاعتبارات (استقلالية نفوذية) فى الشرق الأوسط من ناحية ثانية.

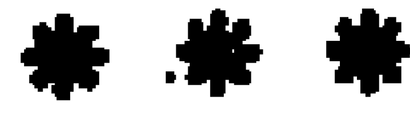
العبرة الثانية : ما تجلى من أن التضامن الطبيعى بين الكتلتين العربية والأمريكية الجنوبية - لرجوع مئات الآلاف والملايين من أهل

أمريكا الجنوبية إلى أصل سورى أو لبنانى - قد أضحى أسطورة من أساطير الأولين. وذلك بسبب موقف رئيس الدورة الاستثنائية - وهو من أبناء أمريكا الجنوبية - ضد العرب، إذ سحب الكلام من بعضهم، وهدد بالاستقالة إذا قبلت الهيئة التى يرأسها اقتراحًا معينًا من اقتراحاتهم.

العبرة الثالثة: نقص الدعاية لأجل قضية فلسطين، أو نقص الدعاية لوجهة نظر الدول العربية وتوفرها بالنسبة لوجهة النظر الصهيونية فقط. ويشير عزمى إلى أن أكثر من واحد من أعضاء هذه الدورة الاستثنائية أعلنوا أنهم لا يعرفون شيئًا عن المشكلة الفلسطينية.

العبرة الرابعة: فعل الإبطاء والتردد، والانزلاق فى تفويت الفرص وتعكير الجو وتمكين الخصوم. ويدلل محمود عزمى على هذا بقرار مجلس جامعة الدول العربية بالذهاب إلى هيئة الأمم لعرض قضية فلسطين فى دورته التى انعقدت فى بلودان. وتردد المجلس فى إعلان قراره وإبطاءه فى اتخاذ إجراءات تنفيذه مما أوقعه فى شباك المفاوضة الثنائية بينه وبين بريطانيا فذهب إلى مؤتمر لندن مؤكدا أنه سيذهب إلى الأمم المتحدة إذا فشل هذا المؤتمر، لكنه قبل التأجيل إلى موعد آخر، ثم بالغ فى حسن الظن حتى انتزعت منه بريطانيا المناداة بالشكوى، فتقدمت هى إلى الدورة الاستثنائية شاكية من الملابسات لا مشكوا من تصرفاتها مما مكن للخصوم فى إنجلترا وفى

أمريكا وفى أنحاء العالم كله من فـــرصة للعمـــل ضـــد القضـــية الفلسطينية.



ومن خلال تتبعنا لموقف محمود عـزمى مـن القضـــايا العـــربية، نستطيع أن نؤكد أن محمود عزمى كان مـن أوائـل المصريـين الـذين اهتموا فى العصر الحديث بانتماء مصر العـربى، وعملـوا على تـدعيمه وتأكيده، ذلك منذ أن تهيأت له فرصة الاتصال بزعماء البلاد العـربية فى أثناء انعقاد مؤتمر لوزان عام ١٩٢٢.

فى الوقت الذى كانت مشـاعر الـكتاب والصـحفيين وأقـلامهم، تتركز فقط حول القضية المصرية دون أى مبالاة بقضايا البلاد العـربية الأخرى، بل إن الفكرة العربية فى مصر وانتماء مصر العـربى، كانـت من الأفكار والاتجاهات التى تواجه معارضة شـديدة مـن كثـير مـن المثقفين المصريين بحجج مختلفة، فالبعض كان يخشى الالتزامات والقيود التى قد يفـرضها انتماء مصر العـربى، والبعض الآخـر كان يـرفض الثقافة العربية من الأساس وينادى بانتماء مصر إلى الغـرب والحضـارة الغربية.

إلا أن محمود عزمى على الرغم مـن ثقـافته الغـربية وانتمائـه الحضارى للغرب، لم يجد تعارضًا بـين ذلك وبـين تضـامن مصر مـع باقى البلاد العربية، وتوثيق صلاتها جميعًا بعضها ببعض.

وإن كان محمود عزمى فى العشرينيات قد أغفل مصطلح (العربية) واستعاض عنه (بالشرقية) إلا أننا لانستطيع أن نعتبره أحد رواد التيار الشرقى، حيث آمن أصحابه بضرورة تضامن بلاد المشرق جميعًا، إذ أن محمود عزمى فى كتاباته عن الشرقية، قد حدد من أبعادها ووضع لها من القيود التى وقفت بها عند حد البلاد الشرقية العربية فقط.

فكانت دعوة محمود عزمى إلى تأكيد الصلات التى تربط بين مصر والعراق والشام وتقويتها، دعوة إلى انتماء مصر العربى وإلى الوحدة العربية، على الرغم من أنه قد عبر عن هذه البلاد بالبلاد الشرقية.

وكان تحديد محمود عزمى لهذه البلاد فقط دون باقى البلاد الشرقية، أساسه روابط اللغة والتاريخ والدين، وهو دليل على إيمان محمود عزمى بفكرة العروبة والقومية العربية وتأكيده على توافر عناصرها.

وقد تخلص محمود عزمى بالفعل من استخدام مصطلح (الشرقية) منذ الثلاثينيات، عندما تطور إيمانه بالعروبة، وبإمكانة قيام جبهة من شعوب العربية تضم كافة البلاد العربية دون تحديد للشرقية منها فقط. مؤكدًا على أن ما يجمع هذه البلاد من الدين واللغة والتاريخ والعادات والتقاليد، عناصر قوية يمكن أن تقوم عليها هذه الجبهة. لذلك اهتم محمود عزمى بالسفر إلى هذه البلاد للتعرف على

أحوالها ومشاكلها حتى يستطيع أن يعبر تعبيرًا صادقًا عنها، وكوّن بالفعل (كما يذكر) صداقات عديدة مع زعماء النهضات فيها، وحاول دائمًا أن يؤكد على الرغبة الجماعية للشعوب العربية فى توثيق صلاتها بعضها ببعض واتحادها.

إلا أن محمود عزمى وهو ينادى بالوحدة العربية، قد أغفل أن مثل هذه الدعوة فى تلك الظروف السياسية التى كانت تسود البلاد العربية، من تغلغل للاستعمار وبدرجات مختلفة فى أجزائها - صعبة التحقيق بل مستحيلة، لأنها حتى ولو تمت فستكون تحت سيطرة الاستعمار يسخرها لنفوذه، كما حدث بالفعل عندما تكونت جامعة الدول العربية.

كما أغفل محمود عزمى الحركات الوطنية التى كانت تقوم فى هذه البلاد ضد القوى المحتلة لها، وربما كان ذلك بسبب رغبة محمود عزمى فى عدم التدخل فى الشئون السياسية الداخلية لهذه البلاد، أو خوفًا من أن تؤلب كتاباته عن هذه الحركات الدول الأوربية المستعمرة على مصر.

وفى الخمسينيات، وبعد أن برزت وحدة قضايا العالم الثالث الممثل فى أفريقيا وآسيا، أمام المحافل الدولية ضد الاستعمار الغربى، الذى يشل مقدراتها السياسية ويتحكم فى اقتصادياتها، بدأ محمود عزمى يخرج عن نطاق (العربية) ليدعو إلى نطاق أوسع وأشمل بأن تشكل الدول الأفريقية والأسيوية نظامًا متكاملا ثالثًا، يقف فى وجه

النظام الاستعمارى الغربى والنظام الاشتراكى. ولهذا شجع محمود عزمى كل خطوة من شأنها أن تؤدى إلى مزيد من التقارب بين الدول الأفريقية والأسيوية، وشجع كل صوت يعلو لها ينادى باحترام قضاياها المصيرية، أما عن موقف محمود عزمى من قضية فلسطين، فنجد أنه أهمل القضية الفلسطينية والحركة الوطنية فى فلسطين، خاصة فى فترة العشرينيات والثلاثينيات، وهى الفترة المجيدة فى نضال عرب فلسطين ضد الإنجليز واليهود على السواء والتى شهدت عددًا من الانتفاضات الشعبية.

وبهذا يتواءم موقف محمود عزمى من قضية فلسطين مع الموقف المصرى العام من القضايا العربية، بالتركيز فقط على قضايا مصر الداخلية والخارجية.

ونضرب على هذا مثلا أن محمود عزمى لم يتابع فى مقالاته أحداث البراق عام ١٩٢٩، وحركة الشيخ القسام* عام ١٩٣٥،

* الشيخ عز الدين القسام أحد علماء فلسطين وخطبائها، وممن درسوا على يد الإمام الشيخ محمد عبده، وكان يشغل رئيس جمعية الشبان المسلمين فى حيفا، وخطيب مسجدها. رأى ما وصلت إليه حال فلسطين، وأيقن أن السلطة البريطانية جادة فى إقامة الوطن الصهيونى على أنقاض الكيان العربى، فكون مع عدد من تلاميذه حركة للجهاد تولاها بالتنظيم وإعداد السلاح ورسم الخطط بشكل سرى لمدة عامين. ثم انتقل إلى الجبال، حيث بدأت حركته فى اغتيال البريطانيين والصهيونيين، ووصل أمرهم إلى السلطات، ونشبت معركة بين القسام ومئات من الجند البريطانيين ومن البوليس الوطنى مما أدى إلى استشهاد القسام وثلاثة من رفاقه.

وأحداث ثورة ١٩٣٦ فى القدس.

أما فى الأربعينيات وهى الفترة التى شهدت محمود عزمى مناضلا وطنيًا ضد الاحتلال الإنجليزى وضد القيادات الحزبية التقليدية فى مصر.. شهدت أيضًا دفاعه المجيد عن عروبة فلسطين، ووقوفه بجانب القضية الفلسطينية، مناشدًا العرب جميعًا أن ينهضوا لنصرة فلسطين رافضًا أساليبهم السلبية فى معالجة القضية الفلسطينية، منددًا بأى قرارات من شأنها أن تنتقص من حق عرب فلسطين، مبينًا المؤامرات الدولية التى تدبر حولها، مناديا بالكفاح المسلح ضد الاستعمار والصهيونية فى فلسطين.

محمود عزمى والأمم المتحدة

اتصل محمود عزمى بالمحافل الدولية، فى أثناء عمله بالحكومة المصرية مديرًا للتشريع فى مصلحة الضرائب، حيث مثل مصر فى لجنة الضرائب الدولية التابعة لعصبة الأمم فى يونية ١٩٣٩.

وبعد استقالته من الحكومة، انتخب عضوًا بلجنة الضرائب والتى استمرت بعد إنشاء هيئة الأمم المتحدة.

ومن ناحية أخرى، انغمس محمود عزمى فى البيئات الدولية، من خلال متابعته الصحفية لاجتماعات مؤتمرات الصلح والاقتصاد ونزع السلاح، ودورات عصبة الأمم.

وعندما تأسست هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٥، عكف محمود عزمى على ملاحقة أوجه نشاطها المختلفة من خلال متابعته لأعمال مجالسها ولجانها.

لهذا لم يكن محمود عزمى غريبًا عن المجتمع الدولى، عندما اختارته وزارة الخارجية ليمثل مصر بصفته الشخصية فى لجنة حرية الأنباء الفرعية التابعة للمجلس الاقتصادى والاجتماعى عام ١٩٤٩..

وتقدم محمود عزمى عن طريق هذه اللجنة بمشروع عهد الشرف

الدولى للصحفيين عام ١٩٥٠، كما شارك فى وضع اتفاقية تصحيح الأنباء، واقتراح المعاونات الفنية لمنشآت الاعلام القومية، واقترح تعميم نشر قرارات الأمم المتحدة فى بلاد دولها الأعضاء.

وكانت مواقف محمود عزمى البارزة فى الدفاع عن حرية الصحافة، والمساهمة فى وضع تقاليد دولية تحكم تصرفاتها، سببًا فى اختياره رئيسًا للجنة حرية الأنباء فى مارس ١٩٥٢.

وفى أثناء دور انعقاد الجمعية العامة فى سبتمبر ١٩٥٠ يختار محمود عزمى ضمن الوفد المصرى الذى رأسه محمد صلاح الدين وزير الخارجية، واختير محمود عزمى من بين أعضاء الوفد ليمثل مصر فى لجنة الشئون الاجتماعية والثقافية وهى إحدى اللجان الفرعية للجمعية العامة.

وفى عام ١٩٥١ يختار محمود عزمى لتمثيل مصر فى لجنة حقوق الإنسان، وهى اللجنة التى أنشئت بهدف أن تقدم للمجلس الاقتصادى والاجتماعى «اقتراحات وتوصيات وتقارير خاصة بإعلان دولى لحقوق الإنسان وباتفاقات دولية عن الحريات الوطنية، وحالة المرأة، وحرية الإعلام، وحماية الأقليات، والاحتياط لعدم وقوع تمييز بسبب الجنس أو النوع أو اللغة أو الدين. وتشعبت إلى ثلاث لجان فرعية تتناول أمور (أحوال المرأة)، و (حرية الإعلام والصحافة)، و(الأقليات ومنع التمييز العنصرى) ويبرز نشاط محمود عزمى فى لجنة حقوق الإنسان فينتخب رئيسًا للجنة فى مارس ١٩٥٣ ويعاد انتخابه

مرة أخرى فى مارس ١٩٥٤.

وفى يوليو ١٩٥١ ينتدب محمود عزمى لتمثيل مصر فى المجلس الاقتصادى والاجتماعى بوصفه مراقبًا.

وفى أكتوبر من العام نفسه، يختار عزمى ضمن أعضاء وفد مصر المناوبين لهيئة الأمم فى أثناء انعقاد الجمعية العامة فى باريس، ويصبح محمود عزمى المتحدث الرسمى للوفد المصرى فى أثناء هذه الدورة.

وفى سبتمبر من العام التالى يختار ضمن أعضاء وفد مصر الأصليين فى أثناء انعقاد الجمعية العامة.

وفى يوليو ١٩٥٣ يشترك محمود عزمى فى وفد مصر لدى المجلس الاقتصادى والاجتماعى فى أثناء انعقاده بباريس.

وفى مايو ١٩٥٤ يصدر مرسوم بتعيينه رئيسًا لوفد مصر الدائم فى الأمم المتحدة واستمر محمود عزمى يدافع عن قضايا مصر والعالم أمام مجلس الأمن إلى أن توفى فى ٣ نوفمبر ١٩٥٤ إثر نوبة قلبيه فاجأته وهو يرد على مزاعم إسرائيل فى مجلس الأمن بشأن حادث السفينة (بات جاليم)، التى احتجزتها السلطات المصرية. وكان لوفاة محمود عزمى الأثر البالغ فى المنظمة الدولية، فنكست الأعلام على مبنى الأمم المتحدة، وأوقفت جميع اللجان أعمالها دقيقة واحدة حدادًا، وأعلنت الوفود العربية الحداد، وألغت جميع حفلاتها لمدة أسبوعين. كما خصصت الجمعية العامة جلسة لرثاء محمود عزمى استمعت فيها إلى كلمات ٣٣ مندوبًا تشيد بجهوده فى الأمم المتحدة.

أهم القضايا التى دافع عنها محمود عزمى فى الأمم المتحدة:

١ - حرية الإعلام والصحافة.

٢ - حقوق الإنسان.

٣ - حقوق المرأة.

٤ - قضايا مصر السياسية والاقتصادية.

حرية الإعلام:

تعرضنا فى الفصل الخاص بموقف محمود عزمى من القضايا الصحفية إلى دوره فى تدعيم حرية الصحافة من خلال الأمم المتجدة.

وسنكتفى هنا بأن نؤكد أن موضوع حرية الإعلام والصحافة كان من أهم الموضوعات التى ركز عليها محمود عزمى فى جميع المجالس واللجان التى اشترك فيها، التابعة للأمم المتحدة سواء فى لجنة حرية الأنباء، أو فى اللجنة الاجتماعية، أو فى المجلس الاقتصادى والاجتماعى، أو فى الجمعية العامة.

حتى أصبح محمود عزمى - كما سبق أن ذكرنا - يعرف بأنه المدافع الأول عن حرية الصحافة فى الأمم المتحدة.

حقوق الإنسان:

صدر الإعلان العالمى لحقوق الإنسان فى ١٠ ديسمبر ١٩٤٨

الذى أعدته لجنة حقوق الإنسان، وهى إحدى اللجان الفرعية للأمم المتحدة التى أنشئت عام ١٩٤٦، ووكلت إليها الهيئة ثلاث مهام: الأولى، إخراج الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، والثانية، صياغة نصوص المواثيق، والثالثة، تحديد إجراءات تنفيذ المواثيق واحترام أحكامها.

حقوق الإنسان فى اللجنة الاجتماعية:

بدأ جهاد محمود عزمى فى مجال حقوق الإنسان منذ أن مثل مصر عام ١٩٥٠ فى اللجنة الاجتماعية والثقافية التابعة للجمعية العامة. فوقف ضد المناورات التى تقوم بها الدول الاستعمارية لإضافة فقرة جديدة إلى ميثاق حقوق الإنسان، تجعلها غير ملزمة بتطبيق أحكام الميثاق فى المستعمرات وفى البلاد غير المتمتعة بالحكم الذاتى.

واعتبر محمود عزمى أن إضافة هذه الفقرة يعد معارضة لحقوق الإنسان التى وضعت للإنسان بصفة عامة دون تفرقة فى اللون أو الدين أو الجنس، أو فى درجة التمدن التى وصل إليها.

وذكر محمود عزمى أن الدول التى تسعى لعدم تطبيق حقوق الإنسان فى هذه المناطق، إنما هى تهدف إلى التمييز بين شعوبها وبين الشعوب التى تحكمها، وتعيد إلى الأذهان نظرية هتلر عن الأجناس.

وأكد محمود عزمى أن مصر بوصفها عضوًا فى اللجنة الاجتماعية، ستقف إلى النهاية فى وجه مناورات الدول الاستعمارية، وأنها ستصر

على إضافة فقرة جديدة تنص على وجوب تطبيق الدول الاستعمارية لميثاق حقوق الإنسان فى المستعمرات، وفى البلاد التى لا تتمتع بالحكم الذاتى.

وطالب محمود عزمى اللجنة الاجتماعية بأن تنتهى من وضع فقرة جديدة فى الميثاق تتضمن الحقوق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

الحقوق السياسية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية :

ينتخب محمود عزمى عضوًا فى لجنة حقوق الإنسان عام ١٩٥١، ويشارك فى صياغة مشروع ميثاقين، أحدهما خاص بالحقوق السياسية، وثانيهما خاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

ويطرح هذين الميثاقين للمناقشة فى المجلس الاقتصادى والاجتماعى، وعلى الرغم من أن محمود عزمى قد مثل مصر فى دورة المجلس بصفته مراقبًا، (أى ليس له حق التصويت)، فإنه استطاع أن يدافع عن حقوق الإنسان ويؤكد أحقية جميع الشعوب فى التمتع بها، بغض النظر عن الجنس أو اللون أو الدين.

وتعرض توصيات لجنة (حقوق الإنسان) الخاصة بوسائل الاحترام الدولى لهذه الحقوق أمام الجمعية العامة عام ١٩٥٢، وتثار مسألة حق الشعوب والأمم فى تقرير مصيرها. ويؤكد محمود عزمى أن هذا الحق من الحقوق الأساسية، ويطالب بأن يكون تطبيقه مستندًا إلى استفتاء

حر يجرى تحت إشراف الأمم المتحدة.

وتتكتل الدول الاستعمارية ومن يدور فى فلكها فى الجمعية العامة، رافضة تطبيق أحكام الميثاقين فى المستعمرات وغيرها من المناطق غير المتمتعة بالحكم الذاتى، وينجح محمود عزمى فى تكتيل ممثلى الدول الأفريقية والاسيوية ودول أمريكا اللاتينية، ضد الدول الاستعمارية، مؤكدًا أحقية شعوب المستعمرات فى التمتع بالحقوق السياسية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية كالشعوب المتمدينة.

وينتهى الأمر بفوز كتلة الشعوب الأفرو أسيوية وتصدر الجمعية العامة قرارًا يقضى بأن تقرير المصير حق من حقوق الإنسان بأغلبية ٣٤٥ صوتًا ضد ١٣ صوتًا.

وفى أبريل ١٩٥٣ ينتخب محمود عزمى رئيسًا للجنة حقوق الإنسان بالإجماع، ويؤكد أعضاء اللجنة أن انتخاب عزمى رئيسًا كان نتيجة للمواقف البارزة التى وقفها فى الأمم المتحدة، وخاصة فى الدفاع عن حقوق الإنسان وحريات الشعوب.

وتبدأ لجنة حقوق الإنسان فور رئاسة عزمى لها فى إنجاز ميثاق الحقوق السياسية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ليكونا عهدين دوليين ترتبط بهما الدول فى تنفيذ الحقوق السياسية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية لرعاياها.

وقد انتهت اللجنة فى أثناء رئاسة عزمى من إعداد مشروع اتفاقين عن حقوق الإنسان والتدابير اللازمة لتنفيذهما كما وافقت على

التوصيات الخاصة بحقوق الشعوب فى تقرير مصيرها بنفسها.

كما تقدم محمود عزمى إلى اللجنة بمشروع اتفاقية عن حق المواطن فى شكوى حكومته إلى الأمم المتحدة فيما يصيبه من مظالم وانتهاكات لحقوق الإنسان.

فقد رأى أن من واجب الأمم المتحدة أن تتلقى شكاوى المواطنين فى شتى الدول، على شرط أن تكون الشكوى مقدمة عن طريق النقابات أو الجمعيات المعترف بها دستوريًا وقانونيا فى الدولة التى تصدر منها الشكوى، على أن تثبت هذه الهيئات أنها استنفذت كل الوسائل المشروعة، لتدفع ما وقع على هذا المواطن من ظلم وانتهاك لحق من حقوق الإنسان، وعندئذ يكون من واجب الأمم المتحدة أن تتلق الشكوى، وأن تقوم بالتحقيق فيها، وأن يكون التحقيق بواسطة هيئة تؤلفها الأمم المتحدة من أفراد تتوافر فيهم النزاهة والخبرة.. فإذا انتهت إلى التأكد من صحة الشكوى وسلامتها، فإن على الأمم المتحدة أن تقوم بدور الوسيط، وأن تقدم (مساعيها الحميدة) لدى الحكومات لكى تصحح الخطأ أو ترفع الظلم وفق ما تقضى به حقوق الإنسان.

وهذه الفكرة التى وضعها محمود عزمى قد أثمرت اتفاقية دولية أقرتها الجمعية العامة فى سنة ١٩٦٦ وهى المعروفة باسم (بروتوكول اختيارى ملحق بالميثاق الخاص بالحقوق المدنية والسياسية).

منع الاضطهاد العنصرى وحماية الأقليات:

تولى محمود عزمى رئاسة المندوبين المصريين بلجنة الشئون الاجتماعية فى أكتوبر ١٩٥٣، التى انعقدت لمناقشة مشروع تقدمت به الهند ولبنان وليبيريا وأكوادور وهايتى والفلبين، بشأن تقديم مساعدات فنية لمنع الاضطهاد العنصرى وحماية الأقليات. ويؤيد محمود عزمى هذا المشروع ويعتبره متفقًا مع أغراض ميثاق حقوق الإنسان والخاصة بالمساواة.

وهكذا يتضح نضال محمود عزمى من أجل تحقيق المساواة بين جميع البشر، دون النظر إلى الجنس أو اللغة أو الدين.

وقد كرمت الأمم المتحدة محمود عزمى لمواقفه البارزة من حقوق الإنسان، فوضعت صورته فى مكان ظاهر من قسم (حقوق الإنسان) فى المعرض الدائم للأمم المتحدة الذى افتتح فى سبتمبر ١٩٥٣، والعربى الثانى الذى وضعت صورته فى هذا المعرض هو الدكتور شارل مالك ممثل لبنان فى الأمم المتحدة.

حقوق المرأة:

آمن محمود عزمى بمساواة المرأة بالرجل، وطالب لها بكافة الحقوق التى للرجل سواء كانت حقوقًا سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، ذلك على الرغم من الموقف الذى اضطر أن يقفه إزاء

مسألة الحقوق السياسية للمرأة بصفته ممثلا لمصر فى الأمم المتحدة.

ففى بادئ الأمر امتنعت مصر عن إبداء الرأى عندما أقر المجلس الاقتصادى والاجتماعى فى مايو ١٩٥٢ مشروع اتفاقية دولية خاصة بحقوق المرأة السياسية وضعتها (لجنة المرأة) التابعة للمجلس الاقتصادى والاجتماعى. فكانت مصر من ضمن الدول الست الممتنعة عن التصويت.

وقد تضمنت هذه الاتفاقية نصوصًا تقضى بمساواة المرأة بالرجل فى حق الانتخاب للهيئات النيابية وفى تولى الوظائف العامة وفى الترشيح لعضوية تلك الهيئات النيابية، كما تقضى بتطبيق تلك الأحكام على جميع البلاد، سواء منها المستقلة أو غير المستقلة، مستعمرات أو أقاليم غير متمتعة بالحكم الذاتى، أو خاضعة للوصاية.

ويعلل محمود عزمى موقف مصر من هذه الاتفاقية بتعدد التيارات وتضاربها فى مصر بالنسبة لحقوق المرأة السياسية. فتيارات ينادى بعضها بضرورة منح المرأة حق الانتخاب وسائر الحقوق السياسية وينادى بعضها الآخر بمقاومة الحركة الداعية إلى هذه الحقوق وينادى بعضها الثالث بضرورة النزول عند رأى علماء الإسلام، ولهذا لم يكن أمام مندوب مصر إزاء ذلك الاضطراب فى وجهات النظر، إلا أن يطلب تأجيل النظر فى مشروع الاتفاقية إلى أن تنتهى لجنة حقوق الإنسان من صياغة ميثاق حقوق الانسان السياسية والاقتصادية والاجتماعية، دافعًا بأن ميثاق حقوق الإنسان السياسية إنما يشمل

حقوق (الإنسان) بنوعية فلا محل للانفراد فى اتفاقية بخصوص المرأة، وهى أحد هذين النوعين. وكان محمود عزمى يؤيد فى قرارة نفسه الاعتراف بحقوق المرأة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولكنه كان هنا يمثل حكومة مصر قبل أن تمنح الثورة المصرية المرأة حقوقها السياسية.

حقوق المرأة فى الجمعية العامة:

وتبدأ دورة الجمعية العامة فى سبتمبر ١٩٥٢ ويتضمن جدول أعمالها بندًا خاصًا بقرار المجلس الاقتصادى والاجتماعى عن مشروع الاتفاقية الدولية لحقوق المرأة السياسية، وتحول الجمعية العامة هذا البند إلى اللجنة الاجتماعية والثقافية التى كان يمثل مصر فيها محمود عزمى.

وحاول محمود عزمى أن يحصل على بعض التصريحات المصرية المؤيدة لمشروع الاتفاقية، إلا أن هذه التصريحات المؤيدة قد واجهتها معارضة قوية فآثر أن يكون الموقف من الجمعية العامة هو الموقف السابق ذاته من المجلس الاقتصادى والاجتماعى، وهو الدفع الفرعى بتأجيل النظر حتى تنتهى اللجنة من صياغة ميثاق حقوق الإنسان.

ومرة أخرى ينتصر المجتمع الدولى لحقوق المرأة السياسية فتوافق الجمعية العامة على مشروع الاتفاقية بأغلبية ٤٩ صوتًا وامتناع ١١ دون معارضة أى صوت عليه، وكانت مصر بين الدول الممتنعة عن التصويت.

واعتبر محمود عزمى أن هذا الموقف الذى وقفته مصر من المشروع فى اللجنة الاجتماعية نشازًا غير مألوف، حيث اعتادت اللجنة ألا يقف ممثلو مصر فيها غير مواقف الإدلاء بالآراء الصريحة ومواقف القيادة إلى حيث الاتجاهات الواضحة.

ويتغير الموقف المصرى من الاتفاقيات الخاصة بحقوق المرأة فى المنظمة الدولية بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ إذ بدأ رجالها فى التأكيد على أن المرأة فى هذه المرحلة الجديدة من تاريخ البلاد، سوف تساهم بنصيب وافر فى مشروعات البلاد وتؤدى واجبها الوطنى فى خدمة بلادها جنبًا إلى جنب مع الرجل.

كما أعلن اللواء محمد نجيب فى الاحتفال بذكرى تأسيس الاتحاد النسائى أن المرأة نصف المجتمع، ولها أهمية عظمى، وعليها أن تشترك فى العمل على تقدم البلاد.

واستمرت الأصوات المؤيدة لإعطاء المرأة حقوقها السياسية، وقد تبلورت هذه الأصوات فى قرار لجنة الحريات والحقوق والواجبات العامة - التى كان محمود عزمى أحد أعضائها - وهى إحدى اللجان المتفرعة عن لجنة وضع الدستور عام ١٩٥٣، حيث أكدت هذه اللجنة على أن يتضمن الدستور مادة تنص على المساواة بين الرجل والمرأة فى الحقوق السياسية، على أن يترك للمشرع تنفيذ هذا النص على مرحلة واحدة أو أكثر حسبما يقضى به الصالح العام وظروف البلاد وأحوالها، ووضعت اللجنة النص المطلوب للمادة وهو: «للمرأة

جميع الحقوق السياسية التى للرجل، وينظم القانون ممارسة المرأة لهـذه الحقوق».

وأكد محمود عزمى فى حديث له مع جـريدة (نيـويورك تـايمز)، على أن المرأة المصرية ستقف على قدم المسـاواة تمـامًا مـع الـرجل فى كافة الحقوق السياسية والاجتماعيـة والاقتصـادية فى الـدستور الجـديد، وتوقع أن ينهى صدور الدستور النضال الطويل القوى الذى اضطلعت به المنظمات النسائية فى سبيل تحرير المرأة المصرية.

وهكذا بدأ محمود عزمى فى الاشتراك الفعلى لتـأكيد حقـوق المرأة ومساواتها بالرجل من خلال المنظمة الدولية.

حقوق المرأة فى اللجنة الاجتماعية:

يرأس محمود عزمى المندوبين المصريين فى لجنة الشئـون الاجتماعيـة والثقافية فى سبتمبر ١٩٥٣، وقد اشـتمل جـدول أعمالهـا على تسـع مواد، من بينها ثلاثة خاصة بشئون المرأة وتنحصر فى : المعونة الفنية لصيانة حقوق المرأة، ودعوة الدول غير المشتركة فى عضوية هيئة الأمم المتحدة للانضمام إلى ميثاق الحقـوق السـياسية للمـرأة، وفى المنـاداة بالنهوض بحقوق المرأة السياسية فى البلاد التى تتمتع فيها المرأة بـكامل هذه الحقوق.

ويصبح للوفد المصرى فى اللجنة مـطلق الحـرية فى منـاقشة هـذه الموضوعات التى تخص المرأة.

وبالفعل تؤيد مصر على لسان محمود عزمى مشروع قرار يقضى على الدول بأن تتخذ جميع التدابير اللازمة، ولاسيا التدابير التربوية الكفيلة بالنهوض بالحقوق السياسية للمرأة فى جميع البلاد التى لا تتمتع فيها المرأة بالحقوق السياسية.

دفاع عن مركز المرأة فى مصر:

وأشار محمود عزمى رئيس وفد مصر فى اللجنة إلى مذكرة قدمها داج همرشلد السكرتير العام للأمم المتحدة تضمنت أسماء البلاد التى لا تتمتع فيها المرأة بالحقوق السياسية ومن بينها مصر.

وأشار محمود عزمى أنه لا يليق ذكر اسم مصر بين هذه البلاد، وذلك لأنها فى خلال الخمسين سنة الأخيرة فتحت أبواب الوظائف العامة للمصريات، وإن كن لا يتولين المناصب الوزارية. فإنهن يشغلن مناصب إدارية كبيرة، فمنهن الأستاذات فى الجامعة، ومنهن مراقبات الأفلام.

محمود عزمى.. وقضايا مصر فى الأمم المتحدة:

ساهم محمود عزمى فى عرض كثير من القضايا والمشكلات التى تهم مصر، أمام المنظمة الدولية فى الجمعية العامة، وفى المجلس الاقتصادى والاجتماعى وفى مجلس الأمن.

قضايا مصر فى الجمعية العامة :

بدأ محمود عزمى الاشتراك فى وفد مصر فى الجمعية العامة منذ عام ١٩٥٠.

واشترك مع محمود فوزى ومحمود أبو الفتح الممثلين عن مصر مع ممثلين عن سوريا والسعودية ولبنان والعراق، فى تأليف لجنة تكون مهمتها الاتصال ببقية الوفود وبذل نشاط فى أروقة المجلس لصالح القضايا التى تهم العالم العربى. وكلف مندوبو مصر فى هذه اللجنة بالاتصال بمندوبى أثيوبيا وأفغانستان وباكستان لتقريبهم من وجهة النظر العربية.

وبعد انتهاء دورة الجمعية العامة، قرر وزير الخارجية تأليف لجنة من عدد من أعضاء الوفد من بينهم محمود عزمى لتنسيق الوسائل الخاصة بوضع تقارير عن نصيب مصر فى أعمال اللجان المختلفة للهيئة الدولية. ثم إدماجها فى تقرير عام.

وقررت هذه اللجنة إعداد سلسلة من المحاضرات عن قضايا مصر فى هيئة الأمم المتحدة فى النواحى : السياسية، والقانونية، والاقتصادية، على أن تلقى هذه المحاضرات فى النوادى العامة، وتعقبها مناقشات تشترك فى إذاعتها إدارة العلاقات الخارجية بالإذاعة اللاسلكية.

وقام محمود عزمى بالفعل بإلقاء محاضرتين تعطى ملامح عن دور

مصر فى الأمم المتحدة، إحداهما فى النادى الثقافى، والأخرى فى نقابة الصحفيين.

دورة الجمعية العامة عام ١٩٥١:

شغل محمود عزمى فى هذه الدورة وظيفة المتحدث الرسمى للوفد المصرى، ونجح عن طريق المؤتمرات الصحفية التى عقدها فى عرض وجهات النظر المصرية من المسائل التى تعرض أمام الجمعية العامة والخاصة بالقضية المصرية - البريطانية.

إلغاء معاهدة ١٩٣٦:

فعقد محمود عزمى مؤتمرًا صحفيًّا أوضح فيه موقف مصر من إلغاء معاهدة ١٩٣٦، وبين رفض مصر لوساطة نورى السعيد لحل الخلاف بين مصر وبريطانيا، مؤكدًا أن مصر مستعدة لجميع الاحتمالات والتطورات فى كفاحها ضد بريطانيا، وأنها لن تتراجع أو تتحول عن قرار إلغاء معاهدة ١٩٣٦، ولن تغير موقفها الرافض للمشروع الرباعى للدفاع عن الشرق الأوسط.

واختتم محمود عزمى حديثه بتوضيح أن موقف مصر فى نزاعها مع بريطانيا قد تحدد نهائيًّا، وصدر به تشريع أقره البرلمان المصرى، فأى تغيير يتطلب إصدار تشريع برلمانى آخر. كما أوضح أن مصر قدمت اقتراحًا صريحًا محددًا لتسوية مشكلة السودان أمام الجمعية العامة وذلك هو كل ما تستطيع أن تفعله.

ويعقد محمود عزمى عدة مؤتمرات صحفية للرد على ما ذكره أنطونى إيدن بشأن تعديل معاهدة ١٩٣٦، فيفند مزاعم إيدن من أن هناك حسن علاقات بين القوات البريطانية والقوات المصرية، مؤكدًا أن مصر لم تستخدم جيشها فى حوادث القناة، لأن الحكومة المصرية رأت أن قوات البوليس كافية لحفظ الأمن، وأن المحافظة على الأمن من اختصاص البوليس أولا، وليس للجيش أن يتدخل فى ذلك إلا فى الأحوال غير العادية، وأشار إلى أن الحكومة المصرية هى التى أصدرت أوامرها إلى الجيش بعدم التدخل.

ويؤكد محمود عزمى أن الجيش المصرى فى مقدمة الحاقدين على بريطانيا، لأنها عملت على حرمانه من الأسلحة ولأن الجيش المصرى لن ينسى أبدًا تصرفات الإنجليز فى السودان بعد مقتل السردار عام ١٩٢٤.

وفى مؤتمر صحفى آخر، أكد محمود عزمى، أن مصر ستبقى متمسكة بمبدأ الجلاء، ونفى أنها ستعاود المفاوضات على أساس مبدأ الجلاء على مراحل متتالية.

دورة الجمعية العامة عام ١٩٥٢ :

يشترك محمود عزمى فى هذه الدورة، بوصفه أحد أعضاء وفد مصر الأصليين، وتناقش الجمعية العامة فى هذه الدورة، البند الخاص بتدابير الأمن الجماعى التى صدر قرار بها من الجمعية العامة عام

١٩٥١ مستندًا إلى اقتراح الولايات المتحدة الأمريكية، شاركتها في تقديمه ٢٠ دولة أخرى.

ويلقى رئيس وفد مصر بهذه المناسبة بيانًا، يعلن فيه ضرورة توزيع الأعباء المترتبة على تدابير الأمن بطريقة عادلة بين الدول المشتركة في اتخاذها، كما اشترط في نهاية بيانه ألا يترتب على هذه التدابير احتلال عسكرى لأراضى إحدى الدول المشتركة فيها سواء كان احتلالا جزئيًا أم كليًا، كما حتم مساعدة الدول الضعيفة اقتصاديًا وعسكريًا إذا أريد لها القدرة على دفع العدوان.

ويرى محمود عزمى، أن هذه الاتجاهات التى جاءت فى البيان، إنما تستند إلى اعتبارات العدل والاستقلال والواقعية، التى ينبغى أن تسود المناقشات التى تجرى فى المنطقة الدولية. ويقرر أن هذه الاتجاهات تتفق وميثاق الأمم المتحدة، الذى يقوم من ناحية على مبدأ التفاوت فى القدرة والإمكان بين الدول الكبيرة والصغيرة والدول المتوسطة، ومن ناحية ثانية يقوم على مبدأ التساوى فى السيادة بين أعضاء الأمم المتحدة جميعًا، كما يقوم من ناحية ثالثة على فكرة تقديم المعاونات إلى الدول المتخلفة.

ويشير محمود عزمى إلى أن مناداة المندوب المصرى بعدالة توزيع الأعباء المترتبة على تدابير الأمن، إنما تتماشى مع قاعدة التفاوت فى القدرة والإمكان، واشتراطه ألا يترتب على تلك التدابير احتلال عسكرى، إنما يتصل بمبدأ المساواة المطلقة بين الأعضاء فى السيادة

ومناداته بحتمية مُساعدة الدول الضعيفة اقتصاديًا وعسكريًا، إنما هو الطريق الوحيد لجدية تنفيذ نظام لتدابير الأمن الجماعى.

محمود عزمى.. فى المجلس الاقتصادى والاجتماعى وقضايا مصر الاقتصادية والاجتماعية :

اتصل محمود عزمى بالمجلس الاقتصادى والاجتماعى، عن طريق عضويته للجنة حرية الأنباء ولجنة حقوق الإنسان التابعتين للمجلس.

وقد مثل مصر فى المجلس بوصفه مراقبًا فى أثناء دور انعقاده فى يوليو عام ١٩٥١، حيث ناقش المجلس المركز الاقتصادى العالمى وبصفة خاصة ما يتعلق بالحالة الاقتصادية فى الشرق الأوسط وأفريقيا، كما ناقش المجلس برنامج الأمم المتحدة للمعونة الفنية وهو البرنامج الذى اشتركت مصر فى تمويله والاستفادة منه، وكذلك موضوع المساعدة الفنية والمالية التى يمكن تقديمها إلى ليبيا.

وعلى الرغم من أن محمود عزمى لم يكن له حق التصويت لعدم اشتراك مصر فى عضوية المجلس فى ذلك الوقت، فإنه استطاع الاشتراك فى المناقشات وإبراز وجهة النظر المصرية.

ويناقش المجلس الاقتصادى والاجتماعى مشروعًا بإنشاء لجنة اقتصادية تابعة للأمم المتحدة، مهمتها العمل على تحسين الأحوال فى الشرق الأوسط، إلا أن هذا المشروع وجد معارضة من العرب لانضمام إسرائيل إلى اللجنة.

وأكد محمود عزمى أن مصر والبلاد العربية تعارض إنشاء أية لجنة فى الوقت الحاضر، بسبب الأوضاع فى الشرق الأوسط. ويشترك محمود عزمى فى عام ١٩٥٣ فى وفد مصر فى المجلس الاقتصادى والاجتماعى، ويشرح محمود عزمى موقف بلاده من الموضوعات المطروحة للبحث فى المجلس.

مشروعات إنعاش البلدان المتخلفة :

أكد محمود عزمى أن مصر تحتاج فقط إلى الخبراء الفنيين. وأنها تعارض إرغام الدول المتخلفة اقتصاديًا على قبول رءوس الأموال الأجنبية خشية أن يصحب الاستثمار المالى الأجنبى تدخل سياسى أجنبى فى الشئون السياسية الداخلية لتلك البلدان.

وطالب محمود عزمى فى حالة إرسال خبراء إلى مصر بضرورة إرسال أسمائهم أولا إلى الحكومة المصرية، حتى تتأكد من أنهم لا يقلون خبرة عن الخبراء المصريين.

الإصلاح الاجتماعى :

ذكر محمود عزمى أن مصر تهتم اهتمامًا بالغًا ببرامج النشاط العملى فى مجال الإصلاح الاجتماعى، وأكد على أن هذه البرامج سوف تحقق فائدة عظمى لمصر، خاصة بعد الجهود التى تبذل فى سبيل الإصلاح الاجتماعى من قادة الثورة.

الاهتمام بالصحة العامة :

وأشار محمود عزمى إلى أن مصر تحصل على عون كبير من صندوق الطوارئ الدولية لإغاثة اللاجئين، وترغب فى أن يستمر هذا العون فى الوصول إليها، وأكد أن مصر تريد أن يبنى المزيد من المراكز الصحية للأطفال، والمزيد من معامل الأمصال لمقاومة الأوبئة وتريد إنشاء معمل لإنتاج مادة الـ (د. د. ت).

منع التفرقة وحماية الأقليات :

وأكد محمود عزمى على أنه لا يوجد فى مصر أقليات، ولا توجد أية تفرقة بين الطبقات، وأشار إلى أن مصر تهتم بصورة جدية بمنع التفرقة وحماية الأقليات، وذلك بسبب الموقف فى البلاد الأخرى لاسيما الأفريقية.

حقوق الإنسان :

وذكر محمود عزمى أن اللجنة التى تقوم بوضع الدستور المصرى الجديد فى القاهرة، تدرس مشروعات القوانين والاتفاقات التى توصلت إليها لجنة حقوق الإنسان حتى لا ينص الدستور على جميع الحقوق السياسية والمدنية فقط، بل وعلى جميع الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ضمن الإطار العام لحقوق الإنسان.

مركز المرأة :

وأكد محمود عزمى على أن الحركات الجديدة التى تلت ثورة التحرير، تدل على أن مصر لا تريد أن تظل متخلفة فى ميدان حقوق المرأة ومساواتها بالرجل. وذكر أنه امتنع عن التصويت حول موضوع مساواة الزوجة والزوج فى الحقوق والواجبات العائلية، وذلك فى أثناء الاقتراع عليه فى المجلس الاقتصادى والاجتماعى، خشية أن تحرم الزوجات من الامتيازات العائلية التى منحتها لها الشريعة الإسلامية بجعل الواجبات كلها تقع على الرجل.

مشروع غوث اللاجئين :

وبين محمود عزمى أن مصر لا تستطيع أن تساهم فى تمويل مشروع غوث اللاجئين بسبب مسئولياتها الخاصة إزاء لاجئى فلسطين مؤكدًا على أن رئيس لجنة غوث اللاجئين التابعة للأمم المتحدة، قد حصل على كل التسهيلات لإنشاء مكتب فى القاهرة لتوطين اللاجئين الذين تشرف عليهم اللجنة الدولية، وأشار إلى أن مصر مستعدة لأن تمنح هؤلاء اللاجئين جوازات مرور لكى تعاونهم فى الوصول إلى البلدان التى يريدون استيطانها.

محمود عزمى.. وقضايا مصر فى مجلس الأمن:

وتولى محمود عزمى رئاسة وفد مصر الدائم فى الأمم المتحدة منذ منتصف فبراير ١٩٥٤، بدلا من الرئيس السابق جلال الدين عبد الرازق الذى انتقل للعمل فى وزارة الخارجية، على الرغم من أن مرسوم تعيين محمود عزمى بصفة رسمية لم يصدر إلا فى مايو ١٩٥٤.

الملاحة فى قناة السويس:

بدأ جهاد محمود عزمى فى مجلس الأمن، بالدفاع عن مصر فى الشكوى التى قدمتها إسرائيل ضدها، بشأن قيود الملاحة المصرية المفروضة على السفن المتجهة إلى إسرائيل عن طريق قناة السويس.

فى مؤتمر صحفى عقده لتوضيح الموقف المصرى من الشكوى، أكد أن مصر لا تعد نفسها فى حالة صلح مع إسرائيل، واتهم إسرائيل بأنها تعمل يوميًا على دعم قواتها المسلحة من أجل أن تتوسع خارج حدودها، وبين محمود عزمى أن الهدنة مع إسرائيل لا تعنى الصلح، ولا تمنع مصر من اتخاذ تدابير تفتيش السفن المتجهة إلى إسرائيل عن طريق قناة السويس.

وأشار محمود عزمى إلى أن اتفاقية القسطنطينية المعقودة عام ١٨٨٨ التى تقضى بحرية الملاحة فى قناة السويس زمن السلم وزمن

الحرب، لا تمنع الإجراءات التى تتخذها مصر مع السفن المتجهة إلى إسرائيل، حيث أن الاتفاقية تنص فى المادتين ٩، ١٠ على أن جميع مواد الاتفاقية يمكن إغفالها إذا كانت سلامة مصر فى خطر.

وحذر محمود عزمى الدول الغربية الكبرى من أنها إذا صوتت مع إسرائيل ضد مصر، فإن مصر ستدعو الدول الموقعة على اتفاقية القسطنطينية لأن تعقد مؤتمرًا فى القاهرة للنظر فى الحالة، وذلك طبقًا لنصوص الاتفاقية ذاتها دون اشتراك أمريكا لأنها ليست من الدول الموقعة.

وتنشر صحيفة (الأهرام) صدى هذا المؤتمر فى الدوائر السياسية والصحفية الأمريكية، فتذكر أن (نيويورك تايمز)، نشرت حديث محمود عزمى تحت عنوان بارز جاء فيه: «مصر تمنع الأمم المتحدة من اتخاذ قرار بشأن مشكلة الملاحة فى قناة السويس - مصر تهدد بعقد مؤتمر لا تشترك فيه أمريكا». كما ذكر (نيويورك هيرالد تريبيون) أن مصر أبلغت الأمم المتحدة، أن من حقها تفتيش السفن المارة بقناة السويس والمتجهة إلى إسرائيل.

وحاول محمود عزمى أن يكسب أعضاء مجلس الأمن مع وجهة النظر المصرية، فقام بإجراء مشاورات مع أعضاء المجلس تناول فيها شكوى إسرائيل من مصر، وبين أحقية مصر فى تفتيش السفن المارة بقناة السويس.

وينجح محمود عزمى فى ضم الصوت السوفيتى فى مجلس الأمن لصالح مصر، وبالفعل يعترض الاتحاد السوفيتى على مشروع القرار النيوزلندى الخاص بشكوى إسرائيل مستخدمًا حق الفيتو ضده.

وتلاحظ الدوائر العربية فى الأمم المتحدة، أن المندوب السوفيتى فيشنسكى قد استخدم حجة محمود عزمى عندما قال إنه ليس من اختصاص مجلس الأمن أن ينظر فى مسألة حرية الملاحة بقناة السويس، لأن هذه المسألة من اختصاص الدول الموقعة على اتفاقية القسطنطينية.

وفى سبتمبر ١٩٥٤ يرأس محمود عزمى وفد مصر فى دور انعقاد الجمعية العامة. ويتحدث عن المسائل التى تهم مصر فى هذه الدورة، فيذكر قضية تونس ومراكش بالإضافة إلى قضية فلسطين، وموضوع اللاجئين، هذا على المستوى العربى، أما على المستوى العالمى فيذكر قضية النزاع بين اليونان وإنجلترا حول قبرص، والنزاع بين أندونيسيا وهولندا حول غينيا الجديدة، وشكوى بورما بسبب وجود احتلال أجنبى بها.

كما تحدث عن المسائل الاقتصادية التى تهم مصر فى هذه الدورة فأشار إلى تقرير المجلس الاقتصادى والاجتماعى الخاص بالمعونة الفنية، ومشروع إنشاء شركة عالمية لتمويل المشروعات فى الدول التى لم يتم نموها بعد.

السفينة (بات جاليم):

قامت إحدى المراكب التجارية الإسرائيلية وتدعى (بات جاليم)، بالاعتداء على نقطة حراسة مصرية فى ساحل البحر الأحمر جنوبى السويس، وأطلقت النيران، مما أدى إلى إصابة اثنين من الصيادين المصريين. وعلى الفور أمرت السلطات المصرية بحجز السفينة الإسرائيلية وإبلاغ وفد مصر بالأمم المتحدة، لإثبات الاعتداء على مياه مصر الإقليمية، وتقديم احتجاج إلى مجلس الأمن.

وبالفعل قام محمود عزمى بوصفه رئيسًا لوفد مصر فى الأمم المتحدة بتقديم مذكرة احتجاج عن الحادث إلى مجلس الأمن، فى الوقت الذى قدمت فيه إسرائيل شكوى ضد مصر إلى مجلس الأمن بسبب احتجاز السفينة. وينجح محمود عزمى فى إقناع مجلس الأمن بتأجيل بحث شكوى إسرائيل حتى تنتهى لجنة الهدنة المشتركة من التحقيق فى الشكوى.

وأكد محمود عزمى أنه إذا لم يثبت شىء ضد ملاحى تلك السفينة، فإن المحكمة ستبرئهم وتحكم على الحكومة المصرية بدفع تعويض لهم، حيث إن القانون المصرى يكفل هذه العدالة وهذا الحق.

وتقدم إسرائيل شكوى أخرى، تزعم فيها أن مصر تصطنع العراقيل أمام اللجنة، ويدافع محمود عزمى عن موقف مصر مشيرًا إلى

كذب هذا الادعاء، حيث إن تقرير رئيس لجنة الهدنة، لا يتضمن أية إشارة إلى اصطناع مصر العراقيل أمام لجنة الهدنة، كما أنه لا ينسب إلى مصر أى شيء يدل على أنها منعت اللجنة من النظر فى شكوى إسرائيل، ثم يذكر أن مصر بعثت بتعليماتها إلى مندوبها فى اللجنة بشأن مسألة الإجراءات، وغرضها من ذلك أن تتمكن اللجنة من البحث فى المسألة فى أسرع وقت حتى يمكنها أن تقدم تقريرها فى أقرب فرصة.

ويتوقف محمود عزمى وهو يرد على كلمة مندوب إسرائيل فى مجلس الأمن، وكانت آخر كلماته هى: «إن مصر على حق، وإنها كانت ولاتزال تؤثر روح التسامح، وعلى استعداد دائم لتحقيق العدالة».

يتضح من العرض السابق الدور الذى قام به محمود عزمى لخدمة قضايا مصر السياسية والاقتصادية فى الأمم المتحدة. كما يتضح الدور الذى قام به فى مجال حقوق الإنسان وحقوق المرأة.

ولعل نجاح محمود عزمى فى خدمة الإنسان فى المجال الدولى، كان محصلة لإيمانه بحق كل فرد فى أن يعتنق ما يريد، وحق كل إنسان فى أن يعبر عن رأيه وعن عقيدته كما يحلو له، بغض النظر عن جنسية هذا الإنسان، أو لونه، أو عقيدته، أو لغته.

وكان محمود عزمى مؤمنًا بهذا الحق إلى حد كبير، فلا يتدخل فى عقيدة أحد ولا يسمح لأحد بالتدخل فى عقيدته.

وهكذا استطاع محمود عزمى بهذا الإيمان العميق بحرية كل فرد فى أن يكون له كافة الحقوق، وحرية كل فرد فى أن يتمتع بهذه الحقوق كيفما يشاء، أن يكون عزمى خير معين لحقوق الإنسان التى تؤمن حق كل فرد، فى أن يتمتع بكافة الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية كإنسان وإنسان فقط، دون أى اعتبار آخر.

وهكذا نجح محمود عزمى فى خدمة الإنسانية من خلال الهيئة الدولية.

والسؤال الذى لابد أن يطرح نفسه، ما الذى ميز محمود عزمى كصحفى مصرى، وجعل له هذا الشأن الذى بيناه فى المنظمة الدولية ؟.

نستطيع أن نستخلص الإجابة من بعض ما ذكر معاصرو محمود عزمى عنه :

يرى الأستاذ إحسان عبد القدوس، أن محمود عزمى استطاع بثقافته العالية أن يكون أقرب من أستاذ الجامعة الأكاديمى عن الكاتب أو الصحفى وقد ساعدته هذه الثقافة وقدرته على ترتيب الأفكار فى أن يكوّن علاقات وثيقة مع الشخصيات العالمية البارزة، ومكنته من عرض وجهات النظر المصرية بصورة علمية دقيقة.

ويعتبر دكتور مختار الوكيل، محمود عزمى خطيبًا من الخطباء

النادرين فى تاريخ مصر والأمم المتحدة. ويؤكد على أن طريقة إلقاء محمود عزمى وتناوله للموضوع الذى يتحدث فيه، وفهمه للغة التى يتكلم بها، لم يعد متوافرًا الآن فى المندوبين لدى الأمم المتحدة.

ويعلل الأستاذ السيد أبو النجا، نجاح محمود عزمى فى المجال الدولى بأن عزمى كاتب صحفى لم يكن مغرمًا بالموضوعات الشعبية، وإنما اهتم بالنواحى العلمية الدقيقة وخاصة فى مجال الشئون الخارجية، مما جعله يركز اهتماماته فى متابعة نشاط هيئة الأمم والدخول فى دروبها، وساعدته إجادته للغات وخاصة الفرنسية التى كان يتحدث بها كأحد أبنائها فى أن يبرز فى هذه الهيئة.

وعلى الرغم من انغماس محمود عزمى فى نشاط هيئة الأمم المتحدة، فإنه لم يكن يأمل كثيرًا فيما يمكن أن تحققه الهيئة للسلام العالمى، بسبب موقف الدول الكبرى وتعنتها إزاء مشكلات الدول الصغرى.

ويقول فى هذا الصدد فى مجلة (الكاتب المصرى): «إن الأمم المتحدة لا يميزها عن عصبة الأمم إلا أن المناقشات تجرى فيها علنية، أما الرغبة فى سيطرة «العظميات» على الصغيرات فواحدة، وأما الخلافات على هذه السيطرة فواحدة، وأما سياسة وخز الإبر فواحدة، وكذلك التلويح بطريقة التفاهم على حساب الغير فواحدة، لكن

العلنية التى تمتاز بها الأمم المتحدة قد كان من شأنها أن جعلت مناقشتها فى متناول المفكرين بمجرد حصولها، فمكنهم ذلك من التعليق عليها فى حينها، ويلوح لى أن سيكون لهذا الوضع أثره فى دفع «العقليين» فى مختلف البلاد إلى الإحساس بأن عليهم أن يرعوا فكرة التعاون العالمى، وأن يحولوا دون تعكير صفوها من جانب الطامعين النهمين من رجال الحكم».

خاتمة

رأينا كيف دافع محمود عزمى دفـاعًا مسـتميتًا عــن حـرية الصحافة.. فوقف فى وجه أى قيود تحد من هذه الحـرية.. أو تحـد من حق الصحفيين فى التعبير عن آرائهم وعرض الحقائق التى يـرون ضرورة عرضها..

واعتبر حرية الصحافة لازمة لزومًا حيويًّا.. حتى يمكنها أن تقـوم بوظيفتها الاجتماعية فى توجيه الشعب، وتعليمه وتثقيفه.. وصُنع رأى عام حر لطبقات الشعب كافة..

وكان محمود عزمى هو أول من نادى بأن تكون الصحافة سـلطة رابعة، بجانب السلطات الثلاث.. تراقبها للصالح العام.

كما كان محمود عزمى ينظر إلى الصحفى باعتباره معلمًا لـلأمة.. ومحاميًا عن قضايا الشعب.. ولهـذا طـالب بـالمحافظة على كرامـة الصحفيين، بمنحهم الأجور المناسبة، وتـوفير الامتيـازات الـتى تسـهل عملهم..

كما اعتبر أن الصحفى المتعلم المثقف، هو وحـده القـادر على أداء وظيفة الصحافة الاجتماعية..

ومن ثم ساهم محمود عزمى بدور فعال فى إنشاء معهد الصحافة.. وفى أثناء عمله مستشارًا إعلاميًا فى وزارة على ماهر عام ١٩٣٦، قدم مشروع قانون جمعية الصحافة، الذى يهدف إلى الدفاع عن كرامة الصحافة والصحفيين..

ويعد محمود عزمى من أوائل المصريين الذين اهتموا - فى العصر الحديث - بانتماء مصر العربى.. فى الوقت الذى واجهت فيه الفكرة العربية فى مصر معارضة شديدة من كثير من المثقفين.. وقد نادى محمود عزمى بقيام وحدة عربية كاملة، تضم مصر والبلاد العربية كافة.

وفى الخمسينيات - وبعد أن برزت وحدة قضايا العالم الثالث، أمام المحافل الدولية ضد الاستعمار الغربى - بدأ محمود عزمى يدعو إلى أن تشكل الدول الأفريقية والآسيوية نظاما متكاملا ثالثًا يقف فى وجه النظام الاستعمارى الغربى والنظام الاشتراكى.. وساهم هو من خلال رياسته للجنة حقوق الإنسان فى وضع مشروع اتفاقيتين لحقوق الإنسان الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية.. كما قدم اقتراحًا بحق المواطن فى شكوى حكومته فى الأمم المتحدة، إذا وقع عليه ظلم بشأن حق من حقوق الإنسان.

وهكذا يمكن أن نؤكد أن محمود عزمى استطاع - من خلال ريادته الصحفية - على المستوى المحلى أو المستوى الدولى - أن يبرز ويحقق الخير لشعبه وللإنسانية جمعاء.

الفهرس

الصفحة

رقم الإيداع	١٩٨٧ / ٥٢٨٩
الترقيم الدولى ٠-٢١٤٣-٠٢-٩٧٧	ISBN

١ / ٨٧ / ٦٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش معهم .. كما عاش الآباء والأجداد .. وتكوِّن فى مكتبتك موسوعةً متفرقة فى فروع المعرفة المختلفة .

وإيمانًا منا بأن القراءة هى أقصر الطرق إلى الوعى والثقافة .. فقد يسَّرنا لك ذلك فى إخراج جيد .. وسعر زهيد .

٤٠٥٧٢٨/١٠

ص
٨٠

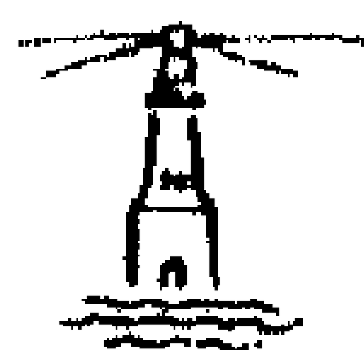
اقرأ

عبد الفتاح رزق

مسافر على الموج

ذكريات

.. ورحلات أخرى



دار المعارف

اقرأ

[٥٣٤]

مسافر على الموج

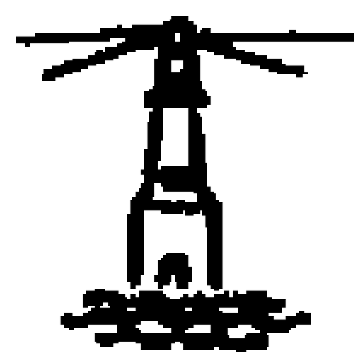
.. ورحلات أخرى

عبد الفتاح رزق

مسافر على الموج

.. ورحلات أخرى

(الكتاب الحائز على جائزة الدولة)



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

فى البداية عبرت الأفق!

منذ زمن بعيد وأنا أصادق ذلك الأفق، ذلك البحر، أنظر إليه دون ملل، لا أتخيل وراءه أرضًا، أعتبره الخيال نفسه، الرحابة، الامتداد اللانهائى، العناق مع السماء، مهبط الشمس عند الغروب.

ومنذ ذلك الزمن البعيد وعلاقتى معه تقف عند حدود التأمل، يغضب ويهدأ، يعطى ويأخذ. لا يهم ان يداعب موجه قاربًا أو سفينة. لا يهم ان يحاوره طائر النورس، عندما أغيب عنه وأعود يستقبلنى بهدير عتاب، وبنسمة شوق!

وفى ذلك الصباح كنت على موعد معه... ولكن دون تأمل.

وقفت أحادثه، وأستأذنه فى أنى آخر النهار نفسه سأكون ضمن ركاب سفينة تقول على الأوراق إنها ذاهبة إلى جانبه الآخر، إلى أكثر

من شاطئ.. هناك.. حيث يوجد وراء الأفق عالم آخر، ناس، وجبال. وكل مفردات علم الجغرافيا.

وحتى بعد أن صعدت درجات السفينة كنت ماأزال لا أصدق، صديق البحر نهايته الأفق، ومهما أبحرت السفينة فلن تدرك الأفق!

وهم ما تقوله الأوراق، وهم ما تريده السفينة.

ونزلت إلى بطن السفينة وكأنى ألق بنفسى إلى أعماق الوهم!

بطن السفينة «سينتيا» كأنه بيت جحا، سراديب ودهاليز. قرات صغيرة ودرجات كثيرة، وفات وقت طويل قبل ان أعرف أسرارها، وأنها فى النهاية مسالك مثل تلك التى كنا نعرفها عندما كنا نطوى ورقة ونحن صغار لتأخذ شكل قارب ثم نلق بها إلى الماء لتطفو فوقه، وحين عرفت المكان الذى سأركن إليه عندما أرغب فى النوم، وحين تأكدت أن به طاقة تطل على الخارج - لم تكن تطل على صديق البحر بعد - قررت الصعود إلى ظهر السفينة.. ووقفت مشدوهًا..

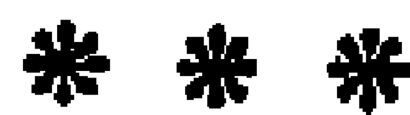
الوهم يتحرك بى وبالآخرين وكأنه الحقيقة، رصيف ميناء الإسكندرية يبتعد ويبتعد، مقدم السفينة يداعب صدر صديق البحر ويجوس فوقه. كل سنوات التأمل تدخل الآن الامتحان، ليست هناك الصرخات التقليدية لقائد السفينة، وليست هناك الخطوات العجلى لمن ينفذون الأوامر، السفينة «ماشية» دون صخب وضجيج، تبحر فى عناد - ربما تخصنى أنا به - صوب الأفق، اجتازت البوغاز

وأصبحت مركزًا لحركة دائبة لا يعنيها أن الماء يحيط بها من كل جانب، أنا الآن فى قلب التجربة لأول مرة، سافرت كثيرًا ولكنى لم أركب البحر، فهل أنا قادر الآن على التأمل وأنا بعيد عن شاطئه؟ لماذا يقول صديق البحر لو حادثته الآن؟ ماذا ترد به على أمواجه وأنفاسه ورحابة أفقه؟، فى الصباح استأذنته فى أن أذهب إلى جانبه الآخر، فهل أصبح علىّ فى المساء أن أعتذر؟!

الشمس غابت دون أن أشهد لحظة اختفائها هناك حيث تذهب بى السفينة، زرقة الماء تخالطها العتمة، ولكنها تظل تتحرك وتتحرك، فرق كبير بين أن تسير عربة فوق أرض ثابتة، وأن تتحرك سفينة فوق سطح الماء، حركة فوق حركة. صديق البحر لم يستسلم بعد، لو تطلعت بنظراتى بعيدا فسأرى ما كنت أراه نفسه طوال عمرى، الأفق هناك.. مازال هناك. لن تضيع فى اضواء خطات التأمل، وفيها موجة عالية مع زميلة لها أعلى منها، ابتسمت وأنا أتخيل أن صديق البحر يبتسم معى، سمعته يقول فى ثقة تطاول أقصى قوة: «أنت الآن فى ورقة مطوية»!

«أنت الآن - والآخرون معك - ضيوف عندى وربما لا تكونون من الضيوف»!

«عمومًا.. مرحبا بك فى بيتى.. فى عرض البحر»!



نداءات الميكروفون كثيرة، وركاب السفينة الواحدة مازالوا بالنسبة لبعضهم البعض أغرابًا، ألتقط من «الميكروفون» الكلمة التى تقول إننا سنمر فى الصباح على جزيرة «كريت»... كل ما أعرفه عن كريت هو موقعها وسط البحر وراء الأفق، وتلك اللعبة المشهورة من ألعاب المنطق، واللعبة من اختراع أهل كريت أنفسهم وكلهم من الإغريق، إذا كان معروفًا أن أهل كريت كذابون، فماذا تكون النتيجة إذا قال واحد كريتى إنه «كذاب» أهو كذلك فعلا، أم أنه بأساس كونه كريتيًّا ليس صادقًا، وبالتالى فهو ليس كاذبا؟!.. لعبة.. والسفينة مثلها الآن وقد لفها من الخارج ظلام الليل ووشوشة الموج، لا أريد أن أبرح مكانى عند ذلك السور والصورة حولى تكتمل فيها الرومانسية إلى أبعد الحدود.. القمر.. وشعاعاته.. والموج.. الموج الكثير.. والحركة فوق الحركة.. وتلك الأنغام الموسيقية الناعمة، الخافتة، التى تنبعث من «صالون» السفينة.. لا مفر.. أنت مسافر الآن على الموج، لا مفر.. العناد يدخل فى سباق للوصول إلى الأفق، ولعبوره.. لا مفر!..

يحدثنى الواقف إلى جوارى عند السور دون سابق معرفة، يقول دون أن أتبين ملامحه: «انتم محظوظون. البحر يستقبلكم فى وداعة.. وهذه ليست عادته».

والتفت إلى الرجل فى إهتمام بالغ، صديق آخر للبحر مثلى، لابد أن يكون كذلك، وإلا فلماذا اختار هذه الكلمات بالذات،

ملامحه تقول إنه ليس مصريًا والأخاديد فى وجهه تقول إنه فوق الستين، وأقول له : «وهل يثور البحر فى مثل هذا الوقت من السنة ؟ ».

ويقول الرجل فى بساطة : «البحر لا يعرف الصيف والشتاء. إنه غامض ومغرم بالمفاجآت.. وفى رُحلة سابقة لى... ».

لم أكن منتبهًا لبقية كلماته، سيغرقنى فى الحكاية المحفوظة عن الموج الذى يطاول السحاب، وعن السفينة التى تتأرجح كلعبة فى مهب الريح. كنت متجهًا بكل اهتمامى إلى أبعاد الصورة الرومانسية، وعندما عدت إليه بنظراتى لم أجده إلى جوارى!

أبتسم للخاطر، وأنا أنسحب من الشرفة، إننى سأترك صديق البحر للحظات، كيف أتركه، ومهما صعدت أو نزلت فأنا داخل الورقة المطوية الطافية الآن فوق صدره؟!

أنزل إلى القمرة التى سأنام فيها حتى يأتى الصباح، القمرة بها سريران، أحدهما يعلو الآخر. وأجد من يقدم نفسه لى على أنه زميلى فى الحجرة، يقول فى كلمات مرحبة :

«معذرة فقد اخترت السرير الأرضى.. استعدادًا للطوارئ».

وأتساءل فى دهشة كبيرة : أى طوارئ؟

ويرد ببساطة :

«لم أقدم لك نفسى.. أنا الدكتور عادل.. طبيب الباخرة»!

طبيب الباخرة معى فى حجرة واحدة!!

وأسرعت أصعد السلم الخشبي الصغير إلى سريري العلوى وأنا أحييه تحية المساء، ولم تمر لحظات حتى قلت دون تردد: «هل تمانع في أن تظل الطاقة مفتوحة طول الليل؟».

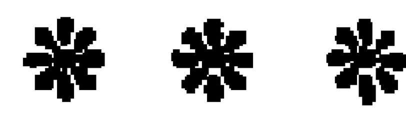
ورد في ترحاب:

«أبدًا. ومن يكره هواء البحر»!

ولفتني سعادة كبيرة وقد أصبح في مقدورى أن أرى صديق البحر حتى وأنا مستلق في انتظار النوم.

وهمست لصديق البحر: إلى اللقاء فجرًا.

وردت أمواجه: إلى اللقاء.. وإن كنت سأظل ساهرة!



نور الفجر يوقظنى من الطاقة.

خط وهمى يقسم الطاقة نصفين، دائرة نصفها العلوى زرقة السماء. ونصفها الآخر زرقة البحر، وأسرع بارتداء ملابسى وأصعد إلى ظهر السفينة، الصورة الآن تختلف عن الصورة في الليل، كل شيء يلفه الضوء الباهر الذى لا تكسره أية ظلال. سماء وبحر. وبحر وسماء. وقبل أن تطول وقفتى أسمع الصوت نفسه الذى سمعته عند السور في الليل، والرجل الذى تخطى الستين. وفي هذه المرة كان يقول في وداعة وكأنه يقرأ أفكارى: «فرق كبير بين زرقة الماء وزرقة السماء.. زرقة الماء هى الزرقة التواقة للعناق مع الأصفر ليتوالد

اللون الأخضر.. أما زرقة السماء فهى الطليقة الرافضة لأى قيد»!

وأستقبل كلماته فى ترحاب، أدعه يقدم نفسه، المهندس جويجوار.. يونانى يقيم فى الإسكندرية وعائد بزوجته المريضة لزيارة أهلها فى أثينا.. ثم يقول: «ولذلك فسأترككم فى «بيريه» لأن بيريه إن كنت لا تعرف بينها وبين أثينا نصف ساعة بالسيارة»!

وسألته: ومتى سنمر على جزيرة كريت؟

وقال: قبل أن نمر على كريت، سنمر على جزيرة أخرى صغيرة اسمها «كانديا».. ولابد ألا تفوتك مشاهدتها..

بعد لحظات استأذن ليطمئن على زوجته المريضة، وأحسست أن وقفتى هنا قد لا تتيح لى فرصة مشاهدة الجزيرة الصغيرة. أو حتى الأخرى الكبيرة، والتفت ورائى، فرأيت سلمًا آخر يقود إلى قمة السفينة. وصعدت ودون تردد وجدت مكانًا صغيرًا لا يتسع إلا لكرسى واحد يمكن أن أضعه بين قاربى إنقاذ وجلست أتطلع من جديد إلى صديق البحر وأنتظر جزيرته الصغيرة التى ستبزغ حالا وسط الموج.

طال انتظارى وأنا أتحمل شعاعات الشمس اللافحة فى عناد، وعندما حاولت الوقوف لم أستطع، أحسست بثقل شديد يشدنى من رأسى، وأن قدمىَّ لا تقدران على حملى، وهززت رأسى فى أمل ان أفيق من وهم أننى أخيرًا أصبت بما كنت أخاف منه.. دوار البحر. المشكلة الآن هى أن أصل إلى حجرتى، فهناك سأجد طبيب

الباخرة.. وزميلى فى الحجرة. وتحاملت لأسير خطوات، ولأنزل سلماً وراء الآخر، وقبل أن أدرك الردهة التى تقود إلى حجرتى، رأيته واقفاً يعترض طريقى.. المهندس جريجوار.. وقال لى على الفور:

«ماذا بك؟. خطواتك تبدو مترنحة».

وقلت على الفور: «لا شيء.. كنت أنتظر رؤية جزيرة كانديا.. أو كريت.. لا أعرف.. هناك أعلى السفينة..».

وعاد يقول: «وهل كنت طوال ذلك الوقت معرضاً نفسك للشمس دون أى ظل»؟.

ورددت: «نعم.. وماذا فى ذلك؟».

وقال: «أبداً.. إنك بذلك قد تعرض نفسك لضربة شمس.. وخاصة أنك لا تضع شيئاً فوق رأسك»!

هززت رأسى مستنكراً ما يقوله، وإن كنت قد أدركت فعلا أننى أصبت بضربة شمس.. والسبب.. جزيرة كريت.

وقبل أن أتركه لأذهب إلى حجرتى وأنشد العلاج عند زميلى فى الحجرة الدكتور عادل سمعته يقول: «هل رأيت جزيرة كريت؟».

رددت على الفور: «أبداً.. لم أر أى جزيرة».

قال فى دهشة: «كيف ذلك وقد مررنا عليها فعلا»!

توقفت الكلمات على لسانى، أبعد هذا كله وبعد ضربة الشمس نمر على الجزيرة دون أن أراها، وسمعت كلمات الرجل تقول فى شىء من المواساة!

« يبدو أنك جلست على الجانب الذى لا تبدو منه الجزيرة ».

فقلت فى إعياء : « إنه الجانب نفسه الذى تحادثنا عند سوره فى المساء ».

ضحك وهو يقول : « خطأ بسيط.. فالجزيرة كانت على الجانب الآخر » !

* * *

قبل أن أنام، قال لى الدكتور عادل : « هناك حفل تعارف فى المساء سيحضره طاقم الباخرة وكل الركاب.. أنا ذاهب الآن إلى العيادة. وسألقاك فى الحفل ».

وغرقت فى النوم.

وعندما استيقظت أسرعت بارتداء ملابسى لحضور الحفل.. وقبل أن أغادر الحجرة.. جاء الدكتور عادل ليقول لى : « لماذا لم تحضر الحفل » ؟!

وتزاحمت الكلمات على لسانى. هل فاتتنى الحفلة هى الأخرى كما فاتتنى جزيرة كريت.. ماذا حدث ؟!

يا صديق البحر.. ماذا أعددت لى فى جعبتك من مفاجآت ؟!

كلهم زوربا !

أبطأت السفينة من سرعته، وكالعادة زادت سرعة البشر فوقها.. وساد الهرج، فها نحن نصل الى أول ميناء، إلى «بيريه» وبعدها بنصف ساعة بالسيارة إلى «أثينا».. وكلمات كثيرة عن «أوربا» التى وصلنا إليها، وعن الأماكن الساحرة التي سنشاهدها... الأكروبول.. والبارثينون.. وبروبيليا والجبال التى عرفت الأساطير اليونانية القديمة، وعرفت أيضًا الفلاسفة.. وأنا واقف عند سور الشرفة أتطلع إلى صديق البحر!

الواقع يقول إننا اجتزناه إلى جانبه الآخر.

الحقيقة تقول إن الامتداد اللانهائى قد أصبحت له نهاية.

ولكن الخيال يمكن أن يشتعل من جديد.. إذا نظرت هذه المرة ناحية الجنوب!

لا يهم المكان الذى نقف فيه، بالشمال أم بالجنوب، أى تطلع إلى البحر وإلى مداه الواسع.. يحفظ له الأفق. ويحفظ له أيضًا كل الملامح التى أقدسها فيه.. الكبرياء.. والقوة.. وأنفاس الكائن الحى.

أفقت على كلمات «جريجوار» وهو يشد على يدى مودعًا فرحلته هو وزوجته تنتهى هنا. كان يقول: أخيرًا أعود للوطن».

.. وبعد رحيله أحسست أن قدمى تريدان أن تطأا الأرض، أن تسيرا فوقها. فكل خطواتنا ونحن بالسفينة كانت حركة فوق حركة. سباقًا فوق موج البحر، وأسرعت أنتظم فى الطابور المغادر للسفينة.

وكانت الأرض يونانية.

كأننى فى الإسكندرية، الكلمات اليونانية المتناثرة لا تنفى ذلك. فحتى تلك النبرات تعودنا أن نسمعها هناك أيام كانت بلادنا مزدحمة بالخواجات، شارع واحد يفصل بين الرصيف الذى رست عنده السفينة «سينتيا» و «بيريه» المدينة.. المقاهى الكثيرة، والمطاعم، والبنوك فى انتظار القادمين من البحر.

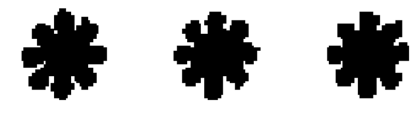
وقالوا إن سيارة فى انتظارنا لتأخذنا إلى «أثينا» فى زيارة للأكروبول وبعدها نحن أحرار نتجول كما نشاء، كنت أجلس بجوار النافذة أتطلع إلى الشاطئ الذى يقود إلى أثينا، ولكن الكلمات التى كنت أسمعها شدت انتباهى عن متابعة أى شىء. كانت كلماته

بالعربية ولا تمر دقيقة واحدة دون نكتة أو قفشة لا يقدر عليها الا ابن بلد أصيل..

يتطلع إلى الجبال ويقول هناك يحتفلون بعيد «مار الياس».. وفى المدينة كل من اسمه «الياس» يغلق محله اليوم أو لا يذهب إلى العمل.. كان بحارًا منذ مئات السنين ثم مل التجوال بين الموانى واختار أن يستقر بين المزارعين.. ثم.. انظروا إلى هذه المبانى الجديدة.. نصيحتى لكم ألا تفعلوا مثل الرجل اليونانى.. إنه يضيع شبابه ليجمع «الدرخمة» فوق «الدرخمة» حتى يستطيع بناء بيت.. ثم يموت.. ليستمتع به غيره!.. اليونان تغيرت. حركة التعمير سريعة وعصرية. والآن ستدور السيارة لتصعد إلى «الأكربول» طبعًا أنتم ليس بكم شوق كبير لرؤية الآثار القديمة.. عندكم منها بالآلاف .. معبد الكرنك مثلا.. لكن ماذا سأقول.. تعالوا معى والسلام لرؤية الأكروبول!!

كنت أتجول بين أعمدة الأكروبول وحولها وذهنى مشدود إلى كلمات ذلك المرشد، وعندما تجمعنا فى السيارة ثانية لنعود إلى «بيريه» رحت أسأل من حولى عنه، وقال لى زميلى فى القمرة «رقم ١٩٠» الدكتور عادل إن اسمه «جورج» وأجمع الصديقان «سيد» و «لطفى» اللذان كانت أول معرفتى بهما عند شرفة السفينة أن «جورج» شخصية فريدة يجب أن تصحبنا بقية النهار مهما كان من انتهاء مهمته عند العودة إلى السفينة، وفعلا أسرعنا إليه نحن الأربعة

لنتعرف به، ولندعوه إلى ما نوينا عليه. ووجدناه يقبل دعوتنا فى حماس كبير والكلمات المرحة لا تفارق لسانه : « ضرورى عايزين تشربوا شاى.. تعالوا نقعد فى القهوة.. ياترى حد فيكم عايز يلعب طاولة ؟ !. »



يقول الأديب اليونانى الكبير « نيقوس كازانتزاكس » عن « زوربا ».

« فى خضم الحرب العالمية الثانية وأثناء الاحتلال النازى والمجاعات التى اجتاحت اليونان.. عادت إلى مخيلتى صورة صديق جورج زوربا، الذى كنت قد التقيت به عام ١٩١٧ وخضنا معًا تجربة باءت بالفشل الذريع لاستغلال منجم للفحم المعدنى بإحدى الجزر اليونانية .. ولقد بعثت ذكرى صديق هذا المراوغ، التلقائى، الساذج، الماكر، بعثت فى قلبى العزاء، وعاونتنى على التغلب على كثير من الصعاب » !

ويقول صديقنا الجديد جورج : « نحن هنا نتعلق بحكمتين.. الأولى « ديفر بيسى » يعنى « مشى حالك » والثانية « ديم برازى » يعنى « ولا يهمك » !.

اليونانى ابن حظ، ليس معنى ذلك أنه ينفق بلا حساب. إنه حريص، ولكنه يعرف كيف يستمتع بحياته. والمرأة اليونانية مثله إنها تقدس الحياة الزوجية والبيت، ولكنها حريصة أيضًا على أن تأخذ

حظها من الدنيا حتى ولو مع رجل آخر غير زوجها.

أعرف أن اليونان ظهرت لكم من أول نظرة كمكان مألوف، كأنكم لستم فى أوربا. والحقيقة أن اليونان غربية وشرقية فى الوقت نفسه، لن أقول لكم كما تقول الكتب إنها بلد الضوء الباهر الذى ليس فيه ضباب الشمال أو حرقة إفريقيا، وإنما الحقيقة أنها كانت بلدًا فقيرًا تعود أبناؤه الهجرة منه لكسب العيش فى كل أطراف الأرض، ولكنه الآن وجد نفسه فى الصناعة.. استقرت الأمور بعد سنوات من القلق، نحن نصدر الآن الكثير من الصناعات القطنية والجلدية. هذا بخلاف السجائر والمواد الغذائية وخاصة الفاكهة والزيتون.. أنا أعرف ماذا وراء ضحكتك هذه؟.. ضرورى قد شاهدت الطابور الطويل لقطع الأسطول السادس الأمريكى قبل أن تدخل السفينة إلى الميناء. ولكن الحقيقة أننا نستفيد منهم أكثر مما يستفيدون هم منا.. نحن اليونانيين معروف عنا أننا نكره الاستعمار.. حاربنا الأتراك وانتصرنا عليهم وطردناهم من بلادنا.. فى العام الماضى احتفلنا بمرور قرن ونصف على انتصارنا عليهم.. هذا الاحتفال مسجل فوق علب الكبريت.. انظر.. كل علبة عليها صورة من صور أبطال النضال ضد الاتراك.. وفى الحرب العالمية الثانية وقفنا شهورًا فى وجه جنود موسولينى، ووجد الألمان صعوبة كبيرة قبل أن يستطيعوا احتلال اليونان.. والآن «ديفر بيسى» - مثى حالك - فالجنود الأمريكيون يصرفون آلاف الدولارات فى

الإجازات التي يمضونها فى «بيريه» أو فى «أثينا».. باستمرار نحن الذين نكسب.. تسألنى عن حكاية القديس «مار الياس».. هل كنت نائمًا فى السيارة ولم تسمع كلماتى عنه.. الحكاية أن له الآن فوق كل جبل كنيسة.. وزمان منذ ألف وخمسمائة سنة كان رجلا عاديًّا يعمل فى البحر.. وبعد تجوال طويل قرر أن يهجر البحر نهائيًّا.. حمل مجدافه وسار بين الجبال والأودية.. كان الزراع الذين يقابلونه يسألونه ما هذا الذى معك. فيقول «مجداف».. وتكرر السؤال وتكررت الإجابة .. وفى النهاية قال لهم «هذه عصا لأهش بها العصافير بعيدًا عن الزرع». وعاش بعد ذلك بين الزراع يحرس لهم الزرع.. كان يتنقل بين الجبال والبركة تتنقل معه.. فتعلق به الناس.. وكانوا ينامون ويتركون له الجبال وما عليها من مزروعات ليحرسها.. وعندما مات اعتبروه مثل الأنبياء أو القديسين.. وأقاموا له كنيسة أعلى كل جبل.. وبالمناسبة.. الجبال، الحياة بها تفوق كل وصف. أنا أذهب كل شتاء إلى القرية التى ولدت بها.. وهناك بعيدًا عن دخان المصانع وسمومها.. وحيث الهواء النقى الذى يشفى - على رأى المصريين - كل مريض.. أعيش على الفطرة بالنقود التى أكون قد جمعتها من عملى كمرشد سياحى طوال شهور الصيف.. كل شيء موجود فى قرى الجبال.. القرية عبارة عن ٤٥٠ شخصًا وعدد بيوتها لا يتجاوز المائة، وبكل قرية مدرسة، عندما يكبر الدارسون بها يذهبون إلى قرية أكبر، فى كل بيت لابد أن توجد به

تكعيبة العنب. وكل بيت لابد أن توجد به أيضًا شجرة اللوز وشجرة التفاح. هذا بخلاف بقرتين وعدد لا بأس به من الماعز.. ووسائل الترفيه الوحيدة هى تجميع أهل كل قرية فى الأعياد. وحفلاتهم جميعًا تكون فى الظهيرة - حتى حفلات الزواج - وبعد الخروج من الكنيسة يرقص الجميع بما فيهم القسيس والعروس.. وتتوالى الأنغام الموسيقية من الفرقة الخاصة بالقرية.. وكما هو الحال عندكم يتجمع فى أيدى أفراد الفرقة «النقوط».. ويشرب الجميع «النبيذ» فى انتظار شىّ الخرفان.. أشكرك.. منذ فترة كبيرة وأنا لم أدخن سيجارة مصرية.. هاجرت أسرتى إلى مصر مع بداية الحرب العالمية الثانية.. واستقرت فى حى «بولاق».. وهناك تعلمت فى الكلية الفرنسية.. ثم لم أواظب على الدراسة.. تعلمت ميكانيكيًا بإحدى ورش بولاق. أحببت أولاد البلد هناك وكنت أعيش وسطهم كواحد منهم.. تركت مصر لشهور لأنضم للجيش اليونانى، ثم عدت ثانية لأتزوج من واحدة يونانية وطلقتها قبل أن أغادر مصر نهائيًا عائدًا إلى اليونان منذ حوالى عشرين سنة.. ومن يومها وأنا فى شوق كبير للعودة إلى مصر.. ضرورى، أن الشوارع مزدحمة الآن بالعربات التى تبيع المانجو.. آه.. إننى أعتبرها أعظم فاكهة على وجه الأرض.. عندما آكل واحدة أحس - ولا مؤاخذه - كأننى أستمتع بحب أجمل نساء الأرض!!

* * *

نعم.. كأننى فى الإسكندرية.. والإحساس يتزايد بذلك وأنا أتجول فى شوارع «أثينا» ثم فى شوارع «بيريه».. والمقاهى على النواصى وفى كل مكان.. والعربات التى تبيع البطيخ المشقوق إلى أجزاء صغيرة هنا وهناك. ومحال البقالة تفرش بضاعتها حتى منتصف الرصيف.. ولابد من وجود براميل «الزيتون» بكل الأحجام المفاوته، ولأبد أيضًا من وجود السردين «والبلاميطه».. كما كانت تفعل محال البقالة التى كان يملكها اليونانيون عندنا فى مصر.. أنت هنا لست فى حاجة إلى الحديث بلغة أجنبية.. لابد أن يصادفك من يعرف العربية.. سواء كان يونانيًا.. أو مصريًا هاجر إلى اليونان ليعمل هناك.. والمصريون كثيرون فى شوارع بيريه.. وهناك المقاهى التى تحمل أسماءهم وتقدم للزبائن «الشيشة».. وأحيانًا «الجوزة بالمعسل».. الصديق الجديد «جورج» يضحك ويقول «حصل خير.. المصريون أصبحوا الآن من هواة الترحال كما كنا نحن زمان».

وكأبناء البلد.. يصر «جورج» على دعوتنا على الغداء فى بيته.. الدكتور عادل، وسيد - ولطفى - وأنا.. قال بحماس يُنهى أى اعتذار: «أنا عندى شوية سمك كويسين وواحدة كابسوريا وزبيب «أوزو» زى ما انتم عايزين.. أما إذا كنتم عايزين بيرة فاشتروها معاكم قبل ما تطلعوا معايا.. تحت البيت واحدة صاحبة بقالة لسه راجعه من مصر».

بيت «جورج» لا يفترق عن أى بيت مصرى، وكل شىء فيه

يلمع بالنظافة. ولم تمر لحظات حتى جاءت زوجة جورج تسبقها طفلتها الصغيرة لتقدم لنا طعام الغداء.. السمك والكابوريا وسلطة اللبن بالثوم والقواقع المطهية بالدمعة.. كأننا فى إحدى مدن مصر الساحلية.

بعد الغداء انسحبت زوجة جورج وانسحبت الطفلة.. وقال جورج على الفور فى مرح: «إنها آخر زوجاتى.. طيبة وبنت حلال وما بتسألنيش أنت رايح فين ولا جى منين».

سألت «جورج» فى مشاكسة: عملك كمرشد سياحى يجعلك تقابل نساء من كل الجنسيات.. أين تعجبك أكثر؟.

ضحك وهو يقول: «سأتكلم على راحتى. فزوجتى لا تعرف العربية.. أولا.. هناك مجموعة يجب أن أحذفها من قائمة الإعجاب، وهذه المجموعة تضم نساء اليابان والهند.. وبقية كل دول وسط وشرق آسيا.. وعلى رأس قائمة الإعجاب تأتى المرأة الهولندية.. إنها أجمل نساء الأرض وأكثرهن استمتاعًا بالحب.. وبعدها الإيطالية.. ثم الإنجليزية»!

ونترك بيت «جورج» وننزل إلى الشارع..

وكما أن بصمات الأصابع لا يمكن أن تتكرر بين شخص وآخر.. كذلك المدن.. بصماتها الشوارع والبيوت..

والنشرات الدعائية تقول الأكروبول وتقول البارثينون ولكن عندما نلتقى بالشارع. وعندما نلتقى بالإنسان الذى يسكن هذا الشارع..

نعرف ما يفوق كل ما تقوله النشرات الدعائية.

« ديفريبسى ».. مشى حالك.

« ديم برازى ».. ولا يهمك.

المثلان الشعبيان اللذان يعتز بهما اليونانيون.

تمامًا كما كان يقول « زوربا » وكما كان يسخر من الفشل. ويضحك من المصائب.

فكلهم هنا.. فى اليونان.. زوربا!

حوار من طرف واحد!

١

أنت تقول إنك عاشق للبحر، ولكن معذرة دعني أسألك.. ماذا تعرف عنه؟ البحر ليس مجموعة أوصاف وكلمات تقولها ثم ينتهى كل شيء، لا يكفى الفتاة التى تعشقها أن تظل تردد فى أذنها أنك تحبها. كذلك البحر.. ومرة ثانية معذرة فأنا لا أريد أن أفسد علاقتك معه، قد تكون عشت على شاطئه سنوات طويلة. قد تمتلك له من الأحاسيس ما يسعده لو أنه كائن حى مثلك، ولكن كل هذا لا يكفى.. لكى تكون عاشقًا حقيقيًّا للبحر، لابد أن تعطيه مثلما يعطيك، أن تضحى من أجله مثلما يضحى من أجلك.. ألا تفعل ذلك مع الإنسانة التى تحبها بكل جوارحك؟. أرجوك.. حاول أن تتذوق ظهر يدك. أى طعم على لسانك الآن؟ الملوحة.. أليس

كذلك ؟ لقد بدأ البحر فعلا بالعطاء، فماذا تراك ستعطيه في المقابل ؟ ! .

أنا أعرف أن الإجابة صعبة، ولكنى سأتطوع بالإجابة نيابة عنك. فأنا عشت عمرى كله فى البحر، عرفته وموجه يمتد كأرض مستوية ممهدة. ولم أهرب منه حينما طوحت بموجه العواصف الهوجاء، أو حينما عوت فى أجوائه الريح الوحشية. دائمًا كنت معه. فى الليل أو فى النهار لا أفارقه، وهذا هو العطاء الوحيد الذى يقبله البحر. . فلو كنت فى جولة عابره، أو فى لحظة تأمل تحاول أن تنفض الزبد لتغوص إلى الأعماق. . فكل الذى سيحدث أن البحر سيرحب بك، ولكنه لن يقبل أن تقول إنك عاشقه. لأنه فى البداية لأبد أن يعشقك.

نعم. العطاء الوحيد الذى يقبله البحر أن تزامله حتى يتحول جلدك إلى صلابة الصدف. ومرة ثالثة معذرة، يبدو أننى قسوت عليك. ويبدو أننى تدخلت بينك وبين البحر. ما علينا لابد أن لك أبًا أو جدًا عجوزًا مثلى. ولابد أنك قد تعودت أن تسمع منه مثل هذه الكلمات. نحن فى هذه السن يحلو لنا أن نسخر من كل من هم أصغر منا، ودعنى أهمس فى أذنك أننا نضحك على أنفسنا. برغم السخرية فإن قلوبنا مفعمة بالحسد وبالحسرة على شبابنا الذى ضاع.

لا يهم أن تعرف اسمى. يكفينى أن تقول عنى « البحرى »

الرجل العجوز الذى يعمل فى البحر. زمان كنت أفرح إلى حد الرقص عند اقتراب السفينة من أى ميناء. فهذا معناه عطلة قصيرة، ومعناه حضن دافئ.. ورشفات من شفاه سخية. أما هذه الأيام فأتمنى أن تظل السفينة بين الأمواج إلى ما لا نهاية. لا أحس بالغربة إلا وأنا فوق الأرض، وأخاف من أن تكون نهايتى بعيدًا عن البحر!

معذرة. لابد أن أتركك الآن، يجب أن أنزل إلى الماكينات فعملى ينتظرنى هناك.

٢

أنا لست يونانية أو إيطالية، ركبت السفينة من «بسيريه» وساغادرها فى «مرسيليا» وبرغم ذلك فأنا لست فرنسية أيضًا. إذا كانت جنسيتى مهمة فيكفى أن أقول إنى مولودة فى «أوسلو» وأعتقد إلى حد الإيمان أننى ابنة العالم كله. لقد ضاق صدرى بالكلمات التى يحاول الكبار أن يملئوا بها رءوسنا فى البيت.. أو فى المدرسة.. أو حتى فى الجامعة.. إلى متى يظل الإنسان أضعف الحيوانات؟ القطة تهجر صغارها فور أن يتمكن الواحد منهم من أن يجد طعامه. وهكذا بقية الحيوانات. فلماذا يفرض علينا الكبار الوصاية إلى ما يقرب من ربع قرن. كلام فارغ.

أمى ولدتنى وأنا أشكرها من أجل ذلك أحيانًا. أما أبى فقد ظللت الدمية الجميلة التى تنتسب إليه حتى علا صدرى فأصبحت

مشكلة كبيرة بالنسبة لـه. لماذا يحـرص الإنسـان بعـد ذلك على أن يكون له أم وأب؟. لحظة الميلاد الحقيقية بـالنسبة لى هـى يـوم أن غادرت البيت، الجدران والوطن. والعالم كلـه هـو الـوطن الجـديد. لا أملك شيئا إلا رغبتى فى أن أعيش، وشـوق إلى أن أتعـرف على الحياة بنفسى. طبعًا هناك الكثير من المشاكل والصعاب التى تـواجهنى وهى ليست المشاكل نفسها التى تواجه الشاب الذى يفعل مثلى. أول الصعاب أننى فتاة، وأننى كما يقولون جميلـة. فى كل مـكان تـطاردنى عيون الرجل. تكبلنى الأنثى فى تكوينى الخارجى وأنا فى الحقيقة كيان متمرد. إذا استلقيت فى حديقة أو حتى تعريت فلاننى أريد أن أفعل ذلك ولست أريد أن أغرى الرجال. من حـق لـو كنـت جـائعة أن أقبل دعوتك إلى الطعام. ولكن ليس من حقـك أن تنـال جسـدى فى المقابل. أرجوك أن تفهم أننى لست راهبة فى معبد. لو أحسست بالرغبة فى الاستمتاع بالحب مع أى رجل فسأكون له بشرط أن تكون هذه رغبته أيضًا.

بالأمس وأنا نائمة فى الحديقة فى انتظار قدوم السفينة اقترب مـنى شاب أسمر ويده ممدودة بعلبة سجاير. اعتدلت وأخذت منـه سـيجارة شاكرة فقد كنت أحس بالرغبة فى أن أدخن كنـت أعتقـد ان الأمـر سينتهى عند هذا الحد. ولكنه كان يريد إعطائى العلبـة كلهـا، وكان يريد أيضًـا - كما تفضــحه عينـاه - أن يـأخذنى كلى على بعضى ولا يكتفى بكلمة أشكرك مقابل سيجارته. هل من المعقـول أن أكون

له بهذه البساطة؟ هل من المعقول أن أمتهن نفسى إلى هذا الحد. لماذا إذن حملت هذه الحقيبة الصغيرة وراء ظهرى، ولماذا إذن قررت أن أطوف العالم دون توقف؟!

تسليتى الوحيدة هى القراءة. سعادتى تتجدد كلما قرأت كتابًا جديدًا. الكتاب الذى انتهى من قراءته تنتهى علاقتى به ففكرة أن تكون للإنسان مكتبة فكرة عتيقة لا تتناسب مع هذا العصر.. الإنسان الذى يحرص أن تكون عنده مكتبة كأنما يحرص على أن يزرع رجليه فى الأرض، لتظل المكتبة أمامه ويظل هو أمامها. جماد أمام جماد. أنا أقرأ الكتاب وأستوعبه ثم أسعى بجد لأن أستبدله بكتاب آخر، استعرضت كل الفلسفات التى ابتدعها الإنسان ابتداء من «ديموقريطس» حتى «ماركوس» ولم أعجب بأى هذه الفلسفات. الفلسفة الوحيدة التى يجب أن يؤمن بها الإنسان هى أن يكون إنسانًا.. يرفض الظلم لنفسه أو لغيره. تتلاشى أنانيته ليتألم - حتى ولو كان فى قمة السعادة - لعذاب إنسان آخر مثله يعيش على بعد آلاف الأميال. أعتقد أنه آن الأوان ليعود الإنسان إلى الطبيعة التى هجرها منذ العصر الحجرى. حكاية الأزرار والتكنولوجيا كلام فارغ. النهاية المتوقعة أن الإنسان سيضغط على زر يزيله تمامًا من وجه الأرض.

بعد العشاء سأعود هنا لأشهد الجبلين اللذين ستعبر بينهما السفينة فى ممر «كورنيث». لابد ألا يفوتك هذا المشهد. والآن. بعد إذنك. أنا ذاهبة إلى صالة الطعام!

٣

لقد حرصت على أن أدعوك إلى مكتبي فى هذه اللحظات بالذات، وطبعًا أنت تعرف أننى الضابط الأول فى السفينة. ولابد أنهم قالوا لك إن اسمى «بانتاكوس وسكيريوش» كما قالوا لى إنك تريد معرفة بعض المعلومات عن «سينتيا». دعك من المعلومات الآن حتى تعيش تلك اللحظات الخيالية ونحن نمر فى «كورنيث». الذى يتولى قيادة السفينة الآن ليس أنا أو الكابتن «بانيوتى جيانولاتوس».. وإنما مرشد خاص كما هو الأمر عندكم فى قناة السويس.. انظر. إن الشريط ضيق إلى الغاية بين الجبلين. لو انحرفت السفينة عدة سنتيمترات لحدثت كارثة لكن لا تخف. هؤلاء الرجال يعرفون عملهم جيدًا.

هذه القناة ليست كلها مع صنع الطبيعة. الجزء الأكبر عمل خيالى من أعمال الإنسان. كان ذلك سنة ١٨٨٣ أى ما يقرب من مائة سنة. القناة تتخللها أماكن ينخفض فيها ارتفاع الجبال ولذلك - كما ترى - يحرص اليونانيون على أن يقيموا فيها الكازينوهات والملاهى الليلية. تسألنى عن عمل الضابط الأول وأقول لك - وربنا يجعل كلامى خفيفًا على الكابتن - إن الضابط الأول مسئول عن كل شيء، وعملية إبحار السفينة فى البحر عملية معقدة تعتمد على

حسابات أولا وأخيرًا. والحسابات تساعدها بالطبع الأجهزة الحديثة، وخاصة الرادار والإلكترونيات.

قد تظن أن السفينة تسير فى براح تذهب يمينًا أو شمالاً كما تريد، والواقع غير ذلك. خط سير السفينة مرسوم ومخصص لها حتى لا تتعدى على خط سير أى سفينة أخرى. نعم أنا متزوج وبسبب انشغالى فى عملى طوال الصيف فإن زوجتى تأتى من بيريه لتعيش معى فى السفينة حتى نعود إلى «بيريه» ثانية، بالطبع أنا لا أعمل طوال السنة، آخذ إجازة طويلة فى الشتاء، وهذه الإجازة أقضيها كمعظم أبناء بلادى فى الجبال.

هذه السفينة عمرها الآن أربعون سنة.. كان اسمها الأول «بريتانيا» وكانت تملكها شركة إنجليزية تخصصها للرحلات بين الجزيرة البريطانية وموانى البحر الأبيض. ولذلك فأنت تشعر أن حجرات السفينة - الكبائن - لا تصلح للإقامة الطويلة. فمعذرة إذا كنت تشعر أحيانًا بالاختناق فى حجرتك. بالطبع تصادفنى كضابط أول متاعب كثيرة من الركاب آخر هذه المتاعب كانت مع أحد الأمراء بعد أن احتسى كميات هائلة من الويسكى، ثم هاج كالثور بين الركاب. وخاصة الجنس اللطيف، وفى أول الأمر أخرجت مسدسى وهددته بإطلاق النار إن لم يلتزم بحدود اللياقة ويهدأ. ولكنه ظل على هياجه، وعلى الفور أصدرت أمرى بوضع القيد الحديدى فى يديه وحبسته فى كابينة تحت حراسة مشددة حتى الصباح. وحين أفاق كان

أول شيء فعله أنه جاء إلى مكتبي واعتذر عن كل ما فعله ساعة سكره الشديد.

بصفتك صحفيًا سأقول لك خبرًا لا يعرفه أحد بعد فى السفينة. غدًا سنجرى تجربة غرق وهمية. سنطلق الصفارات التى نطلقها عادة عندما تواجه السفينة العواصف وتوشك على الغرق. فى كابينة كل راكب توجد اللوحة المكتوبة فيها المعلومات التى يجب عليه أن ينفذها فى حالة الخطر. أول كل شيء رقم قارب النجاة الذى يجب عليه أن يتجه إليه أعلى السفينة ويأخذ مكانه فيه بعد أن يرتدى جاكت الحياة. ستكون تجربة مثيرة، فأنت ترى الجميع وقد اختفت أجسادهم تحت هذه «الجواكت» ووجوههم يرتسم عليها الخوف برغم أنها تجربة وهمية. فى مرات نادرة حدثت عواصف حقيقية ونحن نجرى مثل هذه التجارب، وبالطبع الخطر يشغلنا عن أن نضحك على هذه المقارنة الغريبة. وغير المتوقعة. هل أسألك إن كنت تشكو من أى شيء غير ضيق الحجرة المخصصة للإقامة والنوم. عظيم بعد إذنك فالسفينة أوشكت على عبور «كورنيث» وقد انتهى الآن عمل المرشد وبدأ عملى أنا. ما رأيك هل فكرت يومًا فى أن تعمل فى البحر؟ أنا شخصيًا كنت أتمنى أن أكون كاتبًا مثلك أو صحفيًا ولكن يبدو أن الوقت قد فات.. أليس كذلك؟

٤

هذه ليست أول مرة أركب فيها سفينة، سافرت كثيرًا بالبحر إلى بيروت، فأهلى مازالوا يعيشون هناك برغم أنى أصبحت مصرية بحكم الزواج والإقامة. ضوء القمر وانعكاسه المدهش على سطح الماء جاء بى هنا إلى أعلى مكان فى السفينة. المرأة المتزوجة فى حاجة لأكبر قدر من الرومانسية وإلا أصبحت حياتها جحيمًا لا يطاق. لو جاء زوجى الآن وجلس معى فى ضوء القمر فلن تمر دقائق حتى يتطور الحديث بيننا إلى شجار وإلى ما يجب أن نفعله أو ما لا يجب أن نفعله. تزوجت صغيرة ولا أستطيع أن أحدد ما إذا كنت قد وافقت أيامها أم لم أوافق.

أى فتاة تسعد للطبول المصاحبة للزواج والسابقة له وبعد ذلك يشدها الواقع إلى ضرورة إعادة التفكير من جديد. الزوجة الأجنبية - أو المرأة الأجنبية عمومًا - تفعل ما تقتنع به دون تردد. تأخذ القرار هكذا وتنفذه دون أى خوف. ولكن المرأة عندنا تتوق لعشرات الأشياء وتكتفى بأن تنفذ بعضها فى خيالها. ابنتى مازالت صغيرة ولكننى لن أسمح بأن أرسم لها أو يرسم لها أبوها بغير ما تريده هى تمامًا.

كل ما تفعله المرأة عندنا - أو حتى الفتاة - فى الخفاء تفعله الفتاة هنا أمام الجميع. تقبل حبيبها فى اللحظة التى تريد أن تقبله

فيها حتى ولو كان أبوها يجلس على يمينها. ألم أقل لك إن المرأة المتزوجة فى حاجة إلى أكبر قدر من الرومانسية.. بالطبع أنا شاكرة لزوجى اصطحابه لى فى هذه المرحلة، ولكننى أحس بضيق كبير عندما أراه يتعامل معى فى البيت. قد تدهش لأمنيتى الآن أو تنزعج، ولكنى أتمنى أن تقوم عاصفة. وأن تصفر الريح، وأن يتلاعب الموج بالسفينة.. وأن تلطم المياه جوانبها.. وتأكد أنى ساعتها لن أطلق أى صيحة فزع. أكره الرتابة والتكرار وأن أكون فى سفينة تتجول بطول البحر وعرضه ثم لا يحدث شيء خطير يكون مثار الخوف والتعليقات والحكايات التى لا تنتهى. هل أخبرك بشيء. إن امنياتى كثيرًا ما تتحقق. ومن يعرف. فربما تجيء العاصفة الليلية.. أو ربما فى الفجر!!

٥

طال بى الوقت دون أن أتكلم.

نهار بأكمله، وأمسيته.. وأنا أسمع وأسمع..

فى الخامسة صباحًا تمر السفينة على جزيرة «كابرى».. ثم بعد ساعتين تصل إلى «نابولى».. ومسار السفينة الآن كأنه فى دروب الأحلام.

ولكنها الحقيقة..

فأى الأمنيات ستتحقق فى الفجر.. ثم فى الصبلح؟!

الجسد.. لغة عالمية

أنا فى دائرة الإحساس، لا يعنينى البحث عن الكلمات المناسبة، منذ أن تعلم الإنسان الكلام وهو يتكلم ويتكلم، ومنذ تعلم الكتابة وهو ضائع مع الحروف الأبجدية، ولكنى لن أفعل ذلك. إن كان من الضرورى أن أنقل إليك، وأنا داخل هذه الدائرة كل ما أحسه وما أشعر به، فأرجوك ألا تطالبنى بمنطق، ولا تتعب نفسك بالجرى وراء المقدمات والنتائج، فالحكاية ببساطة أننى عشت عمرى أسمع كلمات مثل «كابرى»، ومثل «كان» ومثل «الريفييرا» وكنت أعتبرها صفات مكملة لصفات صاحب الجلالة الملك فاروق الأول حتى أننى تضاربت بالأيدى مع صديق لأنه قال إن الملك يأكل «أم الخلول» مثلنا. يفتحها بأظافره ليظفر بقطعة اللحم الضئيلة المختفية بين الصدفتين

الصغيرتين، كانت وجهة نظرى أيامها أنه ضرورى من وجود من يفتح « أم الخلول » للملك ويضعها فى فمه، ثم بعد مرور السنوات عرفت أنه، كان يجب أن أتشاجر مع صديق لأن الملك لا يحب « أم الخلول » بل لا يحب أى طعام تسبقه كلمة « أم » !

ثم مرة واحدة وجدت نفسى فى كابرى !

ولكى تتم المفاجأة، ولكى تكتمل الصورة الملكية، رأيت فتاتين كانتا منذ لحظات بأكمل عقل قبل الهبوط فى المرفأ الصغير، رأيتهما ترميان ما عليهما من ملابس قليلة، لينضوى تحت الشمس جسدان ليس فيهما أجزاء ناقصة أو حتى أجزاء زائدة، فلالة رقيقة فوق الصدر، ويبدو أنها ليست أى غلالة والسلام، ذلك أن هناك لغة مشتركة بينها وبين الغلالة الأخرى التى تعلو الفخذين، وأنتم تعرفون عنى أننى لا أفهم فى النحت، ولكنى فى تلك اللحظة كنت على استعداد لأن أعالج قطعة رخام بحجم لوحى ثلج ملتصقين لأحيلهما إلى كيان أنثوى أملس الرقبة، نحيل الكتفين، ناهد الصدر، ضامر الخصر، مستدير الفخذين، وكنتم ستشهدان لتمثالى بالروعة، ولكن أين يذهب التمثال أمام ما أراه الآن، بل ما ظللت أراه منذ أن رست السفينة فى « نابولى » ؟. الرؤية تمتزج بإيقاع موسيقى فى كل شىء، فى اللغة، وفى ذلك العناق النادر بين الجبال والخضرة وزرقة البحر، وفى الخطوات التى لا تكاد تلامس الأرض، ولكنها خطوات الحياة كلها.. الرغبة فى البقاء.. الشوق لتحقيق الذات، أو لتلاشيها،

أنت فى كل مرة الرجل، وها هى ذى الطبيعة تفتح لك ذراعيها بكل سمات الأنوثة، لو أشعلت سيجارة الآن وسحبت أنفاسها فى استمتاع، فإن ما تحسه هو ذات الإحساس الذى يسبق متعة الحب، أو الذى يأتى بعدها.. فماذا أقول لك وفى تنبعث منه سحابات الدخان ؟!

مات فاروق الأول، فلاستمتع أنا..

ولأغرق فى أحضان كابرى!

* * *

كأنها مستلقية فى فراشها، وكأنها تأكدت من أنها أغلقت الباب من الداخل، كانت هى مستلقية أعلى الدرجات القليلة المؤدية إلى بلاج كابرى. وإلى جوارها فتاة أخرى بالبيكينى أيضًا ولكنها جالسة فى وضع الذى يريد أن يكتب، وكانت فعلا تكتب خطابًا ولم يمهلنى رفاق الرحلة لأقف وأتأملها فموعد الغداء قد اقترب، ولابد من ركوب « التليفريك » لصعود الجبل وتناول الطعام فى أحد « الكازينوهات » فوق، وقبل أن أخطو بعيدًا عنها، سمعت كلمات التى تكتب الخطاب وبلغة إنجليزية مفهومة :

- هل أنت صاعد إلى فوق ؟

وأشارت بيدها إلى أعلى الجبل المكسو بالخضرة وبالورود البنفسجية والحمراء، فتوقفت خطواتى على الفور لأجيبها :

- هم يريدون ذلك.. و..

قاطعتنى قائلة:

- من أين؟

قلت:

- من مصر..

تعالت ضحكاتها كنغمة هارب فرعونى، ثم قالت فى سعادة ظاهرة:

- لقد كسبت الرهان.. صديقتى كانت تقول إنك مس المكسيك..

ورأيت أن أحيى صديقتها المستلقية كأنها فى حجرة أغلقت بابها من الداخل، وكان ردها ابتسامة وهزة من رأسها، فقلت لها:

- آسف لخسارتك الرهان بسببنا..

وكان ردها ابتسامة، الابتسامة نفسها وهزة أخرى من رأسها.

وتعالت من جديد الضحكة الموسيقية لتقول صاحبتها:

- هى سويدية لا تعرف الإنجليزية.. وعلى العموم أنا أرجوك فى خدمة.. هل من الممكن أن تأخذ هذا الخطاب معك لتسقطه فى صندوق البريد.. لقد ألصقت به الطابع و..

تزاحمت على لسانى الكلمات المقاطعة لها، والمبدية الاستعداد لتنفيذ هذه الخدمة البسيطة، وعندما ابتعدت خطواتى عنها قفز إلى ذهنى تساؤل من تلك التساؤلات الكثيرة التى لا ترقى إلى درجة

الأهمية الكبيرة، ولكنها تتكرر كلما كان الإنسان فى حالة تجوال أو سياحة، تساؤل يبدو ساعتها عظيم الأهمية وقد حشدت الطبيعة فى خلفيته كل ما تمتلك من سحر، وجمال، وروعة..

لماذا تقف اللغة عائقًا بين الإنسان والإنسان، بل لماذا تقف أحيانًا بين الرجل وفتاة مثل تلك الفتاة، كأنها خلقت لتوجد فى هذا المكان بكل ما فيه من فتنة؟.. لماذا؟

الإشارات للمطالب الهينة، البسيطة..

ولكن الجسد.. إنه وحده لغة عالمية!!

* * *

بعد الصعود «بالتليفريك» والهبوط، قالوا إن أمامنا ساعة قبل أن نأخذ القوارب لنذهب إلى «المغارة الزرقاء» بعد لفة كاملة حول جزيرة كابرى، وساقتنى خطواتى إلى كشك لبيع الصحف والمجلات، وعندما رأيت الرجل الذى يبيع الصحف أحسست كأننى أستيقظ من حلم وردى إلى واقع تفرش كل أرجائه شعاعات الشمس اللافحة، إيطالى عجوز يرتدى ملابس تقاربه فى السن، ولا ترتسم على ملامحه واحدة من إبداعات الطبيعة التى تحيط به، كان يتكلم الإنجليزية بصعوبة، ولكنه تواق للحديث مع كل من يشترى منه، وكان يكفى أن يسمعنى وأنا أسأل عن سبب الارتفاع الجنونى فى أسعار كل شىء هنا، ثم وأنا أقول له إن الإيطاليين بارعون فى استغلال الجيم والميم

والألف واللام في «جمال» هذه الجزيرة الأسطورية.. كان يكفي ذلك لينطلق في كلمات متقطعة ولكنها مليئة بالحماس.. ومصحوبة بحركات الأيدي التي تكاد تتكلم نيابة عن لسانه، بل عن جسده كله:

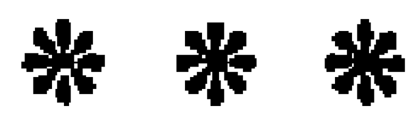
«أنا إيطالي.. فهل تراني قد استفدت من تلك البراعة.. أنا أبيع الجرائد والمجلات.. فهل أستطيع أن أكذب عليك وأرفع سعرها.. إن الرقم أمامك مكتوب بالحروف اللاتينية.. عندما تتكلم عن البراعة أو عن الاستغلال.. فأرجوك أن تفهم أنها ليست مسألة شائعة يستفيد منها الجميع.. وإلا فهي ليست براعة على الإطلاق.. البراعة أن يستفيد من أموال القادمين هنا أقل عدد من الناس.. حتى تكون الفائدة كبيرة.. ودعني أهمس في أذنك.. هذه الجزيرة ليس اسمها «كابري».. هذا الاسم مقصور على أجزاء من الجزيرة وخاصة تلك التي تعلو الجبل.. ما هو أمامك ليس «كابري» إنه «مارينا».. لقد كانت المهنة المربحة لنا هنا صيد السمك، وما زالت هناك الأسر الكثيرة التي تعيش على صيد السمك.. ولكن الصورة تغيرت تمامًا عندما قرروا أن تكون الجزيرة كالفرخة التي تبيض ذهبًا.. سياحة؟.. ولكن ماذا يهمني أنا وماذا يهم امرأتي وأولادي.. نحن نريد أن نعيش في أمان وفي هدوء.. ولكن كما ترى لقد تحولنا وتحولت جزيرتنا معنا إلى فرجة للعالم كله.. لقد أصبح عليّ أن أقسم إنى إيطالي في كل مرة أريد أن أشتري فيها شيئًا حتى لا يبيعوا لي بالأسعار نفسها التي يبيعونها للوافدين على الجزيرة..

طبعًا أنت تقول إن مالك الشيء لا يحس بما فيه من مزايا ومن جمال.. ولكن.. من قال لك إنى أملك أى شيء.. إنها ياصديق القصة القديمة.. الفقير.. والغنى.. ولا تصدق الحكاية الكاذبة عن الذى كان معدمًا ثم أصبح يمتلك الملايين. وإلا فأخبرنى كم يبلغ عدد الذين تحولوا من معدمين إلى أصحاب ملايين.. واحدًا فى المليون.. اثنين فى شعب بأكمله.. عشرة فى العالم كله؟.. البراعة والاستغلال صفات متوارثة يحافظ عليها أصحابها بالنصب وأحيانًا بالقتل.. ولكن من يهتم الآن بالقاتل أو المقتول!؟

كلمات الرجل العجوز شدتنى من حلم «كابرى» الوردى..

جسده كان ينتفض بالغضب، وكأنما كان به شوق كبير لأن يزيح عن صدره كل هذه الكلمات..

وكان جسده، وغضبه - أيضًا - لغة عالمية!



فى المساء التأم شملنا كالعادة فوق ظهر وبين ردهات السفينة، وكان الدكتور عادل طبيب الباخرة يقول: «الآن عدنا إلى بيتنا»..
وهى الجملة نفسها التى يقولها كلما عدنا من تجوال طويل فى أى من الموانى، ثم نصعد درجات الباخرة ليتلقفنا البحر من جديد، كان الدكتور عادل قد بدأ يواجه مشاكل كثيرة مع بقية الركاب، فهو أساسًا جراح، وقد اختاروه طبيبًا للباخرة بالمصادفة، تغيب الطبيب

الأصلى فعرضوا عليه المهمة على أن تكون هذه الرحلة فقط، ووافق. ويبدو أن علاقته بالأمراض الباطنية تقف عند وصف حبوب مقاومة دوار البحر، وعندما تجمع عند باب عيادته، التى لا تتعدى مساحتها نصف متر فى نصف متر، ذلك الطابور الطويل من المرضى بالروماتيزم وبالقلب، وحتى بالسكر، يبدو أن الدكتور عادل كان يصف لهم جميعًا حبوب دوار البحر نفسها، وبدأ التذمر الذى يوشك أن يؤدى إلى ثورة على السفينة.. وسألته ضاحكًا «إيه الحكاية؟»، ورد وعلى جبينه تلتمع حبات العرق «أعمل إيه.. مافيش غير الحبوب دى وشوية حبوب للصداع.. والضابط الأول قال لى اتصرف فى حدود الموجود!» غير أن هذه لم تكن مشكلته الوحيدة.. فبعد زيارة «كابرى» وبعد مشاهدة الاستعراض المثير للحسناوات من كل البلاد، تذكر الدكتور عادل أنه أعزب، وأنه قد مضى عليه عدة سنوات منذ تخرجه فى كلية الطب وهو لم يتزوج بعد.. وكان قراره المفاجئ أن يتزوج حالا، حاولت أن أناقشه، وأن أقنعه بأنه يمكن الانتظار حتى الوصول إلى الإسكندرية، وبحركة خاطفة من يده أشار إلى فتاة مصرية جميلة ولكنها جادة الملامح، ثم قال لى:

«هى دى اللى تنفعنى زوجة فى أسوان».. وقلت له: «عظيم جدًا.. ولكن أليس من الأفضل أن تحاول التعرف عليها أولا وبعدها».. وقاطعنى على الفور: «أخاف لو تكلمت معها أن أغير رأيى».. ورددت عليه فى دهشة: «وهل تريد الزواج منها دون

علمها».. قال فى بساطة: «يكون أحسن.. ما أنا ضرورى حا كلم أبوها وأهلها».

أحسست أنه واقع فى ورطة كبيرة وقد وقفت قبالة العيادة، سيدة متقدمة فى السن وصوتها يرتفع على صوت الموج: «انت دكتور انت.. أحسن لك تعالج الحمير».. كان يتجاهلها ويتجاهل صوتها العالى، ولكنى رأيت سمرة وجهه وقد احتقنت بالحمرة عندما مرت فى اللحظة نفسها تلك الفتاة التى قرر بينه وبين نفسه أن يتزوجها، وأسرع دون أى كلمة بإغلاق باب العيادة ثم هرول فى خطوات خاطفة قاصدًا السلم المؤدى إلى أعلى السفينة، كان ظاهرًا من طريقته فى الصعود أنه ينوى القيام بعمل خطير، الباخرة الآن قد ابتعدت عن الميناء الإيطالى كثيرًا، والموج لسوء حظه فى تلك الليلة كان عاليًا ومزمجرًا.. فماذا تراه فاعلا بنفسه!؟

أسرعت وراءه وصوت السيدة الغاضبة مازال يطارده باللعنات، ولكنى دهشت عندما لم أجده فوق، طفت بين قوارب الإنقاذ المثبتة عند حافة السفينة، ونظرت جيدًا فى قاع حوض السباحة الصغير، ثم نظرت إلى مياه البحر من كل الجوانب، ولكنى لم أعثر له على أثر، كنت حتى هذه اللحظات أعتقد أنها حكاية طريفة يمكن أن تنتهى على خير، ولكنَّ اختفاءه هذا السريع بدأ يشع بموجات القلق والخطر، وبغير وعى رحت أصعد وأنزل كل الدرجات الداخلية بالسفينة، ثم لم أجد أمامى إلا أن أذهب إلى حجرتنا المشتركة،

وعندما فتحت الباب وصدرى يلهث، رأيته ممددا فى سريره الأرضى وكأن شيئًا لم يكن، وقال على الفور: «امرأة مجنونة.. كيف تأتى إلى مثل هذه الرحلة وعندها ألف مرض ومرض!؟» وقلت له وأنا أحاول أن أخفف عنه: «إذن كان عليها أن تصحب طبيبها الخصوصى».. وقبل أن أرد عليه قال وهو يهرب بعينيه إلى الطاقة المطلة على البحر: «ماذا ستقول بنت الناس الآن؟.. كيف كانت انفعالاتها عندما رأت وسمعت ما حدث!؟» ووجدتنى أنطلق ضاحكًا ثم أقول له: «وما شأنها بك»؟.. فعاد يقول: «ماذا نقول.. ألن تصبح زوجتى.. هل سترضى أن تتزوج دكتور حمير!؟».

* * *

«نحن فى بيتنا الآن»..

تحول جميع الركاب إلى شلل، ولم يعد الأطفال يحسون بالرهبة من أى شىء، تتوالى ألعابهم وكأنهم فى حديقة متعددة الطوابق، وحتى عندما بدأت السفينة مع ارتفاع الموج تهتز وتتمايل بعنف. كانت المسألة تبدو طبيعية بالنسبة للجميع. وعندما يشعر أحدهم بالملل من الجلوس فى الصالون ينسحب ولسان حاله يقول «أنا مروح بقى».. ثم يختفى فى حجرته، وكنت أظن أن تراقص السفينة سيحول بين عشاق النوم فوق ظهرها وبين البقاء هناك فى ظلمة الليل، ولكن عندما صعدت إلى هناك رأيت غير ما كنت أتوقعه..

أكثر من عاشقين فى قبلات وعناق طويل صامت.

القبلات متناثرة فى كل الأركان، دون أى التفات لتمايل السفينة أو لصوت الموج المزمجر..

دون أى التفات للخطوات المقتربة أو المبتعدة.

وكنت أقول لنفسى وأنا أهبط الدرجات إلى بطن السفينة :

حقيق.. الجسد.. لغة عالمية !!

كونشرتو القمم الزرقاء!

١

فى تلك اللحظات، والليل يلف كل شيء بغلالة من الهواء النشط، لاح نذير الخطر، الأمواج التى كانت كريمة مع السفينة إلى أقصى الحدود تتمرد الآن وتعلو فى قمم متلاطمة لا تهدأ، وتتابع فى ذهنى على الفور ذلك الشريط من الكلمات التى قرأتها عن البحر عندما يثور، وتوالت الصور التى شاهدتها فى الأفلام عن العواصف، وعن الأمواج التى تنقلب إلى جبال وأودية وعن الغيوم والسحابات السوداء، وبدأت أستشعر الخوف! الكرسى الذى أجلس عليه، والمنضدة التى أمامى، الاثنان يتمايلان. وفى ثوان خاطفة أرى امتداد البحر وموجه المتراقص، ثم تعلو السفينة فأرى من المكان نفسه السماء وقد التمعت فيها النجوم، وكأن امتداد البحر قد تلاشى مرة واحدة!

الحركة - حركة الركاب - تكاد تختفى من ممرات وصالون السفينة، ويبدو أن الكثير منهم قد فضل أن يعتكف فى الكبائن، ورأيت أنه من الحكمة أن أفعل أنا ذلك أيضًا، ولكن فى اللحظة نفسها رأيت أمامى «بانتاكوس» الضابط الأول بالسفينة، كانت تنبعث من فمه صفارات بلحن لا أعرفه، وملامحه تبدى سعادة اعتقدت لحظتها أنها لا تتناسب مع حالة السفينة وسط ذلك الجو العاصف، وحاولت أن أبتسم وأنا أراه ينظر ناحيتى، ورد على ابتسامتى بأن جاء وجلس أمامى على الكرسى المقابل، ثم قال بعد أن حيانى تحية المساء :

- الجميع قد ناموا.. فلماذا أنت ساهر.. أهو الأرق !؟

قلت لنفسى قبل أن أرد عليه، هذه هى طريقة المضيفة الجوية عندما تكون الطائرة فى خطر، فهل يتبع الضابط الأول بالسفينة الطريقة نفسها !؟.. ماذا تراه يقصد بسؤاله ؟.. لا أعرف.. وقررت أن أدخل فى الموضوع مباشرة :

- السفينة ليست فى حالة عادية.. أليس كذلك ؟

انحدف رأسه إلى الوراء فى ضحكة عالية ثم عاد رأسه فى مواجهتى ليقول فى استنكار :

- ليست فى حالة عادية ؟.. من قال ذلك !؟

قلت وأنا أمسك المنضدة المتمايلة بكلتا يدى :

- هذا التمايل.. وذلك الهواء النشط فى الخارج.. أقصد العاصفة و..

قاطعنى وملامحه توحى بأنه يود أن يطلق ضحكة ثانية:

- وهل تسمى ذلك عاصفة؟.. إنه شيء عادى نتوقعه فى هذه المنطقة.. أما عن تمايل السفينة فكل ما فى الأمر أنى أصدرت أوامرى بزيادة السرعة!

ادركت قبل أن أرد عليه - ربما لأول مرة - أن الكرسى الذى أجلس فوقه مثبت فى الأرضية، وكذلك المنضدة. فعدلت عن زحزحة الكرسى إلى الوراء وقلت له:

- لا أعتقد أن زيادة سرعة السفينة تسبب كل هذا التمايل ثم إن شكل الموج فى الخارج ليس كما تعودنا فى الأيام الماضية لابد أن هناك سببًا آخر!

مد يده لولاعته ليشعل لى السيجارة التى كانت مدلاة بين شفتى دون إشعالها، وأشعل سيجارته، ثم قال فى هدوء حسدته عليه:

- هل تعتقد أنه لو كان هناك أى سبب آخر.. أقصد لو كان هناك أى خطر.. كنت ستراني هنا.. وكنت سأجلس معك كما أنا جالس الآن؟!.. بالطبع لا.. ولعلمك فإن الحالة التى عليها الموج الآن هى حالته الطبيعية فعلا.. كونك رأيت الموج منبسطا طوال الأيام الماضية فهذه ليست حالته العادية. وهذا من حسن حظ الذين جاؤا معنا فى هذه الرحلة.. وعلى العموم لا تنزعج.. فقرب الفجر

ستعود السفينة إلى سرعتها العادية.. وستقترب أكثر من الشاطئ الإيطالى. وبالذات شاطئ «بورتوفينو». وساعتها ستنسى كل ما فكرت فيه الآن!

أحسست بالخجل، وحاولت أن أقول شيئًا أغير به مجرى الحديث، ولكن أفكارى لم تسعفنى، فآثرت الصمت، وسمعته يقول ثانية:

- هل تعرف ماذا أحس عندما يعلو الموج كما هو حادث الآن.. أشعر كأنى أستمع إلى كونشرتو.. آلات الفرقة الموسيقية كلها تهدأ لينبعث صوت واحد هو صوت الكمان.. أو البيانو.. والآلات العازفة هنا هى حركة السفينة وذلك الهواء النشط، وحتى تلك النجوم المتناثرة فى السماء، تهدأ، بل تتلاشى، لينبعث صوت واحد يدخل فى حوار معها.. ذلك الصوت هو صوت الموج.. لا أقصد صوته بالضبط. وإنما أقصد صورته وقد تحول إلى قمم زرقاء امدادها لا نهائى.. وأمام هذه الصورة، وبانبعاث ذلك الصوت.. تكتمل سعادتى وأشعر حقيقة أننى رجل بحر!

جاء أحد العاملين بالسفينة ومال على أذنه يهمس ببعض الكلمات، ورأيته يهب واقفًا ليستأذن فى الانصراف، وعندما ابتعدت خطواته، تعلقت نظراتى بالامتداد اللانهائى الذى كان يتكلم عنه.. وكان يظهر ويختفى من جديد مع تمايل السفينة وتأرجحها.

هل أستطيع الاستمتاع بذلك «الكونشرتو» مثله؟

فى الفجر - كما قال - ستعود السفينة إلى سرعتها العادية..
وأعتقد أنه من الأحسن أن أذهب لأنام.. حتى يجىء الفجر!

٢

الميادين فى «نابولى» كثيرة، والحدائق أكثر، والتماثيل الرخامية والذهبية منصوبة فى كل مكان.. وكنا يوم أحد. وكانت أجراس الكنائس تدق فى وقت واحد وكأنها سيمفونية تدعو إلى الله. وخطوات الناس متأنية ليست مدفوعة بمواعيد العمل. وأغلب المحال مغلقة. وعندما أترك الميدان تدفعنى قدماى إلى الشوارع الجانبية. ومن الشوارع إلى الحوارى وأشعر وأنا أسير فى حيزها الضيق إلى أبعد الحدود كأن الساكنين فى هذا الجانب يستطيعون أن يمدوا أيديهم ليشدوا على أيدى الساكنين فى الجانب الآخر.. وفعلا.. عندما رفعت نظراتى إلى أعلى رأيت الحبال المشدودة بين شرفات الجانبين وعليها الملابس المنشورة حتى تجف!

وعند ناصية أرى سيارة سوداء كبيرة مقدمها وجوانبها مغطاة بلعب الأطفال، وغير بعيد عنها عربة صغيرة فوقها براويز لصور مرسومة بالزيت وكلها تقليد للوحات أشهر الرسامين العالميين.. بعد أن اشتريت لعبة من هنا، ولوحة من هناك، سألت صاحب السيارة:

- هل هذه سيارتك؟

ورد بانجليزية متعثرة :

- نعم.. ماذا فى ذلك.. إننى عندما أفرغ من البيع.. أنطلق بسيارتى إلى أى مكان أريد.. أما تلك العربة الصغيرة فنتركها هنا.. طريقة مبتكرة أليس كذلك.. إنها فكرة زوجتى التى باعت لك هذه اللوحة الصغيرة الآن!

وأعرف أن اسمه «ماركو» واندهش عندما يفخر بأنه «فاشستى»، ويدافع عن ذلك بقوله بالطريقة نفسها :

- وماذا فى ذلك.. أعضاء الحزب الفاشستى الجديد كثيرون هنا فى ايطاليا.. أكثر من مليونين.. لا تصدق ما يشاع عنا فى أننا دعاة حرب.. فى الحقيقة نحن نقدس القوة.. ودعوتنا من أجل أن تسترد ايطاليا مكانتها فى أوربا من جديد.. نحن لا نرضى بأن نكون ذيلاً لأحد.. لا للشرق ولا للغرب.. ايطاليا.. لإيطاليا فقط!

وأقول له وقد لاحظت احتقان عينيه بالحمرة :

- هل اشتركت فى الحرب العالمية الأخيرة؟

ويزداد انفعاله ويقول ويداه تتخبطان فى الهواء :

- أفهم ماذا تقصد بسؤالك.. لقد اشتركت فى الحرب فعلاً.. وأسرت.. لقد انهزمنا لأننا كنا أغبياء بتحالفنا مع هتلر.. الإيطالى يختلف كثيرًا عن الألمانى. الإيطالى فنان فى كل شىء.. والألمانى مثل بندول الساعة.. حركة منتظمة ولكن بدون عقل.. والفنان والغبى لا يتفقان.. ومع ذلك فقد وقعنا فى هذه الغلطة.. ولكن الأمر

الآن يختلف.. يختلف كثيرًا!

أعود ثانية إلى الميدان الواسع، شاب وفتاة يلتقيان فى قبلة طويلة بأحد أركان الحديقة التى تتوسط الميدان.

وأجراس الكنائس تعلو من جديد!

..

٣

فى اليوم الثانى لنا فى «نابولى» كانت الصورة مختلفة تماما.

طوابير السيارات تسد الشوارع، وأغلبها سيارات صغيرة ذات طابع خاص ولا تتسع إلا لاثنين، والإيقاع سريع فى كل شىء، والإيطاليات المسرعات إلى العمل نوعان.. إما رشيقة كنجمات السينما.. أو ضخمة فى نصف حجم الفيل ونادرًا ما كنت أرى الوسط بين الاثنين.

وكالعادة تزاحم ركاب السفينة على المحال التى حرموا منها فى المرة السابقة بسبب عطلة الأحد، وكان أكثر الزحام على المحل الرئيسى فى «نابولى» واسمه «أوبيم»، وهو من نوع «السوبر ماركت» الذى تجد فيه كل شىء.. وكان من الممكن أن يمر الأمر بسلام لولا صيحة الفزع التى أطلقها صديقنا «سيد».. فقد اختفت فجأة «ربطة» كبيرة دفع فيها كل ما معه من «ليرات» إيطالية.. ورحت معه نتجول فى جميع أنحاء وأدوار المحل بحثا عن الربطة لكن دون جدوى.. البائعات فى المحل لا يفهمن غير الإيطالية، وتنفسنا

الصعداء عندما وجدنا واحدة تعرف بعض الكلمات بالإنجليزية، وكان الحل الذى رأته أن كتبت على ورقة بعض الكلمات الايطالية، وطلبت منا أن ندور بها فى أنحاء المحل ليقرأها كل من نقابله لعله يكون قد صادف الربطة. وفعلنا ما طلبت منا.. ولكن دون أى فائدة.. ضاعت الربطة وضاعت الليرات!

بعد ساعات، والسفينة تتوسط البحر، كان صديقنا «سيد» مازال يتحدث عن الذى حدث له فى «نابولى»، ثم هبّ مرة واحدة واقفًا عندما سمع واحدًا من الركاب يقول إنه وجد «ربطة» دون صاحب فى الركن الذى كان يتزاحم فيه ركاب السفينة، وأسرع «سيد» معه إلى حجرته.. وكانت المفاجأة الكبيرة.. «الربطة» المفقودة أمامه!

كان يقول وهو يضرب كفا بكف: «فقدتها فى نابولى.. ووجدتها فى عرض البحر»!

سألته: هل كنت تأمل فى أن تجدها ثانية؟

وقال: اطلاقا.. لقد أبحرت السفينة وفقد الأمل تماما.. ولكن الذى يحيرنى.. هو كيف تأكد من وجدها أنها تخص واحدًا من ركاب السفينة.. هل أجد عندك الجواب لهذا السؤال؟!».

وابتسمت دون أن أرد عليه.

وأصر على أن يحتفل بهذه المناسبة.

واحتفلت معه دون أن أعرف أننى تنتظرنى بعد لحظات أعجب مفاجأة فى حياتى!

٤

كنا فى صالة الطعام، وكنت أجلس إلى المائدة المخصصة لنا والتى لا تتغير طوال الرحلة.. «سيد» و «لطفى» وأنا.. وفى أول الأمر جاء «تونى» الذى يقدم لنا الطعام ليضع أمامى زجاجة «نبيت» يونانية، وقلت له على الفور إننى لم أطلب هذه الزجاجة.. ومال ليهمس فى أذنى.. «ستعرف بعدين».

وانشغلت فى تناول الطعام ثم فجأة دوت فى الصالة أصوات فرقة موسيقية قادمة وهى تنشد الألحان المرحة.. ثم ظهر وراءها طابور يتقدمه الضابط الادارى للسفينة وعلى يده «تورته» بها شمعة واحدة مشتعلة.. وكنت سأنشغل فى تناول طعامى ثانية، عندما رأيت ما دفع الدماء إلى وجهى وجعلنى أرتبك وأكاد أقوم هاربا من صالة الطعام.. كانت الفرقة الموسيقية تتجه ناحيتى.

وكان الطابور الطويل يتجه ناحيتى أيضا.

وتوقف الضابط الادارى أمامى تماما، ثم مال على ليقول وابتسامة واسعة تحتل وجهه كله: «كل سنة وأنت طيب»!

وساد الهرج فى صالة الطعام، وتعلقت كل النظرات بى، ثم تسابق الذين يحيطون بى ليشدوا على يدى ويهنئونى بعيد ميلادى. كل

هذا وأنا أكاد أكون فى حالة يرثى لها من اللاوعى.. عيد ميلادى؟.. كيف عرفوا ذلك، ولماذا لم يخبرونى قبل أن تجىء هذه الفرقة الموسيقية، وقبل أن يهاجمنى ذلك الطابور الذى يتقدمه أحد الضباط؟!

ويقول الأصدقاء فى آخر الليل، أننى تمالكت نفسى بعد لحظات، وأمسكت السكين لأقطع أول قطعة من «التورتة» وأهديتها إلى كابتن السفينة.. ثم تمالكت نفسى أكثر وأنا أرد على تحيات المهنئات والمهنئين بعيد ميلادى.. ثم أسرعت هاربًا من صالة الطعام وأنا أكاد أقع على الأرض!

٥

كل شىء يجرى فى سرعة مذهلة بعد أن غادرنا السفينة وركبنا السيارات التى ستذهب بنا إلى «الريفييرا» الإيطالية.. تعليقات المرشد السياحى لا تتوقف، والسيارة تعلو بنا بين الجبال ولا تريد أن تتوقف حتى عندما بدأت تلامس السحاب، سلسلة متصلة ومتناسقة بالخضرة وبالورود من الجبال العالية، الشاهقة، والملاصقة لشاطئ البحر وبيوت صغيرة متناثرة فى أنحاء الجبال ولا يمكن أن تصدق أن يعيش فيها بشر.. وأكاد ألهث وأنا جالس مكانى.

السيارة معلقة أعلى الجبل.. لتنحدر الخضرة تحتها وتنحدر حتى تلامس زرقة البحر.. وأحاول أن أمزج بين استمتاعى بقمة جمال

الطبيعة التى تحيط بى. ورغبتى فى معرفة كل شىء عن هذا المكان.. ولكن كلمات المرشد كانت لا تسعفنى.. كلمات سريعة وسيارة أسرع.

نحن الآن فى شواطئ «مرجريتا» و «رابللو».. القمم العالية التى وصلنا إليها الآن هى قمم «كامولل».. انظروا.. هناك تمثال المحارب والسياسى القديم «غاريبالدى» بالتأكيد أنتم تعرفون أنه هو الذى وحد إيطاليا وسيسليا.. ثم انظروا إلى هذا التمثال.. لابد أنكم تعرفون صاحبه.. إنه «كريستوفر كولمبس» والإثنان من أبناء «جنوة».. هذه الأماكن الساحرة شهدت أكثر مواقع الرومان فى العصور القديمة.. كما أنها شاهدت المعاهدات التى وقعت فى نهاية الحرب العالمية الثانية.

هذا المستشفى الذى يعلو الجبل، إنه مستشفى «جازلين». وهو مليونير إيطالى معروف ماتت ابنته الوحيدة فقرر أن يبنى هذا المستشفى ليخصص لعلاج الأطفال.. إنه أكبر مستشفى للأطفال فى أوربا كلها وقد تكلف بلايين الليرات.. نعم.. تستطيعون الآن النزول من السيارة لدقائق معدودة حتى تلتقطوا ما تريدون من صور ومناظر!

وقلت لنفسى «بل لكى نلتقط أنفاسنا»!

وكأنما الرجل يقرأ أفكارى.. فقد قال لى على الفور: «معذرة لأننا نسرع فى تجوالنا.. فلا وقت لدينا.. والسيارة ستعود من طريق آخر يعتبر معجزة هذا العصر. أنفاق بطول مئات الكيلو مترات وتخترق هذه الجبال التى صعدناها واحدًا بعد الآخر.. انفاق نحتها الإيطاليون فى بطن الجبال على مدى سنوات طويلة.. وبسببها سنعود

فى وقت أقصر.. وربما نستطيع تمضية بعض الوقت على «الريفيرا» الإيطالية.

وعدنا نلهث من جديد!

٦

فى طريق عودتنا من «جنوة» إلى السفينة.. بدأت أدرك أنه مكتوب علينا الآن أن تكون علاقتنا بالأرض علاقة خاطفة.

البحر فى الأيام السابقة كان للمتعة والتأمل.

والأرض الآن هى لحظات التأمل والمتعة.

يتلقفنا البحر.. ونقف وقفات طويلة لنستطلع الأرض وما عليها من جبال.. ومن خضرة.. ومن عناق مع السماء.. ثم نرى كل ذلك وهو يختفى لتنفرد أمامنا.. وحدها.. القمم الزرقاء!

الحلوة مرسيليا !

لم أكن قد شاهدت من قبل تمثالاً من الذهب الخالص. ولم أكن قد شاهدت تمثالاً يقف شامخا على مثل ذلك الإرتفاع الهائل.. الذى يعلو الجبال كلها.. ويطل بيد مبسوطة. حانية على الخليج كله بما فيه من بيوت.. وخضرة. وزرقة البحر.

التمثال للسيدة العذراء.. والكنيسة هى «نوترادام دى لاجارد» والخليج هو «مرسيليا». وأنا واقف أشهد ذلك كله بجوار قطعة رخامية نادرة تمثل السيد المسيح.. والشعاعات الذهبية المعانقة لشعاعات الشمس تضوى بالجلال. داعية إلى باب الكنيسة.. وإلى رحابها المتسعة فى دورين يعلو كل منهما الآخر. وعندما أدخل أشعر كأن الزمن قد توقف مرة واحدة، بعد ما غادرت السفينة فى الميناء

كنت أسرع خطواتى لألتقى وأصافح كل ما يؤكد أننى فى « فرنسا » الآن. ولكن السيارة أخذت ترتفع بنا وترتفع.. ثم توقفت عند الباب الذى تعلوه « السيدة الحارسة » فكان اللقاء وكانت المصافحة مع شعاعات ذهبية تجمعت لتشكل « فرنسا » فى عينى وقد أحاطتها حالة من الجلال. ومن الجمال المقدس!

وعندما هبطت الجبل.. لم يفارقنى ذلك الانطباع. وكان كل شيء حولى فى « مرسيليا » فى صلاة طويلة لا تنتهى. البيوت الصغيرة المتشابهة، المتناسقة، والمساحات الخضراء التى يحرصون عليها حرصهم على الإنسان. والسيارات التى تنساب فى الطريق وكأنها بغير موتورات. وخطوات الناس التى تكاد لا تلامس الأرض. ثم أصواتهم التى تقترب من الموسيقى الخافتة. ولا تتعداها إلا إلى الهمس..

أخذتنى الجلالة، وأصبحت لا أرد على رفاق الرحلة إلا بالإشارات وعندما عرض واحد منهم أن نجلس فى أحد المقاهى لنلتقط أنفاسنا لم أعترض وإن ظللت على ما أنا عليه من صمت. أجلس بينهم وذهنى شارد. هل يمكن أن يكون إيقاع الحياة بهذه الصورة. وهل الإيقاع فعلاً حالم إلى هذا الحد؟.. لا أعرف.. فى اليونان وفى إيطاليا إيقاع الحياة كموسيقى « الجاز » الصاخبة.. ولكن ما استشعره هنا.. فى تلك اللحظات. كأنه أنغام « التانجو ». ولم أكن أدرك أن صديق « الدكتور عادل » يشدنى من يدى فى عنف.

وعندما التفت إليه أخيرًا. انتبهت إلى أنه يقول:

«لقد اتفقنا على أن نذهب إلى أحد الملاهى الليلية»

كدت أستنكر ذلك. ولكنى قلت وأنا أشير إلى ضوء النهار:

«الآن ؟.. إن الشمس لم تغب بعد».

وكان «الدكتور عادل» يضحك وهو يقول:

«هل نسيت اننا فى فرنسا.. لابد أن نستمتع بوقتنا الضيق هنا إلى أبعد حد.. ولعلمك الملاهى هنا مفتوحة ليل نهار».

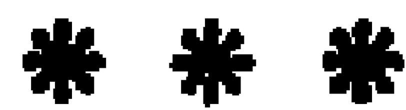
احسست أنه ينتشلنى من عالم آخر. ورددت فى دهشة:

«لا أصدق»!

فقال وهو يشدنى من يدى لنغادر المقهى:

«تعال لترى بنفسك.. أنا لا أعرف ماذا حدث لك مرة واحدة.. الذى أعرفه أن مرسيليا ميناء.. والموانى كلها متشابهة»!

وسبقنى فى الطريق متجاهلاً كلماتى التى تستنكر ولا تصدق!



فى الطريق، كنا نسير. دون أن ندرى. فى طابور. كل منا مشغول بأكل التفاحة التى فى يده. وإن تلاقت نظراتنا فى اللحظة التى تعبر فيها فتاة ينسدل على كتفيها شعر ذهبى وتكافئ العيون المتعلقة بها بابتسامة رقيقة ثم تمضى بعيدًا كالطيف. وتوقفت أمام محل لبيع العطور. ولم أتردد فى أن أدخل وأنا أتوقع أن الطابور سيفتقدنى

ويجىء ورائى هنا. ولكنى عندما عدت بنظراتى إلى الطريق لم أجد أحدًا منهم!

استقبلتنى البائعة بالصوت الموسيقى الهامس نفسه. وعندما قلت لها عن اسم العطر الفرنسى الوحيد الذى أعرفه أسرعت لتحضره لى.. وفى لمح البصر كانت قد أعدته فى ربطة كأنها «بوكيه» ورد.. ثم كتبت فى ورقة الرقم الذى تطلبه من الفرنكات. وترددت أمام هذا الرقم. وسمعتها وهى تقول بالصوت الهامس نفسه: «أرجوك لا فصال.. ستدفع وسأعطيك مع زجاجة العطر النسائية هذه.. زجاجة عطر هدية من أجلك أنت»!

دفعت الثمن.. وأخذت الزجاجتين.. واستدرت لأنصرف وقد تحول ترددى أمام ارتفاع سعر زجاجة العطر إلى اقتناع وكلمات شاكرة.. وقبل أن أدرك الباب. سمعت صوتها ثانية:

«دقيقة واحدة من فضلك.. يبدو أن الجو حار اليوم..»

وقبل أن أرد عليها كانت قد أغرقت وجهى وملابسى بعطر ينبعث من زجاجة فى يدها. ثم قالت فى وداعة:

«هل أعجبتك هذه الكولونيا»؟

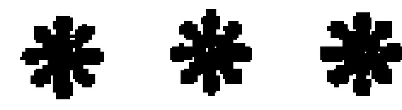
وهززت رأسى موافقًا على الفور.. فعادت تقول:

«إذن.. فإليك زجاجة اخرى من الكولونيا هدية»!

هديتان من أجل شراء زجاجة عطر واحدة؟.. هل هم حريصون على إرضاء المشترى إلى هذا الحد؟.. إن الهدية الحقيقية

التى أحسست أنها لا تقدر بقيمة هى تلك المعاملة البالغة الرقة التى تتعامل بها البائعة معى، ومع غيرى من الذين دخلوا المحل فى الوقت نفسه.. وأسرعت إلى الطريق لأبحث عن الأصدقاء، وأروى لهم ما حدث. واكتشفت بعد أن قطعت الطريق حتى نهايته أننى أصبحت وحيدا.. وأننى لا أعرف إلى أين أذهب بعد ذلك.

ثم أيقنت أننى فعلاً تائه فى مرسيليا!



اشتريت مجلة وجريدة.. وجلست فى إحدى الحدائق وقد وصلت إلى قرار بأنه قبل أن يحين الموعد الذى ستغادر فيه السفينة الميناء أكون قد أخذت سيارة أجرة إلى هناك، ولا داعى للإحساس بأى قلق.

كانت عيناى متعلقتين بالعنوان الرئيسى فى جريدة «لومانتيه» وكان العنوان عن إحباط مصر محاولة أربع طائرات «فانتوم» إسرائيلية اختراق المجال الجوى عند «القنطرة» و «الاسماعيلية» وإسقاط إحدى هذه الطائرات.. تعالت دقات قلبى بالزهو، وأخذت أعيد قراءة ما تحت العنوان أكثر من مرة. ثم سمعت صوت الذى يجلس إلى جوارى دون أن أكون قد انتبهت إلى وجوده:

«لابد أنك من مصر.. ولابد أنك سعيد لهذا الخبر»!

لم أرد عليه، وبنظرة سريعة تفحصت وجهه الذى تدل ملامحه

على أنه تجاوز الستين. وقد وضع فوق رأسه «البيريه» التقليدى.. وأسند كلتا يديه على العصى المثبتة بين رجليه، وسمعته يقول من جديد:

«هذه الجريدة تحترمها كلنا.. ولعلك تعرف أننا عايشنا هنا فى فرنسا الظروف نفسها التى تعايشونها أنتم الآن.. فى أيام الحق التازيون بنا هزيمة كبيرة، وظنوا بعدها أن فرنسا قد انتهت إلى الأبد.. ثم كانت كلمة «ديجول» الرائعة التى جاءت من ضمير فرنسا «لقد خسرنا معركة.. ولكننا لم نخسر الحرب».. وأعتقد أنّ هذه مهمتكم الآن.. وهى مهمة صعبة.. القوة هى المنطق الوحيد.. وعندما تكون قويا فإن الجميع يحترمونك.. حتى عدوك»!

قبل أن أتكلم تكلم هو ثانية:

- هل تعرف أننى عشت فى مصر فترة طويلة.. لقد كنت أعمل مدرسًا فى إحدى مدارس الاسكندرية.. مازلت أذكر اسمها: العباسية.. وكانت السنوات التى عشتها هناك من أسعد سنوات عمرى. أما الآن فأنا عجوز ووقتى كله للقراءة.. أو كما تقولون فى مصر «على المعاش».. ترى هل تغيرت الإسكندرية كثيرًا.. لقد فات الآن أكثر من ثلاثين سنة منذ تركتها وعدت إلى فرنسا»!

إنشغلت معه بالحديث. وعندما تذكرت أننى يجب أن أعود إلى الميناء لألحق بالسفينة، نظرت إلى الساعة ثم قمت مرة واحدة كالملدوغ، فليس أمامى إلا عشر دقائق فقط. وأسرعت مغادرا

الحديقة وأنا ألوح له بيدى، ثم وقفت فى الطريق على اعتقاد أننى سأتمكن من إيقاف سيارة أجرة لتسرع بى إلى الميناء، ولكن سيارات الأجرة كانت تعبر أمامى واحدة بعد الأخرى دون أن تتوقف احداها مهما أتيت من اشارات، وانتبهت ثانية إلى كلمات الرجل العجوز الذى كان يجاورنى فى كرسى الحديقة وقد جاء ليقف إلى جانبى :

« موقف سيارات الأجرة هناك عند الطرف الجنوبى للحديقة. ولابد أن تذهب إلى هناك » !

لم أعد أدرك ما يحدث. ولكنى أفقت عندما وصلت إلى الرصيف الذى رست عنده « سنيتيا ». فقد كانت الأصوات متداخلة وهى تنادى اسمى فى لهفة. وتنفست الصعداء عندما رأيتهم يعيدون سلم الباخرة بعد أن كانوا قد بدأوا فعلاً فى رفعه إستعدادًا للرحيل !

* * *

ونحن وسط الموج عدت بنظراتى إلى « مرسيليا ».

الظلام يلفها بغلالة لا تعترف بالأضواء المتناثرة هنا وهناك.. يخيل إلى أنى أسمع نغمات « تانجو » هادئة.. واننى أرى – رغم الليل – ذلك التمثال الذهبى يعلو كنيسة « نوتردام دى لاجارد ».. وأنى لم أفارق بعد.. الحلوة مرسيليا !

عائد من الأفق!

١

« نصيحتى لك ألا تذهب إلى لندن هذه الأيام »!.

« لماذا؟!».

« ليس الضباب هو السبب، وليست الأمطار إنها الإضرابات، لقد تركتها منذ أيام وكل شىء فيها فوضى، إضراب لعمال النظافة، إضراب لعمال الشحن، فوضى لا أول لها ولا آخر، أنا أدرس هناك، ولكنى فضلت أن أمضى الإجازة فى هذه الرحلة البحرية، وبعدها سأمضى بقية الإجازة فى اليونان.

كنت مدعوا على الغداء على مائدة كابتن « سينتيا » المتأنق دائما وكأنه ذاهب إلى الكنيسة فى حفل زفافه « بانيوتى جيانولاتوس »، وكان معنا على المائدة نفسها ابنه الذى يدرس فى انجلترا، وصديق له

إنجليزى، والإثنان حرصا على أن تسترسل شعورهما كما تسترسل شعور البنات، ولكن أفكارهما عندما دار بيننا الحوار كانت تسبق هذا العصر!.

قبل الغداء، كانت راودتنى فكرة أن أمرق من السفينة، أهرب منها، أسافر عند أول ميناء، بأية طريقة، إلى باريس أو إلى لندن، وعلى المائدة كان «كونراد» يقول وهو يهز رأسه لتبتعد عن عينه خصلة الشعر المنسدلة وكأنه الساحرة معبودة الشاعر «بايرون»:

«لقد اخترت أن تقوم بهذه الرحلة وعلى هذه السفينة، واختيارك هو قمة حريتك، فلماذا تريد أن تكبل حريتك بالقيود؟!»

قلت فى دهشة: «وهل القيود فى الانطلاق إلى مكان جديد؟!»

عاد يقول: «لا أقصد ذلك.. وإنما أقصد ما قد يشغلك من أجل تنفيذ هذه الفكرة الجديدة.. هل تعرف ماذا يفعل النمر عندما يشاهد أمامه قطيعًا من الغزلان؟.. إنه يصوب عينيه على واحدة منها.. واحدة فقط.. ثم لا يشغل نفسه ببقية القطيع.. ويتتبعها بعد ذلك بكل حواسه، وعندما يجرى القطيع فزعًا، فإنه لا يجرى مثلما يجرى بكل أفراده.. إنه يتتبع الواحدة التى اختارها منذ البداية.. وقد تغيب عن نظره لحظة وتقترب منها واحدة أخرى.. ولكنه لا يلقى لها بالاً حتى ولو كانت فى متناول أنيابه.. يتركها ليطارد التى أختارها منذ البداية.. ويظل يطاردها حتى يفترسها فى

النهاية.. هل فهمت قصدى؟!».

وسألته فى انبهار «ماذا تدرس؟!»

قال وهو يهز رأسه من جديد: «أدرس الرياضيات، أعانى من طلاسمها، ولكن ماذا أفعل.. هذا هو اختيارى منذ البداية»!

تدخل الكابتن «جيانولاتوس» فى الحوار ليسألنى:

«هل عندك أولاد؟».. وعندما هززت رأسى علامة الايجاب، استمر قائلا:

«قد تدهش إذا قلت لك أنه قد مضى الوقت الذى كانت فيه مهمة الآباء هى مواصلة توجيه النصائح لأبنائهم.. هل تعرف لماذا؟.. لأن الأبناء هذه الأيام اختاروا أن يكونوا أبناء الحياة نفسها.. منها يتعلمون، ومن تجاربهم معها يتلقون الدرس وراء الآخر.. مهمة الآباء هذه الأيام تنحصر فى ألا تكون لهم أخطاء.. فتلك العيون المتفتحة ترقبهم فيما يقرب السخرية.. وعند أول خطأ يتحولون إلى فلاسفة.. ويا ويل الآباء من الأخطاء.. ومن فلسفة الأبناء».

قال «الكابتن» ثانية ونحن نستعد لمغادرة المائدة «أنتم مدعوون إلى حجرة القيادة.. لتكونوا أول من يشاهد جزيرة «رودس».. الإيطاليون يفخرون بجزيرة «كابرى».. ولكن جزيرتنا اليونانية «رودس» أجمل بكثير.. وبعد لحظات ستتأكدون بأنفسكم من كلامى هذا.. هيا بنا إلى أعلا السفينة»!

٢

لم تتوقف السفينة عند «رودس» مرت بجوارها، لتبدو الجزيرة من بعيد وكأنها زهرة عملاقة تطفو فوق السطح الأزرق، ولاحظت أن الجزيرة ليس لها ميناء، السفن تتوقف على مسافة قريبة، ثم ينتقل من يريد زيارتها الزوارق إلى هناك، وكل ما نشاهده الآن هو مجموعة من البنايات العالية الزاهية الألوان، وسألنى «الكابتن» ولمعة الزهو فى عينيه :

«ما رأيك ؟ . . أليست أجمل الجزر ؟ !

إبتسمت وأنا أرد عليه : .

«من بعيد تبدو جميلة . . ولكن الحكم من بعيد لا يكفى . . منذ لحظات كنت تتكلم عن أخطاء الآباء . . وكأب لا أستطيع الآن أن أقول إن «رودس» هى أجمل الجزر» !

تعالت ضحكاته ثم قال ويده تخبطنى على كتفى :

«معك حق . . ولكنى أتحمل المسئولية فيما أقوله» !

كان «كونراد» الانجليزى واقفا إلى جانبى، وكان واضحًا أنه يتململ فى وقفته ويود لو يغادر مكانه عند سور السفينة، فسألته وأنا أبتعد عن المكان ليتبعنى حتى نجلس على مقعدين متجاورين :

«شباب هذه الأيام يحب أن يبدو غامضًا . . والاتهامات الموجهة إليه كثيرة . . أهمها تتعلق بمظهره . . وأقلها أهمية عن طريقة ممارسته

لحياته.. وللحب.. ما رأيك ؟ ! »

قربت تقطيبه بين حاجبيه، وقال فى هدوء بالغ وقد عقد يديه فوق صدره:

« هل سمعت عن شيء إسمه « الملل ».. لا بد أن تكون قد سمعت عنه. ولعلك قد عانيته.. شباب هذه الأيام.. نحن.. كلنا أبناء ذلك « الملل ».. لا تصدق ما قاله الكابتن من أننا أبناء « الحياة » نفسها.. نقرأ التاريخ فنجد حكمته تتلخص فى أنه يعيد نفسه.. ونقرأ قصص الحب الكبيرة.. فنضحك من كل تلك التراجيديات التى تنسج خيوطها.. نحن لا نحب أن نبدو غامضين. نحن - وصدقنى - نتطلع فى شوق جامح إلى ما يمكن أن يكون غامضا.. الميزة الوحيدة للأجيال السابقة أنها كانت تنعم بلذة الاكتشاف.. مرة يكتشفون الكهرباء.. ومرة يكتشفون الذرة.. كانوا أمام الحاجة التى هى أم الاختراع.. ولكن انظر إلينا الآن.. إننا نجد باستمرار ما هو فوق حاجتنا.. حياتنا سهلة إلى أبعد الحدود.. لا نعانى من الحرمان فى أى شيء.. فى الحب، أو فى الطعام.. أو.. أرجوك لا تقاطعنى.. أعرف ما ستقوله.. إن هذا لا ينطبق على كل شباب العالم.. هناك الشباب الذى يعانى من الحاجة ومن الاضطهاد.. ويعانى أكثر من ويلات الحرب.. ولكن هل تعتقد أن هناك انفصالاً بين شباب جيل واحد مهما اختلفت الأماكن والحضارات ؟.. بالطبع لا.. عدم حاجتى أنا.. وعذابه هو.. ذلك

هو قمة التناقض.. وهو تناقض لا يعتبر هذا الجيل من الشباب مسئولاً عنه.. إنهم الكبار وأفكارهم البالية عن المصالح وعن النفوذ.. ولو تركوا العالم للشباب.. لطبقوا فيه كل تلك النظرية العلمية البسيطة للغاية.. نظرية «الأواني المستطرقة».. الحياة كلها فى مستوى واحد.. لا ارتفاع ولا انخفاض.. لا تخمة ولا تضور.. الحياة قصيرة فليستمتع بها كل من يتنفس بالحياة.. ولكن هل يترك لنا الكبار هذا العالم.. إنهم يضللون أنفسهم عندما يعتقدون انهم يفعلون كل ما يفعلون من أجلنا نحن.. الحقيقة أنهم يفعلون كل شيء من أجل أنفسهم.. أما نحن فامتداد لهم.. كائنات حية يمتلكونها.. هكذا يتصورون.. ولابد أن يتلاشى هذا التصور قبل أن يتلاشوا جميعا.. جميعا»!

٣

نحن نقترب الآن من جزيرة أخرى، ولكنها كبيرة ومشهورة، والسفينة تتجه إلى طرفها الجنوبى، لتقف قريبا من شاطئها، ثم نستقل الزوارق إلى مدينتها التى تعتبر عاصمة امبراطورية «النبيذ» التى تمتد إلى دول كثيرة فى أوروبا، وكل رعاياها من الزجاجات الحمراء والبيضاء!

قبرص، أو جزيرة «أفروديت»، والمدينة «ليماسول»، وعلى مرمى البصر بناء عال لكنيسة، وقريبا منه مئذنة جامع!

تقول «أرينا» ابنة «ليماسول» حمراء الشعر: «أنتم تعرفون أن

غالبية سكان قبرص من أصل يونانى، والأقلية من أصل تركى، وحتى وقت قريب كنا نتبع التاج البريطانى ونحن الآن دولة مستقلة و. . . »

كعادتى لا تجاوب مع الكلمات المحفوظة وأترك الجمع لأتجول فى شوارع «ليماسول» ولأضرب بأقدامى فوق جزيرة «قبرص»!

كل المدن التى زرتها من قبل لها طابع خاص، بصمة واحدة لشوارعها، ولبيوتها، ولأهلها، ولكن «ليماسول» تختلف، تكاد تكون بغير شخصية محددة، التراث اليونانى يختلط بالتراث التركى والإثنان يجثم فوقهما الطابع الانجليزى، واللغات متعددة، والملامح متباينة، ولا يكفى أن تقول عن واحد تقابله أنه «قبرصى» وينتهى الأمر، ولكن الظاهرة الملفتة للنظر فعلاً هى كون غالبية الذين تراهم من الأهالى من العجائز، نساء ورجال تخطوا الستين، ورسم الزمن على وجوههم أخاديد كأنها موج البحر، وفى عيونهم بريق يختلط فيه الأسى مع الرغبة فى الاستمرار فى الحياة!

وحتى عندما زرنا مصنع النبيذ الكبير، ورأينا جبال «العنب» وهى تتحول إلى جدول صغير من «النبيذ»، فإن أكثرية العاملين فى المصنع من العجائز، ونادرًا ما نرى رجلا أو فتاة فى عنفوان الشباب. . وتحيرنى هذه الظاهرة، واسأل حمراء الشعر «أرينا» عندما ألتقى بها ثانية:

«لماذا تبدو «ليماسول» وكأن قد هجرها الشباب؟!»

لم ترد على سؤالى على الفور، تعلقت نظراتها بشىء بعيد، ثم قالت فى تأن وكأنها تختار الكلمات بحرص :

« هذه مشكلة حقيقية.. ليس السبب الوحيد أن الشباب يهاجر وليس أيضًا فى تلك الحروب الأهلية التى تعانى منها الجزيرة منذ سنوات طويلة.. ولكن السبب كما أعتقد هو أن الجميع هنا يحبون العمل.. أو اذا شئت الدقة.. لابد أن يعملوا لكى يعيشوا.. وعلى العموم « ليماسول » هى إحدى مدن « قبرص » وليست « قبرص » كلها.. وقد يختلف رأيك لو زرت « نيقوسيا ».. وفى الحقيقة أنا من هناك » !.

وأعود أسألها : « وما هى خططك للمستقبل.. هل تفكرين فى الهجرة أيضا ؟ ! »

زمت شفتيها ثم قالت : « ولماذا أهاجر.. أنا طالبة الآن.. وفى الصيف أجىء إلى « ليماسول » لأعمل مرشدة سياحية.. ولكن.. من يعرف.. فربما تجد ظروف بعد تخرجى وساعتها سأعيد التفكير من جديد.. ليس هناك من يكره السفر والترحال » ! !

فعلا.. من يكره السفر والترحال ؟ !



رفقة البحر الأمواج توشك على نهايتها، بعد ساعات نكون فى « بيروت »، وبعد يوم واحد نعود إلى « الاسكندرية »، أحس وأنا

أتطلع إلى القمم الزرقاء، التى تحيط السفينة من كل جانب وكأنى فتحت عينى لتوى بعد إغفاءة قصيرة طافت بى أحلامى فيها عبر بلاد كثيرة، إختلفت الأماكن، واختلفت اللغات، ولكن الإنسان بقى هو الإنسان، تعلمه الحياة أنه لا مفر من مواصلة الليل بالنهار، ويدفع به الملل إلى أن يتطلع إلى المكان الآخر الذى يعيش فيه إنسان غيره، تماما كأوراق الكوتشينه، ورقة مكان ورقة، وكأنى بالذى أتى فى حياته كل ما يستحق عليه نعيم الفردوس، وهناء الجنة، يصرخ بعد أيام فيها، لقد ضقت بالنعيم وضقت بالجنة، أين من يأخذنى إلى سعير النار، أتوق للوهج، للهيب، للألسنة الحارقة ولصرخات العذاب!

وكأنى بالأمواج تتعانق وتفترق فى ضحكات لا نهاية لها من حال ذلك الإنسان الذى تحمله لتسافر به، ثم تحمله لتعود به، وهو فى أول الأمر يفور بالحماس، ثم هو فى نهاية الأمر خائر القوى مستسلم للنعاس، فى أمل أن تراوده أحلام جديدة، فى أن يرحل إلى مكان جديد!

فى «سان بيكو» على شاطئ «الأوزاعية» فى بيروت كان الصديق «عَبد» بكسر الباء - كأنما يقرأ أفكارى، كان يقول:

«وماذا تظنون أن الإنسان يريد من الحياة؟.. إن مشاكلها لا تنتهى.. وليس أمامه إلا أن يختلس لحظات من «البسط».. من المتعة.. لأنه بعد هذه اللحظات عليه أن يصارع صراع الجبابرة حتى

يفوز بلحظة « البسط» ثانية !

ثم يقول وهو يرمى إلى حلقه بجرعة من الزبيب الزحلاوى : « في يوم كنت مفلسًا.. ثم وجدت أمامى رجلا أمريكيا يطلب منى أن أدله على محل يبيع الألماظ.. وأرشدته إلى المحل.. وفوجئت بصاحب المحل يقول لى إنه لا يستطيع أن يبيع بيعة بمليون ليرة ويعطينى أكثر من ١٢ ألف ليرة.. كنت لا أفهم ماذا يعنى.. ولكنى وجدت فى يدى ١٢ ألف ليرة مرة واحدة .. وكالجوعان الذى هبطت أمامه مائدة من السماء عامرة بكل ما طاب ولذ.. رحت أنفق ذلك المال الطائل بلا حساب.. فتيات.. وموائد خضراء.. أحيانا أقول إن ذكريات اللحظات الممتعة أحسن بكثير من أحلام اللحظات التى نتمنى أن تجىء.. ثم لا تجىء » !

٥

هل سبقت خيوط الفجر؟!.. كنت أعرف أننا سنصل إلى الإسكندرية بعد ساعتين، ولكنى وقفت عند السور العالى وكأنى الملاح التائه المتشوق إلى الأرض، وإلى المرفأ، أو كأننى تركت بلادى منذ سنوات لأسابيع قليلة، وهأنذا تدمدم فى مشاعرى كل أحاسيس الحنين والعودة !

تقترب السفينة أكثر.. فى الأفق الشاحب تبدو ظلال لا أتبينها تمامًا ولكنى كنت كمن يراها أمامه على بعد خطوتين، وتلك المئذنة

العالية أعرفها جيدًا، إنها مئذنة المرسى أبي العباس، إنها ليست الاسكندرية فقط التي تنتظرنا في ذلك الشريط الشاحب، إنها «مصر» كلها، السفينة لم تعد بيتنا، لم تعد الملجأ في ميناء بعد ميناء، بيتنا أمامنا، هناك، بل هنا، أمامنا على مرمى القلب والبصر!

البوغاز والحاجز الصخري الذي كان يحلو لنا ونحن صغار أن نطلق عليه «الرملة البيضاء» ونتسابق إليه بالسباحة أو بالزوارق» وهذه اللنشات المسرعة إلى السفينة تنبعث منها الصفارات المرحبة وكأنها ابن البلد الذي تمر عليه، فيرتفع نداؤه «إتفضل»!.

السفينة الآن مشدودة بحبلين، واحد عند مقدمها، والآخر عند ذيلها، وقد استسلمت لهما بلا حول وبلا قوة ليجذباها - بالعرض - إلى رصيف الميناء.. لتستقر بجواره، وتهدأ!.

الصيحات تتجاوب بين الواقفين عند سور السفينة وبين الذين تجمعوا في شرفات الميناء في انتظار العائدين، ثم تخفت الصيحات عندما يتلاحم الجميع بعد أن لم تفصل بينهم مياه البحر. وأقف على الرصيف لأتطلع إليه من جديد..

الرحابة، والامتداد اللانهائي، العناق مع السماء.. والأفق!! وهدير الموج..

وكأن شيئًا لم يكن!!

بالطائرة
إلى غابات العصور الوسطى

عندما عزف لى شوبان!

بعد خمسة أيام فى «وارسو» كنت قد تأقلمت على الجو هناك. الضوء الباهر للنهار يبدأ من الثالثة صباحًا ويمتد حتى الثامنة مساءً، والمطر يحتمل أن يسقط فى أى لحظة، والجو حار خانق، ثم بارد عاصف.. لذلك يجب أن تكون بالقميص والبنطلون وأن يكون فى حقيبتك - فى الوقت نفسه - معطف المطر!

وفى ذلك الصباح - وكنا يوم الأحد - دق التليفون فى حجرتى رقم «٢٣٨» فى فندق «يوربيسكى» - أى الأوروبى - وكانت الساعة لم تتجاوز التاسعة ولكن الشمس كانت تفرش كل أركان الحجرة.

- هالو.. مستر ريسك.. جينسكا تتكلم..

* هالو.. أى خدمة؟!

- نحن فى انتظارك فى مدخل الأوتيل.. استعد.. سنذهب جميعًا إلى القرية التى ولد فيها «شوبان».. سيكون معك صحفيون من روسيا وبلغاريا والجزائر.. ورجال أعمال أمريكان أيضًا.. ما رأيك؟!

* عظيم.. بعد خمس دقائق سأكون معكم!

أعدت النظر إلى جهازى قياس درجة الحرارة داخل الحجرة وخارج الشباك، وتأكدت أن الجو سيكون حارًا وارتديت قميصًا وبنطلونًا وأسرعت تاركًا حجرتى إلى بهو الفندق وفى صدرى سعادة غامرة لهذه الرحلة غير المنتظرة، خاصة يوم الأحد، وإلى أين؟.. إلى ريف بولندة، وإلى القرية التى ولد فيها شوبان وعاش فيها لفترة قبل أن يغادر بولندة ويعيش فى باريس بقية حياته!

* * *

فى السيارة الكبيرة حدث التعارف سريعًا، وخاصة بيننا نحن الأربعة الذين نجلس فى الخلف.

فتاة أمريكية من نيويورك - بياتريس - وإلى جوارها صحفى من موسكو - بوريس راشكوف - ثم صحفى بلغارى لا يتكلم إلا الفرنسية.. ثم أنا.. من مصر!

وفى المقاعد الأخرى.. رجل من إيطاليا، وعجوزان - رجل وزوجته - من أمريكا وصحفى جزائرى - صبحى بلقاسم - وفتاة

من الأرجنتين. ثم المرشدة السياحية التي ظلت طوال الوقت تكرر كل شيء بالبولندية.. ثم بالإنجليزية.. ثم بالفرنسية.. ثم تعيد حصرنا وكأننا مجموعة من الدجاج في قفص، ولكن.. أي مجموعة؟!.. خليط من مشرق الأرض ومغربها، وإن تعذر التفاهم باللغات فاللغة العالمية - الإشارة - هي السبيل الوحيد.. ويا حبذا لو استعانت الإشارة بنظرات العيون!

السيارة تخترق الشوارع الرئيسية لوارسو.. وأغلب المحال مغلقة، وها هو القصر الكبير للثقافة - وهو هدية من الإتحاد السوفييتي - يبدو شاغا رغم ابتعادنا عنه، ورغم أننا كنا نزحف إلى الطريق الزراعي المتجه إلى «جلازوفا فولا».. في قرية شوبان!

إبتسمت بيني وبين نفسي عندما لمحت فلاحة بولندية ترتدي الملابس الزاهية الألوان - أحمر مسخسخ! - تمامًا كالفلاحة عندنا، تجلس القرفصاء مع أولادها وزوجها في عربة خشبية صغيرة يجرها حصان!

الحقول مترامية الأطراف، وهادئة، ولكنها تبدو مفتقرة للإنسان أو لعلها في غنى عنه.. وكأنها حقولنا الخضراء ظهيرة يوم الجمعة عندما يغيب عنها الرجال.. للاستحمام ثم الصلاة!

الصحفي البلغاري الذي يجلس إلى جواري - وهو يشبه إلى حد كبير صديقنا الكاتب المعروف محمد عوده - يمسك كتابًا في يده ولكنه لا يقرأ.. عيناه بين الصحفي الروسي والفتاة الأمريكية إلى

يمينه، ثم ناحيتى وناحية الشباك إلى يساره وأحسست أنه فى حاجة إلى من يتكلم معه، وعلى الفور رتبت ذهنى على استخدام كل ما أعرفه من اللغة الفرنسية.. وقد كان.. فتح الله على بشكل كنت لا أتوقعه.. بل أنى تدفقت أسأله بالفرنسية وأحاوره وكأنى خريج «سان مارك». وقد عرفت بعد ذلك إننى فعلت ذلك بما يشبه المعجزة، وعلى طريقة «العدو أمامكم والبحر خلفكم..».. فانفكت عقدة الخوف بالفرنساوى!

كيف.. لا أعرف!

سألته عن آخر أخبار صوفيا، وسألنى عن آخر أخبار القاهرة، ثم انزلق الحديث إلى الموقف الآن بعد العدوان، ثم قال إنه يريد أن يسألنى سؤالا ولكن قبل ذلك يريد أن يوضح شيئًا، وهو أنهم فى بلغاريا، يؤيدون العرب دون أى حدود.. ويستنكرون أطماع اسرائيل العدوانية و..

وقلت: والسؤال؟!

وقبل أن يسأل، تمنيت على الله أن يكون السؤال سهلاً أقصد أن تكون لغته سهلة أستطيع أن أفهمها.. واستجاب الله بأن سألنى:

- ما هو الحل؟!

وقلت على الفور:

* طريق واحد لا طريق غيره.. الحرب.. وهى بالنسبة لنا

حرب تحرير.. سنخوضها جميعًا وفى كل مكان.. حتى يتحقق النصر النهائى.

وقال الصحفى البلغارى فى حماس:

- نعم.. هذا هو الحل.. وأنا معجب كثيرا بالأعمال الفدائية «فتح».. لست أنا فقط.. بل كل شعب بلغاريا!

طوال حديثنا، كنا لا نلحظ أعظم شيء يحدث فى الكرسى الخلفى.. التقارب الحقيقى.. أو التعايش السلمى بين أمريكا والاتحاد السوفييتى..

فالصحفى القادم من موسكو - بوريس - انطلق فى حديث طويل مع الفتاة الأمريكية - بياتريس - ولكنه لم يكن حديثًا سياسيًّا وإنما كان حديثًا مليئًا بالعاطفة .. والغزل!

بوريس يقول: وهل أنت وحدك؟

وبياتريس تقول: نعم.. وهوايتى التجوال فى أنحاء العالم!

- مخطوبة؟

- لا.. ليس بعد!

- عظيم.. نستطيع أن نمضى يومًا سعيدًا.

- أرجو ذلك.. ولكنى مندهشة أنك تتحدث الانجليزية بطلاقة..

وضحك «بوريس» طويلا قبل أن يرد:

- لسببين.. الأول أنى أكتب بالانجليزية.. والثانى إننى أعزب

وأهوى التجوال مثلك.

بياتريس ليست جميلة جدًا - أغلب البولنديات أجمل منها - ولكنها ترتدى الميني جيب، وجلستها المرتخية تجعلها تبدو وكأنها جالسة بالمايوه.. وبوريس يبدو كنجوم السينما، متأنق، حركاته محسوبة. وقد اكتشفت بعد ذلك أنه «دون جوان» خطير.. لا يحب فى الدنيا غير شيئين : الكتابة عن البترول.. ومطارحة الغرام!

مال الصحفى البلغارى ناحيتى ليقول :

- أمريكية وروسى.. قصة عظيمة.. أليست كذلك؟

وقلت مبتسمًا :

- إنهما لا يدعواننا إلى مائدة المفاوضات!

وضحك الصحفى البلغارى طويلا، ومال ناحية «بوريس» يحدثه بالروسية، وانفجر الإثنان ضاحكين، وانحنى بوريس ناحيتى ليقول لى فى همس :

- إنه مجرد استطلاع.. وإذا احببت فسأترك لك مكانى لتجلس إلى جوارها!

* * *

بعد ساعة كاملة وصلنا إلى «جلازوفا فولا».. وكان الطريق ثم الميدان المواجه لبيت شوبان. والحديقة الواسعة المحيطة به مزدحمًا بالسيارات الكبيرة والصغيرة، وإلى اليمين مطعم صغير مزدحم بالناس وإلى اليسار مكتب بريد ومحل للمرطبات.. وقبل أن نترك السيارة

أعادت المرشدة السياحية المرافقة لنا حصرنا واحدًا واحدًا.. ثم قالت في رقة شديدة:

- أمامكم جولة حرة حتى الثانية عشرة.. وبعدها سيحين دور مجموعتنا لزيارة البيت.. وفي الواحدة تمامًا سيبدأ عزف مقطوعات من موسيقى «شوبان».. ونرجو أن نكون جميعًا في الحديقة!

خرج جميع الدجاج من القفص.. ولكننا نحن الأربعة - أصحاب الكرسي الخلفي - بقينا معًا.. وبدون أخذ رأينا قرر «بوريس» أن يتولى قيادة مجموعتنا وتنظيم الوقت.. أولا.. جولة في الحديقة.. ثم تناول الأفطار والمرطبات.. ثم بقية البرنامج المعروف..

ووافقنا، ومال هو ناحية «بياتريس» ليقول في رقة:

- هل تحبين أن أحمل حقيبتك؟

- لا أشكرك.. إنها حقيبة يدى!

وفعلا.. كانت الحقيبة صغيرة جدًّا وليست في حاجة إلى من يحملها عنها، ولكن بوريس ظل طول الوقت يعرض عليها حمل الحقيبة. وهى تعتذر.. وكأنها لعبة بلا نهاية!

حمل كل منا بنفسه ما اختاره للإفطار وجلسنا حول مائدة واحدة.. والشيء الوحيد المشترك بيننا هو عصير الطماطم، وهى غالية الثمن جدًّا هنا في بولندة - الكيلو بحوالى ٦٠ زلوتى.. أى ما يقرب من جنيه مصرى ولم يصدقونى عندما قلت لهم إن ثمن كيلو الطماطم في مصر لا يتعدى «زلوتى» واحدًا!

عاد الصحفى البلغارى إلى محاولته للحديث معى بالفرنسية.. ولكنى كنت قد استنفدت كل ما عندى خاصة وأن الغالبية الآن - ثلاثة ضد واحد - للحديث بالانجليزية.. وقال «بوريس» موجهًا حديثه لبياتريس:

- ستكون مفاجأة جميلة لو تركتنا السيارة وعادت إلى وارسو!

وابتسمت لترد عليه:

- أوه.. ولكن حقيبتى الأخرى فى السيارة.

- هل هذه كل المشكلة؟

وتدخلت أنا قائلًا:

- بالنسبة لها ليست مشكلة.. إنها غنية بالطبع وتستطيع أن تدفع ثمن سيارة الأجرة حتى وارسو..

وقالت بياتريس فى انفعال:

- لست غنية كما تعتقدون.. لقد ادخرت ثمن هذه الرحلة منذ أكثر من خمس سنوات وعندما سأعود إلى نيويورك سأبدأ الادخار من جديد لأقوم برحلة جديدة.

- إلى أين؟

- حتى الآن لا أعرف.. ولكنى أتمنى زيارة اليابان..

وقال بوريس على الفور:

- سأكون هناك.

شىء يقرب من القداسة يغلب مشاعرنا ونحن ندخل بيت

«شوبان».. كل شيء لامع، نظيف، وكأنه كان يعيش هنا بالأمس فقط لا منذ قرن ونصف.

موسيقاه لم تتجاوب فى أصداء البيت والحديقة بعد.. ولكن الصمت يكاد يتحول إلى تموجات تلف كل شيء بغلالة من السمو وأصداء الخلود.

هذه حجرة «شوبان» الخاصة.. هنا كان ميلاده... وفى هذا المهد كانت أقدامه تضرب الهواء قبل أن تضرب أطراف أصابعة مفاتيح ذلك البيانو اللامع الذى يتصدر الحجرة.. كل شيء باق كما هو.. النقوش الجميلة على السقف غير العالى.. اللوحات المعلقة على الحائط.. المقاعد.. كل شيء.. كل شيء.

وهذه حجرة أم «شوبان».. ثم هذه هى حجرة أبيه.. هل كانا يدركان عند مولده أنه سيصبح ذلك الفنان العظيم؟.. هل اعدا له البيانو قبل مولده.. وما سر تلك العبقرية التى تفجرت فى وجدانه وهو صبى صغير لا يتعدى السادسة فقط من عمره؟.. نظرة خاطفة من الشباك إلى الطبيعة المحيطة بالبيت.. نفس ما كان يراه «شوبان» منذ صباه.. الهدوء الذى يكاد يكون لسانًا متحركًا للصمت؟

ما سر تلك العبقرية الخالدة؟

كيف طوت هذه الجدران البسيطة روح ذلك الصبى «فردريك» ثم أطلقتها لتملأ العالم بكل ما خلقه من أنغام؟

لا إجابة الآن.. وربما نتلمس الإجابة الساعة الواحدة عندما تنطلق موسيقاه.. لتغمرنا جميعا ولو بلمحة من ملامح الخلود.

الجميع فى الحديقة.. تسابق البعض إلى المقاعد المتناثرة تحت الأشجار، وبقى الكثيرون فى الممرات المحيطة بالبيت.. ثم..

ثم.. بدأت موسيقى شوبان.

الأنغام تنبعث من كل مكان.. من بين فروع الأشجار.. بل من قمهما العالية، من منابت الزهور.. من مياه الجدول الصغير الذى تتلون قطراته بالخضرة وتهتز فى صوفية مع انبعاثة اللحن.

لحظات يصغر فيها العالم كله ويصغر.. وتتلاشى الجنسيات.. ولا يبقى غير إنسان.. وفرع أخضر ونغم يتماوج إلى السماء.

كأنه بالداخل الآن شوبان.. كأنه يعزف لى وحدى.. كأنه يحكى لى حكاية طال به الشوق ليحكيها لى.

الدقائق تمر سريعا دون أن أشعر بها.. أحس كأنى خلعت حذائى وارتكزت على ركبتى فى معبد بلا جدران.

وتنتهى ألحان شوبان.. وأفيق ولكن لا أشعر برغبة فى أن أترك هذا المكان.. وكيف أتركه.. كيف؟

كانت نبرات «بوريس» قد فقدت كثيرًا من جرأتها ولعله حاول أن يقول شيئًا منغمًا:

- تعالوا لنشرب من البئر التى كان يشرب منها شوبان..

وانطلقنا جميعًا ناحية البئر، تعاونّا على إنزال الدلو إلى الأعماق

ليعود إلينا بمياه لها مذاق الشهد.

سرنا نحن الأربعة وسط الحديقة دون أن نتجه ناحية السيارة التى ستعود بنا إلى وارسو.. إعترض بوريس:

- لا .. ليس الآن.. ليس قبل أن نتجول فى الحقول المحيطة بالبيت.. لابد أن نعيش فى كل شبر فى «جلازوفا فولا».. ما رأيكم؟

ولم يعترض أحد.. سار موكبنا الصغير وسط أعواد القمح.. نتبادل النظرات ولا نتكلم.. نحلم ونحن نسير على الأقدام..

ولعل كل واحد منا كان يغلبه الخيال بأن يظهر فجأة.. قادمًا من بعيد بعوده النحيل وشعره المتماوج، وعلى شفتيه الابتسامة الغامضة والنظرة العميقة.. الحزينة.

ولكننا لم نر شوبان..

دعانا إلى بيته.. ورحبت بنا موسيقاه..

وما أروع ما رحبت بنا موسيقاه!

الرقص فى مضجع هتلر!

الشارع، والقصة.. الإثنان وحدهما.. خير ما يعطيك ملامح شعب!

ومن شارع لشارع كنت لا أبحث عن قصة اكتبها أنا، ولكن كنت ابحث عن قصة كتبها من عاش عمره فى هذه الشوارع!

اللافتات تشير إلى الكبار، تسرد لك أسماء، تغرقك فى طوفان الشهرة وحدها، ولكنها فى النهاية تبقيك بعيدًا عن الأزقة، عن النبض الحقيق عن الوقفة العارية تحت شعاع الشمس.. عن الليل الذى زحف ليبزغ هذا النهار، عن اليوم بالتاريخ الميلادى أو بأى تاريخ!

لا أريد لافتات. وإنما أريد أزقة.

المشاهير فى الكتب، فقولوا لى أين الشباب ؟ !

متعصب ؟ . . ربما . . وإنما أريد أن ألتق - كزقاق - بزقاق. وفى هذا اللقاء وحده ستكتمل الصورة التى لم أشهد منها إلا الإطار !

قالوا، فى فهم : إنهم مثلك يقولون الكلام نفسه، وها نحن نبعد عنك اللافتات ونزيح الاطار . . تفضل . . إلتق بهم . . إقرأ قصصهم . . فهم مثلك ولدوا مع صفارة إنذار. إنكمشوا تحت أزيز طائرة ودوى قنبلة، وعندما أمسكوا القلم تحول فى أيديهم إلى بندقية !

اندريتش بريخت. فى الرابعة والثلاثين. كتب كثيرًا ولكن أحدا لم يلتفت إليه . . وفكر قليلاً ووجد أن الحل هو أن يعمل بالصحافة !

وانبهر الجميع بالزقاق عندما نشر قصة « الرقص فى مضجع هتلر » وأقاموا فى الزقاق دار عرض. أقصد حولوا القصة القصيرة إلى فيلم سينمائى، ولكن القصة - كادب - كانت أروع !

. . قرب حدود بولندة مع ألمانيا، توجد مقاطعة اسمها « مازورى » هذه المقاطعة مشهورة الآن بأنها مكان يقصده السياح، يرقصون ويستحمون فى البحيرة الصناعية، ومن بين هؤلاء السياح رجل وقور ولكنه مرح . . لا مانع عنده أن يرقص، وأن يتبادل الانخاب، لذلك فقد ظل منذ مقدمه من المانيا موضع إعجاب وهمس فتاتين بولنديتين لا تتعديان الثامنة عشرة :

ياه . . لقامته المديدة.

ياه . . للشعيرات البيضاء فى فوديه . .

سأطير من السعادة لو دعانى إلى الرقص!

أما هو، فقد شحب وجهه وزاغت عيناه عندما جال بهما فى أنحاء المكان.. وتذكر!

لقد كان هنا منذ عشرين عامًا، كان أحد الضباط المرافقين لزعيم ذلك الوقت «هتلر»!.

وفى هذا المكان نفسه أقاموا لهتلر ورفاقه بيتًا جميلاً يمضون فيه الأوقات السعيدة، ويتلقون منه الأوامر بإبادة وارسو وقتل المئات من البولنديين:

هنا كان ينام هتلر، وهنا يرقص الجميع الآن!

وهاتان الفتاتان اللتان ترمقانه بعيون الإعجاب تخفى عنهما حقيقته.. قد يكون هو الذى نفذ أمر الزعيم بقتل أم إحداهما.. ولكنهما لا تدريان.. لا تدريان!

الوقت يمر، والفتاتان تتهامسان.. لماذا لا يدعو واحدة منا للرقص معه؟ لماذا خبت ابتسامته مرة وحدة؟

والرجل ينظر إليهما بعيون مشربة بالأسى.. ولا يتكلم.. ولا يغادر مكانه ليرقص!

وقصة أخرى «لأندريتش بريخت» عنوانها «يوم إجازة».. وفيها أيضًا يلتقى جيلان.. الجيل الذى يتذكر كل شىء.. والجيل الذى نسى، أو لا يعرف شيئًا!

جيل الكبار الذى يعرف أين كانت معسكرات الأسرى. وأين

كانت أفران الإبادة. فيراها فى كل مكان يذهب إليه.. لأنها كانت فى كل مكان!

والجيل الجديد.. الصغار.. عصافير مزقزقة عيونها على الحاضر وعلى الغد.. لماذا يفعل الكبار؟.. هل يتركونهم فى لهوهم البرىء دون أن يشدوهم إلى أوتاد الماضى؟.. سؤال محير.. ولكنه لا يظل بدون إجابة فأبناء اليوم قد ينجرفون فى تيار الحياة الجديدة، ولكن من الذى قال إنهم بلا آباء؟.. من قال إنهم لا يتوقفون لالتقاط الانفاس، ومعها يلتقطون الذكرى، يتطعمون بمصل يقيهم من جرثومة قد تخترق جسد حياتهم.. بنذير حرب!.. السلام.. نعم.. ولكن يجب أن يعرفوا من الذى دفع الثمن!

وفى الإجازة.. وعلى بعد خطوات من أقدام الصغار.. يمرح الكبار وفى أيديهم المصل، وعلى ألسنتهم كلمات للصغار. يجب أن تتذكروا.

امرحوا.. وارقصوا.. واضحكوا..

ولكن تذكروا.. تذكروا!!

* * *

مارك نوفاكوفسكى، فى الثلاثين أديب وصحفى هو الآخر.. ولكنه موضه هجوم كثير من النقاد.. لماذا؟.. لأنه إنسان غريب ترك كل النماذج التى تعارف الجميع على الكتابة عنها، ليكتب عن

نماذج يحبها فى شغف يفوق حبه للفتيات..

نماذج الرجال .والنساء الذين لا يصلحون لأى شيء..

البوهيميون.. ولكنهم ليسوا فنانين!

الواحد منهم قد يعمل اليوم نجارًا، وغدا يعمل ساقيًا فى مقهى.. وبعد غد يكون لصًّا! والواحدة منهن قد تكون اليوم زوجة، وغدًا عشيقة، وبعد غد زعيمة عصابة!

نماذج موجودة فى المجتمع ولكن على هامشه يتطور المجتمع ويتغير أسلوبه السياسى ولكنهم يبقون كما هم.. يتنقلون من مكان إلى مكان، يفعلون أى شيء أو لا يفعلون أى شيء.. قد تلاحقهم اللعنات، ولكن حياتهم مليئة باللمحات الإنسانية. وبقصص الحب والتضحية!

وقد نذر «نوفاكوفسكى» أدبه كله للكتابة على هذه النماذج ملقيا وراء ظهره بلعنات النقاد.. مستقبلًا فى زقاقه هؤلاء الذين يعيشون الحياة بكل قطرة فيها.

قانونهم.. لا شأن لك بى.. ما دمت أنا لا شأن لى بك.. ولكن اعذرنى إذا أخذت ما فى جيبك!

إدوارد استاخورا، فى الثانية والثلاثين، ولد فى فرنسا من أب يعمل فى المناجم، وعندما عاد إلى وطنه الأصلى بولندة كان يحمل بين جوانحه ملامح أدب جديد، غريب..

أبطال كل قصصه القصيرة من هؤلاء الذين يعانون من الملل،

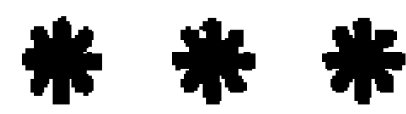
والوحدة.. هؤلاء الذين يكرهون الرتابة ودقات الساعة.

صغار متدفقون بالحيوية. يشعرون بأن الذى يقدرون عليه يفوق بكثير ما هو ممكن لهم أن يفعلوه.. ينظر الواحد منهم إلى عقارب الساعة للحظة خاطفة، ثم يتقدم منها فى بساطة شديدة لينتزع عقاربها، ثم يرفعها من مكانها ليلقيها على الأرض.. ويطأها بأقدامه.. وينطلق إلى حال سبيله!

مغامرون يحاربون الملل والوحدة بالمخاطر، الماضى عندهم هو ما كان منذ ساعة واحدة فقط.. والمستقبل هو اللحظة التالية!

النقاد أيضًا ساخطون على «استاخورا» ويقولون إنه متأثر بجون شتاينيك.. ولكنه هو الآخر مصر على اتجاهه فى الكتابة، فالفن عنده وجهة نظر.. وهذه هى وجهة نظره!

وإذا كان النقاد يطالبونه بأن يختار نماذج أخرى، فهم بمطلبهم هذا يؤكدون وجود هذه النماذج.. الوحيدة.. المحبة للمغامرة.. الباحثة عن طريق - غير تقليدى - تلتقى فيه بالمجتمع.



يانوتس كراسينسكى فى الثالثة والثلاثين بدأ بالكتابات السياسية وانتهى بالكتابة للراديو والتليفزيون، يقولون عنه إن قصصه بولندية دمًا ولحمًا، وهو الشىء النادر الذى لو اختص به أديب لخرج من نطاق المحلية إلى العالمية دون أن يتعمد ذلك!

غالبية قصصه يحولها بنفسه إلى تمثيليات تليفزيونية. وأشهر هذه القصص عنوانها: بالبولندية «كارت».. وقد اندهشت عندما عرفت أن معناها بالعربية قريب جدًّا منها.. «الكاريته»!

والاختلاف الوحيد أن العربة التي كان يقصدها كان يجرها رجال بدلاً من الجياد.. والرجال كانوا يفعلون ذلك لأنهم كانوا أسرى عند النازى فى الحرب العالمية الأخيرة!

الخط الرئيسى فى القصة يجيب على السؤال:

ماذا يفعل الرجال عندما يعاملون كالحمير؟

أما التفاصيل فتعطينا نماذج مختلفة من الرجال تناوبوا بأوامر الجنود الألمان جر العربة وفى كل مرة تظهر شخصية الرجل الذى يجر.

المستسلم الذى يجرها لكى ينجو من المشاكل!

المنافق الذى يجرها - كالرهوان - طامعًا فى إعفائه من المرة التالية.. ولكن النتيجة تكون عكس ما يتوقع.. فالجنود الألمان يعجبون بطريقته الفذة فى جر العربة، ويصرون على أن يتولى هو هذه المهمة أغلب الوقت!!

الضعيف - النفس والبنية - غير القادر على الاحتجاج، يجر العربة بصعوبة، ويتلق الضربات فى صمت، وعندما يغالب نفسه ليسير والعربة محملة بالجنود وراءه.. يسقط أكثر من مرة.. حتى

ينتهى به الأمر إلى أن يلقوا به إلى جانب الطريق!

الشجاع الذى يصرخ فى وجوه الجنود الألمان بأنه سيجر العربة لأن هذه هى أوامرهم.. ولكنه يلعنهم سرًّا وعلانية، ويقول دون خوف إنه لو التقى بحفرة فسيجر العربة إليها ليموت هو قبل أن يموت من فى العربة!!

* * *

ثم التقى بزقاق فيه إصلاحات ليتحول إلى شارع عليه لافتة كبيرة!

كاتب وشاعر لم يولد بعد الحرب ولكنه ولد قبلها بسنوات قليلة فانطبعت بكل أحداثها المروعة فى خبايا نفسه.. وروحه.

ستانسيلاف جروشوفياك.. وأشعاره.. وقصصه وروايـاته ترجمت إلى أكثر من لغة، والطابع المميز له هو الكتابة العلمية بمعنى استخدام مصطلحات الكيمياء وتطويعها لأحداث درامية نابعة من طبيعة العنصر الكيميائى الذى يتحدث مع عنصر آخر بسهولة.. أو يرفض الاتحاد!

وقد قرأت قصته «تريسموس» أكثر من مرة.. ولكنى لم أفهمها.. فحتى العنوان نفسه اسم مادة علمية، أو ظاهرة تحدث عندما يتحول الإنسان إلى جسد ميت.. وهو فى القصة - على قدر ما فهمت - يتناول بالتحليل ما يحدث لجسد أحد النازيين كان

مشهورًا فى حياته بقسوته. وتلذذه بتعذيب الآخرين حتى الموت.

* * *

الشارع والقصة.. الإثنان وحدهما.. خير ما يعطيك ملامح شعب.

معذرة.. لا أقصد الشارع.. وإنما الأزقة!

حياة خاصة.. بدون مذاهب!

برغبتى الحرة، وبارادتى.. تعمدت أن أتوه فى ذلك الصباح! أسير كيفما اتفق، أركب أى أتوبيس، أنزل فى أى محطة.. غير مكترث بما قد يحدث لى أو بصعوبة أن أتفاهم مع أحد!

ولكن.. رغم إرادتى الحرة هذه، وجدتنى - ربما بالغريزة - أسير فى الاتجاه الذى يسير فيه زحام الناس.. أتتبع خطاهم، وأفعل مثلما يفعلون، وأترك الشارع الذى لا ينعطفون إليه!

ولدهشتى، اكتشفت انهم جميعًا - وكان اليوم إجازة - يقصدون مكانًا واحدًا كأن هناك اتفاقًا للذهاب إليه!

ميدان واسع كبير رأيته من بعد وكأنه مغطى برءوس الناس، وأخذنى الحماس وقد ثار الفضول فى نفسى. ماذا يحدث هناك؟..

هل هو اجتماع سياسي؟.. أم أنه مجرد سوق كبير؟!.. ولماذا ترتفع أصواتهم بهذا الشكل؟!

اقتربت من الميدان ورأيت الآلاف يقفون فى طوابير، يحتمون من الشمس تحت مظلات أعدت خصيصًا، وأنظار الجميع متجهة ناحية شرفة عالية، وعبثا حاولت أن أسأل أحدًا عن الحكاية، الكل مستغرق تمامًا وغائب عن كل ما حوله.. ولم تمر لحظات طويلة حتى تعالى نشيد جماعي يردده الآلاف فى وقت واحد.. ووصل حب الاستطلاع ب إلى درجة تفوق الجنون.. لابد أن أعرف.. ظللت أدور بعينى فى كل اتجاه أبحث عن شخص يبدو عليه أنه متفرج مثلى.. ووجدته فى النهاية.. كان يقف مستندًا على حائط ولا تتحرك شفتاه مع النشيد.. سألته وبدلاً من أن يجيبنى سألنى: من أين؟.. وعندما عرف.● قال ببساطة شديدة: إنه احتفال دينى مثل رمضان عندكم!

رمضان؟!.. واحتفال دينى يضم الآلاف.. هنا.. فى بولنده؟!

كنت مستغرقًا فى علامات الاستفهام، عندما لكزنى الرجل لأركع بركبتى على الأرض مثلما يفعل الجميع، وركعت سريعًا دون أن أفهم لماذا؟.. وعندما وقفت ثانية عاد الرجل يقول: إنه «كوربس كريستى»، وهو من الأعياد الهامة عند الكاثوليك.. وقاطعته قائلاً: ولكنى كنت أظن..

وضحك قبل أن أتم كلامى ليقول: كنت تظن أن الاهتمام

بالمسائل الدينية قد تلاشى هنا!

قلت: ربما.. ولكن يبدو أن الناس هنا متدينون إلى أبعد الحدود.

وضحك وهو يقول: هل تظن ذلك؟.. انظر جيدًا إلى الجموع وأنت تعرف!

وقبل أن أدرك مغزى كلامه، تركنى وانصرف، ووقفت وحدى من جديد أتطلع إلى الجموع الحاشدة المترنمة بالصلوات!

بدأت أتبين ملامح غالبية المتجمعين فى الميدان الكبير الذى تطل عليه الكنيسة.. إنهم جميعا من كبار السن، أو من الأطفال الذين لا يتعدون العاشرة، وعبثًا حاولت أن أجد شابًا أو حتى فتاة.. لا يوجد إلا العواجيز.. والأطفال.

وانسحبت من الميدان.. لأتوه بإرادتى ثانية!

* * *

الناس هنا فى الشوارع لا يسيرون فى خطوات عادية مثلما يفعل الناس عندنا.. إنهم حتى لا يسرعون، وإنما يجرون..

الكل يجرى.. الفتاة لتلحق الأتوبيس، والسيدة لتعبر الشارع قبل أن تتحول إشارة المرور.. جرى.. جرى.. لذلك نادرًا ما تجد واحدة ممتلئة الجسم - فالكل رشيقات بالمينى جيب وبالميكروجيب.. وإذا التقت واحدة بشخص تعرفه فإنها تتوقف لثانية واحدة تعطيه

فيها يدها ليطبع قبلة عليها ثم تستدير مبتعدة قبل أن تتبادل معه جملة مفيدة!

سألت «واندا» حمراء الشعر:

- لماذا تجرون هكذا؟! كل شيء جرى في جرى.. لماذا؟!

- غريبة.. انني لا ألاحظ ذلك!

وقلت وأنا أحاول أن ألحق بها:

- ولكنك تجرين الآن فعلا!

- كل الذى أعرفه أن هناك موعدًا لابد أن الحق به.. وعندما انتهى من هذا الموعد استطيع أن أفعل ما أريد..

- أن تجلسى فى احد المقاهى مثلا؟!

- لا.. هذا متروك ليوم الإجازة..

- اذن ما هو الشيء الذى ستفعلينه؟

- أتسوق.. أتناول غذائى.. ليس هناك وقت!

ليس هناك وقت فعلًا، وجبات الطعام يتناولونها - غالبا - وهم وقوف.. يدفعون ثمن ما يريدونه، ويتسلمونه بأنفسهم.. ثم يأكلون فوق بنوك عالية فى سرعة وعلى عجل، وقد حاولت أن أفعل مثلهم، فأحسست أننى أؤدى واجبًا وظيفيًا - بالنسبة لجسمى - دون أن أستمتع بالأكل أو أحس طعمه!

* * *

جلست وحدى ألتقط أنفاسي فوق مقعد بحديقة واسعة.. الحديقة ليست مزدحمة .. أم ومعها طفل.. شاب وفتاة يتبادلان القبلات.. ثم فى مقعدين متجاورين تجلس فتاة وحيدة وفى استرخاء كامل جعل الميني جيب ينحسر أكثر مما يجب.. وعلى المقعد الآخر يجلس شاب يقرأ جريدة.. توقعت أن يتلصص الشاب على الفتاة وعلى ساقيها.. ولكنه خيب ظنى.. ظل منهمكا فى القراءة دون أن يعيرها أى التفات.. وبعد طول تأملى لهما اتضح أننى الوحيد الذى أتلصص على الفتاة، بل - بصراحة - لا أحيد بنظرى عنها!

وقبل أن أجمع شجاعتى لأقوم وأتحدث معها وأتعرف عليها رأيتها تقوم متهللة الوجه لتستقبل شابًا قادمًا من بعيد.. مدت له يدها فطبع عليها قبلة.. ومد يده أحاط بها وسطها وأحاطت هى وسطه باليد الأخرى.. وغادرا الحديقة!

سألت «واندا» حمراء الشعر ورموش العينين :

- هل تجدون وقتًا للحب؟!

وردت على الفور :

- كل وقتنا للحب!

- وبالطريقة نفسها.. الجرى؟!

- كل شيء له وقته.. وكل شيء للحب!

- لم تفهمى سؤالى!

- بل أنت الذى لم تفهم إجابتى.. وإذا كنت تقصد الحب فى

حجرة مغلقة فالعمل لا يستغرق النهار كله!

- الحب عندى ليس فى حجرة مغلقة.. أو فى الطريق.. ولكنى أقصد أنكم عمليون أكثر إنكم تفعلون كل شىء وكأنكم فى سباق!

- ولم لا؟! نحن فى سباق فعلا!

- ومتى ينتهى هذا السباق؟

- إنه كالحب.. لا ينتهى أبدًا!!

شاهدت فيلما فرنسيًا، وخرجت إلى الطريق حوالى العاشرة مساءً وأنا متأكد تمامًا أننى سأعرف طريقى إلى الفندق.. فدار العرض لم تكن بعيدة فى ضوء النهار. ولكن فور أن أصبحت فى الشارع إختلط على كل شىء.. الأضواء كلها متشابهة.. وسيارات الأجرة لا تقف إذا أشرت إليها، بل هناك محطات محددة تقف فيها.

وفى هذه المرة تهت فعلا.. ولكن بغير إرادتى! ظللت أسير وأسير.. دون أن أتبين مكان الفندق.. أو حتى محطة واحدة من محطات سيارات الأجرة.. كنت جائعًا.. ولكن المحال كانت مغلقة بعد العاشرة.. وغلبتنى تعاسة لا أول لها ولا آخر.. ماذا أفعل؟.. وإلى أين أذهب؟.. لا أحد يعاوننى على الإجابة.. وإذا سألت فلا أحد يفهم اللغة التى أتحدث بها. لا فائدة غير اللغة البولندية.. حتى عندما نطقت اسم الفندق على طريقتهم لم يردوا بغير كلمة واحدة: پروستو..

وفهمت أنا معناها «دوغرى»..

إحساس التعاسة و «التوهان» لم يمنعنى من متابعة مواكب الشباب التى تسير اثنين.. اثنين.. والخطوات الآن ليست مثل الخطوات فى النهار.. انها بطيئة وحالمة وتتهادى على ايقاع القبلات..

طيب.. وأنا أعمل إيه؟!..

انقذنى باب احد البارات الليلة، ولكنى لم أجد فيه غير «البيرة» فكانت وحدها عشائى فى تلك الليلة.. جلست لفترة أرقب حلبة الرقص، ثم قمت منصرفًا وقد نسيت تمامًا المشكلة التى سببت تعاستى قبل أن أدخل البار.. وعند الباب الخارجى نظرت أمامى..

وكان «الفندق» عند الرصيف المقابل!

اخذت مفتاح حجرتى وأسرعت إلى الدور الثانى لأنام كالقتيل!

فى الصباح.. سألت «واندا» حمراء الشعر ورموش العينين:

- كيف أمضيت ليلة الأمس؟

وقالت فى سعادة!

- كنت أرقص.. طول الليل كنت أرقص:

- أما أنا.. فقد تهت!

ضحكت قائلة:

- تهت؟.. هنا فى وارسو؟!

- نعم! وقد تبينت فى النهاية أننى غير بعيد عن الفندق.. مجرد اختلاط أضواء!

- هل تعرف لماذا تهت.. لأنك لا تجرى مثلنا كما تقول.. فى الحقيقة نحن لا نجرى.. وإنما نختار.. فى العمل نختار ما يناسبنا ونلتزم بكل ما هو سائد فى بلدنا.. وفى حياتنا الخاصة نعيش حياتنا كما نريد.. ليست هناك حياة خاصة اشتراكية وحياة خاصة رأسمالية.. هناك حياة خاصة واحدة.. وهى أن تعيشها بأقصى ما يمكن من استمتاع.. وأن تفعل فيها كل ما تريد!

قلت وأنا نادم على ليلة الأمس:

- معك حق.. ولكن.. هل تغضبين إذا قلت لك إننى ألاحظ أن غالبية الشباب هنا يتصرفون بدافع من التقليد لا عن اقتناع!

انفعلت «واندا» وقالت فى غضب:

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن السائد هنا قانون «فليفعل كل الأوربيين الشىء نفسه».. والموضة الآن.. الرجال بشعور طويلة.. والفتيات بالميكروجيب.. والجيل الجديد متمرد على كل شىء.. و..

وقاطعتنى واندا فى غير غضب:

- أوافقك.. ولكن ألا تفعلون أنتم فى بلادكم الشىء نفسه؟!

- ليس بصورة جماعية.. ولكننا لا نخضع للقانون الأوربى... هناك تقاليدنا التى نحافظ عليها ونحن نساير أى تطور..

قطبت حاجبيها وقالت فى غير اقتناع.

- وهل لاحظت أننا هنا بغير تقاليد؟!

- لا أقصد ذلك.. ولكنه مجرد إحساس.. هناك بعض أشياء أشعر أنكم تفعلونها بدافع التقليد فقط.. لا عن اقتناع حقيق!

حاولت أن تبتسم وهى تقول:

- لن أستطيع مناقشة إحساسك!

- فليكن.. ولكنى أريد أن اخضع هذه الليلة فقط للقانون الأوربى!

ضحكت «واندا» طويلاً قبل أن تقول:

- عن اقتناع؟.. أم بدافع التقليد؟!

وتنهدت قائلا:

لا.. ولكن خوفًا من أن أتوه ثانية:

الذين يعرفون الحب!

* عندما يكون الكلام هدفًا فى حد ذاته، يصبح خطره أشد من القنبلة الذرية.. الكلام لابد أن يكون وسيلة.. وهو بين رجل وامرأة فى حالة حب مجرد مقدمة.. وعندما يتلاشى الكلام، يكون قد تحقق الحب الحقيق *

ببساطة شديدة حاول أن تجاوبنى.. ماذا تريد من الدنيا بكل ما فيها؟.. الطعام الجيد؟.. الأوقات السعيدة الممتعة؟.. راحة البال؟.

كل هذا ممكن تحقيقه..

ولكن الأهم من هذا كله: أن تقول رأيك!

وأنت عندما تتكلم - بحرية - تتميز انسانيتك على الفور، تتحدد

ملامحك، تطرح وراء كظهرك المشاكل الصغيرة التى قد تجعلك فى مصاف أى كائن حى عادى، وتصبح كالفلاسفة كل ما يشغلك هو أن تجد الاجابة على الأسئلة التى تبدأ بلماذا؟ وبكيف؟!

لماذا أقول لك هذا الكلام؟ لأننى أود أن أحكى لك القصة الكاملة لنوادى الثقافة.. ونحن أحيانا نطلق عليها هنا فى بولندة اسم: نوادى المناقشة.. وعددها كثير.. كثير جدا. فى كل قرية.. فى كل حى.. فى كل مصنع.. وربما فى كل بيت:

حال هذه النوادى قبل الحرب الأخيرة يختلف عن حالها الآن.. البداية كانت محدودة فى المدن الصغيرة وفى القرى.. مجرد نواد صغيرة للشباب يشرف عليها المتعلمون.. ويجد فيها الشباب الفرصة لتمضية أوقات الفراغ. أحيانا كانوا يكونون فرقًا للتمثيل.. وأحيانا يكتفون بقراءة الكتب.. وفى أغلب الأحيان كانوا يقتلون الوقت بالكلام.. كلام عن زوجة فلان.. وكلام عن ابنة علان.. وبالطبع لم تكن الحكومة فى ذلك الوقت مهتمة بهذه النوادى أو بما يجرى فيها.. ولكن عندما بدأ بعض المدرسين التقدميين يغيرون مجرى الحديث فى النوادى. ويتكلمون عن أشياء مثل الظلم والعدل.. وأشياء مثل المستوى السيئ الذى يعيش فيه الفلاحون.. بدأت الحكومة تهتم.. ولكن بإبعاد هؤلاء المدرسين!

أنت تبتسم.. لا.. انتظر.. القصة مازالت فى بدايتها.. وأنت لم تتعرف على بعد..

اسمى «رادومسكى جرسيجوف»، ووظيفتى رئيس ادارة النوادى الثقافية.. وعضو فى حزب اتحاد الفلاحين.. وكنت يومًا من الأيام واحدًا من هؤلاء الذين اهتمت بهم الحكومة قبل الحرب.

كنت - كفلاح - اختزن فى صدرى الكثير.. ولم يكن مجرد الكلام هو الذى أريده.. الكلام عندما يكون هدفًا يصبح خطره أشد من القنبلة الذرية.. والكلام لابد أن يكون وسيلة.. وهو بين رجل وامرأة فى حالة حب مجرد مقدمة، وعندما يتلاشى يكون قد تحقق الحب الحقيق.. طبعًا أنت تفهم ما أقصد.. ونحن كنا نريد بالكلام أشياء كثيرة.. ولكن الحرب جاءت فغيرت مجرى كل شىء.. كتمت ألمانيا النازية على أنفاسنا بين يوم وليلة، تاريخنا ملىء بتكرار موقف ألمانيا هذا منا.. قد يكون ذلك بسبب حدودنا المشتركة، أو لأن بولندة تغلبها الخضرة.. أسباب كثيرة والمهم ألا نخرج من موضعنا..

بالمناسبة.. ماذا تفضل.. الشاى أم القهوة السوداء؟.

بعد القهوة.. معذرة.. أقصد بعد الحرب.. تغير الحال بالنسبة لنوادى المناقشة.. بعد التحرير أصبحنا دولة اشتراكية، وهنا كان يجب أن يزداد الاهتمام بالنوادى الثقافية، فالحكومة لم تعد شيئًا آخر غير الشعب، وسيلة القهر هى وسيلة الحكومات التى تخاف من الشعب، أما عندما تمد الحكومة يدها للإنسان الذى اختارها للحكم.. فإنه يفعل من أجلها. من أجل نفسه.. الكثير..

الفتاة التى تحبك بصدق تستعد لأن تفعل أى شىء من أجلك.. تضحى بحياتها راضية، أما إذا اختطفت أنت فتاة وقدمت لها بيتًا من ذهب.. فإنها ستقتلك فى أول فرصة مناسبة.

والاشتراكية تعنى الحب.. علاقة غرامية عنيفة تربط الإنسان بكل ما حوله.. طاقة الحقد التى يمكن أن يضيعها الإنسان فى غضبه على حكم يقهره.. تتحول إلى طاقة خلاقة بغير حدود.

تسألنى هل انطلقت نوادى الثقافة إلى وضعها الأمثل بعد الحرب؟.. وأجيبك أن هذا لم يحدث مرة واحدة..

كانت الحكومة مشغولة باعادة بناء كل ما دمره النازى. وإذا عرفت أن النازى دمر كل شىء فى بولندة.. فهذا معناه أن الحكومة كانت مشغولة جدًا.. وإذا تكلمنا بصراحة نقول إن بعض النوادى تسرب إليها هؤلاء الذين لا يعرفون الحب.. وجدوها فرصة لإملاء اتجاهاتهم المعادية للاشتراكية.. كتبوا مسرحيات تضع السم فى الدسم.. تصيدوا الشباب ليشحنوا رأسه بكلمات جوفاء عن الثراء، وعن أسطورة العالم الحر.

واستطاع هؤلاء الذين لا يعرفون الحب أن يصحبوا أقوياء..

أقوياء لدرجة أنهم استطاعوا إقصاء «جومولكا» عن الحكم كان ذلك عام ١٩٤٨ وارتكزوا على أسباب كالكلمات المعسولة.. وقال «جومولكا» قبل أن يذهب بعيدًا «إن الشعب سيكتشف بنفسه من هم أعداؤه..» وفعلا.. اكتشف الشعب أعداءه بعد فترة قصيرة..

تطلع الفلاحون والبسطاء إلى نوادى المناقشة فوجدوها سجونًا من ذهب.. كل شيء بالأمر.. وأنت تستطيع إذا كنت فى مركز القوة أن تأمر شخصًا بأن يجر عربة.. أو أن يحفر بئرًا.. ولكنك لا تستطيع أن تأمر بأن يستمتع بمسرحية.. أو أن يستفيد من كتاب.. لأنه هنا سيستخدم سلاحًا أقوى من القوة.. الرفض!

وسلاح الرفض استطاع الفلاحون والبسطاء أن يتغلبوا به على خطر كان سيقضى على كل أمل مشرق فى حياتهم..

ماذا كان يريد هؤلاء الذين لا يعرفون الحب؟.. كانوا يريدون الارتباط بالنظام الغربى.. بتبعية الإنسان لرأس المال.. وبشيء آخر أكثر خطورة.. الحركة الصهيونية التى اعتقدت أن دورها هذه المرة لن يتعدى دور البريمادونا فى مسرحية يفضلها الناس، ولذلك يجب أن يصفقوا لها.. وليس على البريمادونا إلا أن تضع على وجهها المكياج المناسب.. الاشتراكية.. يبقى على وجهها فترة عرض المسرحية.. فقط.. ثم سرعان ما تزيله بعد انتهاء العرض.. وقد اكتشف الناس هذه اللعبة بسهولة..

فرفضوا المسرحية..

ولعنوا البريمادونا..

وامتلأت صدورهم - من جديد - بالحقد؟ هل تكلمت كثيرًا؟.. معذرة.. العدل أن أعطيك الفرصة أنت لتتكلم.. أنت سعيد بما أقول؟.. فليكن.. أتكلم أنا!

مع عودة جومولكا عام ١٩٥٦ عادت الحياة الطبيعية إلى النوادى الثقافية.. أدرك الجميع دورها الكبير فى الحياة، هى ليست وسيلة للتسلية أو تمضية الوقت، وهى أيضا ليست ميدانًا لتصارع الاتجاهات وخاصة المضادة، وإنما هى كالأوردة والشرايين بالنسبة للقلب.. ولقد فات وقت طويل قبل أن يتأكد الناس من الدور الحقيق لهذه النوادى بعد الفترة التى قوبلوا فيها بالخداع؛ والمكياج؛ والكلمات المعسولة الكاذبة!

فى البداية قال البسطاء: هذه دعاية وليست ثقافة..

ثم قالوا: لا تفرضوا علينا شيئًا.. أتركونا نطلب ما نريد.. فهذه نواد وليست قاعات درس!

مشكلة.. ولكن هذه هى طبيعة الإنسان.. وأمام هذه الطبيعة لابد أن نفكر، ولابد أن نخضع لمشيئتها.. ولابد أيضا أن نزيل من طريق الحب كل ما شابه فى الماضى القريب من وسائل رآها الناس غير مشروعة!

الفتاة التى تحبك بصدق ورأتك بعينيها وأنت تقبل فتاة أخرى.. ماذا تتوقع منها.. لابد أن تغضب.. لن تكرهك ولكنها ستحتاج إلى وقت كبير لكى تصفو لك، وتعفو عنك، وتعود لتقترب منك!

وبدأت حملة واسعة لخلق حيوية نوادى الثقافة، الغيت النوادى التى لم تكن غير جدران، ووضعت أسس جديدة يكون القادة فيها بالانتخاب.. وأعنى بالقادة من يستطيعون أن يجعلوا من الكلمات

الروح التى تبنى فنًا.. وهذه مهمة صعبة.. فهم مهددون فى كل لحظة بأن يتهموا بأنهم مجرد «بورجاندست».. أو انهم يتهمون بأنهم موظفون.. وهنا قد ينفض الناس عنهم، ويفقدون الثقة بهم!

وفى كل سنة.. يدعى كل القادة إلى مؤتمر كبير بوزارة الثقافة فى «وارسو».. وفى هذا المؤتمر تتلاقى جميع الأفكار وتطرح كل المشاكل.. وتوضح أيضا خطة العمل بالنسبة للسنة التالية!

شعار هذه المؤتمرات:

«الحياة ليست أوامر.. وإنما تنفيذ رغبات»!

وبهذه الصورة يحدث الاندماج الكامل.. فلا تعرف من الذى وضع الخطة.. النوادى نفسها.. أم الوزارة؟.. المهم أن يقول كل إنسان ما فى صدره، وأن يعبر كل فنان عن مشاعره، وأن يتطلع الجميع دون ما اختلاف إلى تأكيد كل القيم الجميلة فى الحياة.

هل تعرف أعظم فائدة لنوادى الثقافة.. أو كما نسميها نحن أحيانا نوادى المناقشة؟

تقول أكثر من فائدة.. الوعى.. مواكبة أى تقدم ثقافى وعلمى.. حب الفن.. وأقول لك إن الفائدة أكبر من هذا..

الفائدة أن تكسب مواطنًا مقتنعًا!

الاقتناع شيء ضرورى وحيوى.. وصعب!

والمواطن لكى يقتنع لابد أن يكون طرفًا فى حوار.. وأن يكون طارحًا لسؤال.. أو واضحًا لجواب.. وهذه التجربة أفادتنا كثيرًا هنا

فى بولندة.. استطعنا فضح العناصر المعادية المخربة - وخاصة الصهيونية - واستطعنا أن نجعل التنظيم السياسى كيانًا واخذًا له شرايين وأوردة كثيرة.. ولكنه ينبض نبضًا واحدًا!

هل تكلمت كثيرا؟.. معذرة.. ما رأيك فى قدح آخر من القهوة السوداء؟

تسألنى هل تتدخل النوادى فى الحياة الخاصة للناس؟.. وفى الحقيقة أنا لا أفهم بالضبط ماذا تعنى بسؤالك.. الحياة الخاصة لأى إنسان تظل خاصة مادام هو لا يريد الحديث عنها.. أما إذا طلب المعاونة فهو يخرج بها عندئذ من دائرة ضيقة إلى دائرة أوسع.. ويكون الحديث عنها بعد ذلك تلبية لرغبته.. ما إذا كنت تقصد بسؤالك أى نوع من التدخل أو القهر.. فالتجربة قد علمتنا ألا نفعل ذلك أبدًا.. نحن ضد جدران الذهب.. لأن الجدران يمكن أن تسجن إنسانًا.. ولكنها لن تستطيع أبدًا أن تسجن أفكاره.

والآن.. هل تستطيع أن تجاوبنى.. ماذا تريد من الدنيا بكل ما فيها؟

هيا.. اسمعنى.. قل رأيك!

ممنوع اللمس!

عيناى تتشربان الخضرة، وذهنى سارح، والعربة الصغيرة تنطلق بنا نحو الريف المجاور لبوزنان وسؤال غريب أنتبه له فى دهشة: قل لنا شيئا بلغتك.

حاولت أن أقول شيئًا بالعربية، ولكن - للغرابة - لم أستطع!

ما معنى الكلمات إذا كنتم لن تفهموها؟!.. مهما قلت لكم الآن فلن يكون بالنسبة لكم إلا مجرد صوت!

السؤال مازال فى العيون الزرقاء والجواب سؤال قلته على عجل بالعربية «حاقولكم إيه؟..» رددوا كلماتى فى إعجاب شديد ثم عادوا يقولون.. «ما معنى ذلك؟.. وأدركت ساعتها أننى واقع فى مشكلة، الترجمة الحقيقية لما قلته لن تعنى إلا أن يطلبوا من جديد سماع

كلمات أخرى، وقد يهون كل شيء بالنسبة لى إلا أن أكون هدفًا لعيون تقتحم الحدود التى تقبع فيها شخصيتى ولن أخرج من هذا المأزق إلا بعد أن أقول أى شيء والسلام، وهربت عيونى من العيون الزرقاء ناحية الحقول وقلت بالعربية : « أهى كلها خضرة واحدة.. لكن الناس موش زى بعض » !

وعندما سألونى عن معنى هذا.. ضحكت.. ولم أجب !

عندما عرفت أننى سألتقى بمعبود البولنديين وممثلهم الكوميدى الأول «كوبيلا».. تساءلت بينى وبين نفسى.. هل سأضحك عندما أراه؟ شارلى شابلن كانت له لغة عالمية، وهى ألا يقول شيئًا، لذلك كانت أفلامه الأولى الصامتة هى أروع أفلامه.

كان «كوبيلا» يستعد للقطة فى فيلم جديد، وقدمنى إليه مخرج الفيلم وهو يردد أننى لابد وقد رأيت أحد أفلامه؛ وخجلت أن أقول إن هذا لم يحدث، وابتسمت ملامح كوبيلا ليقول فى خفة دم : أعتذر إذا كنت قد رأيتنى ولم تضحك.. ولم يكن أمامى إلا أن أنقذ الموقف بأن أسأله :

ما هى هوايتك الأخرى بجانب التمثيل؟

غمز بعينه وقال على الفور : الخمور!

وعدت أسأله :

هل أنت كوميدى فى حياتك الخاصة؟

تغيرت ملامحه وقال وهو يتنهد : أبدًا.. حزين.. حزين!

قلت : أهى قصة حب فاشلة؟

خبطنى على كفى وهو يقول : دعك من الفتيات!

وسألته ؛ من تفضل من الكوميديين العالميين؟

- كممثل لا أحد.. وإنما كمخرج «جان كوكتو»..

مخرج الفيلم «جانوت» يشرح لى وهو يضحك عاليًا اللقطة التى يصورها «كوبيلا» الآن، وأنا أحاول أن أضحك مجاملة، وتصوير اللقطات لا يتوقف رغم هطول المطر!

أوبرا «وارسو» مزدحمة على آخرها وأنا جالس فى أحد الصفوف أعيد قراءة قصة «القصر المسكون» التى سأشاهدها بعد لحظات وقالت لى «بربارا جينسكا» عندما بدأت تخبو الأنوار: «أظن أن لغة الأوبرا غير مهمة.. يكفى أن تفهم القصة.. وستكون الأصوات بعد ذلك مكملة للموسيقى»..

هززت رأسى وأنا أقول كاذبًا ؛ «طبعًا.. دون أى شك»!

مشاهدة الأوبرا عندهم غذاء أسبوعى، يحرصون عليه بمختلف أعمارهم أكثر من حرصنا على انتظار اللحم يوم الخميس، وعندما بدأت الموسيقى أدركت على الفوز أننى لابد أن أواجه نفسى بصراحة وحزم.. وأطوعها - رغم تمردها السابق - على تقبل وتذوق هذا الفن العظيم، ولكنى - رغمًا عنى - كدت أنفجر ضاحكًا عندما بدأت ترتفع أصوات أبطال الأوبرا، إنهم - مهما كانت اللغة.. يقولون الكلمات بطريقة لا يستسيغها إلا من تعود على مشاهدة الأوبرا

وسماعها.. وقد أدرك الصحفى الأسبانى الذى يجلس إلى جوارى ذلك فسألنى هامسًا :

أجبته : وهل تفهم أنت ؟

مال ناحيتى ليقول : «أبدًا.. ولكن لابد أن تفوت الليلة على خير».

فى الاستراحة الأولى قالت «بربارا» إنه يجب علينا مشاهدة متحف الأوبرا وفيه الملابس التى يرتديها الأبطال منذ مائتى سنة وفى الإستراحة الثانية قالت «بربارا» إنه يجب علينا زيارة المكتبة التى بها المخطوطات والنوت الموسيقية وفى نهاية السهرة شكرنا بربارا وانسحبنا إلى الطريق مسرعين.. وقال لى الصحفى الأسبانى ضاحكا :

أدركنى بمكان أحتسى فيه البيرة.. وأرقص..

وشددت على يده وأنا أقول : أدركنى أنت..

* * *

رأيت هنا جميلات كثيرات ملكات جمال إن أردت التحديد، ولكن «واندانانزى» جمالها يختلف.

هى ليست مجرد شقراء، وليست مجرد تقاطيع متناسقة، وليست مجرد جسد رشيق وكأنه تمثال اغريق. إنها - بلغة البولنديين - تحفة حقيقية، تشعر وأنت تنظر إليها أن الخالق - جل شأنه - قد خص هذه الفتاة بكل ما عنده من جمال.. ولكنها رغم فتنتها الصارخة،

أو بتعبيرنا البلدى « اللى تدوخ » كانت مرتبكة، وخائفة.. وتلمع على جبينها قطرات العرق!

كانت واندا ناتزى تستعد لتصوير أول لقطة سينمائية فى حياتها، وقد اختارها المخرج بعد أن شاهدها فى ديفيليه كانت فيه أروع مانيكان.

سألتها: ما رأيك فى التمثيل؟

ردت فى صوت خافت وكأنه نغمات جيتار صغير:

- لا أعرف.. ولكنى خائفة!

وقلت فى شجاعة أحسد عليها: لماذا وقد تعودت نظرات الناس أثناء عملك كمانيكان؟!

ابتسمت لتقول:

- ربما.. ولكن العيون هنا - وأشارت إلى الكاميرا - زجاجية!

وبشجاعة تفوق الحد عدت أقول: إن هذه العيون الزجاجية لو دبت فيها الحياة.. لما أعجبت إلا بك.

ضحكت الممثلة الجميلة الناشئة وهى تردد كلمات معناها أنى أجامل وأنى أبالغ، وأنها إنسانة عادية جدًا، ولابد أن هناك - فى مصر مثلا - من يفقنها فى الجمال..

وتدخل المخرج قائلاً: سأرسل لك صورتها فى القاهرة: إنى واثق أنها ستصبح نجمة عالمية..

فوجئت بها تسألنى.. هل عرفت قصة الفيلم ؟!

ولحسن الحظ كان المخرج قد أعطانى فكرة عامة عنها، ولحسن الحظ أيضًا أنها لم تنتظر اجابتى بل قالت على الفور:

- المفروض اننى وديعة.. أبحث عن الزوج المناسب.. وبقية القصة التى عرفتها..

وسألتها: وهل الدور مناسب لك؟

ابتسمت قائلة:

- إنه أول دور لى.. ولا أعرف.. هل ترانى وديعة؟

تدخل المخرج ثانية: بدون شك ياعزيزتى.. بدون شك.. استعدى الآن فنبدأ التصوير.

- يجب أن تشاهد الفيلم وتقول لى رأيك!

وقلت فى حماس حقيق: لابد أن أراه.

وقلت لنفسى وأنا أتابعها بعينى: «لأنى لابد أن أراك أنت!»

* * *

لكل شيء قديم متحف، الآلات الموسيقية لها متحف، الأثاث له متحف، آلات الصيد لها متحف.. وفى أحد قصور نبلاء بولندة القدامى رأيت الصالة التى كان يستقبل فيها أصدقاءه بعد عودتهم من رحلات الصيد..

الصالة ليس بها كراسى، ولكن بها «كنبة» دائرية بحيث أن

الجالسين عليها لا يشاهد أحدهم الآخر.. وسألت لماذا؟ وقالوا ضاحكين: لأن النبيل كان يعرف أنهم جميعا سيكذبون ولذلك فقد أعطى كل منهم الفرصة ليروا أكاذيبه فى الصيد دون أن يخجل من عيون من كانوا فى رفقته ويعرفوا الحقيقة كاملة!

فى متحف الآلات الموسيقية القديمة سألت السيدة العجوز التى تشرف على الآلات التى تتآكل: هل هو مجرد عمل لك أم أنك تحبين الموسيقى فعلا؟

أجابتنى وهى ترمق الآلات فى إعجاب:

- لقد اخترت هذا العمل بنفسى.. ولو نقلت إلى مكان آخر سأحزن..

رغما عنى امتدت يدى إلى أصابع بيانو يبدو كمنضدة طفل صغير.. وفوجئت بصوت السيدة العجوز يعلو فى غضب:

- ارجوك.. لا تلمس شيئًا!

وعبثًا.. حاولت أن أعتذر!

فى المعرض!

تركنى. ووقف كالمذهول أمام الآلة الكبيرة المعقدة المكتوب عليها بالإنجليزية «تفعل كل شىء».

أخذت أرقبه - بدورى - فى ذهول.. وقد نسى وجودى تماما.. والمفروض أنه فى صحبتى ليدلنى على الطريق.. وحاولت بشتى الطرق أن ألفت انتباهه إلى أننى قد شبعت فرجة فى هذا المكان ولكنه تكلم كأنه يحلم:

«كم هى سهلة وجميلة.. الحياة الأمريكية»!

لم تدهشنى كلمات الصديق البولندى ابن «بوزنان» ففى كل مرة أزور فيها المعرض الكبير الذى يقام سنويًا فى بلدته.. كنت أشاهد

نظرات الانبهار التى توشك أن تلتصق بكل ما يعرض فى القسم الأمريكى !

وجاهدت كثيرا حتى لا أتفلسف، أو أن أقول كلمات مثل « إنها دعاية.. » أو « إن الشعب هناك لا يستمتع بهذا » فمهما قلت.. ماذا سيفعل الكلام أمام آلاف الدولارات التى أنفقت فى ذكاء لكى تجىء المعروضات الأمريكية إلى قلب مجتمع اشتراكى، وتكون دليلاً - كما يريدون - على أن الحياة فى مجتمعهم الرأسمالى أيسر.. وأسهل.. وأجمل !

إذا كانت بولندة هى صاحبة المعرض.. وقسمها فيه هو أكبر الأقسام، فأمريكا كانت حريصةعلى ألا يقل قسمها فى أى شىء عنه.. ولا مانع من أن تجىء مع الآلات الأتوماتيكية والعقول الإلكترونية.. فتيات صارخات الجمال بالمايوه وبالمينى جيب وبالإبتسامات التى لم أراها إلا بلهاء !

* * *

طوال جولتنا خارج العرض، وصديق البولندى حريص على أن يبدى لحظة وأخرى إعجابه بما يعرضه القسم الأمريكى، يقول ذلك ونحن فى زيارة الكتدرائية التى تضم التماثيل المصنوعة من الذهب الخالص، أو ونحن فى زيارة قلعة « كورنيك » التى تعرض لوحات من القرنين السادس والسابع عشر، أنا أسأله عما أراه فى هذه الأماكن..

وهو يرد فى اقتضاب ليعود ليتحدث عن الآلة التى تفعل كل شيء :

« تصور.. لم يعد مطلوبا من الإنسان أن يقوم بأى جهد.. يكفى أن يضغط على زرار ليحصل على ما يريده »..

وأقول له :

« بالطبع.. ولكن هل سيحصل على هذه الآلة كل إنسان فى أمريكا » ؟

ويرد وهو يرمقنى فى دهشة :

« ولم لا يحدث ذلك » ؟

وأبتسم وأنا أرد عليه :

« أعتقد أنك أدرى منى بذلك.. المجتمع الرأسمالى تستمتع فيه طبقة معينة بكل شيء، وبقية الشعب تعانى من كل شيء ! ».

وتتغير نبراته وهو يقول :

« ربما.. ولكن لا يبدو أن مستوى المعيشة هناك يسمح بوجود العدد الكبير الذى يعانى و.. »

وأقاطعه :

« بل يسمح.. وهناك الملايين من المتعطلين والفقراء والذين يؤدون أحط الأعمال من أجل لقمة العيش ».

وأتوقف.. لأقول ثانية فى انفعال حقيق :

« وهناك الزنوج أيضًا » !

وتسبقنى خطواته وهو يقول :

«أعرف.. ولكن هذا الذى شاهدته عظيم.. رائع»!

فى أحد أركان المعرض الكبير يوجد قسم «كوريا الديمقراطية»، وهو قسم صغير فى حجم القسم العربى، وبالنسبة للقسم الأمريكى كالنسبة بين كوخ.. وقصر كبير!

المعروضات الكورية ليست كثيرة، وليست معقدة، ولكن فى واجهة القسم توجد صورة كبيرة بحجم الحائط كله.. والصورة عبارة عن جندى بحار كورى يشهر السلاح فى ظهر اثنين من بحارة سفينة التجسس الأمريكية «بويبلو» التى أسرتها البحرية الكورية.. وابتسمت فى إعجاب شديد وأنا أتطلع إلى الصورة التى تقول مئات الأشياء. وترد على كل الأسئلة!

* * *

فى اليوم التالى فوجئت بالخبر:

«المسئول عن القسم الأمريكى فى سوق «بوزنان» قدم مذكرة إلى ادارة المعرض يطلب فيها رفع الصورة التى تعرضها كوريا الديمقراطية، ويحتج على وجود مثل هذه الصورة التى تسىء إلى أمريكا»!

بقية الخبر:

«المسئول عن القسم الكورى يؤكد أن الصورة لن ترفع.. وأنها فى مكان يعتبر أرضًا كورية»!

الآلاف يتوافدون على المعرض الكبير. ويتجولون بين أقسامه

التى تغطى مساحة مدينة صغيرة، ولا أحد يدرى شيئًا عن الإحتجاج الأمريكى . .

كنا عند مفترق الطرق، وكنت قد حفظت كل مسالك المعرض، ورأيت خطوات صديق البولندى تتجه ناحية اليمين، فقلت على الفور :

« إلى القسم الأمريكى ثانية ؟ ! »

وابتسم وهو يرد على :

« لعلك لم تعلم »

سألته فى فضول كبير :

« لم أعلم ماذا . . هل سيهدون الآلات إلى رواد المعرض ؟ ! »

ضحك وهو يقول :

« لا . . ولكن القسم الأمريكى أغلق أبوابه » !

إرتفع صوتى متسائلًا :

« ولماذا » ؟ !

رد فى اقتضاب :

« بسبب الصورة التى تعرضها كوريا الديمقراطية » !

وانفجرت ضاحكًا وأنا أردد كلمة واحدة :

« برافو » !

وقال وهو يشاركنى الضحك :

« يبدو أن آلاتهم ليست وحدها التى تفعل كل شىء . . هناك

من يستطيع أن يفعل بهم كل شيء! »

* * *

غادرت « بوزنان » وذهني لا يبارحه ما حدث هناك.. وفي « وارسو » جمعتني سيارة كبيرة مع عدد من السياح الأمريكان العجائز.. وفي احد الطرق الرئيسية توقفت السيارة لتقول المرشدة السياحية في لهجة خطابية:

« والآن.. تشاهدون السفارة الأمريكية ».

ونظرت خلال زجاج النافذة لأشاهد بناء ضخمًا يعلو عن الأرض كثيرًا وكأنه قلعة حديثة.. وكل شيء في البناء معد في إتقان شديد لا يهدف إلا خطف الأبصار!

وقاومت طبيعتي المصرية حتى لا يرتفع صوتي:

« ليتكم تدلوننا على مكان سفارة كوريا الديمقراطية »!

وبطبيعتي المصرية انفجرت ضاحكًا.. دون أن يعرف أحد السبب!

فتيات بالبكينى.. والبالطو!!

فى كل شارع، وفى كل ميدان، ستجد ما يشير إلى أن المدينة عمرها سبعمائة عام ولكن هذه الاشارة تضيع وسط المبانى والمعالم الحديثة التى تؤكد أن عمرها لا يتعدى عشرين سنة!!

ذلك أن «وارسو» قديمة.. عتيقة.. كانت مسرحًا لجولات وحروب نبلاء القرون الوسطى.. ثم فى غمضة عين تحولت إلى أرض خراب وأطلال.. لأن هتلر أراد ذلك!

وقد تركت مطار القاهرة وحر يونية يصل بالترمومتر إلى درجة الأربعين، ولكنى عندما وصلت إلى مطار وارسو.. كان الجو عاصفًا والسماء تمطر.. وقد ظلت السماء تمطر طوال ليلة وصولى ثم كانت درجة الحرارة فى الصباح أشد منها فى القاهرة!

مطار «وارسو» يبدو وكأنه أحد المعسكرات السريعة البناء، ليس فيه فخامة، أو ضخامة.. أبنية من دور واحد كل شيء فيها يجرى بدقة بالغة، وأكثر من شخص يساعدك على إنهاء الإجراءات الجمركية.. تماما كأنك تسير سيرك العادى لتعبر معسكرًا من أوله حتى آخره!

فى الطريق من المطار إلى قلب المدينة تشعر على الفور أنهم هنا يعبدون الخضرة.. الأشجار على جانبى الطريق، البيوت محاطة بحدائق، ثم حدائق عامة فى كل مكان، لذلك ذهبت دهشتى التى تساءلت معها وأنا أطل على «وارسو» من نافذة الطائرة.. كل هذه الخضرة، هل هى مدينة زراعية؟!

القصر الذى تراه من كل مكان:

من أى مكان فى وارسو ستشاهد هذا القصر.. الذى يرتفع إلى ٣٠ طبقة تعلو عن الأرض بأكثر من ٢٣٠ مترًا.. وسيقولون لك إنه قصر العلم والثقافة، وإنه هدية من شعب الاتحاد السوفيتى إلى الشعب البولندى.. وسيقولون لك أيضًا إنك ستجد قصرًا مثله فى موسكو، ثم فى كل عاصمة من عواصم دول أوروبا الاشتراكية.

لطالما خدعنى هذا القصر وأنا أتجول فى شوارع «وارسو» كنت أعتمد عليه فى أن يكون دليلاً لى عندما أتوه فى الشوارع المتشابعة. وفى كل مرة كان يبدو لى قريبًا جدًّا.. وفى كل مرة كنت أتوه!!

أكبر الشوارع اسمه شارع « القدس ».. وعلى الشوارع المتفرعة منه تقع أكبر الفنادق هنا.. « بريستول » و « يوبيسكى » أما الإدارة الرئيسية للجامعة فتقع على شارع القدس نفسه.. حيث كانت مسارح أحداث الماضى، ومظاهرات الطلبة!

جوانب الطرق مزدحمة بالمحال التى تتفاوت مواعيد عملها وكلها محلات « تعاونية » تملكها الحكومة.. ولذلك فكل شيء عليه سعره المحدد « بالزلوتى » العملة البولندية المعروفة! وقد اندهشت كثيرًا عندما وجدتهم يضعون « الطماطم » خلف الواجهات الزجاجية وكأنها فاكهة غالية نادرة.. وهى هنا كذلك فعلاً وسعرها يقرب من جنيه مصرى!

ومع موجة الحر التى غلبت « وارسو » فى منتصف يونية - وهم يؤكدون أنها موجة غير عادية - كانت تنتشر فى الطرقات العربات الصغيرة التى تبيع المرطبات والمياه المعدنية المثلجة.. وعادة ثمن الكوب زلوتى واحد!!

شوبان.. وكوبرنيكوس:

التماثيل فى الميادين العامة كثيرة.. ولكن أشهرها هنا تمثال « شوبان » الذى يتوسط حديقة كبيرة باسمه تمض متحفًا يحتفظ بكل شيء لمسته يداه.. ثم تمثال الفيلسوف « كوبرنيكوس » البولندى الذى قلب وجه علم الفلك والفلسفة أيضًا.. فهو الذى قال إن الأرض

هى التى تدور حول الشمس، وإنها ليست كما كان يقول الأولـون.. مركز العالم كله!

وبخلاف هذين التمثالين.. تمثال فتاة تشهر سيفًا وهـم يعتبرونه رمزًا لوارسو التى دافعت بكل شيء.. ضـد جـبروت النـازى.. وقاومت حتى وهى أرض خراب!

بعد يومين أو ثلاثة فى «وارسو».. ستزول غربتك فى المدينـة، ستشعر كأنك فى مدينة عشت فيها سنوات طـويلة.. الأتـوبيسات نفسها، المترو نفسه، وحتى «الترولى بـاس».. وإن كنـت شرقيـا فستقف قليلا أمام مشهد المرأة التى تقود المترو.. أو المرأة التى تقـوم بدور «عسكرى المرور» وفوق شعرها الأشقر «الكاب» الـرسمى.. ويداها الرقيقتان تتحكمان فى رشاقة بين مئات السيارات التى تـتزاحم عند تقاطع الطريق!!

فى المدينة سوقان رئيسيتان.. سوق «وارسو» الحديثة، والأخـرى فى القسم القديم الذى نجا من قنابل الحرب.. وبـقى كل شيء فيـه كما كان عليه منذ القرنين السـادس والسـابع عشر، ومـن ميـدان «زامكوف» الذى يتوسطه تمثال الملك «سيجموند» الثالث - منذ عام ١٩٤٤ سيقودك أكثر من شارع إلى «وارسو» القديمة.. حيث أغـرب سوق فى أوربا.. البيت الصغير قد يبدو عاديًا فى نظرك ولـكنك لـو تخطيت بابه فستجد محلًا إلى يمينـك ومحـلا آخـر إلى يسـارك.. ثم تصعد بضع درجات خشبية لتجد أكثر من محل فى الدور الثانى!

عبادة كل قديم:

وهم هنا يعبدون كل ما هو قديم.. يعبدونه لدرجة أنه إذا كان ضروريًا إعادة بناء أحد البيوت القديمة، فإنهم يحتفظون بأحد الجدران القديمة.. ليقيموا أمامها أو فوقها البناء الجديد!

فى أكثر من شارع من الشوارع الرئيسية.. كنت أقف أمام عمارة كبيرة فخمة البناء، ثم أرى فى واجهتها جزءًا قديمًا متهدمًا.. محاطًا بالجديد فى حرص شديد، وكأنها الجدة العجوز المتهالكة تجلس وسط أحفادها وبينها وبينهم عشرات السنوات:

أغلب الأغنيات تتغنى بالقديم..

إيه.. ياوارسو.. ياعتبة..

عمرك سبعمائة عام.. وأكثر..

النبلاء.. وفرسان العصور الوسطى..

ولكنك ذات ليلة مشئومة.. فقد كل شيء!

ونحن أحفادك.. سنبنيك من جديد..

وستبقين ياوارسو الجديدة.. قديمة!

وعندما كنت فى وسط المدينة القديمة.. قالوا لى إنت مدعو لمشاهدة فيلم تسجيلى..

قاعة السينما تكاد تكون وسط «بدروم» بناء عتيق، ولكنها حديثة، ونظيفة، وعندما أسدلت الستائر السوداء.. لمعت الشاشة

.. الفيلم «ستبق وارسو».. ويحكى الفيلم فى حرارة شديدة قصة «وارسو» وأهلها قبل عام ١٩٣٩.. ثم ما حدث فى تلك السنة.. عندما اجتاح النازى وارسو.. هدموا كل شىء فيها.. البيوت تتساقط أمام عينى فوق من فيها.. الأطفال والعجائز يجرون فى الشوارع فى هلع.. وجنود النازى يسيرون فى خيلاء فوق الاشلاء والجثث..

دمار.. دمار.. وأسمع وسط ظلام القاعة صوت نشيج وبكاء الشبان الذين يشاهدون الفيلم.. وفتاة تكاد تولول وهى تتابع ما تراه..

وسنة بعد سنة.. تمر الأحداث الرهيبة على «وارسو» حتى يجىء جيش التحرير.. تآلف بين الجيش السوفيتي والجيش البولندى الذى تجمع ليحرر وارسو من جديد.. وما أن يأتى عام ١٩٤٤ حتى يبدأ صراع بطولى، ونضالى يفوق كل خيال للبناء من جديد!

عشرات الرجال والنساء يرفعون الانقاض.. لا ليعيدوا بناء بيت أو بيتين.. وإنما لبناء مدينة بأكملها!

حتى الأوبرا:

فى أوبرا وارسو.. سيقولون لك فيما يشبه الاعتذار.. إنك ستلاحظ أن البناء حديث.. لكنها أوبرا قديمة جدًّا.. ماذا نفعل وقد حطمها الألمان!؟

المسارح كثيرة، والملاهى الليلية أكثر، وعندما كنت أراهم يمرحون

ويرقصون كنت أظن أن الزمن قد استطاع أن يغسل الجراح القديمة.. ولكنك تفاجأ بأن غالبية الأعمال الدرامية: عن الحرب!

عن جرائم النازى ضد البولنديين.. عن حرب الإبادة التى أخذت من تعداد وارسو أكثر من ثلاثة أرباع مليون نفس بشرية!..

حتى الشبان الصغار.. إنهم يمرحون فى حياتهم العادية، ويراقصون الفتيات، ويمارسون الحب فى كل مكان حتى فى الشوارع.. ولكنك إذا تجاذبت أطراف الحديث مع واحد منهم، فلن يقول غير: كل ما حولك جديد.. لأننا فقدنا مدينتنا القديمة العريقة!

ولن تستطيع أن ترد عليهم بغير:

أيتها الحرب.. اللعنة!

بعيدًا.. عن البحر:

وارسو بعيدة جدًا عن البحر.. لأنها تقع جنوب الساحل الشمالى لبولندة حيث بحر «البلطيق».. لذلك فإن نهر «فستولا» الذى تقع عليه المدينة، يعتبر بمثابة المتنفس والمصيف لكل أهالى المدينة، وهم لا يعتمدون عليه فقط. فهناك البحيرات الصغيرة.. الطبيعية والصناعية.. وفى أيام الحر والإجازات.. يهرعون إلى النهر وإلى البحيرات ليستحموا فى مياهها وينصبوا الخيام وكأنهم على ساحل بحر لا نهاية له!

ومع تقلبات الجو.. من الحر الشديد.. إلى المطر والعواصف..

فقد كنت أرى الفتيات بالبكيني فى شرفات المنازل.. وفى البحيرات، وعلى ضفاف «فستولا».. ثم فى آخر النهار أراهن وقد تدثرت كل واحدة منهن بالبالطو. وكان اليوم الواحد قد تحول كما تتحول السنة عندنا.. إلى صيف وشتاء..

كل شيء.. للصغار:

وأنا فى طريق لزيارة أحد المصانع البولندية.. كانوا يشيرون لى إلى المتاحف القديمة، وإلى القصور التى تحولت بدورها إلى متاحف..

أسماء القصور والمتاحف غريبة، وقد صعب على حفظ أو كتابة اسم كل منها.. حتى الكنائس - وهى أيضًا كثيرة - كنت لا ألتفت كثيرًا إلى اسم كل منها.. أكثر من التفاتى إلى بنائها الذى يعود إلى القرون الوسطى.. والكنيسة التى تهدمت فى الحرب يعيدون بناءها على الطراز نفسه!

وعندما أصل إلى مصنع «بولكا» للأدوية.. أشعر بطعم الحياة الحديثة لبولندة.. الحياة الاشتراكية الحقة التى ينظر فيها إلى العامل كأنه إنسان مقدس.. كأنه بيت قديم لم يهدم فى الحرب!

بعد أن شاهدت الآلات.. ذهبت إلى مدرسة المصنع.. وهى مدرسة فريدة، أتمنى أن تطبق هنا فى بلادنا.. المدرسة تكاد تكون صورة مصغرة من المجتمع بكل آلاته.. وفيها يتعلم من يريد من أبناء العمال وأبناء المنطقة المجاورة للمصنع.. كل شيء عن العمل

وطريقته.. وإلى جانب ذلك يتلقون التعليم النظرى العادى.. أما «بيت الحضانة» الملحق بالمصنع.. فهو يعطى المعنى الحقيق للاشتراكية عندما تتلخص فى ثلاث كلمات: الإنسان الحب، المستقبل!

عناية تفوق الحد بأطفال العاملات.. لدرجة أن لكل طفلين مربية خاصة.. والأطفال تتراوح أعمارهم بين يوم واحد وأربع سنوات.. ولكم رقص قلبى عندما دخلت حجرة يلعب فيها صغار فى الثالثة واستقبلونى فور أن دخلت بكلمات: صباح الخير.. أهلاً وسهلاً!

فهمت كلماتهم.. وانفعلت كل عواطفى.. رغم أنهم قالوا ذلك بأصواتهم الملائكية.. بلغة لا أعرفها!

ليس كل شيء:

هل قلت كل شيء عن وارسو؟.. أبدا.. هذه هى أحاسيس عندما شاهدت هذه المدينة التى تتوسط أوربا.. وكانوا كلما أعطونى النشرات السياحية التى تحدد لى معالم كل شيء.. ابعد هذه النشرات عن يدى.. لأكتنى بأن أتطلع لكل شيء بنفسى.. وأسأل.. لأرى الملامح على وجه الإنسان عندما يعطينى الإجابة!

وكما استقبلتنى وارسو.. ودعتنى..

الأيام الأخيرة لى فيها كنت أشعر كأنى فى القاهرة.. الجو حار

خانق.. ولكن فور أن عبرت الدائرة الجمركية وأخذت طريق إلى الطائرة.. أظلمت السماء وبدأت تمطر..

مطر فى البداية..

ومطر عند الرحيل..

ولكنى - يا وارسو - سأعود إليك!

برلين . . .
شهور طويلة
وكلمات قليلة

قنبلة فى فم الغواصة !

دوى صوت الانفجارات، إنزعجنا كلنا، ولكنه لم ينزعج، كاد يستمر فى محاضرته عن « الحرب والسلام ». عندما لاحظ أننا - مع صوت الانفجارات - قد توقفنا عن الكتابة، إبتسم وقال ببساطة : « إن الانفجارات تجرى فى « أوستبانهوف » وهى لتفجير البيوت القديمة لبناء بيوت جديدة مكانها » !

هكذا ببساطة، وهو جالس بيننا يعرف ماذا يجرى فى مكان يبعد كيلومترات، وقبل أن يسأله أحدنا بالبساطة نفسها : « كل إنسان لابد أن يعرف ماذا يجرى فى بلده » !

لم يستمر « دكتور فريكا » فى محاضرته، عاود الابتسامة ثم قال فى اهتمام مفاجئ « عندى لكم خبر مثير . لقد وجد عمال البناء فى

برلين بالأمس قنبلة مدفونة منذ الحرب العالمية الثانية، القنبلة تزن « ٥٠٠ » كيلو جرام ومكتوب عليها صنعت فى الولايات المتحدة الأمريكية. » !

« بعد اكتشاف القنبلة - وقد جاء ذلك متأخرًا ما يقرب من الثلاثين عامًا - ترك حوالى ألف شخص من أهالى برلين منازلهم، وظهر على الفور الرجل المختص بهذا العمل والذى تمكن منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى الآن من القضاء على خطورة ألف قنبلة لم تنفجر أيامها ! ».

فى فترات الراحة ما بين المحاضرات كان يحلو لنا ان نلتق بالغواصة - « دكتور فريكا » لنتجاذب معه أطراف الحديث بواسطة المترجم وكان فى كل مرة يقول إنه لا يعرف من الانجليزية إلا كلمات قليلة جدًا لا تتعدى عدد أصابع اليدين. وصدقناه فى ذلك الوقت.. لكن كانت دهشتنا كبيرة عندما لاحظ أثناء المحاضرات التالية أن هناك ضجة بين صفوفنا حول معنى إحدى الكلمات المترجمة. ورأينا الغواصة بدون أية مقدمات تندفع فى الحديث بالانجليزية، ولمدة طويلة، وبطلاقة يحسده عليها الساكنون حول نهر « التايمز » وكان القليل الذى يعرفه من الانجليزية أحسن بكثير من الكثير الذى نعرفه نحن عنها !

سألته - بدون معاونة المترجم هذه المرة - كيف أصبح أستاذًا فى المدرسة العليا للحزب؟ إبتسم كعادته وقال فى كلمات خاطفة: « سأقول كل شيء خلال المحاضرات » !

وفعلاً.. عندما كان حديثه عن الحالة التي كان عليها الشعب الألماني أيام الحرب وبسبب العدوانية الهتلرية وطابعها الإمبريالي، استفاض في وصف مظاهر الفقر والجوع التي عايشها أهالي برلين، وكيف أن الكثير منهم كان لا يجد حتى كسرة من الخبز الجاف. ثم يقول الغواصة: «ومثلي مثل كثيرين تركت عملي في المصنع، وتركت دراستي التي كنت منتظمًا بها في الوقت نفسه لأهاجر إلى الريف حتى استطيع أن أحصل على طعام لي ولأسرتي»!

وفي مرة أخرى كان يتحدث عن الاختلافات والتقارب بين طبقات المجتمع الاشتراكي الواحد رغم بذل كل الجهود لإزالة أي تناقض بينها، واندفع الغواصة من جديد ليقول: «ابنتي مثلا تعمل الآن «حلابة» لبن في احدى التعاونيات الزراعية وهي انتهت من دراستها الثانوية، وعلى ذلك فإن وضعها الطبقي لا يمكن أن يصفها بغير انها «فلاحة»، لقد اختارت هذا العمل بمحض إرادتها وبدون تدخل مني.. وفي نفس الوقت أنا أعمل بالتدريس فأنا من «الانتلجنسيا» ورغم ذلك فنحن نعيش تحت سقف بيت واحد أنا وهي وابني الذي يعمل في إحدى ورش صناعة الآلات ويعد نفسه ليصبح بعد ذلك مهندسًا»!

* * *

كنا صباح السبت، وكان التاريخ ٥ يونية، ورأينا الغواصة يدخل

قاعة المحاضرات - على غير عادته - متجهما، ألق علينا تحية الصباح على عجل، ثم دخل فى الموضوع على الفور :

أربع سنوات على العدوان الامبريالى الاسرائيلى على البلدان العربية، ولذلك فأنا أطلب منكم جميعًا الوقوف دقيقة حدادًا على شهداء حرب يونية ١٩٦٧ ».

وقفنا صامتين والدموع تكاد تطفر من عيوننا. وبعد أن انتهت الدقيقة، استمر دكتور فريكا فى كلامه - وبالتهجم نفسه - « نحن نعلم علم اليقين أنه لكى نقضى على آثار ذلك العدوان فإننا نحتاج إلى عمل ونضال متواصلين » فى نهاية محاضرات كل يوم سبت تعودنا من الغواصة - أو من غيره من الأساتذة - أن يتمنى لنا عطلة نهاية أسبوع سعيدة، ولكن « فريكا » قال فى حزم : « أنا لا أتمنى لكم اليوم نهاية أسبوع سعيدة، فأنا أعرف أنه يوم حزين بالنسبة لكم » !

لم ينته الأمر عند هذا الحد.. فقد كان البرنامج المعد يتضمن عدة أفلام عن الثورة الاشتراكية فى روسيا، وأحداث سنة ١٩١٧ وكيف قاد « لينين » الشعب إلى النصر، وكنا قد رأينا أول هذه الأفلام « أكتوبر »، ولكن الغواصة أعلن أن الفيلم الذى سنراه لن يكون عن ثورة أكتوبر، ولكن عن صمود الشعب السوفيتى امام الغزو الإمبريالى الألمانى فى الحرب العالمية الثانية وعنوانه « التحرير » مشاركة وجدانية لا تقف عند حدود العواطف، فالغواصة يبدو دائما وكأنه أبعد الناس عن أن يكون عاطفيًا، فالجالسون أمامه لابد أن يكونوا

فى حالة انتباه مستمرة، لن يستطيع أن يخدعه أحدنا بأن يتظاهر والقلم فى يده بأنه يكتب ما يقوله، فإن الغواصة سيتظاهر فأنه يفكر فى النقطة التالية التى سيقولها، ثم يتسرب بخطواته ناحية هذا الذى سرح بفكره بعيدًا - وإن كان القلم فى يده - ويقف إلى جواره ليقول له دون أن يقول حقيقة «أنا هنا».

ومرة أخرى فرغ الحبر من قلم الزميل الذى يجلس إلى جوارى، فوضع القلم أمامه وتوقف عن الكتابة معتقدًا أن الأمر سينتهى عند هذا الحد، ولكنه فور أن وضع القلم رأى «الغواصة» إلى جواره ويده ممدودة بقلمه الخاص، واليد الأخرى تشير له أن يستمر فى الكتابة!

تعودنا بعد ذلك والغواصة يغوص وراء كل المواضيع وكأنه موسوعة تضم كل المعارف، وتحتفظ دون ما حاجة إلى مراجع بكل الأرقام والتواريخ، تعودنا أن نغوص معه دون أن ندرك أحيانا أنه يتسلل من قضية إلى قضية أخرى مختلفة تمامًا، وعندما يحدث ذلك، فإنه على الفور يقول بصوته الهادئ:

«قد تعتقدون أن الرفيق فريكا قد «سرح» بكم فى سرحة من سرحاته، ولكنى فى الحقيقة أعطيكم الخلفية وراء هذه القضية.. كان ذلك اليوم يتحدث عن معدل الإنتاج الزراعى فى الاتحاد السوفيتى، وكيف أن ذلك المعدل المنخفض بصورة مزعجة - وخاصة فى القمح - فى الفترة ما بين ١٩٦٠ و ١٩٦٥ ثم قال بصورة خاطفة - وعلى غير عادته - إن هذا الانخفاض يرتبط طبعًا بالنقائص

التى تسبب فيها «خروشوف» وأراد أحدنا أن يأخذ فكرة عن هذه النقائص، ولكن دكتور فريكا قال على الفور: إن الغواصة لن يتوقف هنا كثيرًا، هذه النقائص فى نقط سريعة هى تحويل التعاونيات. الزراعية إلى مزارع حكومية، وهى الإرشاد غير العلمى فى الزراعة، وهى أيضًا عدم الاستقرار على الفنيين الذين يشرفون على الزراعة وتبديلهم باستمرار.. مرة يمين.. ومرة شمال»!

* * *

فى المطعم.. هناك مكان مخصص للطلبة، ومكان آخر مخصص للأساتذة فى مدرسة الحرب العليا، ولكن «الغواصة» جاء ظهر ذلك اليوم الى المكان المخصص للطلبة، وقف وسطنا فى الطابور، وعندما جاء دوره رفضت الطاهية أن تقدم له أى طعام، هكذا النظام وهكذا الأوامر، تكلم معها بالألمانية ولم نفهم ماذا يقولان، ولكنه فى النهاية انسحب من الطابور ثم قال لنا بالانجليزية:

لقد حاولت إقناعها بأنى اليوم أدرس موضوعًا جديدًا وعليه فأنا طالب.. ولكنها ردت فى حزم قائلة: «اذهب لتناول غدائك فى المكان المخصص لك»!

باخ.. على قيد الحياة!

فى «ايزناخ» القريبة جدًّا من «فايمار» قصدنا بيت «باخ» - معذرة فالسجع غير مقصود ولكنها اللغة الألمانية - وفى ذلك البيت رأيت ما لم أره فى حياتى من الآلات الموسيقية.. مجموعة هائلة تضم كل ما حاول الانسان أن يصدر به صوتًا موسيقيًّا منذ بداية تواجده على الأرض وحتى مات ذلك الموسيقى الألمانى العظيم.

أحجام متفاوتة من «الكمنجات» تبدأ من حجم عقلة الأصبع وتنتهى إلى حجم دولاب الملابس، والشىء نفسه بالنسبة «للبيانو» ولآلات النفخ بل وحتى لما نسميه نحن هنا «بالناى» أشكال متعددة، طويلة وقصيرة، بعضها أتى به باخ من أقصى الشرق، والبعض الآخر من أقصى الجنوب. زحام شديد من الآلات الموسيقية وكأنك فى

متحف كبير.. ولكن حدث ما جعلنى أستمر وسط ذلك المتحف..

فقد رأيت رجلاً شد كل الانتباه عن معظم ما يحيط به من عجائب. ولم يكن المثير فيه أيضًا إن اسمه «دوهن».. ولكن المثير فيه أنه يجيد العزف على كل قطعة فى ذلك الزحام الهائل.. لا يترك قطعة دون أن يعزف عليها إما بيده.. أو بفمه.. أو برجله.. بل أننى فى لحظة من اللحظات ظننت أنه نظر لواحدة من تلك القطع الكثيرة مجرد نظرة بعينيه.. فإنها على الفور ستطيعه وتصدر صوتًا موسيقيًّا!

همس أحد الأصدقاء الألمان فى أذنى بأن الرجل يتقمص شخصية «باخ» إلى حد كبير، وذلك ناتج من أنه يعمل مشرفًا على هذا البيت منذ سنوات طويلة ولذلك فإنه يعامل كل ما يحيط به معاملة خاصة تصل إلى حد العبادة.

تلك الحلقات الزجاجية - وهو يسميها هارمونكا الزجاج - كنت أعتقد انها لن تصدر فى النهاية إلا صوتًا يشابه ما كنا نفعله ونحن صغار عندما كنا «ننقر» بأصبعنا على الأكواب أو على زجاج النافذة ولكن ذلك الرجل «دوهن» يجلس أمام تلك الحلقات الزجاجية وكأنه يجلس أمام بيانو من آخر طراز، ثم مرر قطرات ماء على أصابعه. وبعدها.. إنطلقت فى الأرجاء أنغام موسيقية كأنها تهبط من السماء.. ولقد حاولت أن أنتهى من العزف، أن أفعل مثله، فصرخ فى وجهى

صرخة موسيقية تقول : إنه أولا ممنوع اللمس.. وإنه ثانيا - وهذا هو الأهم - فإنى سأتسبب فى جرح أصابعى جرحًا عميقًا يمر بها الواحد بعد الآخر!

مدينة للعباقرة فقط!

فى قصر «جيته»، وبالذات فى ذلك المكان القريب من الحديقة الكبيرة والمفضى إلى الشارع.. أحسست وكأن «فاوست» يتجسد أمامى مرة واحدة، كأنه أمامى مثل تلك العربة السوداء - التى كانت فاخرة - والتى تتمدد ذراعاها فوق الأرض وكأنما تستجديان جثة حصان مدفون تحت الأرض.

ولكم كانت قضيته فريدة..

هل من حقه - وهو الإنسان - أن يترك نفسه تمامًا للشيطان، فلا تعرف روحه إلا الشر وحده؟.. وإذا فعل.. فهل ينجو من الخالق؟.. بل هل ينجو من الشيطان نفسه؟

أسئلة ثارت فى ذهنى مرة واحدة وأنا أطأ بأقدامى الأرض نفسها

التى كان يسير عليها العبقرى «جيته»، وعيناى تريان ما كان يراه وإن تأخر الزمن بعد ميلاده ٢٢٢ سنة، وبعد موته ١٤٩ سنة.

غير أن «جيته» ليس العبقرى الوحيد الذى أنجبته هذه المدينة «فايمار» التى تقع جنوب غرب المانيا الديمقراطية.. فهناك غيره كثيرون، لكن أكثرهم معرفة لنا الموسيقار «فرانزليست» والشاعر الكبير «شيللر».. بل إنه على بعد أميال قليلة جدًّا توجد مدينة صغيرة أخرى «إيزناخ» التى عرفت بداية قصة «مارتن لوثر» والتى كانت موطنًا للموسيقار العظيم «باخ»!

قبل أن ندرك المبنى أو القصر الذى كان يعيش فيه «جيته» كان علينا أن نترك السيارة لنسير على الأقدام، وقد أدركت على الفور أن «فايمار» وخاصة ذلك الميدان العتيد الذى كان أول ما يطالعه «جيته» صباح كل يوم له طابع خاص غريب وكأنه يكرر مسرحية، وحتى تستطيع ان تتخيل معى المنظر لابد أن أقدم لك مفردات لأشياء قد لا يضمها الديكور ولكنها تستكمل ابعاده وصورته.. عربة سوداء فاخرة يجرها زوجان من الخيل، رصيف ضيق جدًّا ويعلو حوالى نصف متر عن أرضية الشارع المغطاة بمربعات من الجرانيت - موجود مثلها فى شوارع الاسكندرية القديمة! - حديقة صغيرة تتوسط الميدان ومحاطة بسور حديدى فى منتصفها تمثال ونافورة للمياه فى الوقت نفسه.. فإذا تركت الميدان فإن الشوارع الضيقة التى تقودك بعد ذلك ليست كلها على مستوى واحد من الارتفاع، فبعضها

ينحدر بك وكأنك تنزل درجات بيت ثم يتلقفك شارع آخر ليعلو بك ثانية وكأنك تصعد درجات البيت نفسه، وأنت تستطيع أن تفهم من ذلك - كما فهمت أنا دون أن أسأل - أن المدينة جبلية او مقامة فوق جبل، ولكنه مثل باقى جبال المانيا مزدهر بالخضرة، وقد قلت لنفسى على الفور إن هذه الخضرة، وهذا الهدوء الذى لا يعكر صفوه أى شىء إلا أصوات الطيور هما سر انجاب هذه المدينة لأكثر من عبقرى، وإن كان من الغريب ان يظهروا جميعًا فى عصر واحد، بل فى سنوات متقاربة وفى وقت ازدهرت فيه الرومانسية كما لم تزدهر من قبل او من بعد!

وكان من الغريب بالنسبة لى أيضًا أننى زرت بيت «جيته» وبيت «شيللر» فى يوم واحد. والمسافة المكانية بينهما ليست بعيدة.. ولكن المسافة بين مظهر ما تركه كل منهما تختلف كل الاختلاف!

فبينما الفخامة والعظمة تستقبلك مع كل خطوة تخطوها داخل المبنى أو القصر الذى كان يعيش فيه «جيته» تجد البساطة المتناهية، بل بعض مظاهر الفقر فى بيت «شيللر»، فى البيت الأول كل سمات حياة الوزير الذى كان من ألمع الشخصيات فى بلاط «فايمار»، وفى البيت الثانى كل سمات الرجل الذى شغل نفسه بقضايا بلده الاجتماعية واختار أن يكون استاذًا للفلسفة، ورغم ذلك فإن المكتبة التى تضم الكتب التى كان يقرؤها كل منهما تقلب الميزان لصالح «جيته» وكأن المسألة - كما هى فى كل عصر - هى مسألة إمكانات

مادية قبل أن تكون قضية شغف وحرص على الاطلاع!

هذا كان انطباعي وأنا أزور بيت «شيللر» بعد بيت «جيته» ولكنى عندما قرأت الخطابات التى كان كل منهما يرسلها إلى الآخر ظهر لى على الفور أن العلاقة بينهما كانت تتخطى ما رأيته اختلافا بينهما إلى مرحلة الزمالة الشعرية أو إلى ما يمكن أن نسميه «الانجذاب العبقرى».. وفى أحد خطاباته قال شيللر:

«من المثير للدهشة تلك الحقيقة التى تؤكد أن معرفتى بشاعر كبير مثل «جيته» هى فى الواقع التى أثرت حياتى الفكرية، بل ساعدتنى فى أن أتطور شيئًا فشيئًا!

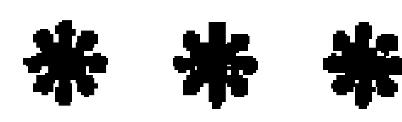
وقال له «جيته» فى خطاب له:

«الحقيقة يا عزيزى شيللر» أنك أعدت إلى ثانية الإحساس بشبابى، بل جعلتنى أتوق لأن أتدفق بالشعر من جديد وهذا كل ما أتمناه فى حياتى كلها»!

. ورأينا مخططا لمسرحيته «اللصوص» - ظهرت أول طبعة لها فى فرانكفورت وليبزج عام ١٧٨١ - ولقد تولى الشاعر الكبير طبعها على نفقته الخاصة لأن أغلب دور النشر رفضت بالطبع تقديم مثل هذه المسرحية الجريئة.. والشىء نفسه حدث عند تقديم المسرحية على خشبة المسرح عام ١٧٨٢ فقد عمد المخرج «والبرج» ورغم احتجاج «شيللر» إلى الإيهام بأن أحداثها جرت فى زمن بعيد من تاريخ ألمانيا - عصر الأمبراطور ماكسميليان فى بداية القرن السادس عشر - وحتى

رغم ذلك الإيهام فإن الأوراق تثبت ما حدث بين صفوف المتفرجين فى ليلة العرض الأولى.. لقد كتب شاهد عيان يقول:

«لقد تحولت دار العرض إلى ما يشبه جمعًا للمجانين أو الذين أصابتهم ملامح الهياج فبرقت عيونهم، وراحت أقدامهم تدق على الأرض، بعنف فهؤلاء الذين يرونهم على خشبة المسرح أمراء والسلام.. لصوص والسلام.. ولا يهم إذا كانوا من القرن السادس عشر.. لأنهم مازالوا يسرقون».



فى اللحظات الأخيرة لنا فى «فايمار» كان يحدث دائمًا عند الرحيل، ابتسامات وتحيات وداع، ثم سمعت كلمات جاءت ببساطة متناهية وكأنها غير مقصودة ولكنها تجاوبت فى جنبات رأسى بعنف:

«والآن تتركون هذه المدينة الصغيرة فى ريف ألمانيا لتعودوا إلى العاصمة الكبيرة برلين».

«فايمار» مدينة صغيرة؟

هل هكذا تتواضع أكبر المدن؟

من يطيع الإسكافى؟!

بخطوات مترنحة، وبعيون زائغة، وبجوف عامر بالبيرة، صعد الرجل إلى الدور الأول من المبنى الحكومى القديم الذى تهدم نصفه وبقى النصف الثانى خاليًا.. ثم اختار حجرة تطل على الميدان الرئيسى فى المدينة الصغيرة، وبدون مقدمات ارتفع صوته يخطب فى الناس.

فى أول الأمر ضحك رجل وهو يقول:

«إنه هاينز الإسكافى ولابد أنه مخمور كعادته»!

ورد عليه رجل آخر:

«ولكنه أعلن نفسه حاكمًا للمدينة.. فلنتوقف لنستمع إلى ما سيقوله».

وتوقف الرجلان، وأمام كلمات هاينز المدوية التى تعد الجميع

بتحقيق كل ما فى الدنيا من أحلام جميلة، تزايد الزحام أمام النافذة التى يطل منها. كان يمكن أن ينتهى الأمر عند هذا الحد.

فالإسكافى لابد سيفيق فى الصباح، وكل أهالى المدينة الصغيرة «كيوبنيك» يعرفون ذلك. ولكنهم عندما انصرفوا جميعًا كانوا قد اتفقوا على شيء بدأ بسؤال:

«لماذا لا نحقق أمل هاينز»؟.. وكان الاتفاق الذى لم يعترض عليه أحد.

لا يهم أنه كان مخمورا، ولا يهم أنه فرض نفسه بدون مناسبة!

* * *

نكتة كان يرويها رجل جاء لزيارة مريض فى «كرانكن هاوس كيوبنيك» - أى مستشفى كيوبنيك وبعد أن انتهى من روايتها انصرف ليترك قريبة المريض الذى كانت أوامر الأطباء له ألا يتحرك من فراشه أربعة أيام كاملة - الأمر نفسه كان لزميل لنا مريض بالمستشفى نفسه - والذى حدث أن زميلنا المصرى مثل كل شيء إلا البقاء فى فراشه، غادر الحجرة.. وصار فى الممرات، ونزل إلى الحديقة ولكنه كان كلما يعود إلى الحجرة يجد ذلك المريض الألمانى ملازمًا لفراشه، لا يغادره حتى لقضاء حاجة، فما دامت أوامر الأطباء تقضى بالبقاء فى الفراش ولمدة أربعة أيام كاملة.. فسيبق فى الفراش حتى يجيء اليوم الخامس!

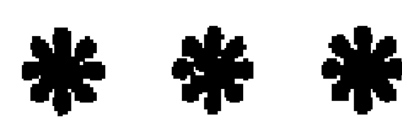
سمة مميزة للشعب الألمانى يتميز بها عن بقية شعوب العالم!

هذه السمة لا يمكن أن نحددها بأنها الطاعة العمياء، أو أنها احترام ما يجمع عليه الناس. أو الصرامة فى تنفيذ كل ما تقوله القوانين. فربما تكون خليطًا من هذا كله.

فمادامت القوانين مثلاً تمنع تمامًا التدخين فى جميع وسائل المواصلات العامة. فلا يمكن أن يشذ مواطن ألمانى واحد عن ذلك.. والإعلانات الوحيدة الموجودة فى أغلب المواصلات فوق الأرض وتحت الأرض هى ممنوع التدخين، وأحيانا تتغير الصيغة لتصبح وفى تحذير صارم «لا تدخن»، وبالطبع فإن مخالفة هذه الإعلانات - ولا أقول الأوامر - تأتى دائما من الوافدين على ألمانيا الديمقراطية، وقد حدث أن نسى احدنا نفسه وهو فى عربة القطاع وأشعل سيجارة، وعلى الفور تعلقت به عيون كل الجالسين فى العربة. وعندما لم يفهم معنى هذه النظرات النارية، اقترب منه رجل ليقول له بالإنجليزية:

«إذا كنت لا تفهم الألمانية فأمامك مكتوب لا تدخن».

واطفأ السيجارة وهرب فى أول محطة!



بعد الشهر الأول فى ألمانيا كنا قد تشربنا الكثير، وفى يوم عائدًا من السوق محملا بلفائف كثيرة تذكرت أن معى خطابًا أود إرساله

إلى القاهرة، وفور دخولى مكتب البريد هالنى الطابور الطويل الـواقف أمام الموظفة. . وبدون تفكير وضعت كل ما أحملـه مـن لفـائف على المنضدة المواجهة للباب وانصرفت لأعود بعد فترة من الوقت. . كنـت مطمئنًا تمامًا أن أحدًا لن يمس هذه اللفائف حتى ولو تركتها وعـدت لأخذها فى اليوم التالى. . وفعلاً تركت مكتب البريد ورحت أتجول فى المنطقة المحيطة به. . وبعد ساعة كاملـة عـدت إلى المكتـب ولـكنى صدمت فور دخولى بعدم وجود كل اللفائف التى تركتها هنـاك، هـل حدث المستحيل؟. هل امتدت يـد شـخص مجهـول وأخـذت اللفائف؟. . غير معقـول!، ووقفـت كالمذهـول لا أعـرف كيف أتصرف، أسرعت ناحية الموظفة لأقول لها بـالإشارة وبـكل اللغـات: إننى كنت أترك أشياء تخصنى فوق المنضـدة وأنهـا اختفـت جميعـا. . ولكنها لم ترد على إشارتى حتى ولـو بـكلمة واحـدة. . وتـذكرت على الفور أننى قد تخطيت دورى فى الطابور. فعـدت على مضض لأنتـظر دورى ونظراتى زائغة فى كل اتجاه تبحث عن اللفائف، وأخيرًا جـاء دورى فعدت سريعًا إلى الاشارات ولكنها قالت فى صرامة ورقة:

«أين الخطاب الذى تريد إرساله؟»

علت وجهى كل ملامح التساؤل وأنا أريد القـول بـإن الخـطاب ليس مشكلتى الآن، ولكنها أعادت ما قالته بالصرامة نفسـها وبـالرقة نفسـها، فأعطيتها الخطاب، ثم أعطيتها ما طلبته من نقـود، وقبـل أن أستدير وقد غلبنى اليأس سمعتها تقول وبانجليزية واضحة:

«هل هذه اللفائف تخصك ؟»

ووضعت أمامى اللفائف الواحدة بعد الأخرى وأنا لا أكاد أصدق، وبالطبع تهللت أساريرى بفرح غامر. ولكنها قالت فى جدية خالصة :

«هذه اللفائف كانت تشغل المكان الذى يكتب عليه الناس خطاباتهم.. لا تفعل ذلك ثانيًا»!

* * *

على مدى أسابيع طويلة كنت أتساءل : هل يمكن أن يعيش الناس بكل هذه الجدية. وبكل هذه الصرامة؟

كنت أعرف - بعيدًا عن المصطلحات السياسية - أن الشعب الألمانى رغم كل خصائصه المتأصلة فيه، يحاول مع بنيان بلاده من جديد بعد الحرب العالمية الثانية أن يكتسب سمات أخرى جديدة تضاف إلى تقديسه للنظام والعمل، سمات تلغى سمة قديمة فى أذهان العالم تصور شموخه وتقاليده وأحيانًا.. عدوانيته!

ولذلك فإن الجميع يحرصون على تربية الأجيال الجديدة على التفتح الكامل على كل غريب، وحب كل أبناء شعوب الأرض، وأنت قد تجد صعوبة فى كسب صداقة الرجل الألمانى، ولكنك لن تجد أى صعوبة فى كسب صداقة طفل أو شاب فى مقتبل العمر، فهذا الطفل أو ذلك الشاب سيبادر إلى التعرف بك، وسيحرص على

أن يتجاذب معك أطراف الحديث وهذا ليس معناه أن الكبار لا يودون كسب صداقة أحد، ففى الحقيقة أنهم طوال أيام العمل فى الأسبوع ينصرفون بكل طاقاتهم للعمل وحده يستيقظون من أجله من الصباح الباكر ويعودون آخر النهار وقد هدّهم التعب.. ولكن.. عندما تجىء عطلة نهاية الأسبوع وهى يومان، السبت والأحد، يتحول كل الكبار إلى طبيعة أخرى تماثل طبيعة الأجيال الجديدة!

الحكاية - أو النكتة - تقول على لسان الناس.. لماذا لا نحقق أمل هاينز؟!

وقد حققوا أمله بالفعل.. قالوا مادامت هذه هى رغبته، وهذه هى رغبتنا أيضًا.. فلابد علينا أن نطيعه.

وبقية الحكاية أن «هاينز» عندما أفاق فى الصباح، عاد ليصبح إسكافيًا من جديد!

فهرس

صفحة

صفحة

اقرأ فى هذه المجموعة

صوت أبى العلاء	د . طه حسين
أحلام شهر زاد	د . طه حسين
فى بيتى	عباس محمود العقاد
الشيخ الرئيس ابن سينا	عباس محمود العقاد
المهدى والمهدية	أحمد أمين
الصعلكة والفتوة فى الإسلام	أحمد أمين
خاتمة المطاف	على الجارم
أبو نواس	د . عبد الحليم عباس
دماء وطين	يحيى حقى
العشاق الثلاثة	د . زكى مبارك
سيكلوجية الجنس	د . يوسف مراد
النسيان	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الحب والكراهية	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الوجودية والإسلام	محمد لبيب البوهى
الأمن والسلام فى الإسلام	د . جمال الدين الرمادى
الغزالى	طه عبد الباقى سرور

الإمام المراغى	أنور الجندى
بنت قسطنطين	محمد سعيد العريان
شاعر الشعب	د . سامى الدهان
قصص الحب العربية	د . عبد الحميد إبراهيم
غرائب الرحلات	محمد عبد الغنى حسن
عود على بدء	إبراهيم عبد القادر المازنى
غرام الأدباء	عباس خضر
أبو زيد الهلالى	محمد فهمى عبد اللطيف
عبد الرحمن الجبرتى	خليل شيبوب
ليلى العفيفة	عادل الغضبان
نساء محاربات	صوفى عبد الله
أبو القاسم الشابى	رجاء النقاش
جابر بن حيان	محمد محمد فياض
الصديقة بنت الصديق	عباس محمود العقاد
الكعبة على مر العصور	د . على حسنى الخربوطلى
غادة رشيد	على الجارم
الأحلام والرؤى	د . عبد العزيز جادو
النوم والأرق	د . أحمد فؤاد الأهوانى
جحا فى جامبولاد	محمد فريد أبو حديد
عمر بن عبد العزيز	أحمد زكى صفوت
نديم الخلفاء	عبد الستار فراج

طاغور	د . جميل جبر
طرائف من التاريخ	مصطفى الشهابي
تيمورلنك	محمد محمد فياض
شيخ التكية	محمد عبده عزام
المدينة المسحورة	سيد قطب

رقم الإيداع	١٩٨٧ / ٥٢٨٨
الترقيم الدولى ٢-٢١٤٢-٠٢-٩٧٧	ISBN

١ / ٨٧ / ٥٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

اقرأ

بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش معهم .. كما عاش الآباء والأجداد .. وتكوِّن فى مكتبتك موسوعةً متفرقة فى فروع المعرفة المختلفة .

وإيمانًا منا بأن القراءة هى أقصر الطرق إلى الوعى والثقافة .. فقد يسَّرنا لك ذلك فى إخراج جيد .. وسعر زهيد .

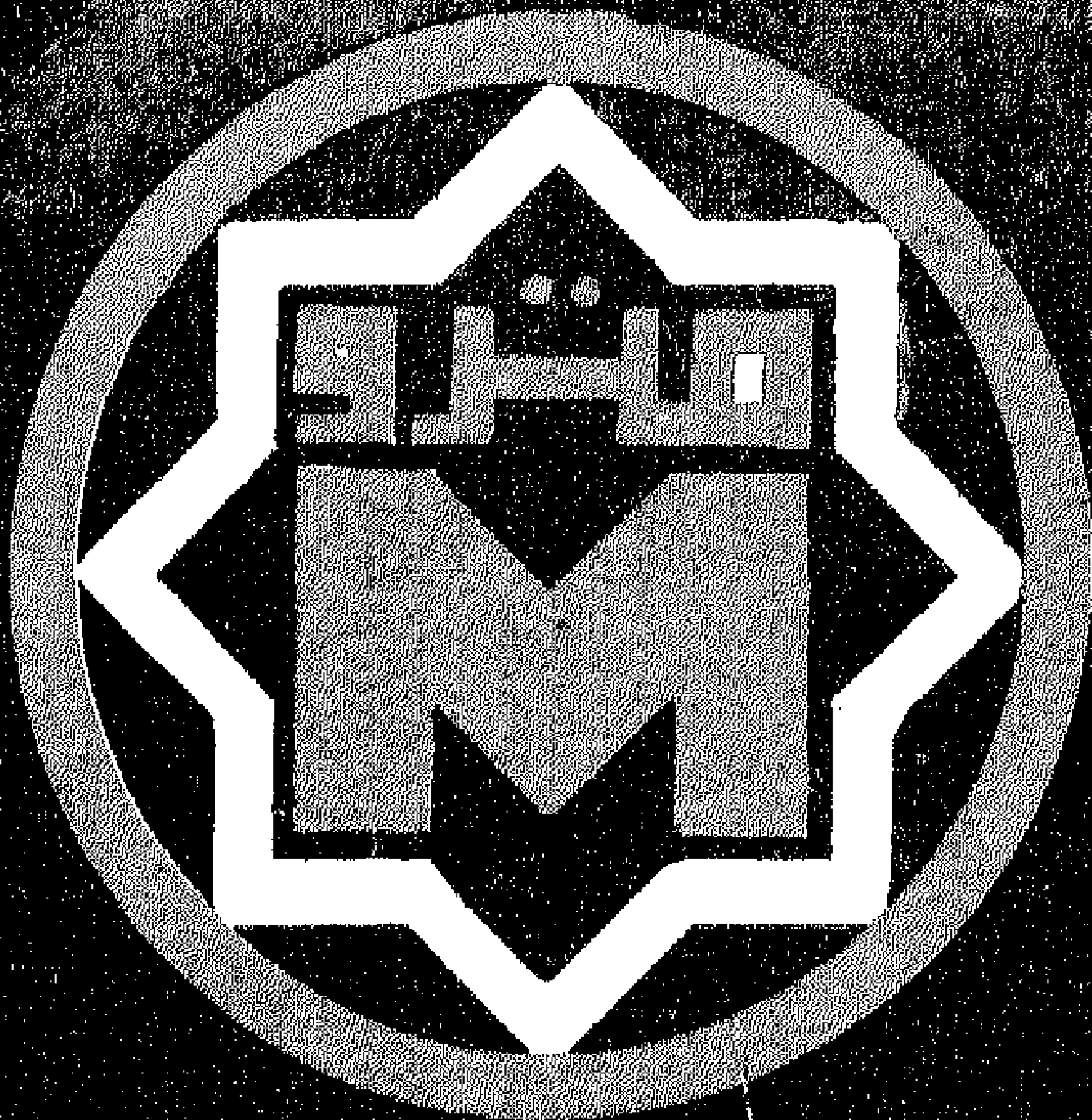
٤٠٥٨١٨/٠١

ص
٨٠

عدد خاص

اقرأ

الدكتور سيد سلامه



مترو الأنفاق
إنجاز وإعجاز



دار المعارف

اقرأ

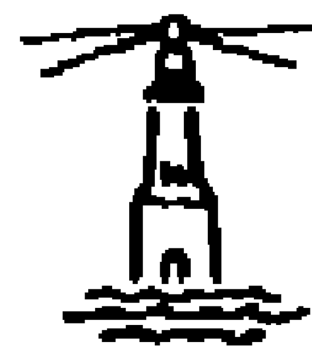
[٥٣٥]

مترو الأنفاق

إنجاز وإعجاز

الدكتور سيد سلامة

مترو الأنفاق
إنجاز وإعجاز



دار المعارف

اشترك فى جمع المادة العلمية

حسن خضر

مدير الإعلام بهيئة مترو الأنفاق

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

المترو خرج من النفق
بعد ٦ سنوات

إلى أى مواطن

مترو الأنفاق له ألف مشكلة.. تبدأ وتنتهى بسلوكنا. أخشى أن نتصرف تجاه المشروع الجديد وكأننا تحت أحد الكبارى العلوية. أو تحت نفق شبرا.. ومثل هذه الأماكن تعتبر نموذجًا لسوء التقدير فى التعامل مع المرافق العامة.

ومن الخطأ أن نضع خلف كل مواطن شرطيًا يضبط تصرفاته. أى يجعله منضبطًا فى الشارع وفى محطة المترو تحت الأرض...

إن هذا المشروع كأنه تجربة حية لاختبار سلوكنا وتصرفاتنا إن كانت متحضرة أم لا . . !! وإن كنا كما نقول دائما : إننا أصحاب حضارة امتدت أكثر من سبعة آلاف سنة عبر الزمن.

إننا دائما نتغنى بمصر . . وإن كانت «مصر هى أمى ونيلها هو دمى» فعلينا أن ننقل المعانى إلى أفعال وسلوك مهذب. وأمامنا مترو الأنفاق. فهل نستطيع ؟ !

مقدمة

من المؤكد أن إدخال مترو الأنفاق فى مصر. له أكثر من فائدة. والفائدة الأساسية من وجهة نظرى - تتركز فى أن هذا النوع من النقل والمواصلات قد وضع أيدينا على وسيلة تستخدم فى المقام الأول التكنولوجيا المتقدمة إننا حتى الآن نعتمد على وسائل نقل تقليدية. والعالم سبقنا إلى وسائل أخرى أكثر حداثة وتقدمًا.

وقبل الاستطراد فى الحديث عن التكنولوجيا. يبقى أن نقف وقفة قصيرة عند معنى الكلمة. التى شاعت فى هذه الأيام شيوعًا لا يفسر معناها. بقدر ما يزيدها غموضا.

إن رجعت إلى معاجم اللغة فإنها لن تسعفك العربية فيها أو الإنجليزية أو الفرنسية أو حتى الروسية. فجميعها تقف عند كلمة **Technique** حيث تشرحها بأنها أسلوب أداء

الصنعة أو المهنة. أو هى التقنية، كما ترجمت إلى العربية.

وأما كلمة تكنولوجى Technology أو تكنولوجيا فلم تصفها القواميس بغير ما يزيدها غموضا. حين تذكر أنها علم الصناعة.

إذن كلمة تكنولوجى - على وزن Egyptology أو Pathology - هى أحد العلوم، ولكنها بالتأكيد ليست ذلك العلم الذى ذكرته القواميس.

والكلمة بين العامة تعنى كل جديد وغريب يبهر، وهى بين الخاصة ذات علاقة وثيقة بالتقدم العلمى. وأما الباحثون فقد اختار كل باحث لنفسه تعريفه الخاص لتلك الكلمة. [illegible] فى جميع الأحوال لم تخرج عن التعريف الشامل التالى:

«التكنولوجيا هى كل ما ينتج عن استخدام نتائج البحث العلمى. سواء لخلق منتجات أو أساليب جديدة. أو تطوير الإنتاج أو الأساليب الحالية كمًا وكيفًا شاملة فى ذلك كل الأنشطة الصناعية والزراعية والتنظيمية والاجتماعية بما يفترض فيه تقدم المجتمع الذى تنشأ فيه».

وبالرغم من أن هذا التعريف قد صار تقريبًا هو

التعريف العلمى المتداول. إلا أن كثيرًا من الكتب والمقالات المتخصصة صارت تستخدم هذه الكلمة «تكنولوجيا» استخدامًا أكثر شمولا. فقد وصفت أساليب الإنسان الأول فى الصيد بأنها أول مراحل التكنولوجيا. وبالرغم من أن هذه الأساليب لم تكن بالتأكيد نتيجة لأبحاث علمية عن طرق الصيد قام بها الإنسان الأول. ولكن هكذا قدر لهذه الكلمة أن يتسع نطاق تطبيقها لتشمل كل ما سبق من أنشطة بشرية. ولعل التعريف التالى لكلمة تكنولوجيا - وهو التعريف الذى اطلقه العالم الدكتور محسن توفيق الأستاذ بكلية الهندسة. وعميد معهد دراسات البيئة بجامعة عين شمس - هو أقرب التعريفات إلى الواقع : «التكنولوجيا هى كل منتجات وأساليب الفكر البشرى فى المجال التطبيقى».

إذن التكنولوجيا تتمثل فى كل ما يحيط بنا من صنع البشر : السيارات.. الكبارى والطرق.. الطائرات.. البريد.. أسلوب تجمعنا لمناقشة موضوع معين.. الإذاعة.. الخ.. كل ذلك يتمثل فى التكنولوجيا. أو هى تقوم ممثلة عنه.

ومن الخطأ أن نؤكد على أن مترو الأنفاق هو قمة

التكنولوجيا فى مجال النقـل والمواصـلات الأرضـية. فهنـاك وسائل نقل أخرى أعظم. وبلغ التقدم التكنولوچى فيها مبلغًا كبيرًا. فهناك على سبيل المثال القطار الـطائر النفـاث الـذى تقاربت سرعته مع سرعة الطائرة. ويستخدم الآن فى اليابان. وهناك وسيلة النقل الحديثة تمامًا وهى المونوريل التى تستخدم الآن فى بلدان كثيرة من العالم، وبـالنسبة لنـا فـإن مـترو الأنفاق يعتبر قمة التطور التكنولوجى للنقل فى مصر.

مترو الأنفاق ضرورة

تعتبر القاهرة المدينة الأولى فى الشرق الأوسط والقارة الأفريقية من حيث عدد السكان. وتحتل المركز السابع بين مدن العالم ازدحامًا. والمواصلات كغيرها من المرافق - واجهت إهمالا شديدًا بسبب ظروف. من بينها أننا دخلنا ثلاثة حروب على مدى ثلاثين عامًا استنفدت كل مواردنا وثرواتنا. ولقد ازدادت حالة النقل فى القاهرة الكبرى سوءًا لدرجة لا يمكن السكوت عليها. خاصة مع زيادة عدد سكان القاهرة الكبرى.

إن تعداد القاهرة الكبرى أكثر من ١٠ ملايين نسمة يضاف إليهم مليونان على الأقل. وهو الوافدون على القاهرة من محافظات قريبة. لارتباطهم بأعمال ووظائف ومصالح ويعودون إلى محافظاتهم آخر اليوم.

وكان من المفروض أن يقابل هـذه الـزيادة فى عـدد السكان تحسن ملحوظ فى وسائل النقـل والمواصـلات. تتفـق مع هذه الزيادة. وتتـواكب مـع متـطلبات العصر فى هـذا المجال. لكن الـذى حـدث.. أن زاد السـكان وانخفضـت الخدمة فى وسائل المواصلات. بل انعدمت. ومن مظاهرها: هذا التكدس غير الإنسانى فى داخـل المواصـلات والازدحـام الشديد للمركبات فى نهر الشـارع. والانتـظار أمـام إشـارات المرور بشكل غير طبيعى. مع استخدام أتوبيسات تابعة لهيئـة النقل العام انتهى عمرها الافتراضى.

ولقد أدت أزمة المواصلات إلى تأثير سيىء على المواطـن وعلى الدولة. أما ما يتعلق بـالمواطن فيمـكن أن نـوجزه فى التوتر النفسى و «البهدلة» فى وسائل المواصلات، مع ضـياع وقته عند قضاء «مشواره» وأمـا فيما يتعلـق بـالدولة: فـإن ضياع أوقات المواطنين فى الشوارع. وفقدان واستهلاك الـوقود فى الانتظار أمام إشارات المرور مع عدم سيولته. فـإن هـذه الأمور قد أثرت على الاقتصاد القومى.

ولقد أخذت الدولة تلاحق الاحتياج المطلوب لحل أزمـة المواصلات وذلك بعلاجات مسكنة فأقامت الكبارى والأنفـاق

تحت الكبارى والطرق العلـوية.. بهـدف محـاولة إلغـاء الاختناقات أمام التقاطعات على الأقل، لتحقيق السيولة إلى حد ما فى المرور. حدث ذلك بالفعل.. لكن وسـط المدينـة أو عنق الزجاجة قد استنفد كل هـذه العـلاجات المسكنة. وخاصة بعد اكتمال إنشاء كوبـرى أكتـوبر وكوبـرى ١٥ مـايو وكوبرى الأزهر.

ووصلنا إلى نقطة لم ينفع معها أى مسكن - أمام هـذا الانفجار فى السكان داخـل القـاهرة الـكبرى - إلا بـاقتحام المشكلة عن طريق «النفق» أى بمترو الأنفاق.

إن هناك مدنًا كثيرة. أقـل مـن القـاهرة سـكانًا. استخدمت هذا النوع من وسائل النقل والمواصلات منذ مدة طويلة. وأصبحت هذه الـوسيلة هـى العمـود الفقـرى فى وسائل النقل بها. على سبيل المثال: مـدينة بـرلين الشرقيـة (١,٦ مليون نسمة) استخدمت مـترو الأنفـاق منـذ عـام ١٩٠٢. ويمتد الآن لأكثر من ٨٢ كم داخل المدينة. ومدينة برشلونة (٢,٩ مليون نسمة اليوم) استخدمت مـترو الأنفـاق منذ عام ١٩٢٤.

إن طـاقة النقـل الآن فى القـاهرة الـكبرى ٢٠ ألف

راكب/ساعة. ويقفز هذا الرقم إلى ٦٠ ألف راكب/ساعة.. بعد مشروع مترو الأنفاق، لما يحققه هذا المشروع من المساهمة الجادة فى حل مشكلة المواصلات فى القاهرة الكبرى. ولقد أجريت دراسة حول حجم النقل المطلوب عام ١٩٩٠. أوضحت أن على وسائل المواصلات التابعة لهيئة النقل العام تنفيذ ٨,٤٠٠ مليون رحلة يوميًا. وعلى وسائل النقل الأخرى كالتاكسي والسيارات الخاصة والعجلات ٢,٧٧٠ مليون رحلة يوميًا.

وبمقارنة هذا الاحتياج بما هو متاح حاليًا. تتضح لنا أبعاد المشكلة الآن وفى المستقبل القريب. أن المتاح حاليًا بالنسبة لأتوبيسات هيئة النقل العام ٤,٨٧٢ مليون رحلة يوميًا.. إذن هناك عجز يصل إلى ٣,٥ مليون رحلة يوميًا. ومن أجل ذلك انتشرت عربات التاكسى بالنفر (١٣ ألف مركبة) ٥٠٪ منها غير قانونية. ولذلك زادت ساعات الذروة لتشمل اليوم كله.

تأخر المشروع ٦٠ عامًا:

ولقد بدأنا مشروع مترو الأنفاق متأخرًا. لأن صعابًا

حالت دون تنفيذه. إن الدكتور سيد عبد الواحد. كان أول مهندس مصرى يفكر فى تنفيذ مشروع مترو للأنفاق. كان يعمل «بمصلحة» السكك الحديدية وقتها ولاحت له هذه الفكرة فى الثلاثينات. لكن أحدا لم يسأل. حتى عام ١٩٥٤ حين استقدمت الدولة خبراء من فرنسا ليقيموا فى مصر ثلاثة شهور ليعدوا خلالها تقريرًا حول مستقبل النقل العام داخل القاهرة الكبرى. وجاء الخبراء بالفعل، وأوصوا بتكوين شبكة من مترو الأنفاق تتكون من خطين : الأول - بين باب اللوق وترعة الاسماعيلية بطول ١٢ كم. والثانى - من بولاق أبو العلا للقلعة. بطول ٥كم. كما أوصوا بتجميع شركات النقل فى شركة واحدة.

وفى عام ١٩٥٦ قدم من الاتحاد السوفيتى خبراء فى مترو الأنفاق.. ثم مجموعة من الخبراء من اليابان. عام ١٩٦٠.. وتلتها مجموعة أخرى من فرنسا عام ١٩٦٢. التى أوصت بما يلى :

إنشاء شبكة لمترو الأنفاق عبارة عن خط حلوان - المرج مارًا بشارعى قصر العينى ورمسيس بطول ٥كم. وخط السيدة زينب - شبرا بطول ٩,٥كم. مارا بوسط القاهرة -

ثم خط الجيزة - العباسية بطول ١١,٥كم. وخط مدينة الأوقاف - القلعة. بطول ٦,٧كم.

وفى عام ١٩٦٤ درس خبراء من بريطانيا مشروع مترو الأنفاق بالقاهرة وأوصوا بإنشاء خط مترو الأنفاق بين باب اللوق وشبرا.

وفى عام ١٩٦٦ تقدم بيت خبرة من اليابان بتقرير حول المشروع يتضمن إنشاء خط مترو أنفاق يصل بين حلوان - المرج. وخط بين مدينة المهندسين - مصر الجديدة مارًا بشارع ٢٦ يوليو. بطول ٢٦كم.

ثم هدأت الأمور. حتى عام ١٩٦٩ حين تصاعدت أزمة النقل العام بالقاهرة الكبرى. فقام مجلس الوزراء برئاسة الرئيس جمال عبد الناصر بدراسة المشكلة. واستقر الرأى على ضرورة العمل على إجراء دراسة تفصيلية عن النقل بالقاهرة الكبرى. للتعرف على الاحتياجات الحقيقية ووضع الخطة المناسبة لحل جميع مشكلات النقل.

فى ذلك الوقت بالذات. لم تكن الظروف مناسبة لوضع مشروع مترو الأنفاق موضع الجد. فآثار الحرب مع إسرائيل عام ١٩٦٧ خاصة من الناحية الاقتصادية. لم تكن تسمح

تنفيذ مثل هذا المشروع وكان من الطبيعى أن توضع كل إمكاناتنا المادية بالذات تحت أمر الحرب القائمة مع إسرائيل وبرغم ذلك قامت وزارة النقل - بناء على - توصية مجلس الوزراء عام ١٩٦٩ - بطرح مناقصة دولية بين ثمانية بيوت خبرة عالمية وتم الإرساء على بيت الخبرة الفرنسى الحكومى [سوفريتو]. وتم التعاقد معه على الدراسة بالعقد المؤرخ فى ٢٠ سبتمبر ١٩٧٠ والذى يشمل على ما يلى :

مرحلة أولى : دراسة النقل داخل القاهرة الكبرى حول أحسن الحلول والاقتراحات للنقل.

مرحلة ثانية : فى حالة شمول الاقتراحات لشبكة مترو الأنفاق يتم وضع التخطيط والتصميم الابتدائى.

مرحلة ثالثة : تجهيز دفاتر الشروط لطرح المناقصات للإنشاء والمشاركة فى دراسة العطاءات لاختيار أفضل العروض.

مرحلة رابعة : المساهمة فى الإشراف على التنفيذ. وكذلك الإشراف على التشغيل التجريبى.

وانتهت الدراسة عام ١٩٧٣ وقد اشتملت على عدة نقاط أهمها :

١ - دراسة تعداد السكان وتطوره فى القاهرة الكبرى حتى عام ١٩٩٠.

٢ - دراسة توزيع السكان حسب (السن) والنوع وتحديد معدلات الإخصاب.

٣ - دراسة الهجرة من المناطق الرئيسية إلى القاهرة.

٤ - دراسة فرص العمالة ومعدلات التطور فى تعداد العمالة حتى عام ١٩٩٠.

٥ - دراسة استخدامات الأرض فى القاهرة الكبرى. وتوزيع السكان على المناطق المختلفة.

٦ - تقسيم القاهرة إلى مناطق تشمل المنطقة الشمالية - الشرقية - الوسطى الجنوبية - الغربية شاملة الجيزة - شبرا الخيمة - المناطق الريفية الشمالية والجنوبية. حتى عام ١٩٩٠.

٧ - تحديد الطلب على النقل على أساس سنوات ١٩٨٠، ١٩٨٥، ١٩٩٠. مع تحديد معدلات التحرك لهذه السنوات.

وبعد هذه الدراسات الشاملة استقر الرأى مع بيت الخبرة الفرنسى على وجود ثلاثة اتجاهات رئيسية لا يمكن

تحقيق متطلبات النقل إلا بها. وحتى يمكن حل مشكلة النقل داخل القاهرة الكبرى. وهذه الاتجاهات هى :

١ - إنشاء خط إقليمى بطول ٤٣ كم يربط بين حلوان والمرج. مع الاستفادة من خطى سكك حديد (حلوان - باب اللوق) و (كوبرى الليمون - المرج) وبينهما نفق تحت الأرض.

٢ - خط حضرى بطول ١٣,٥كم يربط شبرا الخيمة - ببولاق الدكرور مارًا بميدان رمسيس وميدان التحرير.

٣ - خط حضرى بطول ١٠كم بين الدراسة وامبابة.

وكان من الطبيعى أن توضع أسبقيات للتنفيذ. وقد أعطيت الأسبقية الأولى للخط الإقليمى. حيث يمثل ٣٠٪ من إجمالى حجم النقل اليومى لمدينة القاهرة. علاوة على الاستفادة من البنية الأساسية الموجودة على هذا الاتجاه. والمتمثلة فى الخطين الحديديين (حلوان - باب اللوق) (كوبرى الليمون - المرج) والمنشآت الخاصة بهما.

واستغرقت الدراسة التفصيلية. وإعداد المشروع للطرح فى مناقصات عالمية. من عام ١٩٧٥ إلى أواخر ١٩٨١ حيث تم

اسناد التنفيذ لمجموعة من الشركات المصرية - الفرنسية (انترا نفرا أرابكو).

ومن هذا الاستعراض السريع بالحقائق والأرقام يتضح لنا أن القاهرة تأخرت كثيرًا فى تنفيذ مشروع مترو الأنفاق. وهناك مدن كثيرة فى العالم أقل كثافة سكانية من مدينة القاهرة وأقامت مترو الأنفاق. «فينا» وتعدادها أقل من ١,٥ مليون نسمة. أدخلت المترو عام ١٨٩٨ ومن قبلها لندن وعدد سكانها ٧ ملايين نسمة. أدخلت المترو عام ١٨٦٣ ومدينة جلاسجو (٢,٥ مليون نسمة) استخدمت هذا النوع من وسائل النقل عام ١٨٩٦. وليون (١,١ مليون نسمة) دخل المترو فى شوارعها عام ١٩٧٨.

حتى بلاد العالم الثالث سبقتنا فى استخدام مترو الأنفاق وعلى سبيل المثال: مدينة بيونس أيرس (١٩١٣) وتعداد سكانها ١١ مليون نسمة وكلكتا (١٩٧٩) وتعداد سكانها ٩ مليون نسمة. وهونج كونج (١٩٧٩) وعدد سكانها ٨ مليون نسمة.

وقد بدأ مترو الأنفاق منذ ١٢٢ عامًا فى لندن وما

يقرب من مائة عام فى باريس. وعواصم أخرى[1] وبدخول مترو الأنفاق شوارع القاهرة تصبح القاهرة رقم «٨٦» فى ترتيب المدن التى تستخدم هذا النوع من وسائل النقل. وتعتبر أول دولة فى أفريقيا والعالم العربى فى هذا المجال.

(١) لمزيد من التفاصيل. انظر الملحق بعنوان : شبكات خطوط المترو فى انحاء العالم.

المترو يوفر ١٩١ مليون جنيه سنويا

قلنا - لقد تأخر تنفيذ مشروع مترو الأنفاق بالقاهرة لعشرات السنين ويرجع السبب فى ذلك إلى قلة الإمكانيات المادية. حتى كان عام ١٩٨١. حيث تم الاتفاق مع الحكومة الفرنسية على تمويل المشروع بقرض ميسر. وبذلك بدأ تنفيذ المشروع بالفعل عام ١٩٨٢.

وتبلغ تكاليف المرحلة الأولى للمشروع ١١٠٧ ملايين فرنك فرنسى بالإضافة إلى تدبير الأموال المطلوبة بالعملة المحلية وجملة تكاليف المرحلة الأولى التى انتهت (حلوان رمسيس) حوالى ٤٧٣,٩ مليون جنيه. على النحو التالى:

٣٩٧ مليون جنيه قيمة إنشاء النفق ما بين السيدة زينب ورمسيس بطول ٤,٧ كم وكذلك محطة محولات الضغط العالى ٦٦ كم. ف/٢٠ ك.ف. ومحطة غسيل الوحدات

بحلوان. ومحطة اختبار المحولات بطرة. و ٤٤ محطة للتهوية والتبريد والصرف ومعدلات قوى ومحولات مساعدة على طول مسار النفق و ٧٤,٥ مليون جنيه قيمة تحويل ٦٠ كم مرافق متنوعة. وأعمال نزع ملكية وتجديدات للسكة.

و ٢,٤ مليون جنيه قيمة إنشاء محطة جديدة فى دار السلام.

أما المرحلة الثانية وتشمل تطوير خط كوبرى الليمون ـ المرج وربطه مع خط مترو الانفاق. فإنها تتكلف ٤٩٩,٦ مليون جنيه وطلبت هيئة مترو الأنفاق تخصيص ١٧٢,٨ مليون جنيه فى الخطة الخمسية الثانية لاستكمال أعمال المرحلة الثانية (رمسيس المرج) و ٢٨٠ مليون جنيه لتنفيذ المرحلة الثالثة. من الخط الإقليمى حلوان ـ المرج. و ٤٠٠ مليون جنيه لتنفيذ المرحلة الأولى من الخط الحضرى الأول شبرا الخيمة ـ رمسيس ـ التحرير. و٢ مليون جنيه لدراسة وتصميم وإعداد المواصفات. بطرح مناقصة تنفيذ الخط الحضرى الثانى : إمبابة ـ الدراسة.

وإذا كان مترو الأنفاق قد تكلف كثيرا. فإن العائد الذى نحصل عليه من هذا المشروع الضخم أكبر من تكاليفه

بكثير. أقصد : العائد المادى والاجتماعى والاقتصادى.

يكفى أن أقول إن مترو الأنفاق يقلل عدد الساعات المبذولة من الركاب فى رحلات وسط المدينة فى الذروة الصباحية من ١٤٣٠٤٦ ساعة. إلى ١٢١١١٨ ساعة. مما يوفر ٢١,٩٢٨ ساعة.

ولقد أكدت الدراسات أن مترو الأنفاق يصل استخدامه فى حالات الذروة إلى ٦٠ ألف راكب فى الساعة أو مليون راكب يوميًا. بينما تصل الطاقة القصوى للأتوبيس إلى ألف راكب/ ساعة.

ومن ناحية أخرى فإن تنفيذ مشروع مترو الأنفاق سوف يؤثر تأثيرًا مباشرًا على حركة المرور بالشوارع والتقاطعات. إذ يتم تقييد الحركة وسط القاهرة على السيارات الخاصة. مما يتيح حركة مرور أفضل للنقل العام وللمشاة. بالإضافة إلى امتصاص حركة الركاب فى الجزء الحضرى من المدينة إلى تحت الأرض مما لا ينجم عنه إعاقة ما بين تحركات المشاة وتحركات السيارات بالشوارع.

ولما كانت شبكة المترو سوف تجذب إليها الركاب ولما

تتمتع به من سرعة وراحة الركاب. فإن الاتجاه نحو امتلاك السيارات الخاصة سوف يقل معدلها عن المعدل الحالى الذى يصل إلى حوالى ٨٪ سنويًا. وبالتالى سوف يكون هناك أثر كبير على الاقتصاد القومى. فى توفير كميات الوقود المستهلكة[1] علاوة على تخفيض حركة مرور السيارات فى الشوارع. وبالتالى انتظام حركة المرور. مع تقليل عادم السيارات الذى ساعد على تلوث البيئة فى القاهرة.

ومن المزايا الهامة لشبكة مترو الأنفاق تحقيق قيمة الوفر من زمن الرحلات. بما يساوى ٨٧,٦ مليون جنيه سنويا. وحوالى ١٠٣,٤٨ مليون جنيه أخرى نتيجة الوفر فى تخفيض وقت الانتظار فى إشارات المرور. وبذلك يكون قيمة العائد السنوى للمشروع ١٩١,٨ مليون جنيه. هذا بالإضافة إلى المزايا التالية :

١ ـ مساهمة الخط الإقليمى فى اجتذاب السيارات المتجهة من الشمال الشرقى إلى أقصى جنوب القاهرة

---

(١) الوقود الفاقد بسبب عدم سيولة المرور يمثل ٣٥٪ من نسبة الوقود المستهلك.

(حلوان)[1] وتمثل ٣٠٪ من حركة النقل الكلية بالقاهرة. وبذلك سوف تقل حركة السيارات فى مختلف المناطق. مما يؤدى إلى سيولة المرور.

٢ ـ إن مستخدمى المترو أو خطوط الأتوبيسات أو السيارات الخاصة لسكان مصر الجديدة وكذا سكان شبرا. وروض الفرج والساحل. يمكنهم استخدام وسائلهم المحلية حتى أقرب محطة على الخط الإقليمى. ثم يستخدمون الخط الإقليمى فى استكمال رحلاتهم.

٣ ـ أن خطوط الترام يتم رفعها ما بين عرابى وميدان الفلكى حيث يقوم الخط الإقليمى فى تحقيق هدف النقل فى هذا المسار.

٤ ـ أن خطوط الاتوبيس والتى بلغت ٥٤ خطا. فى شارع رمسيس. تقل بمقدار النصف. كذلك فإن محطتى الاتوبيس فى ميدان التحرير. تقتصر على محطة واحدة فقط لربط محاور لا يخدمها الخط الاقليمى مع منطقة الجيزة.

---

(١) الخط الإقليمى يربط ما بين حلوان والمرج بواسطة نفق أرضى ويبلغ طول الخط ٤٢,٥ كم. وهذا الخط يعتبر ضمن ثلاثة خطوط لشبكة متكاملة لمترو الأنفاق داخل القاهرة الكبرى.

٥ ـ أن تناقص النقل على السطح. يتيح مساحة أفضل للسيارات الخاصة. وبالتالى فإن ٤٠٪ من مشاكل المرور يمكن التغلب عليها بالكامل. خصوصًا فى منطقة وسط المدينة.

٦ ـ تقليل السيارات المتجهة إلى وسط المدينة. يحل مشاكل الانتظار فى هذه المنطقة.

حلوان / المرج
على الطريقة الفرنسية

من المؤكد أن مشروع مترو الأنفاق. يعتبر نقطة تحول حضارية هامة فى مجال النقل والمواصلات بالقاهرة الكبرى. ومن وجهة نظرى يعد من أهم المشروعات بعد السد العالى. وبدون هذا المشروع الحيوى الهام. لم ولن نجد حلا لمشكلة المرور فى القاهرة الكبرى ومن المعروف أن الدراسات الفنية لهذا المشروع الهام. انتهت عام ١٩٧٦ وانتهت بما يلى :

١ ـ إنشاء خط حلوان ـ المرج مارًا بميدان التحرير وميدان رمسيس.

٢ ـ إنشاء خط شبرا الخيمة ـ بولاق الدكرور مارًا بميدان رمسيس وميدان التحرير.

٣ ـ إنشاء خط الدراسة ـ إمبابة مارا بالعتبة وشارع ٢٦ يوليو.

ولأن قدراتنا المادية لا تفى بعمل وانجاز هذه الخطوط الثلاثة مرة واحدة. فقد رؤى البدء فورا فى إنجاز الخط الإقليمى (حلوان ـ المرج) لأنه يعتبر أكثر المحاور كثافة. على ان يكون التنفيذ على مرحلتين:

المرحلة الأولى: من حلوان حتى شمال ميدان رمسيس. وذلك بتطوير الخط الحالى. من منطقة حلوان وحتى السيدة زينب. ثم إنشاء نفق فى المسافة من السيدة زينب وحتى شمال ميدان رمسيس. وقبل غمرة ليتصل بخط كوبرى الليمون والمرج. والمسافة من حلوان إلى السيدة زينب طولها ٢٤ كم. وقد أجريت فيها الأعمال التالية:

١ ـ أعمال عزل المسار وتتضمن إنشاء كبارى علوية للسيارات وكبارى للمشاة واسوار على جانبى الخط (٩ كبارى للسيارات ـ ٢١ كوبرى للمشاة).

٢ ـ إنشاء ١٧ محطة محولات تعمل حاليًا بكفاءة تامة.

٣ ـ تم تجديد جميع الأعمال الخاصة بالسكك الحديدية بتفريعاتها وتحويلاتها المختلفة.

٤ ـ توسيع ورشة العمرة بطرة البلد. بعد إسنادها إلى مجموعة الشركات الفرنسية.

٥ ـ تصنيع ٨٨٢ كيلو متر كابلات. وهى التى تفى بإحتياجات المسافة من حلوان إلى السيدة زينب.

وأما المسافة من السيدة زينب حتى ميدان رمسيس فإنها عبارة عن نفق تحت الأرض بطول ٤,٥ كم. وبداخله خمس محطات تحت الأرض. ويبدأ النفق من محطة السيدة زينب. ينحدر إلى داخل بطن الأرض. حتى محطة سعد زغلول ثم محطة السادات بميدان التحرير ثم محطة جمال عبد الناصر فمحطة أحمد عرابى ثم محطة مبارك تحت ميدان رمسيس. هذا بالإضافة إلى المنشآت التكميلية من محطات تكييف وصرف وتهوية.

وبلغ حجم الأعمال المدنية فى هذا الجزء (السيدة زينب ـ رمسيس) حوالى ١١٧ ألف متر مكعب أعمال خرسانية و ٣٢٤,٥٥٠ متر مكعب أعمال حفر و ٣٩٠٠ حائط خرسانى و ٣٨٠٠ متر مربع أعمال حفر أخرى.

وقد انتهت المرحلة الأولى من مشروع مترو الأنفاق والخاصة بالخط الإقليمى (حلوان المرج) وافتتحت عام

١٩٨٧. وهى المسافة فيما بين حلوان - رمسيس.

المرحلة الثانية: وهى المسافة من رمسيس حتى المرج وطولها ١٤ كم. ويبدأ تشغيلها عام ١٩٨٨. ويتم فى هذه المرحلة ما يلى:

١ - كهربة خط حديد المرج وتطويره لكى يتواءم تشغيله مع خط مترو حلوان - رمسيس.

٢ - زيادة عدد الوحدات المتحركة العاملة على الخط إلى ١٠٠ وحدة. وذلك بشراء ٤٨ وحدة جديدة تم التعاقد عليها بالفعل.

٣ - تطوير ورشة الصيانة والعمرة للوحدات المتحركة. لكى تسمح بصيانة ٢٠٤ وحدة.

٤ - إنشاء محطة رئيسية للقوى ٢٢٠ ك.ف لتشغيل خطوط المترو الثلاثة فى رمسيس[(١)].

وتهدف هذه المرحلة تشغيل قطار مترو ما بين حلوان والمرج باستخدام قطارات مكونة من وحدتين (٦عربات)

---

(١) نقصد تنفيذ خطوط المترو الثلاثة. وهى التى تكون شبكة مترو الأنفاق.

بفاصل زمنى ٤ دقائق بين القطارات. بما يحقق ٣٠ ألف راكب/ساعة فى كل اتجاه.

وبعد زيادة كفاءة التشغيل على الخط الإقليمى إلى الدرجة القصوى بإضافة ١٠٤ وحدة جديدة. يمكن استخدام قطارات من ٣ وحدات (٩ عربات) بفاصل زمنى ٢,٥ دقيقة بين القطارات. بما يحقق نقل ٦٠ ألف راكب / ساعة فى كل اتجاه. أى مليون راكب يوميًا.

إن الصورة الآن لمنطقة وسط المدينة تختلف تمامًا عن أى يوم مضى فقد امتص الخط الإقليمى لمترو الأنفاق نسبة كبيرة من وسائل النقل العام وخاصة فى ساعات الذروة. من السطح إلى تحت الأرض من ميدان التحرير حتى ميدان رمسيس. وتصل هذه النسبة إلى ٧٢٪. كما حقق مشروع مترو الأنفاق ما يلى :

١ - تنظيم مشكلة انتظار السيارات فى منطقة وسط المدينة نتيجة تقليل التعارضات بين حركة المرور السطحى.

٢ - تقليل حركة السيارات الخاصة. نتيجة وجود وسيلة نقل سريعة ومريحة تخترق أهم ميادين وسط المدينة. وما يتبع ذلك من تقليل درجة التلوث فى الجو ودرجة الضوضاء

وما يحققه ذلك من راحة نفسية للمواطنين.

٣ ـ وفر فى ساعات الانتقال لركاب وسط المدينة عن طريق توفير الوقت الفاقد الذى كان يحدث نتيجة استخدام وسائل النقل السطحية. وهذا الوفر يقدر بحوالى ٣٠ مليون جنيه فى السنة وهو رقم أكبر من قيمة القسط السنوى المطلوب لتغطية تكاليف المشروع.

أول عقبة

ومترو الأنفاق الذى تم تنفيذه حتى الآن بواسطة ٣ آلاف مهندس وعامل مصرى ونحو ٣٠٠ خبير أجنبى يعتبر إنجازًا ضخمًا بكل المقاييس.

ولقد واجهت العاملين فى المشروع صعاب كثيرة أولها ضرورة تحويل المرافق التى تعترض مسار نفق المترو، وكانت هذه المرحلة تحتل أصعب المراحل. نظرًا لأن بطن القاهرة الكبرى لا يمكن معرفة ما بداخله تمامًا. إن القاهرة تفتقر الخرائط السليمة التى توضح شكل وطبيعة واتجاه المرافق تحت الأرض. كما أن هذه المرافق انتهى عمرها الافتراضى. ولا يجدى معها عمليات المعالجة أو تغيير المسار.

وبرغم أنه كان مقدرًا تحويل ٢٠ كم من هذه المرافق. إلا أنه فى أثناء التنفيذ وصلت التحويلات إلى أكثر من ٦٠ كم مما زاد من تكاليف المشروع.

ولقد تم تحويل المرافق وتجديدها بنجاح تام. مما أدى إلى تحسين الخدمة فى شبكات المرافق فى منطقة وسط المدينة من مياه وكهرباء وغاز وتليفونات وصرف صحى. وأصبح لأول مرة خرائط لوسط المدينة كاملة وحديثة. توضح مسار هذه المرافق تحت الأرض.

وكان لابد أن تبدأ أعمال التنفيذ بالدراسات الهندسية لمرافق القاهرة وخاصة تلك التى تقع فى وسط المدينة وأوضحت دراسة بيت خبرة عالمى أجريت عام ١٩٧٧ عن وجود شبكة من المرافق والخدمات متهالكة. وبدأت مشكلة المرافق تظهر على السطح بوضوح عند تنفيذ المرحلة الأولى من الخط الإقليمى. فطبقا لشروط العقد المبرم مع المجموعة المنفذة للمشروع. إنها تعتبر مسئولة مسئولية كاملة عن سلامة المرافق مع استمرار عملها بكفاءة فى أثناء مرحلة التنفيذ. سواء بعمل تحويلات مؤقتة أو مستديمة للمرافق طبقًا لمواصفات الجهات المعنية وتحت إشرافها.

ومن هنا كان لابد أن تبدأ الأعمال التنفيذية بالنسبة لإنشاء جسم النفق. بتنفيذ تحويلات المرافق. بحيث يتم ذلك كاملا فى كل موقع من المواقع الاحد عشر التى قسم لها جسم النفق.. قبل أن نبدأ تنفيذ الأعمال الإنشائية فى هذا الجزء. وقد بدأ فعلا فى تنفيذ ذلك فى أول عام ١٩٨٢ ومن خلال هذا الاستعراض السريع يمكن إيجاز المشاكل التى أمكن التغلب عليها عند بدء التنفيذ فيما يلى:

١ - عدم دقة الخرائط المسجل عليها المرافق تحت الأرض بل عدم وجود بعضها سواء التى تحدد مسارات المرافق أو مواصفاتها.

٢ - تهالك شبكات المرافق المختلفة. وانتهاء عمرها الافتراضى منذ وقت طويل. وعدم تحملها لأعمال التحويل.

٣ - مطالبة الهيئات المختصة أن يتم تنفيذ التحويلات الجديدة بما يتمشى مع مشروعاتها المستقبلية. سواء من حيث المسار أو المواصفات.

ومن أكثر المناطق التى تأثرت بمشكلة المرافق منطقة تقاطع شارع المبتديان مع شارع منصور ومنطقة ميدان التحرير ومنطقة تقاطع شارع رمسيس مع شارع ٢٦ يوليو ثم ميدان

رمسيس الذى لم يتم التعرف على مسارات شبكة الصرف الصحى به إلا فى نهاية عام ١٩٨٤. بعد الاستعانة بالأجهزة الكهرومغناطيسية. بواسطة إحدى الشركات الأجنبية المختصة.

وقد استلزم للتعرف على مسارات هذه الشبكة :

١ ـ تنفيذ أكثر من ٢٠٠٠ جسة على مسار النفق بالحفر العادى المكشوف. ورفع ما يظهر من مرافق نتيجة ذلك.

٢ ـ التعاقد مع شركة فنلندية لتحديد مسار هذه المرافق باستخدام الأجهزة الحديثة. فى بعض المناطق والتقاطعات الهامة التى تعذر الحصول على خرائطها مثل ميدان رمسيس وتقاطع شارع مجلس الشعب مع شارع منصور والفلكى.

وقد تم تنفيذ تحويلات مرافق ٦٠ كم فى منطقة وسط المدينة بياناتها كالآتى :

- خطوط مياه ١٥ ألف متر.
- كابلات كهرباء ١٨٥٠٠ متر.
- خطوط غاز ٤٠٠٠ متر
- خطوط صرف صحى ١٣٠٠٠ متر.
- كابلات تليفون ٩٥٠٠ متر.

بالإضافة إلى تنفيذ ٦ محطات صرف صحى فى منطقة وسط المدينة. وما يلزمها من تغذية كهربائية من أكثر من مصدر. لضمان استمرار عملها وتسليمها إلى مرفق الصرف الصحى للقاهرة وقد تكلفت أعمال المرافق أكثر من ٣٦ مليون جنيه مصرى.

كيف حفرنا النفق؟

أما كيف تم حفر نفق المترو فى المسافة من السيدة زينب حتى ميدان رمسيس؟! فإن هناك طريقتين لإنشاء الأنفاق.

الطريقة الأولى : وهى طريقة الحفر والغطاء Cut and Cover. وتتم هذه الطريقة. عندما تكون الأنفاق قريبة من سطح الأرض. وهذه الطريقة تؤدى إلى عدة طرق فرعية منها :

طريقة الشدادات الجانبية - طريقة الحوائط الجانبية المنشأة بالموقع - طريقة الحوائط الجانبية سابقة التجهيز.

الطريقة الثانية : وهى طريقة الحفر الأفق بواسطة الدرع. وهى تستخدم فقط عند الحاجة للأنفاق العميقة Shield Method ولقد استخدمت الطريقة الأولى - طريقة

الحفر والتغطية التى تستخدم الحوائط الجانبية الواقية فى مصر.

وتتلخص هذه الطريقة فى ١٢ خطوة. ولقد اختيرت طريقة الحفر والتغطية مع استخدام ستارة رأسية سابقة الإنشاء ومانعة لنفاذ المياه للأسباب التالية :

١ - لأن الطريقة تتناسب وحالة الأنفاق القريبة من سطح الأرض، وهذا يؤدى إلى توفير فى التكاليف عند إنشاء النفق.

٢ - عن طريقها يمكن تنفيذ الخط المزدوج.

٣ - أسلوب التهوية يصبح سهلا.

٤ - ضمان عدم النفاذية Water tightness فى هذه الطريقة.

٥ - طريقة الحفر والتغطية على عكس استخدام الدروع. تضمن سرعة وعدم تعرض المبانى المجاورة للهبوط.

٦ - السهولة فى التنفيذ. وعدم الحاجة إلى معدات فنية معقدة.

٧ - يمكن العمل فى عدة أماكن فى وقت واحد.

ولكن هناك عيوبًا لهذه الطريقة يمكن حصرها فى :

١ - لابد من تحويل كل المرافق المقترحة لمسار النفق قبل البدء فى إنشاء النفق.

٢ - أن يتبع مسار الخط مسار الشوارع الرئيسية حتى يمكن تجنب إزالة المبانى المقترحة.

وكما قلنا إن طريقة الحفر والتغطية تبدأ وتنتهى بـ١٢ خطوة..

الخطوة الأولى:

ويتم فيها إبعاد المرافق من مياه وصرف صحى وغاز وكهرباء وتليفونات من مسار النفق إلى جانبى الشارع. ويتم فى هذه المرحلة تحديد الجزء الذى سيتم تخصيصه للنفق وتحديد مسار الحوائط الجانبية يصب «ميدتين» عند كل خندق تتخذ كدليل لمسار الحائط عند الحافة والمسافة بينهما ٦٠ سم.

الخطوة الثانية:

ويتم فيها حفر خنادق فى مواقع الحوائط الجانبية ويتم ذلك بمساعدة مستحلب (البنتونيت) لتثبيت جوانب الحفر ومنعها

من الانهيار. وعرض هذا الخندق من ٦٠ إلى ٨٠سم. وبعمق يصل إلى أكثر من قاع النفق. بما لا يقل عن مترين. ويصل العمق ٢٠ مترا مع استخدام خليط الأسمنت والنترونيت.

ولقد كانت عملية حقن التربة بهذه المادة التى تمت حول جسم النفق من السيدة زينب حتى رمسيس. بمثابة حماية جميع المنشآت والمساكن على جانبي الطريق. ومنعت الانهيارات وتصدعات المبانى المحيطة بجسم النفق.

الخطوة الثالثة :

بعد حفر خندق الجانبين. تم وضع حوائط سابقة الصب سمك ٤٥ سم وطول ١٢م وعرض ٢,٥ متر يصل وزنها ٣٥ طنًا يتصل بعضها ببعض بكاوتش قاطع للمياه.

الخطوة الرابعة :

يتم بعد ذلك حفر ما يقرب من ٣ مترات من سطح الأرض وتركيب كوبرى مؤقت مستندا على الحائطين. لفتح حركة المرور بالشارع.

وفى مترو أنفاق القاهرة. تم الحفر بعرض النفق وبعمق أسفل سقف النفق بمسافة ١٥ سم. وتم تركيب كمرات السقف للنفق، ثم تم صب السقف والردم عليه للسماح بحركة المرور فوق السقف.

الخطوة الخامسة :

يتم حقن التربة بمواد عازلة. أوبنتونيت فى بعض الأحيان بعمق ٣ مترات أسفل قاع النفق. لتكوين كتلة عازلة تكون مع الحوائط صندوقًا معزولا. ويتم بعدها سحب المياه الجوفية الموجودة داخل هذا الصندوق. وقد أجريت تجارب فى مصر وفرنسا على مدى ميول الطبقات الموجودة فى مسار النفق لمواد الحقن. ووجد أنه يمكن بالحقن الوصول إلى معامل نفاذية ١٠ - ٦ أو أقل من ذلك

الخطوة السادسة :

يتم استكمال حفر التربة حتى منسوب أسفل القاع الخرسانى للنفق. مع تركيب شكالات عرضية للمحافظة على ثبات الحوائط الجانبية. ويتم اخلاء الصندوق تمامًا من المواد الترابية.

الخطوة السابعة :

يتم وضع الطبقة العازلة للمياه أسفل خرسانة قاع النفق.

الخطوة الثامنة :

يتم صب خرسانة القاع للنفق من الخرسانة المسلحة. وهى إما أن تكون مستقرة أو أفقية وستكون أفقية فى جميع خطوط مشروع مترو الأنفاق المستقبلة.

الخطوة التاسعة :

يتم استكمال وضع الطبقة العازلة على الجوانب ورفع الشكالات العرضية.

الخطوة العاشرة :

يتم استكمال صب الجوانب والسقف الخرسانى للنفق ويلاحظ أن الحوائط الرأسية تُصب فقط بهدف تغطية المادة العازلة. وربطا للقاعدة بالسقف، أما الحوائط السابق تركيبها فهى كافية لحمل الضغوط الواقعة عليها من التربة.

الخطوة الحادية عشرة:

يتم عزل سقف النفق. وإعادة الردم للمرور عليه.

الخطوة الثانية عشرة:

يتم إعادة رصف الطريق وفتحه للمرور. وقد تم تنفيذ كل هذه الخطوات فى مشروع مترو الأنفاق. وخاصة فى النفق الذى يصل بين السيدة زينب وميدان رمسيس.

إعجاز هندسى

ومن الحقائق المؤكدة التى تحيط بمترو الأنفاق بالقاهرة أن ما تم من حفر فى هذا المشروع بلغ مليون متر مكعب. وتم تنفيذ المشروع فى ظروف قاسية تمامًا. تتعلق بطبيعة التربة المصرية. وارتفاع منسوب المياه الجوفية. وتهالك المرافق كما أوضحنا سابقًا.

إن بعض الأعمال الهندسية التى حققها المهندسون والفنيون خلال العمل فى مترو الأنفاق ترق إلى مرتبة المعجزات الهندسية فعلى سبيل المثال:

وجدوا أن خط سير المترو يعترضه خازوقين من الخوازيق التى تحمل أحد الأعمدة الرئيسية لمجمع التحرير. وكان لابد من التصرف. فليس من المعقول أن يتم تغيير مسار المترو - وفى نفس الوقت كان لابد من المحافظة على سلامة مبنى

مجمع التحرير. وكانت النتيجة أن الخبراء رفعوا الخازوقين. وأقاموا السنادات بدلا منها. ثم حقنوا التربة بمادة (البنتونيت). ثم أعادوا كل شيء بعد ذلك كما هو عليه. وقد كان البعض متخوفًا من هبوط الأرض تحت مبنى مجمع التحرير لما فعله الخبراء. والبعض الآخر كان يعتقد أن الأرض قد تتشقق تحت مبنى المجمع. لكن الذى حدث أنه لم يحدث هبوط أو تشققات. بل ارتفعت التربة عدة ملليمترات. وصارت أقوى تحت المجمع عن ذى قبل.

ومعجزة أخرى حدثت فى ميدان رمسيس.. فقد اعترض العمل فى بناء جسم النفق عمودان من أعمدة منزل كوبرى ٦ أكتوبر (وهما العمودان المشهوران (١٠٢ و١٠٤) ودون أن يدرى أحد تم كسر العمودين. وتم تحميل الكوبرى على سنادات حديدية بدلا منها مؤقتًا، ثم أعيد بعد ذلك صبهما ليرتكزا على أعلى جسم النفق ولم تتوقف حركة المرور لدقيقة واحدة فى الميدان.

وأما عملية تنفيذ نفق المترو بطريقة لا تؤثر على المبانى المحيطة. فإنها معجزة كبرى. خاصة وأن الذى قام بالتنفيذ مهندسون وخبراء وعمال مصريون. وأن عملية إنشاء نفق

للمترو فى مصر تعتبر جديدة تمامًا عليهم. وكان العمل يتم بطريقة حفر حفرة عرضها ٦٠سم تنزل فيها حوائط خرسانة سابقة الصب. بعمق ١٢ مترًا وعرض ٢,٥ متر وسمك ٤٥سم. وتزن حوالى ٣٦ طنًا للحائط الواحد. وليست كل حوائط النفق بهذه الأبعاد. بسبب اختلاف نوعية التربة. وكان الحفر يتم بمعدات حديثة. ويملأ الخندق الذى يتم حفره بمادة البنتونيت مع الأسمنت ثم يتم بعد ذلك إنزال الحوائط بمعدات ضخمة استخدمت فى مصر لأول مرة. وبهذا الشكل لم تتصدع المبانى والمساكن والمنشآت الحكومية الموجودة على جانبى النفق أو فوقه.

وفى أثناء مراحل التنفيذ اتخذت الإجراءات اللازمة لمتابعة سلامة المنشآت عن طريق رصدها مساحيًا. ومتابعة مناسيبها أسبوعيًا أو يوميًا. طبقًا لحالة كل منشأة وقد استخدمت هيئة مترو الأنفاق من جانبها إدارة المساحة العسكرية للقوات المسلحة. للقيام بهذا الدور. وذلك لدقة الأعمال المطلوبة وخطورتها. علاوة على ما قام به المقاول فى هذا الشأن.

وعندما تمت أعمال « السكة » داخل جسم النفق

باستخدام قضبان ٥٤ دولى مركبة على فلنكات خرسانية.
استخدم الخبراء «حصائر» ماصة للاهتزازات التى يحدثها تحرك المترو. حتى لا تتأثر المبانى المجاورة. وخاصة المتحف المصرى من هذه الاهتزازات.

النفق تحته بحيرة

إن المياة الجوفية تحت مدينة القاهرة كانت أكبر تحد لمشروع مترو الأنفاق. ومن المعروف أن نهر النيل يعتبر المصدر الرئيسى لتغذية المياه الجوفية تحت سطح التربة، عن طريق الطبقات الرملية العميقة ذات النفاذية العالية.

ولقد أجريت دراسات حول منسوب المياه الجوفية وتبين أن المنسوب لم يتغير نتيجة بناء السد العالى. ويتراوح ما بين ١,٥ - ٤ متر تحت سطح الأرض. بل وصل فى منطقة مثل السيدة زينب إلى ٨٠سم فقط. وهذه المياه الجوفية غنية بأملاح الكلوريدات والكبريتات.

إن قطاع النفق يقع تحت منسوب المياه الجوفية وقد تبين أنه بالإضافة إلى ارتفاع منسوب المياه الجوفية فى منطقة العمل. فإن هناك أيضًا طبقة طينية طميية تحت طبقة

الردم. وعلى عمق ١٠ أمتار. أى على العمق المطلوب تقريبًا لمنسوب سطح السكة فى النفق.

وقد وجد الخبراء والمهندسون والعاملون صعوبة كبيرة فى أثناء التنفيذ من خبراء المياه الجوفية والطبقة الطبيعية حيث يتطلب العمل فى المشروع «وَسَطْ» غير قابل لنفاذ الماء حتى يمكن تفادى انهيار سطح الحفر عند الوصول إلى منسوب أرضية النفق، ولكنهم تغلبوا على هذه المشكلة باستخدام جميع الوسائل العلمية التى تمنع تدفق المياه الجوفية عند إجراء عمليات إنشائية.

فهناك ثلاث طرق وهى:

١ - الحقن **Injection**

ويتصل استخدام هذه الطريقة بالنسبة للأراضى الصخرية الموجود بها تشققات كبيرة. وبها نسبة عالية من المياه الجوفية، وتستعمل هذه الطريقة فى الطبقات الرملية الجافة والمغمورة بالمياه الجوفية.

وتتلخص فى عمل خروم طولها من ١٠ - ٢٥ مترًا فى وجه الممر وأمامه. ثم تحقن هذه الخروم بمادة الأسمنت والمياه التى تنتشر فى مسام الأرض الرملية أو فى المستنقعات

الموجودة فى الأرض الصخرية. فتعمل على سدها. مكونة أسطوانه صلبة لا تسمح بتسرب المياه. وقطرها أكبر من قطر الممر المراد إنشاؤه.

٢ - الهواء المضغوط Casisson

ويستعمل فى إنشاء الأنفاق التى تمر فى الطبقات المغمورة تحت المياه الجوفية ويتم تنفيذها كالآتى :

(أ) إقامة سقفين من الخرسانة المسلحة سمك كل منهما متران فى البئر الموصل إلى النفق.

(ب) يتم إنزال ماسورة تخترق السقفين الخرسانيين.

(جـ) ثم يضغط الهواء فى البئر والأنفاق بواسطة مضخات خاصة للهواء. وبذلك يمكن طرد أى تسرب للمياه.

(د) يكون نزول العمال واستخراج ناتج الحفر بواسطة ماسورة خاصة تخترق الأسقف الخرسانية.

٣ - التثليج : Freezing Method

واستخدمت منذ عام ١٩٨٣، وهى أحدث الطرق المستعملة بالنسبة للأنفاق تحت الأرض. والتى يتم إنشاؤها فى الأرض الطينية والرملية الموجودة فى المياه الجوفية.

خبرات كانت جديدة علينا

وعلى مدى السنوات الماضية. والتى تم خلالها إنشاء وافتتاح الجزء الأول من الخط الإقليمى (حلوان - المرج). وهو الجزء ما بين حلوان ورمسيس. نقول: إن مصر دخلت فى مجال إنشاء مشروعات مترو الأنفاق. وقد اكتسبت مصر خبرات علمية فى هذا النوع من النقل والمواصلات يمكن تحديدها على النحو التالى:

١ - فى مجال دراسات وتخطيط شبكات مترو الأنفاق:

إن ما تم من دراسات للنقل على مستوى القاهرة الكبرى. وكذا وضع التصميمات والرسومات والمواصفات لإنشاء شبكات مترو الأنفاق. قد أوجد مجالا متسعًا لكى يتم التعرف على مثل هذه الأعمال التى تعتبر من أدق وأكبر المجالات فى تخطيط النقل داخل المدن كذلك فإن وضع

الشروط العامة وتحرير العقود فى هذا المجال والتى تتسم بنوعية خاصة أعطتنا خبرات واسعة ومنها.

(أ) التعرف على شبكات المرافق العامة داخل المدينة والتى تعترض تنفيذ مشروعات الأنفاق. سواء كانت شبكات مياه أو صرف صحى.. الخ وكيفية تحويلها بحيث لا تؤدى هذه التحويلات أو التعديلات إلى تعطيل المرور فى الشارع.

(ب) أصبحت لدينا خبرة واسعة فى العمل فى ظروف صعبة كالشوارع المزدحمة بحركة المرور. سواء لتنفيذ حجم النفق أو لتنفيذ المحطات.

(ج) تأمين وسلامة المنشآت المجاورة لمسار النفق. ومن المتفق عليه أن أى دراسة تنفيذية لمشروع مترو للأنفاق لابد أن تحقق سلامة المنشآت والمبانى والمساكن.

٢ - فى مجال الهندسة الإدارية :

لا شك فى أننا اكتسبنا خبرات واسعة فى مجال إدارة المشروعات الكبرى على أسس علمية حديثة. وخبرات واسعة كذلك فى التخطيط للتنفيذ. ووضع البرامج التنفيذية العلمية التى تستوجب التنسيق بين الأنشطة التنفيذية المختلفة وتحديد الارتباط بين الانتهاء من الأعمال الجانبية. وبين خطة تنفيذ

المشروع كله. ولقد واجه مترو الأنفاق بالقاهرة عقبات فى «الهندسة الإدارية» من أهمها ضرورة تحديد المسارات الحرجة فى أثناء التنفيذ وضرورة وضع برامج تفصيلية لكل عمل فرعى. وخطة لمتابعة وتنفيذ العمل. وتحديد معدلات التقدم. التى تحقق الأهداف المنشودة لمحاولة انتهاء الأعمال فى مواعيدها. وقد قطع الخبراء المصريون شوطًا كبيرًا فى اكتساب خبرات واسعة فى مجال الهندسة الإدارية من خلال هذا المشروع.

٣ - فى مجال الأعمال الهندسية الفنية :

واكتسب العاملون فى المشروع خبرات جديدة فى الأعمال الهندسية الفنية منها على سبيل المثال :

(أ) أعمال حقن التربة وعلاج التسربات.

(ب) تصميم الخلطات الخرسانية المناسبة لمجال العمل والمناسبة للجهود الواقعة عليها.

(جـ) مراقبة الجودة للخلطات الخرسانية.

(د) استخدام الحوائط سابقة التجهيز بأطوال ١٢ مترًا بطرق تنفيذها ونقلها لموقع العمل. وضبط إقامتها فى مواقعها. والعزل بينها وبين بعضها.

(هـ) استخدام أعمال الحفر للخنادق بما يصل فى بعض الأحيان إلى ٣٠ مترًا باستخدام مستحلب البنتونيت ويمكن استخدامه فى أعمال أخرى غير أعمال الأنفاق.

(و) تنفيذ بعض الأعمال الميكانيكية والكهربائية المتخصصة فى مجال مترو الأنفاق.

(ز) تنفيذ أعمال إنشائية على أعماق كبيرة تحت منسوب المياه الجوفية دون الحاجة إلى منع المياه. أو تخفيض منسوب المياه الجوفية. الأمر الذى قد يؤدى إلى حدوث هبوط فى المنشآت المجاورة.

(ح) أعمال التكييف والتبريد فى داخل الأنفاق.

(ط) أعمال الاتصالات المختلفة سواء سلكية أو لا سلكية داخل الأنفاق.

(ك) تخطيط وتنفيذ وتصميم العلامات الإرشادية التى توجه الجمهور حتى لو لم يكن على معرفة بالقراءة والكتابة.

من فضلك اترك سيارتك

إذا كان مترو الأنفاق - كمشروع - قد حقق خبرات مكتسبة لم تكن لنا بها معرفة من قبل. فإن هذه الفائدة تعود بالدرجة الأولى على المهندس والخبير المصرى وبشكل مباشر. لكن هناك فائدة أخرى تعود على المواطن المصرى الذى ظل لعشرات السنين مطحونا بسبب ما نطلق عليه أزمة المواصلات داخل القاهرة الكبرى. ولاشك فى أن اختناقات المرور بالمدينة الكبيرة تتزايد يوما بعد يوم. كنتيجة حتمية للزيادة المضطردة فى عدد السيارات، وخصوصا السيارات الخاصة.

وتشير معدلات الزيادة فى السيارات الخاصة إلى ٢٤,٦٪ خلال السنوات الثلاث الأخيرة. فى الوقت الذى بلغت فيه ٢١,٩٪ للسيارات والمركبات الأخرى و٦,٧٪ بالنسبة

لسيارات الأتوبيس العام.

إن معدلات ملكية السيارات الخاصة ارتفعت حتى وصلت إلى ١٢,٨ سيارة لكل ألف فرد. وذلك كنتيجة للانفتاح الاقتصادى وتصنيع السيارات محليا. وارتفاع دخل الفرد. وهجرة العمالة الفنية إلى الخارج والعودة إلى الوطن الأم ومع كل واحد سيارة خاصة.

ولقد كانت السيارات الخاصة حتى سنوات قريبة مظهرًا من مظاهر الرفاهية لكنها أصبحت الآن ضرورة تلجأ إليها الأسرة حتى الأسرة المتوسطة الدخل. لعدم توافر وسيلة النقل العام المريحة. لقد بلغت ملكية السيارات الخاصة فى بعض الأسر إلى أكثر من أربع سيارات. بمعدل سيارة لكل فرد من أفرادها.

وفى ظل تخطيط قديم للقاهرة، وخاصة للمنطقة التجارية بها - وسط البلد - ازدادت أزمة المرور استفحالا وخاصة أن تخطيط القاهرة لم يستطع استيعاب هذه الكثافة العالية من السيارات.

ولذلك كان من الواجب الحد من حركة السيارات الخاصة إما بعدم دعمها من الدولة أو بارتفاع أسعار الوقود.

أو بوضع قيود وسياسات قانونية وتنظيمية تحد من ملكيتها.

والباحث فى مجال أزمة المواصلات داخل القاهرة الكبرى يجد أمامه حقيقة ثابتة وهى أن التوسع الأفق فى القاهرة أصبح مستحيلا حيث لايعقل - وهناك شوارع وميادين لاتتحمل عدد السيارات التى تسير عليها - أن توضع خطة هندسية لتوسيع هذه الشرايين إلى الضعف مثلا.

ولذلك كان الأسلوب الأمثل لمواجهة مشكلة المرور فى القاهرة الكبرى هو التوسع الرأسى. بمعنى إنشاء المزيد من الطرق العلوية. والتى بلغت حتى الآن فى القاهرة الكبرى فى الثلاث سنوات الأخيرة حوالى ١٤ كوبرى وطريقًا علويًا. وهناك خطة للتوسع فى هذا النوع من الطرق فى الخطة الخمسية الثانية الحالية.

القاهرة بدورين

فهل واجهت الكبارى العلوية مشاكل المرور فى القاهرة مواجهة جذرية ؟ !

الإجابة بالقطع بالنفى. فقد انتقل الاختناق من الموقع الذى أنشئ فيه الكوبرى أوالطريق العلوى إلى نقطة الاختناق التالية وليس من المعقول أن ننشئ طريقًا علويًا على كل تقاطع. فى هذه الحالة سوف تكون القاهرة بدورين وفى هذا مخالفة لأصول التخطيط السليم للمدن وللمحافظة على البيئة. ومخالفة كذلك لمظهر القاهرة وطابعها المميز.

هذا بالإضافة إلى أن الزيادة المضطردة فى عدد السيارات الخاصة. أوقع سيارات الأتوبيس وخاصة التابع للنقل العام فى مأزق حيث أصبحت غير قادرة على تحقيق عدد الدورات المقررة لكل سيارة أتوبيس. ولو أمكن توفير سيارات أتوبيس

أكثر من العدد المتاح حاليًا. فإننا بهذا الشكل سوف نساهم فى اختناقات أكثر ودورات أقل.

ولقد كان الحل الأمثل لمشكلة المواصلات فى القاهرة الكبرى - باستخدام أسلوب التوسع الرأسى - أن نتوسع رأسيا ولكن تحت الأرض لا على السطح. بمترو الأنفاق. الذى يمتاز بسرعة عالية وكفاءة متزايدة لعدم ارتباطه بالمرور السطحي.

ويخطئ من يظن أن الخط الإقليمى لمترو الأنفاق سيحل مشاكل المرور نهائيا. فهذا المسار بمفرده ولو أنه يحل الكثير من المشاكل المرورية فى منطقة وسط المدينة (٧٢٪) نتيجة لربط خط حلوان بخط المرج. غير أنه يجب أن تكون هناك سياسات تنفيذية وتشريعية وتخطيطية نبدأ فى دراستها من الآن، لتسير جنبا إلى جنب مع الخط الإقليمى الأول. وهذه السياسات تشمل قرارات سيادية لمواجهة مشاكل الانتظار ببناء عدد من عمارات الانتظار تحيط بمنطقة وسط المدينة. بحيث تستقبل هذه العمارات السيارات الخاصة القادمة من المناطق السكنية التى تحيط بقلب العاصمة. حتى يترك أصحاب هذه السيارات سياراتهم فى تلك الجراچات

مستخدمين وسائل النقل الأخرى (مترو الأنفاق - سيارات نقل جماعى) مع تخصيص أماكن انتظار فى وسط المدينة نظير رسوم مرتفعة ولمدد محدودة.

قلب القاهرة يدق بانتظام

ولعل الأرقام التالية توضح لنا حالة قلب القاهرة - وسط المدينة - الآن وبعد افتتاح الجزء الأول من الخط الاقليمى لمترو الأنفاق فبعد تنفيذ هذه المرحلة قل عدد ركاب رحلات الأتوبيس فى ساعة الذروة الصباحية فى ميادين التحرير ورمسيس والعتبة من ١٤٣,٢٥٠ راكب إلى ٤٠,٨٧٥ راكب أى بنسبة ٧٢٪ وهى نسبة كبيرة.

وفى ميدان التحرير انخفض عدد الأتوبيسات من ٥٢٠ اتوبيس يحمل ٥٢ ألف راكب إلى ١٠٠ أتوبيس تحمل ١٠ آلاف راكب أى أن حركة النقل السطحى انخفضت بنسبة ٨١٪ فى ميدان التحرير.

وفى ميدان رمسيس انخفض عدد الرحلات لركاب الأتوبيس بنسبة ٧٥,٥٪ (من ٤٢,٥٠٠ راكب إلى ١٠,٣٧٥ راكب).

وفى ميدان العتبة انخفض عدد الركاب من ٤٨,٧٥٠ راكب إلى ٢٠,٥٠٠ راكب بنسبة ٥٨٪.

ومن هذه الأرقام يتضح أن تنفيذ مشروع الأنفاق ساعد بدرجة كبيرة على:

١ - امتصاص حركة المواصلات من السطح إلى تحت الأرض.

٢ - تنظيم مشكلة الانتظار فى وسط المدينة كنتيجة لانخفاض نسبة التعارضات والتداخلات بين حركة المركبات المختلفة والمشاة خاصة بعد اتباع نظام ترك السيارات فى ساحات الانتظار المخصصة لذلك خارج وسط المدينة. (٢٨ ساحة انتظار)

٣ - وضع السياسات التنظيمية التى ساعدت على أن يصبح وسط المدينة هادئا مرة أخرى حيث تخصص للمشاة فقط.

٤ - انخفاض نسبة الضوضاء والتلوث فى وسط المدينة إلى ٨٢٪ عما كان عليه.

٥ - يحقق مترو الأنفاق وفرا - كما أوضحنا من قبل - قدره ٣٠ مليون جنيه سنويا حيث يقلل عدد الساعات المبذولة من الركاب فى رحلات وسط المدينة (من ١٤٣٠٤٦ ساعة إلى ١٢١١١٨ ساعة)

محطات بالكمبيوتر

يمتد خط مترو الأنفاق (الخط الإقليمى) من حلوان جنوبًا إلى المرج شمالا. بطول ٤٣كم معزولة المسار. ويتضمن الخط ٤٣ محطة منها خمس تحت الأرض فى المسافة من السيدة زينب حتى ميدان رمسيس. وقد روعى فى هذه المحطات عند انشائها أن تخدم التجمعات السكنية وبحيث لاتتجاوز المسافة بين المحطة والأخرى التالية ١٢٠٠ متر داخل التجمعات السكنية و١٥٠٠ متر خارج مناطق الأزدحام السكانى.

فالمسافة بين محطة السيدة زينب (سطحية) وبين محطة سعد زغلول (أول محطة تحت سطح الأرض) للقادم من حلوان. تبلغ ٨٧٢ مترا وبين محطة سعد زغلول ومحطة السادات بالتحرير (تحت سطح الأرض) ٩٣١مترا. والمسافة بين محطة السادات ومحطة عبدالناصر (تحت سطح الأرض)

بشارع ٢٦يوليو حوالى ١١٠٠ مترا. وبين محطة عبدالناصر ومحطة عرابى (تحت سطح الأرض) ٥٧٤ مترا. وبين محطة عرابى ومحطة مبارك (تحت سطح الأرض) فى رمسيس ٥٧٩ مترا. وبعد محطة رمسيس ومحطة غمرة (أول محطة سطحية بعد النفق) ١٩٠٥ مترا.

ولقد صممت المحطات بحيث يمكنها تحمل التشغيل الشاق ومقاومة النيران والحرائق. كما تم تبليط الأرصفة ببلاط يمنع الانزلاق عليه.

وقد زودت المحطات بخدمات التليفون والمراجعة اللازمة من إنارة وتهوية وعلامات ارشادية للركاب إلى طرق الدخول والخروج. دون حدوث أية ارتباكات سواء لمن يعرف القراءة والكتابة أو لمن يجهلها علاوة على وجود إذاعة داخلية بكل محطة لإرشاد المواطنين.

ولكل محطة عاملين على مستوى عال من الكفاءة للارشاد للأبواب والأرصفة.

وزودت جميع المحطات بالمولدات الكهربائية الاحتياطية وبالبطاريات التى تعمل فى أثناء انقطاع التيار حتى لاتحدث أية ارتباكات فى أثناء انقطاع التيار الرئيسى. وزودت

المحطات كذلك بامكانية الاخلاء عند حدوث ظروف طارئة (حريق مثلا) فى مدة لاتزيد على دقيقتين.

ولتوجيه حركة المسافرين فى المحطات تحت الأرض تم تزويد هذه المحطات بشبابيك كافية لصرف التذاكر طبقا لحجم النقل لكل محطة. وإنشاء عدد من الداخل والخارج بحيث يمكن الوصول إلى أى رصيف للمحطة من أى موقع خارج المحطة دون الحاجة إلى عبور الميدان وكذلك فى حالة الخروج من المحطة إلى الشوارع المختلفة خارجها.

وتم تزويد كل محطة بنقطة شرطة لتوفير الأمان للحركات والمعدات.

وروعى فى محطات مترو الأنفاق تحت الأرض أن تكون ذات طابع مميز من الناحية الجمالية حيث اتسمت كل محطة بتصميم يوضح جانبا من تاريخ مصر أونهضتها فى الماضى والحاضر.

فمثلا محطة السادات بالتحرير وهى أكبر المحطات أخذت الطابع الفرعونى فى تجميلها حيث تضم ٢٥ تمثالا فرعونيا فى تجاويف لأشهر القادة فى التاريخ القديم مثل رمسيس الثانى

وحتشبسوت ونفرتيتى ومينا وأحمس الأول.. الخ. بالإضافة إلى لوحات من الأزمالة (كسر السيراميك) مثل مناظر فرعونية وكذلك تتميز كل محطة عن غيرها بنوع معين من السيراميك حتى يتمكن الراكب من تمييزها بسهولة وصممت لوحات لزعماء مصر بالكمبيوتر على قطع السيراميك وهم سعد زغلول وعرابى والسادات وعبدالناصر. وهناك محطات صممت على نمط إسلامى معمارى مثل محطة السيدة زينب وغيرها.

وصممت المحطات لتسمح باستقبال الركاب بطاقة ٨٥ ألف راكب/ساعة وذلك للمحطات الرئيسية (السادات - عبدالناصر - مبارك) وسوف تكون هذه المحطات فى المستقبل محطات انتقال بين الخط الإقليمى والخطوط الأخرى التى ستقام فى المستقبل.

وأما محطتى سعد زغلول وعرابى فإن الطاقة الاستيعابية لهما تصل إلى ١٦٠ ألف راكب/ساعة.

ويبلغ طول الأرصفة فى المحطات الرئيسية ١٩٧ مترا وعرضها ستة أمتار.

التبريد والتهوية بالتثليج :

إن مد الخط الحديدى داخل النفق ليس هو أصعب المراحل. وهناك أمور أخرى يلزم تجهيزها حتى تكتمل الصورة تماما. إن حركة القطارات داخل النفق يتولد عنها حرارة شديدة مما يستلزم تبريد جو النفق إلى درجة لاتزيد عن ٣٠ درجة مئوية وتبريد مسافة النفق لايمكن أن تتم بأجهزة تبريد عادية تقليدية فهناك طرق حديثة للتبريد وهى تبريد المياه ولذلك أقيمت ٣ محطات عملاقة بكل من : منطقة حوش الوزارات - تقاطع شارع زكى مع شارع رمسيس - ميدان رمسيس.

وتضم كل منها خزانات ضخمة بالمياه التى يتم تثليجها (تبريدها بشدة) إلى درجة تزيد قليلا عن ١٪ أى قبل أن تصل إلى درجة التجمد. ثم يتم دفع هذه المياه فى مواسير ضخمة تعلو جوانب النفق. وتضخ إلى وحدات فرعية بمحطات المترو حيث تدخل المياه المثلجة إلى مواسير رفيعة موجودة فى ممرات أسطوانية خرسانية محكمة الإغلاق بحيث يتم دفع الهواء من الخارج إلى الداخل فى هذه الممرات من

خلال محركات عملاقة. فيتخلل الهواء مواسير المياه المثلجة بطريقة تشبه طريقة الثلاجات القديمة. أوتشبه التبريد من خلال رادياتير السيارة فيخرج الهواء باردًا من هذه الممرات إلى داخل النفق من خلال محطات توزيع خاصة توزع الهواء البارد على مختلف أنحاء النفق ومحطاته.

ومن أجل خلو الهواء داخل محطة التبريد من أية أتربة أومخلفات فإن الهواء يتم سحبه أولا من خلال فلاتر وقنوات مزودة بخزانات للزيت لترسيب مابها من أتربة لدفع الهواء البارد نقيا إلى انحاء النفق. بينما توجد شفاطات أخرى لطرد الهواء الساخن.

ويتم تكييف الهواء على طول النفق وفى المحطات تحت الأرض بواسطة:

١ - محطات تكييف رئيسية.

٢ - عشر منشآت تهوية للمحطات بواقع ٢ لكل محطة.

٣ - عشر منشآت تهوية لمسافة النفق بين المحطات.

٤ - أربع منشآت سحب هواء غير نقى فى مسافات النفق.

وتم تزويد النفق بمحطتى صرف المياه الأولى بين محطة سعد زغلول والسادات بتصريف قدره ١٠٠ متر مكعب/ساعة والأخرى بجوار محطة عرابى بتصريف قدره ٧٥٥ متر مكعب/ساعة وتقوم المحطتان بتصريف مياه الرشح وغسيل المحطات والصرف الصحى والأمطار.

محطات النفق

١ - السيدة زينب

تم إنشاء هذه المحطة [السيدة زينب] على نمط معمارى، وتعتبر أول محطة سطحية للمتجه إلى حلوان، وتقع على بعد ٢٣,٢٣٠كم من حلوان، ومحطة السيدة زينب محطة علوية فإن جميع منشآتها الخدمية قد أنشئت فى الدور العلوى، وذلك لعدم تواجد المساحة الكافية لإقامة هذه المنشآت على سطح الأرض، لتعارضها مع الشوارع الموجودة وخطوط التنظيم، ولعدم اللجوء إلى إجراءات لنزع ملكية بعض المبانى والمنشآت المجاورة، ويرتفع منسوب أرضية المبانى بمقدار ستة أمتار عن منسوب الأرض، ويتم الوصول إليها عن طريق سلالم موجودة فى كل من الناحيتين الغربية والشرقية، كما يوجد أيضا نفق تحت المحطة، يربط بين الجانبين لخدمة المشاة

فقط، وقد صممت محطة السيدة زينب لتستوعب دخول وخروج ٣٥٠ راكبا فى الدقيقة.

ولقد وضعت الضوابط الأوتوماتيكية لعدم الدخول إلى أرصفة المحطة إلا لحاملى التذاكر والتصاريح وأحيطت بالأسوار التى تمنع دخول غير حاملى التذاكر، كما هو فى كل المحطات.

والمحطة مزودة بنظام تفتيش للدخول، وآخر للخروج وهو عبارة عن رصيفين، أحدهما للاتجاه الذاهب إلى حلوان، والآخر للقادم من حلوان، وطول كل منهما ٢٠٠متر.

٢ - سعد زغلول

ومحطة سعد زغلول تعتبر أول محطة تحت الأرض، من ناحية القادم من حلوان، وتقع هذه المحطة على بعد ٢٤,١٠٢كم من حلوان. وتقع أسفل خط حلوان الحالى بشارع منصور، فى المسافة من شارع أبساطة وشارع سعدزغلول والمحطة ملاصقة لسور ضريح سعد.

ويوجد للمحطة مدخلان : أحدهما من الناحية الشرقية

والآخر من الناحية الغربية، ولها مخرجان، كما أن المحطة مزودة بغرفة لصرف التذاكر عند كل مدخل، وتسمح هذه المحطة بدخول وخروج ١٥٠ راكبا فى الدقيقة. ويتم الوصول إلى الرصيف بنزول ٣٩ درجة سلم، وهناك نفق يربط بين جانبى المحطة يمر أسفل السكة باستخدام ٣٠ درجة سلم.

وقد زودت هذه المحطة بديكور يوحى بكفاح مصر خلال ثورة ١٩١٩.

٣ - السادات

وتقع هذه المحطة على مسافة ٢٤,١١١كم من محطة حلوان، وتعتبر محطة السادات من أكبر المحطات تحت الأرض للخط الاقليمى لعدة أسباب أهمها :

وجودها كتقاطع لمحطتين هما : المحطة العلوية الخاصة بالخط الاقليمى، ومحطة أخرى أسفل منها، ومتعامدة عليها وهى محطة الخط الحضرى الأول المزمع انشاؤه فيما بعد.

ونتيجة لتواجد هاتين المحطتين فإن الأمر يتطلب الربط فيما بينهما. علاوة على ضرورة كفاية منشآت الخدمات التى

تكفى لاحتياجات المحطتين، خصوصا وأن هذا الموقع يعتبر من المواقع التى يصل حجم الركاب بها قدرا مرتفعا حيث يصل إلى ٤٥٠ راكبا فى الدقيقة.

ولقد كانت هذه الأمور من الأسباب التى جعلت تنفيذ هذه المحطة عملية شاقة، حيث تم الإنشاء على بعد ٣٠ مترا تحت سطح الأرض، وفى حين أن المياه الجوفية تتواجد على منسوب مترين من سطح الأرض، وأن سحب المياه لتخفيض منسوبها يعتبر أمرا غير مأمون العواقب، لوجود العديد من المنشآت الصحية حول ميدان التحرير، ولذلك فإن عملية الحقن التى تمت للتربة فى موقع هذه المحطة، يعتبر من الأمور الفنية عالية القدرة، والتى تحتاج إلى مستوى فنى وعلمى مرتفع.

ولهذه المحطة مداخل من محطة الأتوبيس الموجودة أمام دار الآثار، ومدخل آخر عند محطة الأتوبيس الأخرى، علاوة على مدخل من رصيف شارع التحرير، وفى الناحية الأخرى من المحطة توجد مداخل من شارع شامبليون، وشارع قصر النيل، وشارع التحرير، والميدان عند محطة الترام، وكذلك مدخل من شارع طلعت حرب، والراكب بهذا

الشكل لايحتاج إلى عبور أى شارع على السطح كى يدخل المحطة، ويوجد بالمحطة رصيفان بواقع واحد لكل اتجاه بطول ٢٠٠ متر لكل منهما، ويرتبط الرصيفان معًا بواسطة ممر سفلى.

وقد وضعت ديكورات هذه المحطة لتعبر عن الطابع الفرعونى، وبها عدة تماثيل لأشخاص من العصر الفرعونى وزودت المحطة بلوحة كبيرة بداخلها صورة للرئيس السادات.

٤ - عبد الناصر

وتقع محطة جمال عبد الناصر على بعد ٢٥,٢٦١كم من محطة حلوان، وهى المحطة الوحيدة التى يمر من تحتها قطاع نفق الخط الحضرى وهو الخط الثانى المزمع إنشاؤه بعد الانتهاء من الخط الاقليمى. والمحطة زودت برصيفين طول كل منهما ٢٠٠متر، ولها ٨ مداخل من شارع ٢٦ يوليو، و٤ مداخل من شارع رمسيس، والوصول إلى المحطة يتم باستخدام السلم العادى وتستوعب ٣٠٠ راكب فى الدقيقة وبها صورة كبيرة للزعيم الراحل جمال عبد الناصر، وتضم

ممرًا سفليًا خاصًا بالخط الحضرى الثانى، الـذى يـربط إمبـابة والدراسة.

٥ - عرابى

وتقع هذه المحـطة على بعــد ٢٥,٨٣٥كم مــن محــطة حلوان، عند تقاطع شارع عرابى مع شـارع رمسـيس، وهـى محطة ذات دور واحد، وتتشابه مـع محـطة سـعد زغلـول فى جميع منشآتها ولكنها تختلف عنهـا فى أنهـا زودت بعــدد أكبر من المداخل، حيث ترتبط المحطة بجميع الأرصفة التى تتواجد بالتقاطع، لتلافى استخدام الركاب العبور السطحى للشوارع، والمحطة تستوعب ٤٥٠ راكب فى الدقيقة ويبلغ طول الأرصفة بها ٢٠٠ متر والنزول للمحطة بعمق ٦,٨١ أمتار، والصعود والنزول يتم بواسطة سلالم ثابتة.

٦ - مبـارك

وتقع على بعد ٢٦,٤١٤كم مـن محـطة حلـوان، وتعـبر

عن الطابع الإسلامى، وتعتبر هذه المحطة ثانى أكبر محطة تحت الأرض، وإن كانت تزيد فى حجمها عن محطة السادات [التحرير] نظرًا لارتباطها بالمحطة النهائية للأتوبيس، علاوة على أنها ترتبط أيضًا بمحطة سكك حديد مصر.

ومحطة مبارك، عبارة عن محطتين: المحطة العلوية للخط الإقليمى [حلوان - المرج] والمحطة السفلية للخط الحضرى الأول [شبرا الخيمة - بولاق الدكرور]. وصممت المحطة لاستيعاب ٤٥٠ راكب فى الدقيقة من جميع الاتجاهات، وتعتبر محطة مبارك المحطة الأخيرة لمحطات النفق، حيث يبدأ الخط من بعدها فى الاتجاه صعودًا إلى سطح الأرض، وتعتبر محطة غمرة هى المحطة التالية لمبارك وأول محطة سطحية.

ومحطة مبارك لها رصيفان، طول كل منهما ٢٠٠متر، وعرض ٦أمتار وترتبط المحطة بمداخل: مدخل من المحطة النهائية للأتوبيس، ومدخل آخر من محطة السكك الحديدية ومدخل من مبنى الخزينة ناحية شارع مهمشة، ومدخل من ناحية مبنى إدارة السكك الحديدية ومدخل من ناحية السبتية وآخر من نهاية كوبرى شبرا العلوى، ومداخل من شارع رمسيس وشارع الجمهورية وشارع الفجالة وشارع كلوت بك

ويبلغ مقدار الهبوط ٧,٢٠أمتار عن منسوب أرضية الشارع وتستخدم السلالم الثابتة للوصول إلى المحطة كما زودت بمنشآت خاصة بالتشغيل والأمان والإرشاد والتوجيه مثل المحطات الأخرى.

لن ينقطع التيار

تتحرك جميع قطارات المترو بالتيار الكهربائى، الذى يصلها من محطة الضغط العالى فى طرة، وتغذى المسافة من حلوان حتى رمسيس وهناك محطة أخرى فى رمسيس ٢٢٠ك تغذى الخط بالكامل من حلوان إلى المرج.

وهناك محطات تحويل احتياطية فى كل محطة، تعمل أوتوماتيكيا فى حالة انقطاع التيار وهناك مصدر آخر، وهو استخدام البطاريات فى حالات الطوارئ، تكفى لمدة ساعتين، ويتضح مما سبق أن هناك ثلاثة مصادر لتغذية مترو أنفاق القاهرة وأنه لن يحدث أى تعطيل للمترو مهما كانت الظروف بسبب انقطاع التيار الكهربائى.

وتتحرك القطارات بسرعة تصل من ٤٠-٥٠كم/ساعة ومتوسط زمن الوقوف من ٣٠-٤٠ ثانية فى المحطات، وفى

المحطات النهائية من ١٠-١٢ دقيقة.

ولاتتأثر حركة القطارات بحركة المرور السطحى، حيث تم إغلاق جميع المزلقانات بعد أن استبدلت بكبارى سيارات وأخرى للمشاة على طول الخط.

ويتم السيطرة على حركة القطارات بواسطة نظام إشارات دقيق، يحقق إيقاف القطارات فى حالة مخالفة السائق للإشارات ولتحقيق سلامة ودقة التشغيل، فإنه يتم التحكم فى حركة القطارات أوتوماتيكيا عن طريق غرفة التحكم المركزى الفرعية فى السيدة زينب.. وغرفة التحكم المركزى الرئيسية فى رمسيس، والتى يمكنها السيطرة الكاملة على حركة القطارات والإيقاف الفورى لها عند الضرورة.

ويؤكد الخبراء أنه ليس هناك تخوفات من تشغيل المترو.

وقد تمت الاستعدادات لتشغيل المترو تحت أى ظروف وقد تدرب العاملون فى مترو الانفاق فى مصر وفى الخارج على تشغيل هذا النوع من النقل الذى يعتمد على وسائل تكنولوجية حديثة فى إدارته وتشغيله وتم توفير كادر مدرب من العاملين الأكفاء.

ولنضرب مثلا بنظام الإشارات : إن الهدف منها ضمان

سلامة حركة القطارات ويتم ضمان الأمان بواسطة تثبيت مؤشرات لكل قطار توضح موقف الإشارات على طول الخط، وتبدأ فرملة القطار أوتوماتيكيا إذا أخطأ السائق، أو تجاوز إشارة غير صالحة له، كما تعمل فرامل الطوارئ فى حالة تجاوز إشارة مغلقة.

وتقفل محطات المترو أبوابها الساعة ١٢ عند منتصف الليل، وتعود الحركة مرة أخرى فى الخامسة صباحا، وخلال تلك الساعات تذهب عربات المترو إلى محطات الغسيل، والتى أنشئت فى عين حلوان، حيث تتم عملية تنظيف العربات من الخارج، وتتكرر هذه العملية كل يومين، وأما تنظيف العربات من الداخل فتتم يوميًّا، وفى نفس الوقت تجرى نظافة كاملة لمحطات المترو حيث يقوم العمال بنظافة الجدران، وأرضيات المحطة، وقد روعى فى الاعتبار عند إقامة هذه المحطات أن تكون جدرانها مغطاة بنوع من السيراميك غير قابل للكتابة عليه، أو العبث به، كما يسهل تنظيفه، والأرضيات قد رصفت بنوع خاص من الأسفلت يمنع صدى الصوت ويسهل أيضا تنظيفه وصيانته وتغييره عند الحاجة.

قطار آمن :

ولأننا فى مصر لم نستخدم هـذا النـوع مـن النقـل والمواصلات، فإن هناك مخاوف من استخدام مـترو الأنفـاق، ويتساءل البعض عن قدرة العامل المصرى على تشـغيل هـذا النوع من القطارات، وعـن ضمان سلامة القـطار والـراكب معًا.

ونستطيع أن نوضح عدة أمـور تتعلـق بتـأمين سـير القطارات وفيها إجابة كاملة عن هـذا السؤال : كيف يتم تأمين خط المترو من أول الخـط فى حلـوان حـتى آخـره فى المرج ؟

١ - روعى أن تكون جميع الـوحدات والمعـدات بحـالة جيدة، لضمان سلامة المعدات وتأمينها فى جميع الظروف.

٢ - العزل الكامل لسـير القـطارات ببنـاء سـور على جانبى الخط وتحويل جميع المزلقانات الحالية إلى كبـارى علـوية وممرات سفلية، بالإضافة إلى إنشـاء ممـرات علـوية أوسـفلية للمشاة، وروعى أن تكون أطـوال أرصـفة الممـرات داخـل المحطات ٢٠٠متر.

٣ - مد المشروع بالطاقة الكهربائية من ثلاثة مصادر تبادلية (شرق القاهرة) و(غرب القاهرة) و(السبتية) حتى لايتسبب انقطاع التيار من أحد هذه المصادر فى توقف تشغيل الخط، فى حالة عدم وجود بديل.

٤ - يتم تشغيل القطارات بالتحكم المركزى الإلكترونى، والذى يعمل أوتوماتيكيا ومن غرفة تحكم رئيسية.

٥ - تم وضع نظام يكفل عدم تعطيل الخط فى حالة تعطيل قطار على القضبان.

٦ - داخل كل قطار آلة الوقوف الأوتوماتيكى عند الإشارات الحمراء.

٧ - كل محطة مزودة بالمعدات اللازمة لتحقيق الأمن الكامل عند نشوب الحرائق، وماقد يحدث من تعطيل القطارات.

٨ - تزويد المحطات بمحطات صرف صحى لصرف أية مياه ناتجة عن تسرب، أو مياه غسيل المحطات، أو مياه الأمطار.

٩ - استخدام الوسائل التكنولوجية الحديثة فى إدارة كل محطة من المحطات.

.. وراكب آمن

ما سبق يتعلق بالأمور التى تحقق تأمين سير القطارات، وهناك أيضًا أمور تتعلق بتأمين وسلامة الراكب نفسه، ويمكن إيجازها فيما يلى:

١ - تزويد محطات النفق بمداخل ومخارج كافية، وعزل كامل بين الداخلين والخارجين، ويمكن الوصول إلى أحد رصيف المحطة من أى موقع خارجها، دون الاضطرار إلى عبور الشارع، وبهذا الشكل سوف تنعدم -تمامًا- حوادث المترو.

٢ - تزويد المحطات بشبابيك كافية لصرف التذاكر.

٣ - تصميم جميع الأرصفة، بحيث تستوعب جميع الركاب [٢٠٠ متر طول الرصيف].

٤ - تزويد محطات النفق بالإشارات الإرشادية والضوئية المبسطة، والإذاعات، فضلا عن وجود مكتب استعلامات.

٥ - تزويد المحطات بالبوابات، والتى لا تسمح بالدخول إلى الأرصفة إلا لحاملى التذاكر والاشتراكات، كما يتم التحكم فى خروج الركاب بنفس الأسلوب.

أما المحطات التى فوق الأرض. فيتم التحكم فى خروج الركاب بمعرفة المحصلين.

٦ - لن يسمح على الإطلاق بمسير القطار على الخط والأبواب مفتوحة.

٧ - تزويد المحطات والنفق بالإنارة الكهربائية اللازمة.

٨ - رصف أرصفة المحطات بمواد غير «زلقة» وتجهيز الحوائط ببلاطات مطلية بالميناء ودهان الأسقف بألوان غير عاكسة للضوء. وتغطية الكراسى بصلب مطلى.

٩ - تهوية المحطات والنفق بالهواء البارد، بحيث لا تكون درجة الحرارة داخل المحطات أو القطارات أعلى من الحرارة خارج النفق.

١٠ - جميع المنشآت بالنفق مصممة بحيث تسمح بسرعة الإخلاء فى حالة الطوارئ، وفى مدة لا تزيد عن دقيقتين.

١١ - الإجراءات مكفولة على الخط لتأمين الركاب ضد الحرائق.. وسحب الأدخنة بأحدث الأجهزة داخل النفق.

١٢ - فى حالة انقطاع التيار الكهربائى عن الثلاثة المصادر الرئيسية. توجد محطات خاصة إضافية وبطاريات

تكفى لتشغيل الخط مدة ساعتين على الأقل مما يحقق سلامة جميع ركاب المترو.

الباعة والمتسولون ليس لهم مكان :

ولقد أنشئ قسم جديد بالإدارة العامة لشرطة النقل والمواصلات للإشراف على مترو الأنفاق، ووافقت وزارة الداخلية على إنشاء هذا القسم بناء على دراسات أعدها مركز بحوث الشرطة التابع لأكاديمية الشرطة، وذلك بهدف حراسة وتأمين محطات المترو، وحراسة مخازن المهمات والمعدات، وتأمين محطات القوى الكهربائة المغذية للخط والقطارات، كما يتولى القسم تأمين القطارات، وضبط كافة الجرائم التى قد تقع داخل مترو الأنفاق. ومن المؤكد أن شرطة مترو الأنفاق لها مهام أخرى، وهى تحقيق الانضباط الكامل داخل المحطات، وذلك من أجل حضارة هذا المرفق. وحتى لا يكون مجالا لنشاط واسع للمنحرفين.

إن هناك مخاوف من أن يصبح مترو الأنفاق مرتعًا للمتسولين والنشالين والباعة الجائلين، ولا شك فى أن نظام العمل والتشغيل فى المحطات، وفى عربات المترو، لن يسمح

لمثل هذه الفئات من أن تزاول نشاطها.

فالمحطات لها بوابة، والبوابة لا تفتح إلا بتذكرة، ولا يمكن الخروج أيضًا من البوابة إلا عن طريق التذكرة المحددة بوقت معين.

ولا يستطيع أى متسول حتى فى حالة شرائه تذكرة أن يمارس مهنته، لأن هناك وقتا محددًا لوجوده تحت الأرض لا يتيح له فرصة كافية للتسول.

أما النشالون وهؤلاء مكانهم بين الركاب، فإن ممارسة نشاطهم يتوقف على نشاط ويقظة المخبرين داخل عربات القطار، والتى يبلغ عددها ٢٥٨ عربة، وتقطع ٤٠٤ رحلة كل يوم.

كل ما تقدم ذكره عن نشاط فئات معينة داخل مترو الأنفاق. مقبول من الناحية النظرية فقط، أما الناحية الفعلية العملية. فإنه لا يمكن الجزم تمامًا باختفاء المتسولين والباعة الجائلين والنشالين، إلا فى حالة الانضباط الكامل داخل هذا المرفق الجديد.

كيف تستخدم مترو الأنفاق؟

ويعمل مترو الأنفاق طوال أيام الأسبوع بما فى ذلك أيام العطلات الرسمية كالآتى:

شتاءً:

من الساعة ٥,٣٠ صباحًا إلى الساعة ١٢ ليلا.

صيفًا:

من الساعة ٥,٣٠ صباحًا إلى الساعة الواحدة ليلا، والفاصل بين قطارات المترو ٤ دقائق فى أوقات الذروة، وزمن وقوف القطار فى المحطة حوالى ٣٠ ثانية، والسرعة المتوسطة للقطارات ٤٠ كم/ساعة. وأقصى سرعة لها على الخط ٦٠ كم/ساعة.

ويقطع القطار المسافة من محطة حلوان إلى محطة رمسيس [حسنى مبارك] فى ٤٥ دقيقة.

ويمكن ركوب المترو باستخدام أحد أنواع التذاكر التالية :

١ - تذكرة لمسافة محددة (منطقة واحدة أو أكثر)

٢ - كارنيه [اشتراك] أسبوعى أوشهرى أو ربع أو نصف سنوى أوسنوى.

٣ - تذاكر خاصة بالعاملين فى جهاز التشغيل والصيانة لخط المترو.

ويمكن الحصول على تذاكر الركوب العادية من نوافذ صرف التذاكر الموجودة فى جميع المحطات، والتى تعمل طول فترة تشغيل المترو.

وأما كارنيهات [الاشتراك] بأنواعها المختلفة فيمكن الحصول عليها من المحطات.

وجميع التذاكر والاشتراكات تحمل شريطا ممغنطًا. عليه بيانات كاملة غير مرئية. عن التذكرة والاشتراك، حيث تشمل اليوم والتاريخ، والمنطقة أو المناطق التى تصلح لاستخدام التذاكر خلالها.

ويحتفظ الراكب بتذكرة الركوب أو الاشتراك بحالة جيدة، حيث إن إتلافها أو (تطبيقها) يتلف الشريط الممغنط. الموجود عليها، وبذلك تصبح غير صالحة للاستعمال.

ولكى يصل الراكب إلى رصيف المغادرة لركوب المترو..
يلزم المرور على صالة السفر. التى تم تجهيزها بعدة ممرات تؤدى إلى رصيف السفر، ويوجد عند مدخل كل ممر ماكينة لاختبار التذاكر أوتوماتيكيًا. والممر نفسه مغلق بعدة أذرع.

وللمرور من بوابات الدخول، يضع الراكب التذكرة الصالحة للاستعمال فى الفتحة المخصصة لذلك، فى ماكينة اختبار التذاكر، حيث تتم مراجعة بيانات التذكرة أو الاشتراك أوتوماتيكيًا. وفى حالة صلاحيتها للاستعمال يتم فتح أذرع الممر أوتوماتيكيا، حيث يسمح بمرور راكب واحد فقط منها، ثم تغلق الأذرع بعده مباشرة. وتخرج التذكرة أوتوماتيكيا أيضًا من فتحة أخرى فى نهاية الممر، بعد أن يتم طبعها بما يفيد اختبارها وصلاحيتها، حيث يأخذها الراكب، ويحتفظ بها معه، لحين خروجه من محطة الوصول.

إذا وضعت تذكرة غير صالحة للاستعمال فى ماكينة اختبار التذاكر [تذكرة سبق استعمالها، أو تذكرة تحمل بيانات مخالفة لليوم أو التاريخ، أو تذكرة خاصة بمنطقة ركوب أخرى خلاف التى ركب فيها الراكب.. إلخ] فإن ماكينة اختبار التذاكر. تعيد التذكرة ثانية إلى الراكب من نفس الفتحة

التى وضعت بها. دون أن يتم فتح أذرع ممر الدخول. ولا يمكن للراكب الدخول إلى رصيف المحطة.

بعد اختبار التذكرة فى أجهزة التحكم للدخول وختمها، لا تصلح التذكرة لإعادة استخدامها مرة أخرى للدخول فى ذات الوقت.

وللخروج من رصيف محطة الوصول، يلزم المرور على بوابات الخروج التى جهزت أيضا بأجهزة مماثلة لبوابات الدخول، ويتبع نفس الأسلوب للمرور من هذه البوابات إلى خارج المحطة.

ويوجد عدد من المفتشين مهمتهم المرور على الأرصفة، وداخل القطارات للتأكد من تواجد تذكرة السفر أو الاشتراك مع الركاب.

معلومات أخرى :

تفتح أبواب المترو أوتوماتيكيًا عند وقوف القطار بالمحطة ولا يتحرك المترو إلا بعد إغلاقها، وقبل تحرك المترو ينطلق صوت جرس، وعند سماع هذا الصوت يجب عدم الركوب أو النزول من المترو.

ويتم فتح أبواب المترو دائما من اليسار فى جميع المحطات، ويمكن الاهتداء الى المحطة عن طريق لوحة مضيئة Metro Sign. ومرسوم عليها علامة المترو، وتكون دائمًا عند مدخل كل محطة، حيث توجد كذلك لوحة عليها خط سير المترو، والمحطات المختلفة له، وكذلك خطوط الأتوبيس والترام، وأى وسائل نقل أخرى بالمنطقة، وقد تم زخرفة كل محطة بطريقة مختلفة عن الأخرى، بما يتلاءم مع الطابع الذى يضفيه الحى الموجود به المحطة، وذلك كالآتى :

محطة السيدة زينب	الطابع الاسلامى
محطة سعد زغلول	الطابع الوطنى
محطة السادات	الطابع الفرعونى
محطة عبد الناصر	الطابع الوطنى
محطة عرابى	الطابع الوطنى
محطة حسنى مبارك	العمارة الإسلامية

ويمكن التحرك بسهولة داخل المترو. حيث إن أجهزة السرعة والفرملة تعمل بمستوى عالٍ. ويحذر خروج الأيدى أو الرأس خارج النوافذ أو الأبواب، وخاصة فى منطقة سير المترو داخل النفق تحت سطح الأرض.

فى حالة توقف المترو داخل النفق :

ولا خوف على الركاب من توقف المترو [توقف لمدة قصيرة] حيث إن محطات التهوية تعمل بكفاءة لمدة لا تقل عن ساعتين من توقيت انقطاع التيار.

وفى حالة التوقف الطويل، ينزل الركاب من الأبواب الجانبية المجاورة لحائط النفق، حيث يوجد ممر مجاور لحائط النفق، يؤدى إلى المحطة التالية أو السابقة. أيهما أقرب، ويحذر إطلاقا السير فوق «السكة».

ويوجد بكل محطة مترو خريطة توضح الشوارع المتفرعة من المحطة ووسائل النقل الأخرى اللازمة للركاب لاستكمال خط السير، كما توضح الممرات التى تؤدى إلى خارج المحطة، ولإمكان الانتقال من رصيف إلى رصيف أنشئت كبارى وممرات سفلية، كما أنشئت كبارى مماثلة لنقل المواطنين من خارج المحطة. إذا أرادوا الانتقال من جانب المحطة إلى الجانب الآخر.

وتوجد بكل محطة إذاعة داخلية. لتبليغ الركاب عن وصول المترو وقيامه وكذا إعلان أى توجيهات هامة من مسئولى المحطة إلى الركاب.

استيراد التكنولوجيا ومترو الأنفاق

تحدثنا فى « المقدمة » عن أن مترو الأنفاق وضع أيدينا على وسيلة مواصلات متقدمة، تعتمد على التكنولوجيا الحديثة، ومن قبل لم تكن لدينا فكرة واضحة عن هذا النوع من وسائل النقل والمواصلات، وبإدخال هذه الوسيلة تكونت لدينا مجموعة من الخبراء والفنيين والعاملين فى هذا المجال، وهى فى الواقع قاعدة ينطلق منها خبراء وفنيون وكفاءات فى تكنولوجيا مترو الأنفاق.

ومترو الأنفاق أعطى لمصر الضوء الأخضر للحاق بركب التطور العلمى فى النقل والمواصلات.

والدراسة الواعية للتاريخ تؤكد على حقيقة واحدة يستطيع أى دارس متأن متأمل أن يستخلصها : وهى أن وسائل الانتاج وأدواته. أو ما نسميه بالتكنولوجيا، كانت

دائما هى « المُحَدِّد » الأعظم لمكانة القوى، والذى يمتلك مقومات وأسرار التكنولوجيا فى مختلف مناحى الحياة هو الذى يسود العالم فى هذا العصر، والمثل عندنا من اليابان، التى غزت أمريكا فى عقر دارها. إن أمريكا تجد الرجل اليابانى فى الشارع، وفى داخل الشقة، والمعنى أن المنتجات اليابانية دخلت كل مكان فى أمريكا المتقدمة، وخافت أمريكا على نفسها من اليابان، فوضعت قيودًا على الصادرات اليابانية إلى أمريكا.

وإذا كان التسجيل الإنسانى للحضارات قد امتد ليصل إلى ٦٠ قرنًا مضت، حيث حضارة مصر وبابل، فإن الدارس المتعمق فى تاريخ الحضارة يكاد يصاب بدهشة، إذا ما قاس المنجزات التكنولوجية للإنسان على مدى تلك القرون الستين بمنجزاته فى النصف الأخير من هذا القرن العشرين الذى نعيشه.

فلم تنم الإنسانية لتصحو فجأة على أن أحد أبنائها يخطو على سطح القمر، والناس تتابع خطواته على شاشات التليفزيون، إن ما وصلت إليه الآن من تقدم فى وسائل النقل والمواصلات السطحية أو تحت الأرض كان نتيجة جهد

وعرق العلماء والباحثين منذ قرون مضت.

ففى القرن السابع عشر، كانت هناك محاولات جادة ومضنية لاستخدام قوى البخار، ومنذ نجح العالم الإيطالى جوفانى برانطا فى تشغيل أول تربينة بخارية عام ١٦٣٠.

وفى عام ١٧٨٠ استطاع الشاب الأسكتلندى جيمس وات - وهو الابن الخامس لنجار سفن من «جرينوك» - أن يطور الآلة البخارية لسلفه الإنجليزى توماس نيوكمن، وينجح فى النهاية من تطورها بشكل جديد فعّال، أحدث فى العالم الغربى ثورة حقيقية لم تكن نتائجها أقل من نتائج الزلزال السياسى الذى هز فرنسا عام ١٧٨٩ متمثلا فى الثورة الفرنسية.

ولقد كانت آلة جيمس وات البخارية كافية لأن يتداعى نظام الإنتاج القائم على العمل اليدوى الذى يسيطر على الصناعة فى العصور الوسطى، فقد نشأ فى إنجلترا نمط جديد من الصناعة.

فاشترى التجار الآلات الجديدة وأقاموا المصانع، وظهرت فئة الرأسماليين، الذين عينوا العمال فى مصانعهم بأجر ثابت.

وظهر هذا التطور أول ما ظهر فى الأفرع الاقتصادية التى تتطلب آلات ثقيلة ورأس مال كبير، وخاصة فى مناجم الفحم التى أنقذت المضخات البخارية الكثير منها من الغرق، وفى صناعة الغزل والنسيج التى شهدت سلسلة من الاختراعات التى أحدثت ثورة فى كميات وأساليب إنتاجها.

وقد شهد القرن التاسع عشر المولد الحقيق لعصر الآلة البخارية، التى مكنت الصناعة من الإنتاج الكمى الهائل الذى لم تعهده البشرية من قبل.

وكان لابد لقوة البخار من أن تلعب دورًا مماثلا فى نقل هذا الإنتاج وتصريفه واستجلاب المواد الخام من المصانع، فظهرت أول سفينة بلا شراع عام ١٨٠٢.

وفى عام ١٨١٣ شاهد أهالى مدينة مانهايم بألمانيا منظراً غريبًا فى أحد شوارع المدينة : البارون فون درايس يركب آلة غريبة تتكون من عجلتين، ويجلس على عارضة تصل بين العجلتين، مرتديًا حلة خضراء فخمة ذات سترة طويلة مشقوقة من الخلف، وقد غطى رأسه بقبعة أسطوانية عالية، وكانت هذه أول صورة للدراجة التى يركبها الملايين الآن.

وفى عام ١٨٢٥ يفتتح جورج اسنفنش - وهو دكتور

الآلات فى ذلك الوقت - خطًا حديديًا بلغ طوله ١٦ كم فى إنجلترا، وكان جورج هو قائد القاطرة التى سحبت عربات محملة بالفحم والدقيق، ثم عربة خصصت لكبار الضيوف وعائلاتهم، وإحدى وعشرين عربة للركاب، ثم خمس عربات أخرى محملة بالفحم، أى أن القاطرة سحبت ٣٣ عربة، وكان عدد الركاب فى بداية الرحلة فى حدود ٢٠٠ راكب.

وسار القطار بسرعة «خرافية» كتبوا عنها حينذاك: «لقد كانت السرعة هائلة، وصلت إلى ١٩ كم فى بعض الأحيان واجتاز القطار المسافة البالغة ١٦ كم فى ساعة وخمس دقائق».

وأما رحلة العودة فقد صحبتها الموسيقى، وفصلت عربات البضاعة، وحل مكانها عربات للركاب، جلست فى إحداها فرقة موسيقية تعزف ألحانها على آلات النفخ المختلفة.

وفى ١٥ سبتمبر عام ١٨٣٠ تم افتتاح أول خط حديدى بين مانشستر وليفربول، عليه ثمانى قاطرات من تصميم وتنفيذ جورج ستيفنش.

وتتطور وسائل النقل والمواصلات بعد ذلك تطورًا كبيرًا،

نتيجة ما قام به الإنجليزى تشارلس بارسنس عام ١٨٨٤ عندما اخترع أول توربين بخارى، وفى عام ١٨٨٥ اخترع جوتليب دملر [ألمانى] أول دراجة تدور بمحرك بنزين.

وكانت أول سيارة فى العالم تجرى فى الشوارع اخترعها الألمانى كارل بنز عام ١٨٨٨. وتتطور الاختراعات والابتكارات بعد ذلك لتغير من شكل السيارة وحجمها ودرجة كفاءتها.

ولقد وقفت عقبات ضخمة أمام هؤلاء المخترعين والمبدعين، وكثيرًا ما توقف الكثير من العلماء باسم الدين عن تنفيذ اختراعاتهم، عندما اعتقدوا أنها لا ترضى الكنيسة، أو لا تتفق مع الدين، لدرجة أن الماركيز أوف ورستر - فى النصف الثانى من القرن السابع عشر - كان من أعظم مخترعى عصره، قد أثر عليه الفكر الدينى، فكان يظن أن الاختراعات من المحرمات، وكان يصلى لله خاشعًا معترفا بذنبه، ويطلب من الله أن ينزل عليه العقاب الذى يستحقه جزاء ما ابتكر واخترع.

ومن يفسر أيضًا أثر الفكر الدينى فى تفكير الناس الذين رفضوا تركيب مانعة الصواعق. التى اخترعها بنيامين

فرانكلين عام ١٧٥٢ قائلين: «إذا كان الله يريد أن يعاقب إنسانًا آثمًا بتصويب صاعقة إلى بيته، فكيف يظهر من بين البشر من يجرؤ على التدخل بين الله وخلقه»

ولقد سخر أعداء المخترعات من ستيفنسن حين عرض على مجلس العموم البريطانى مشروع تيسير خط حديدى بين مانشستر وليفربول عام ١٨٢٥. فقالت اللجنة البرلمانية المشكلة لبحث المشروع: «إنه ينطوى على جنون لم تعهده الإنسانية من قبل، أن منظر القطار البشع وهو ينطلق على قضبانه فى سرعة محمومة، سيؤدى إلى نتائج فظيعة، فسوف تسقط الأجنة من بطون النساء، ويوقف جريان اللبن فى ضروع البقر، وسيمنع الدجاج من وضع البيض، وأن الخيول ستعطل وتنقرض، وسيتحول الحوذية وأصحاب الفنادق على الطرق إلى شحاذين، وستنفجر مراجل القطارات وغرق الركاب، وسيصاب الركاب بالرعب، لأن الإنسان لا يحتمل سرعة تزيد على ١٥ كم فى الساعة».

والتضحيات من جانب المخترعين لاتعد ولاتحصى، وهى فى جميع المجالات، وهناك من المكتشفين من ضحى بنفسه فى سبيل تأكيد أفكاره، مثل الأستاذ الجامعى البلجيكى جوزيف

بلاتو، الذى حاول عام ١٨٢٩ أن يثبت أن الصورة الواقعة على شبكة العين لا تفقد «لحظيا» وإنما تظل منطبقة لفترة أخرى، وبهذا أثبت إمكانية فكرة السينما، وحينما أعوزته الوسائل لإثبات اكتشافه، ظل يحدق فى قرص الشمس ليتبين تأثيره على شبكة العين، وكان فى كل مرة يجرى فيها التجربة، يطيل زمن التحديق عن المرة السابقة، حتى فقد بصره تمامًا، وهو فى الثانية والأربعين بعد أن أفسدت الشمس شبكة عينيه.

وهناك مدام كورى، التى ضحت أيضا بنفسها حتى استخلصت «الراديوم» ثم ماتت نتيجة إشعاعاته.

ولنعد مرة أخرى إلى وسائل النقل والمواصلات. فنقول إن تقدما كبيرًا حدث فيها فى القرن العشرين، وتطورت تطورًا مذهلا، بل إن استخدام الوسائل التكنولوجية فى هذا المجال قد حدث فى نهاية القرن التاسع عشر، عندما دخل المترو [مترو الأنفاق] لأول مرة فى لندن عام ١٨٦٣. وطوله حوالى ٢٢٤,٣ كم الآن، ثم انتشر بعد ذلك فى أكثر من ٨٥ دولة. وأصبحت مصر الدولة رقم ٨٦ بالنسبة لاستخدام هذه الوسيلة من النقل والمواصلات.

وسوف تتضح أهمية استخدام التكنولوجيا فى النقل عندنا عندما نستكمل مشروع مترو الأنفاق بالكامل، والذى يقضى بعد استكمال الخط الإقليمى (حلوان - المرج) إنشاء الخط الثانى وهو الخط الحضرى الأول بين شبرا الخيمة وبولاق الدكرور، وطوله ١٣,٥ كم. ويعبر نهر النيل. مجاورًا لكوبرى التحرير وكوبرى الجلاء.

ثم الخط الثالث، وخط سيره من إمبابة إلى الإسعاف إلى الدراسة، وبطول ٨,٥ كم. ويعبر النيل بجوار كوبرى الزمالك، ثم يعبره معلقا بكوبرى أبو العلا.

بعد استكمال هذه الخطوط. سوف تدخل مصر عصر الأنفاق فى وسائل النقل، وسوف يلمس الراكب قيمة التقدم العلمى الذى يستخدم فى تحقيق راحته، عند استخدام وسيلة نقل تعتمد على العلم فى أرقى صورة، ويظهر ذلك واضحا فى محطات مترو الأنفاق. وفى الأنفاق نفسها، وفى القطارات التى تستخدم الكمبيوتر فى رحلتها.

قضية مثارة

ولقد أثار مشروع مترو الأنفاق قضية نقل التكنولوجيا إلى الدول النامية، فهناك من يؤيد، وهناك من يعارض، والمؤيدون يقولون : إن العلم ليس له وطن، وأن على الدول الفقيرة التى لا تملك أدوات البحث العلمى أن تستفيد بخبرات الدول المتقدمة.

وأما المعارضون، فإنهم يقولون : فى نهاية الخمسينات وأوائل الستينات، وبعد صحوة التحرر من الاستعمار، أفاقت الدول المستقلة حديثا. لتجد نفسها وحيدة ما تزال تعيش على حافة الحضارة، فمعظمها ما زال يزرع بالفأس، ولا يعرف من الصناعة إلا ما يسد حاجاتها الاستهلاكية أو يكاد، لقد تركتها الدول الاستعمارية هزيلة تعانى من الفقر.

أفاقت تلك الدول لتجد نفسها لا تستطيع تصريف مواردها الطبيعية من المواد الخام إلا بأرخص الأسعار، وبشروط تمليها عليها الاحتكارات الدولية، ولا تستطيع استيراد حاجاتها من السلع المصنعة إلا بأعلى الاسعار. أو بما لا تتفق مع قدراتها المادية.

وصارت هذه الدول تنظر إلى الدول الغنية المتطورة نظرة إعجاب ورهبة وتمتمت سرًا أو علانية لو وصلت إلى مستواها، ولكن ماذا تفعل هذه الكتلة المتخلفة وسكانها يشكلون ٧٥٪ من سكان الكرة الأرضية فيما يعيشون على ٢٠٪ فقط من كل دخل العالم، إن هذا يعنى ببساطة أن متوسط دخل الفرد فى الدول الغنية يساوى ٣٦ ضعفًا لمتوسط دخل الفرد فى الدول المتخلفة.

وكان الحل الأمثل للدول الفقيرة فى ذلك الساحر المنقذ « التكنولوجيا » ولكن كيف تستفيد من التكنولوجيا، وهى تعانى من نسبة عالية من الأمية، وأنظمة متخلفة فى التعليم. وأوضاع اقتصادية متدهورة. وديون تزداد يومًا بعد يوم، وتحمل كل تبعات التضخم النقدى العالمى، ومع تخبط فى السياسات الاقتصادية الداخلية، ما بين الانفتاح والانغلاق

والاشتراكية والرأسمالية.

كما أن التنمية الذاتية تحتاج إلى زمن ليس بالقصير، وجهد ليس بالقليل، وهى غير متيسرة. وخاصة إذا كان نصيب الفرد فى الدول المتقدمة فى الإنفاق على البحوث العلمية يبلغ ١٢٥ ضعفًا لنصيب زميله فى الدول المتخلفة.

إذن كان لابد من أن تشترى الدول النامية التكنولوجيا جاهزة، تشترى براءات الاختراع وحقوق التصنيع والعلامات والأسماء التجارية، والخدمات الإدارية والخبرات الإنتاجية، ولكن كم يدفع الفقير لقاء هذه المعرفة؟!

تقول تقارير مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية UNCTAD إن ما دفعته دول العالم المتخلف لقاء هذه المعرفة من مدفوعات مباشرة قد بلغ فى عام ١٩٦٨ ما يزيد على ١٥٠٠ مليون دولار. تصل هذا العام ١٩٨٠ إلى ١٠ آلاف مليون دولار. وهو رقم يمثل ضعف حجم إنتاج تلك البلدان من السلع المصنعة.

وهذه التكاليف التقديرية تمثل على أية طريقة جانبًا صغيرًا من التكاليف الإجمالية، ومن العسير قياس حجم هذه التبعية بالدولار أو بأية عملة، فالحق أن تكاليفها - غير

المباشرة - أعلى وأكبر من ذلك بكثير، وتتمثل فى زيادة أسعار الواردات من السلع الوسيطة والمعدات، والأرباح المكتسبة من المعرفة التكنولوجية. وارتفاع الأسعار.. إلخ.. هذه التكاليف غير المباشرة من الصعب حسابها.

والحق أنه من الصعب تجميع تلك العوامل المختلفة معًا. لكى تستخرج حاصل جمع حسابى لتكاليف التبعية التكنولوجية، ولكننا نستطيع أن نفترض أنها تتراوح ما بين ٣٠ - ٥٠ ألف مليون دولار فى العام الواحد، وهو ما يبلغ من ثلث إلى نصف استثمارات البلدان النامية كلها، فإذا كانت هذه الدول تنفق ٥٠٪ من مجموع استثماراتها على تبعيتها التكنولوجية، فإنها تنفق حوالى ألف بليون دولار أى أقل من ٥٪ من هذه الاستثمارات على أبحاثها العلمية، والتى يشكل الجزء اليسير منها أبحاثا حقيقية تخدم التنمية، ومعنى هذا ببساطة أن كل دولار ينفق على البحث العلمى (أيًا كان اتجاهه) يقابله مائة دولار تنفق لخدمة التبعية التكنولوجية، وإذا افترضنا أن الأبحاث الموجهة حقيقة للتنمية التكنولوجية الذاتية تشكل ٢٠٪ من ميزانية البحوث، فإن هذا بدوره يعنى أن كل خمسمائة دولار تنفقها الدولة النامية على خدمة

تبعيتها التكنولوجية تنفق مقابلها دولارًا واحدًا من أجل البحوث الموجهة للتنمية الذاتية.

ويستشهد أصحاب الرأى المعارض لنقل التكنولوجيا بما يقول سوندرا باتل، رئيس قسم نقل التكنولوجيا التابع للأمم المتحدة للتجارة والتنمية : من أن التكنولوجيا لها دور حاسم فى عملية التنمية، وأن نقل التكنولوجيا بين الدول الغنية والدول الفقيرة يتم فى سوق بعيدة عن الكمال، حيث تعيبها الامتيازات الاحتكارية التى يتمتع بها موردو التكنولوجيا، والذين يتمثلون أساسا فى الشركات المتعددة الجنسية، المحصنة بحقوق الملكية، مثل براءات الاختراع والماركات المسجلة، ويعيبها أيضًا أن المشترى من جهة أخرى فى مركز ضعيف لأن ما يشتريه هو التكنولوجيا، والتكنولوجيا ليست إلا معرفة وتملكا لأدوات المعرفة التى يفتقر إليها المشترى افتقارا واضحًا.

وهكذا فإن البلدان النامية - وهى بطبيعتها أطراف غير متساوية مع خصومها فى هذه اللعبة. وما دامت التكنولوجيا تجرى فى اتجاه واحد فقط، فإن حدود أو عيوب السوق هذه تتضخم وتتعقد باستمرار. فى غير مصلحة المشترى.

والواقع أنه لا يوجد شيء اسمه بورصة دولية للتكنولوجيا.

لقد أكدت الدراسات التى أجريت فى مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية وفى غيرها.. إن أنماط نقل التكنولوجيا الحالية أدت إلى زيادة تبعية بلدان العالم الثالث على الأقل من ناحية الكم. فإن أى بلد نام يعتمد على التكنولوجيا تقيم علاقات غير متكافئة مع البلد الذى يستورد منه التكنولوجيا.

ومع احترامنا لأصحاب الرأى المعارض لنقل التكنولوجيا فإن مشروع مترو الأنفاق، ليس نموذجًا لنقل التكنولوجيا بدون تدخل أو مشاركة العقول المصرية فى المشروع، والدليل على ذلك:

١ - أن الجانب المصرى شارك مشاركة حقيقية فى المشروع منذ البداية، تخطيطًا وتنفيذًا، بل إن الخبرة المصرية كان لها دور مباشر فى تنفيذ المشروع.

٢ - بالاشتراك مع الجانب الفرنسى خلال مدة المشروع (تنفيذ الجزء الأول من الخط الإقليمى حلوان - المرج) تكونت لدى الجانب المصرى خبرات على درجة كبيرة وعالية

من الكفاءة والقدرة فى مجال هندسة أنفاق المترو من بدايتها حتى نهايتها.

٣ - كان للخبرة المصرية دور واضح فى حل المشاكل التى اعترضت تنفيذ مشروع مترو الانفاق. وخاصة مشاكل المياه الجوفية، والمرافق المتهالكة تحت الأرض، والتى تفتقر إلى خرائط واضحة تحدد مساراتها.

ولهذا فإننا نقول إن مشروع مترو الأنفاق ابتعد تمامًا عن سلبيات نقل التكنولوجيا إلى البلاد النامية.

مترو الأنفاق والتلوث

إن استخدام مترو الأنفاق. يقضى بدرجة كبيرة على تلوث البيئة. ولقد أكدت الدراسات التى أجريت على الخط الإقليمى (حلوان - المرج) أنه سوف يقلل من نسبة التلوث فى وسط المدينة بدرجة ٨٢٪، وذلك نتيجة تخفيض وسائل النقل السطحى فى منطقة وسط المدينة أو بالتالى تخفيض نسبة الوقود المستعمل، وتخفيض نسبة العادم فى الشوارع.

ومن مشاكل القاهرة التى نعرفها أن بها نسبة كبيرة من تلوث الهواء، لا تتواجد فى أى دولة أخرى فى العالم، ولم تتبع حتى الآن جهود جهاز شئون البيئة التابع لمجلس الوزراء فى تقليل نسبة تلوث الهواء. أو حتى التلوث فى الماء، ولا شك من أن التلوث يحاصر سكان القاهرة الكبرى، مما أدى إلى تدهور بيئة القاهرة.

ولقد أثبتت البحوث العلمية أن هناك ارتباطًا كبيرًا بين كمية استهلاك الطاقة - الوقود بالذات - وكمية التلوث الناتجة عند استخدام هذه الطاقة.

وأثبتت الأبحاث أيضا أثر تلوث البيئة على زيادة الأمراض المختلفة، وأهمها السرطان، ولقد اتضح أن معامل الارتباط بين استهلاك الفرد للطاقة (كدالة على التلوث) والإصابة بالسرطان فى أى دولة. وهو معامل موجب وتتراوح قيمته من ٠,٦٠ إلى ٠,٤٣ للذكور. ومن ٥٦٪ إلى ٠,٤٢ للإناث.

ولقد بينت الإحصاءات أنه فى الوقت الذى زاد فيه سكان الدول الغنية بنسبة ١١٪ فيما بين عامى ١٩٦٠ - ١٩٧٠ فإن عدد السيارات بها قد زاد بنسبة ١٠٠٪ فى نفس الفترة. حتى وصل إلى ٢٠٠ مليون سيارة عام ١٩٧٢، وأصبح ٣٢٠ مليون فى عام ١٩٨٥.

ويعنى هذا مزيدا من الأرض والطرق للنقل، ومزيدا من ارتفاع الأسعار. ومزيدًا من التلوث من سيارات تستهلك فى الولايات المتحدة وحدها ٥٥٪ من المنتجات البترولية.

وبالرغم من الحقيقة العلمية المعروفة بأن النقل

بالسيارات أسوأ وأكثر الطرق (طرق النقل) تكلفة بعد الطائرات، فإن الاحتكارات العالمية المالكة للتكنولوجيا ما زالت تدفع بالمزيد من السيارات إلى الأسواق العالمية «وتدفع» أيضًا من أجل تدهور السكك الحديدية. لتحقيق كل الفرص أمام صناعة السيارات وتسويقها للعالم كله. وخاصة الدول النامية. وكل ذلك يأتى على الإنسانية بمزيد من التلوث الناتج من عادم السيارات. ومزيد من حوادث السيارات. التى بلغت فى العام الماضى وحده ربع مليون قتيل. فضلا عن الجرحى والمعوقين.

ومن الأمور الغريبة أن الدول الغنية أصبحت تعتمد اعتمادًا كبيرًا على وسائل النقل التى لاتعتمد على الوقود مثل مترو الأنفاق، كما أن هذه الدول وضعت قيودا كبيرة حول استخدام الوقود للسيارات.

وبالنسبة لنا فى القاهرة وفى وسط المدينة فإن الإحصاءات تؤكد أنه فى ميدان التحرير وحده ٥٢٠ أتوبيس. تحمل ٥٢ ألف راكب. وفى ميدان رمسيس تحمل الأتوبيسات ٤٢,٥٠٠ راكب. وفى ميدان العتبة تنقل الأتوبيسات ٤٨,٥٠٠ راكب. أما بالنسبة للسيارات الخاصة. فإن حجمها وعددها يفوق

بكثير الطاقة الاستيعابية للشوارع فى وسط المدينة. ومن أجل ذلك وجدنا أن وسط القاهرة يعتبر أكبر منطقة فى القاهرة الكبرى مصابة بالتلوث وبالضوضاء. الذى يعتبر نوعًا من أنواع التلوث أيضًا.

ولكى نعرف التأثير المباشر لتلوث الهواء والبيئة عمومًا على صحة الإنسان نقول: إن الهواء الذى يتنفسه الإنسان يتركب من نسبة ثابتة من الاوكسجين والنتروجين وثانى أوكسيد الكربون، إلى جانب الغازات الأخرى الضئيلة الأثر. ولكن المداخن العالية وعوادم السيارات والأتوبيسات التى تنفث سمومها بغاز ثانى أكسيد الكربون. تحقق نسبة عالية من التلوث. ونسبة زيادة هذا الغاز الخانق فى ازدياد مستمر فى سماء القاهرة الكبرى، وخاصة وسط المدينة.

وهناك إحصائية تؤكد أن الولايات المتحدة وحدها مسئولة عن ٢٥٪ عن كل ما يلوث العالم من هذا الغاز الخانق. وذلك عن طريق بيع السيارات إلى دول العالم. وأن أوربا وكندا والاتحاد السوفيتى مجتمعة مسئولة عن ٧٥٪ الباقية. وأما بقية دول العالم المختلفة، فهى لا تمتلك شرف المشاركة فى هذا التلوث.

لقد قفزت نسبة ثانى أوكسيد الكربون فى الهواء من ٢٦٥ جزءًا فى المليون بالحجم عام ١٨٥٠ لتصل إلى ٣٣٠ جزءًا فى المليون بالحجم عام ١٩٧٨. أى بنسبة زيادة تقترب من ٢٥٪.

وجو القاهرة يحمل أكبر نسبة فى العالم من غاز ثانى أوكسيد الكربون السام.

وناهيك عن أثر هذا الغاز القاتل على صحة الإنسان والذى بسببه انتشرت الأمراض الصدرية وأمراض القلب وغيرها. فإن زيادة نسبة هذا الغاز فى الطبقات السفلى من الغلاف الجوى أدى إلى ارتفاع درجة الحرارة بما يتراوح بين ١,٥ ـ ٣ درجات مئوية. وإذا قاوم الإنسان ارتفاع درجة الحرارة بالمزيد من أجهزة التكييف ـ فإن النباتات والمخلوقات الأخرى سوف تتأثر تمامًا.

ونحن هنا نتكلم عن تلوث الهواء، فإن هناك أنواعًا أخرى من التلوث، مثل تلوث المياه، وخاصة مياه الشرب، وهناك أيضًا تلوث التربة بالنفايات، وتلوث الأرض بالقمامة والقاذورات، لكن تلوث الهواء أخطر أنواع التلوث الذى يصيب الإنسان ويؤثر عليه تأثيرا مباشرًا وإذا كانت القاهرة

من أولى مدن العالم تشبعًا بتلوث الهواء، والسبب الرئيسي يرجع إلى عوادم السيارات فى الشوارع فإن مترو الأنفاق سوف يحل مشكلة التلوث بشكل يكاد يكون نهائيًا فى منطقة وسط المدينة.

إن مدينة القاهرة ينطبق عليها قول لويس ممفورد فى كتابه «المدينة على مر العصور». عندما قال: إن حركة التصنيع. بتلك القوة الخلاقة الرئيسية فى القرن التاسع عشر وقد تمخض عنها أسوأ ما شهده العالم من انحطاط البيئة الحضرية، فلقد ساعد تركيز المصانع على نمو المدن، وبلغت الزيادة فى عدد سكانها حدًّا طاغيًا، وكان من الضرورى توفير وسائل النقل وحل مشكلة المرور والزحام فى المدينة، وزادت المدن الكبرى عددًا ومساحة وسكانًا، دون إقامة نظام تخطيطى على أساس سليم».

إن مدينة القاهرة ظلت سنوات عديدة بدون تخطيط عمرانى أو تخطيط فى وسائل المواصلات، مما جعلها مدينة مزدحمة لا تتحمل شوارعها هذا الكم الهائل منه جميع أنواع السيارات والمركبات، ولهذا أصبحت هذه المدينة الكبيرة ذات العشرة ملايين نسمة فى حاجة ماسة إلى مترو الأنفاق.

المرور ومترو الأنفاق

قبل تسيير خط مترو الأنفاق كانت منطقة وسط المدينة فى حالة من السوء تتطلب حلاً جذريًا لمشكلة اختناقات المرور فى المنطقة، ولذلك كان تحسين الأحوال المرورية فى وسط المدينة من الضرورات الملحة، والمتتبع لحركة المرور يلاحظ اكتظاظ جوانب الطرق بالسيارات المعوقة لحركة المرور، بالإضافة إلى الأحوال السيئة لأرصفة ومسارات المشاة، وخصوصًا عند التقاطعات. والصورة العامة تدل على الأختلاط الواضح فى حركة الشارع بين المشاة والسيارات الخاصة والأتوبيسات والميكروباصات وعربات الترام، كل ذلك أدى إلى خنق كفاءة المرور فى الشوارع، وأصبحت الحركة المزورية وسط المدينة شبه متوقفة.

ومن الثابت علميًا أن توفير طاقة نقل كبيرة - من وإلى

وسط المدينة - بواسطة الخط الإقليمى لمترو الأنفاق يوفر البديل لمالكى السيارات الخاصة، بالانتقال بوسائل النقل الجماعى، وبذلك يمكن إدخال وتطبيق سياسة رشيدة فى مجال انتظار السيارات وتنظيم المرور بوسط المدينة، والتى يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ - التنظيم والتحكم فى الانتظار بوسط المدينة، ونعنى بذلك مثلث رمسيس - العتبة - التحرير.

٢ - زيادة وتحسين تسهيلات المشاة. حتى نقابل الأحجام الهائلة من الركاب التى سوف تنقل عن طريق الخط الإقليمى لمترو الأنفاق، ووسائل النقل العام الأخرى.

٣ - تحسين خدمات النقل الجماعى الأخرى وإعطائها أولوية على النقل الخاص كلما أمكن ذلك.

٤ - تحسين خدمات الترام ومترو مصر الجديدة. وعزله عن المرور الخاص كلما أمكن ذلك.

٥ - إعادة تنظيم وتحسين نظم الإشارات المرورية

٦ - تحسين أحوال المرور الخاص. ورفع كفاءة شبكة الطرق.

وقد تم تحقيق هذه الأهداف على النحو التالى :

١ - تنظيم الانتظار والتحكم فيه على جانبي الطرق بعمل عدادات الانتظار، وكذلك فى المساحات والجراجات متعددة الطوابق.

٢ - عزل الترام عن المرور الخاص فى معظم أجزاء الخط الدائرى حول وسط المدينة ونقلة إلى جانب الطريق. وتم عمل أرصفة لحماية المشاة بحواجز خاصة وبطول اجمالى ١٩٧٠ مترًا. وأعطيت مركبات الترام عند التقاطعات أولوية مرور من طريق إشارات ضوئية خاصة.

٣ - تحسين نظام تشغيل إشارات المرور عند حوالى ٨٠ تقاطعًا بوسط المدينة، مع نظام مركزى لتحديد أماكن الأعطال، ومتابعة أعمال الصيانة، وتحسين نظام التشغيل للإشارات بنظام «الموجة الخضراء».

٤ - زود وسط المدينة. وفى الأماكن المناسبة بـ٢٢ لافتة. لبيان الاتجاهات و بـ٨٢٤ لافتة. للتعليمات المرورية والإرشادية.

٥ - تحسين وصيانة نظام الإضاءة بوسط المدينة، وذلك بدهان وصيانة ٩٠٠ عمود إضاءة، وتجديد ٤٠٠ عمود إضاءة أخرى. وتثبيت ١٥٠ «بطاتونى» إضاءة أسفل طريق

٦ أكتوبر العلوى. وتركيب ٢٠ عمود إضاءة عالية فى الميادين.

وقد نتج عن تنفيذ هذه الخطة. زيادة ملحوظة فى سرعات مركبات النقل الجماعى. بما فيها الأتوبيسات. حيث أصبح الوفر فى زمن وسط المدينة لخط الأتوبيس ما بين ٥ - ١٠ دقائق. لكل رحلة. وهو وقت «نمطى».

وكذلك فإن التحسينات التى حدثت فى تخطيط التقاطعات ونظام عمل الإشارات زادت من كفاءة شبكة الطرق بوسط المدينة، والنتيجة المباشرة: تقليل أزمنة تأخيرات المرور الخاص والعام. وسوف تقل نسبة حوادث المرور بدرجة كبيرة.

وأخيرًا فإن من أعظم الفوائد التى نجمت عن مشروع مترو الأنفاق بتحسين المرور ونظام النقل الجماعى تحسين بيئة وسط المدينة عمومًا، وما ترتب على ذلك من مكاسب حضارية، نتيجة عودة النظام مرة أخرى إلى الشارع المصرى، خاصة فى قلب القاهرة الكبرى، والذى يعتبر مثالاً للازدحام بجميع أنواعه.

والصورة الآن فى وسط المدينة: سيولة وسهولة فى

وسائل النقل، حققت راحة للمواطن الذى يختار الآن وسيلة النقل التى يريدها. وأصبحت الرحلة من وإلى وسط المدينة أكثر راحة وهدوءًا كما أن عددًا من المواطنين أصحاب السيارات الخاصة عزفوا عن استخدام سياراتهم فى أغلب الرحلات. خاصة بعد توافر ساحات الأنتظار حول وسط المدينة وقرب محطات المترو..

وقد ساعد ذلك على تقليل حجم السيارات فى شوارع وسط المدينة.

وبعد استكمال المشروع بالكامل (الخط الإقليمى. والخط الحضرى) سوف تنتهى أزمة المرور تمامًا فى شوارع القاهرة الكبرى.

فوائد أخرى

يأتى مشروع مترو الأنفاق على رأس المشروعات لأهميته الاقتصادية والاجتماعية والحضارية. واستغرق العمل فى المشروع ٦٦ شهرًا، وبلغ متوسط عدد العاملين فى المشروع حوالى ٤٠٠٠ من العاملين المصريين و ٣٠٠ من العاملين الفرنسيين. وقد خلق المشروع كوادر فنية مصرية تدربت على هذا النوع من العمل. الذى ينفذ فى مصر لأول مرة.

ولقد أعطى هذا المشروع فرصة كبيرة للشباب الجامعى- الذى قضى فترات الإجازات الصيفية فى العمل بهذا المشروع - فرصة إيجابية للمشاركة فى بناء المرافق. وشق الأنفاق تحت الأرض، وحقن التربة وإنزال الحوائط الخرسانية الضخمة، وغيرها من الأعمال التى زادت من خبرات الشباب، وخاصة طلاب الكليات المتخصصة، كالهندسة وغيرها.

هذا بالإضافة إلى أن مشروع مترو الأنفاق حقق احتكاكًا مباشرًا بين الشباب فى مصر، والشباب فى فرنسا، الذين يعملون فى الشركة الفرنسية المنفذة للمشروع. ومن ثمراته التعرف على لغات أجنبية.. ولا شك فى أن بناء مترو الأنفاق يمثل شكلاً من التعاون البنّاء بين مصر وفرنسا.

ومن الفوائد التى تحققت نتيجة تنفيذ مشروع مترو الأنفاق أن الخط الإقليمى (حلوان - المرج) ساعد على تجديد العديد من شبكات المرافق. وقد ساهم جهاز مشروع مترو الانفاق بعملية تحويل لهذه المرافق التى كانت متهالكة تمامًا، حدث ذلك قبل بدء عمليات الحفر، بل تم تطوير وتزويد هذه الشبكات بما يساعدها، ويمكنها من استيعاب المزيد من الخدمات فى المستقبل، ورسمت خرائط لهذه الشبكات، يمكن الرجوع إليها فى أى وقت، وقد كنا نفتقر إلى هذا النوع من الخرائط تمامًا، وكثيرًا ما حدث أن انفجرت أكثر من ماسورة للمياه أو المجارى. وعند الاصلاح كانت تواجهنا مشاكل عديدة أولها عدم معرفة خط سير الشبكة تحت الأرض، مما أدى إلى ضياع الوقت فى عمليات الإصلاح، وتعطيل حركة المرور لمدة طويلة.

كما ساعد مترو الأنفاق على إقامة العديد من الكبارى العلوية والأنفاق الفرعية الأرضية، التى تعترض أو تتقاطع مع خط سير المترو، وذلك بالنسبة للسيارات أو المشاة، وقد ساعد ذلك على تحسين المرور وتقليل الحوادث، وعن طريق تنفيذ المشروع يمكن إعادة تخطيط بعض شوارع القاهرة من جديد، وخاصة فى منطقة وسط المدينة، بعد عمل التحويلات المرورية لمسار وسائل النقل بعد تنفيذ المشروع. وبهذا الشكل يمكن السماح بلمسة جمالية لشوارع القاهرة. وقد افتقدت هذه الشوارع الجمال والهدوء..

شهادة براءة

كان من الطبيعى بالنسبة لمشروع مترو الأنفاق كأى مشروع على درجة كبيرة من الأهمية أن ترتفع بعض الأصوات مطالبة بعدم تنفيذ هذا المشروع، وكان السبب يرجع إلى تخوفهم من أن مترو الأنفاق أثناء التنفيذ والتشغيل سوف يؤثر على المبانى والمنشآت والمساكن المقامة على جانبى الخط، أو بالقرب منه، خاصة أن بعضها متهالك تمامًا. والدليل على ذلك المبانى والمنشآت والمساكن فى منطقة السيدة زينب.

ولقد تحدثنا - من قبل - عن الاحتياطات الهندسية التى اتخذت أثناء حفر النفق، وبتعثر المشروع، للمحافظة على هذه المنشآت والمساكن، وهذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه أثناء العد التنازلى، وقبل أيام على تسليم المشروع من

الشركة الفرنسية المنفذة، وقبل بدء التشغيل الفعلى، فإن أعماق الأرض قد شهدت تجربة مثيرة، تعد بمثابة شهادة البراءة لهذا المشروع الضخم، أقصد تجارب التحميل والمرور التى استغرقت ثمانى أيام متواصلة، باستخدام ١٢ عربة محملة بالبازلت. تجرها وتدفعها من الأمام والخلف جرارات ثقيلة، بإجمالى حمولة ١٠٠٠ طن، وسرعة ٦٠ كيلو مترا فى الساعة وذلك للتأكد من سلامة التركيبات والقضبان. وقد شملت هذه التجارب نقل حمولات تبلغ مجموعها ٣٠٠ ألف طن من خلال ٣٠٠ رحلة، وهو ما يعادل مسيرة ٤ شهور لقطارات المترو. ونجحت التجربة تمامًا، ولم تحدث أية اهتزازات لها تأثير فعال على سلامة المبانى والمنشآت والمساكن والبعض الآخر تخوف من تأثير مترو الأنفاق على متحف الآثار بميدان التحرير إنهم يقولون إن المتحف المصرى قد تأثر من قبل ببناء كوبرى أكتوبر، حيث ساعد هذا البناء على انتشار الأتربة داخل ممرات المتحف، وتأثر الآثار بالأتربة، وخاصة القطع الأثرية الملونة. وكذلك المومياوات، وسوف يؤثر مترو الأنفاق كذلك على المتحف بسبب الاهتزازات التى تحدثها عربات القطارات أثناء التشغيل

اليومى حتى منتصف الليل.

وقد وضع المسئولون عن التنفيذ والتشغيل هذه المخاوف موضع الاعتبار، فقد روعيت سلامة القطع الأثرية داخل المتحف المصرى عند تنفيذ النفق بمنطقة المتحف، حيث تم الحفر بطريقة الحفر من الداخل، وليس بطريقة دق الحوائط على الجانبين.

هذا بالإضافة إلى (فرش) طبقة كاوتشوك عازلة تحت «فلنكات» وقضبان وزلط الخط الحديدى بالمنطقة المجاورة للمتحف.

وقد أجريت دراسة مؤخرًا، أظهرت أن حركة البشر داخل المتحف المصرى تحدث قدرًا من الاهتزازات والذبذبات يفرق القدر الذى يحدثه تشغيل القطارات داخل النفق بجوار المتحف.

إن النظر لمشروع مترو الأنفاق من زاوية محدودة خطأ يجب ألاّ نقع فيه، فهناك تساؤل بأن مشروع مترو الأنفاق والنفقات التى تكلفناها فى المشروع كانت تكفى لبناء عدة مدن سكنية، وهذه المدن كافية لتحل مشكلتين فى وقت واحد : مشكلة الإسكان الطاحنة فى القاهرة الكبرى ومشكلة

المرور وازدحام المواصلات. أما كيف؟ فلأن هذه المدن الجديدة تستوعب الزيادة الرهيبة فى عدد سكان القاهرة، وبالإقامة فيها. وهذه المدن الجديدة بالتالى تخفف الزحام فى الشوارع.

وهذا القول مردود عليه، لأن مشكلة الإسكان لها جذور وأسباب وفروع بعيدة تماما عن مترو الأنفاق. وهناك خطة من الدولة لحل هذه المشكلة على مراحل.

إن مشكلة زيادة عدد السكان ترتبط بالدرجة الأولى بعدم تنظيم النسل أو عدم الرغبة فى الحد من المواليد، بالإضافة إلى عدم التخطيط السليم فى مواجهة الزيادة السكانية، التى لا يقابلها - على الواقع - تخطيط استراتيچى لمشكلة الإسكان سواء فى القاهرة أو غيرها من المدن - ولذلك فإن محاولة تحقيق الأرتباط بين أزمة الإسكان وبين مشروع مترو الأنفاق ليس فى محله.

ولقد أثبتت معظم الدراسات التى أجريت على التجمعات الجديدة، والمدن الجديدة التى أنشئت بالقرب من القاهرة - مثل مدينة العاشر من رمضان، ومدينة السلام، ومدينة السادات - أن هذه المدن لم تغير من واقع الكثافة

السكانية على القاهرة (بالسلب). بل على العكس. زادت من ازدحام القاهرة، فالذى يسكن فى مدينة العاشر من رمضان - على سبيل المثال- نجده فى القاهرة بشكل مستمر، إمّا لأنه يعمل فى القاهرة أو لقضاء شئونه فيها.

إن مشكلة الإسكان تحتاج منا إلى طفرة فى التشريعات والقوانين واللوائح المنظمة للعلاقة بين المالك والمستأجر، وتحتاج إلى تنظيم مسألة الشقق المفروشة أو الخالية، أو العمارات التى يتم بناؤها ثم تترك خالية، فى محاولة لرفع قيمة شقق التمليك.. إلخ.

كلمة أخيرة

لقد أصبح مشروع مترو الأنفاق حقيقة واقعة - والمشروع تحققت له كل أسباب النجاح، وأقصد الأسباب الهندسية والفنية التي تتعلق بالتخطيط والتنفيذ، وأما ضمان التشغيل واستمراره فإنه يتوقف على عاملين أساسيين:

أولهما: صيانة شبكة المترو للمحافظة عليه ومن المؤكد أن تحقيق هذا المشروع الأهداف المرجوة منه - سواء كانت اقتصادية أو خدمية - يتوقف بدرجة كبيرة على كفاءة التشغيل وصيانة المعدات، حتى يؤدي هذا المرفق عمله على أكمل وجه، وطبقًا للمعدلات التي بنيت عليها دراسات النقل ودراسات الجدوى الاقتصادية.

وأما العامل الثاني فإنه على درجة كبيرة من الأهمية، وهذا العامل يتعلق بالجمهور الذي يستخدم هذه الوسيلة من

وسائل النقل.

إن الحفاظ على المرافق العامة أمر ضرورى وحتمى، وهذه المرافق التي اشترك كل مواطن فى تكلفتها جديرة بأن يرعاها هذا المواطن بطريقة متحضرة، بعيدة تمامًا عن أى عبث، وتبدأ الرعاية منذ دخول المواطن محطة المترو حتى نهاية الرحلة التى يبتغيها، وما يتخللها من سلوك متحضر يتعلق بالنظافة والمحافظة على المعدات التى يتعامل معها بشكل حضارى بعيدًا عن العبث.

ولقد كتب د. سيد عويس. المستشار بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية مقالا حول سلوك المواطن تجاه مترو الأنفاق، وعن تأثير مترو الأنفاق على القيم الاجتماعية المصرية، فأوضح أن المسئولين والمواطنين جعلوا من التعريفة الجديدة لتذكرة مترو الأنفاق مشكلة، وأنه يرى - د. سيد عويس - أن إنشاء هذا الصرح التكنولوجى لا يعنى التعريفة فحسب، بل يعنى أمورًا أخرى هامة.. تتعلق بالقيم الاجتماعية.

إن القارئ يعلم أن التكنولوجيا تؤثر فى الإنسان الذى يستخدمها، وهو بدوره يؤثر فيها والأمثلة العديدة على

مصداق هذه الحقيقة نراها فى بيوتنا «جهاز التليفزيون والثلاجة والسخان وجهاز التكييف».

وأهم القيم الاجتماعية التى تتأثر بمترو الأنفاق هى القيم التى لها علاقة بحقوق المواطنين وواجباتهم، أى تلك القيم التى تكون عادة من وراء أنماط سلوك المواطنين الذين يستخدمون المترو، سواء كانت هذه الأنماط تتعلق بالحقوق التى يسعون إلى تحقيقها، أو بالواجبات التى يكونون بالضرورة مسئولين عنها أمام المسئولين، أو أمام أفراد المجتمع المصرى عمومًا.

والمتوقع . . باستخدام المترو أن يكون المواطنون المنتفعون بهذا الاستخدام يعرفون القراءة والكتابة ليعرف كل واحد منهم من أين يبدأ استخدام المترو وأين ينتهى، وإذا لم يكن مُلمًا بالقراءة والكتاب فعليه أن يسترشد. أما الأمية الوظيفية فهى فى ضوء تعريف «منظمة اليونسكو» عدم الإلمام بالقراءة والكتابة بالمستوى الذى يمكّن الفرد من ممارسة الأنشطة التى تتطلب معرفة القراءة والكتابة، بما فى ذلك توسيع معارفه ذاتيًا، أى تعليم نفسه، إذا ما اقتضى الأمر ذلك.

وإذا كان المواطنون الأُمِّيُّون أمية أبجدية أو وظيفية،

والذين يستخدمون مترو الأنفاق فى حاجة إلى مرشدين لكى ييسِّروا لهم هذا الاستخدام فى الأوقات العادية، فهم - أى هؤلاء المواطنين - فى حاجة ماسة أكثر فى أوقات الذروة، وهم - من باب أولى - فى حاجة أشد لإنهاء كل الإجراءات، ومن ثم فاختيار هؤلاء المرشدين لابد أن يكون اختيارًا موفقًا.

ومن حق هؤلاء المواطنين أن تتيسر لهم كل الظروف لكى يستخدموا المترو فى ظل المجتمع المصرى ذى الأهداف الرشيدة، وفى ظل مُثله العليا ومبادئه.

إن مترو الأنفاق كقيمة حضارية فى مسيس الحاجة إلى سيادة قيم النظافة المادية والمعنوية على السواء، وفى ضوء الخبرات نلاحظ أن سيادة هذه القيم قد تتزعزع إذا لم تجد الإرشاد الواعى والقدوة الحسنة، لأن طبيعة مكان مترو الأنفاق، إذا ما تُرك بدون رعاية واعية، لن يكون أفضل من أى مكان يستمرئ بعض أعضاء المجتمع أن يدعوا القيم الاجتماعية ذات الأهداف الحميدة جانبًا، ويعيشوا حياتهم يستخدمون المترو فى ظل القيم الاجتماعية ذات الأهداف المشينة.

والملاحظ على ضوء نتائج البحوث والدراسات العلمية التى أجريت، أن الجرائم بأنواعها مثلا قد ترتكب فى الأماكن المقدسة، وفى الأماكن العادية على السواء، نجد أن هذه الجرائم قد ترتكب فى البيوت العادية، وفى بيوت العبادة، وفى الشوارع والحارات، وفى القطارات والسيارات وغيرها من الأماكن. إن كل مكان - سواء فى المدينة أو القرية، أو حتى فى الصحراء، يتيسر أن ترتكب فيه الجرائم بأنواعها وصورها، ومن ثم فإن مترو الأنفاق كمكان يصلح لارتكاب جرائم القتل والسرقة، خاصة جرائم النشل، أو الجرائم الأخرى، كالاتجار فى المخدرات بأنواعها وتعاطيها، فضلا على الموبقات الجنسية بصورها العديدة.

ولتكن لنا فى سكنى المقابر وما يحدث فيها من موبقات - على الرغم من احترامنا لأمواتنا - عبرة والمعلوم أن ظاهرة سكنى القبور كظاهرة بدأت فى المجتمع القاهرى منذ خمسة وعشرين عامًا.

أذكر ذلك بعد أن أصبح مترو الأنفاق حقيقة واقعة بعد أن كان حلمًا منذ أكثر من ٥٠ عامًا، وذلك بفضل صناعة الخالدين، من مهندسين، وإداريين، وعمال مصريين.

الملحق

حقائق وأرقام

دراسة اقتصادية حول الخط الإقليمى
(المرج - حلوان)

١ - المرحلة الأولى من حلوان - رمسيس :

- قيمة الوفر فى زمن الرحلات على افتراض أن قيمة الساعة ٤٠ قرشًا ٤٩,٢٧٥ مليون جنيه مصرى

- قيمة الوفر فى الطاقة نتيجة تخفيض انتظار السيارات فى الإشارات ٧٧,٦٠٠ مليون جنيه مصرى

- إجمالى قيمة العائد السنوى :

١٢٦,٨٧٥ مليون جنيه مصرى

٢ - المرحلة الأولى والثانية من حلوان حتى المرج :

- قيمة الوفر فى زمن الرحلات على افتراض أن قيمة الساعة ٤٠ قرشًا ٨٧,٦ مليون جنيه مصرى

- قيمة الوفر فى الطاقة نتيجة تخفيض مُدد الانتظار فى الإشارات ١٠٣,٤٨ مليون جنيه مصرى

- إجمالى قيمة العائد السنوى :

١٩١,٠٨ مليون جنيه مصرى

عدد المحطات (الخط الإقليمى)

- عدد ١٦ محطة ما بين حلوان والسيدة زينب.
- عدد ٥ محطات تحت الأرض بقطاع النفق ما بين السيدة - رمسيس.
- عدد ١٢ محطة ما بين غمرة الجديدة والمرج.

التغذية بالتيار الكهربائى

التغذية من الشبكة العامة للدولة عن طريق :

- محطة نقل تيار رئيسية ٦٦ ك. ف تستقبل التيار من الشبكة العامة للدولة فى طرة. وتنقله بواسطة كابلات جهد عالٍ (٦٦ ك. ف) إلى محطة الجهد العالى التى تستقبل التيار (٦٦ ك. ف) وتحوله إلى تيار (٢٠ ك و) ويتم نقله بواسطة كابلات جهد متوسط إلى :

* ٤ محطات جهد متوسط تستقبل التيار (٢٠ ك. ف) وتحوله إلى تيار جهد ١٥٠ فولت لتغذية شبكة القطارات.
* ٣ محطات تكييف ٥٠٠ فولت.
* ٨ محطات للإنارة ٣٨٠/٢٢٠ فولت.

وتوجد محولات احتياطية لكل المحطات لاستخدامها أتوماتيكيًا فى حالة قطع التيار.

شبكات خطوط المترو فى أنحاء العالم

م	اسم المدينة	أطوال الخطوط	تعداد السكان بالمليون	تاريخ إدخال شبكة المترو
	الولايات المتحدة :			
١	أطلنطا	٢٢,٠ كم	١,٨ (أ)	١٩٧٩
٢	بلتيمور	٥,٧ كم	١,٨ (أ)	١٩٨٤
٣	بوسطن	٣٤,٠ كم	٢,٧ (أ)	١٨٩٧
٤	شيكاغو	١٢٧,١ كم	٦,٧ (أ)	١٨٩٢
٥	كليفلند	٣٠,٠ كم	١,٨ (أ)	١٩٥٥
٦	ميامى	٣٣,٠ كم	١,٨ (أ)	١٩٨٤

(أ) : تعداد السكان بمنطقة شبكة المترو.

(م) : تعداد السكان بالمدينة.

(ن.ع) : تعداد السكان بالمنطقة المخدومة بجميع مواصلات النقل العام. (طول الجزء الموجود على سطح الأرض من الطول الكلى).

(تابع) شبكات خطوط المترو فى أنحاء العالم

م	اسم المدينة	أطوال الخطوط	تعداد السكان بالمليون	تاريخ إدخال شبكة المترو
٧	نيويورك	١٠٥,٦ كم	٩,١ (أ)	١٨٦٨
٨	فيلادلفيا		٣,٧ (أ)	١٩٠٧
٩	سان فرانسيسكو	٨٣,٥ كم	٣,٢ (أ)	١٩٧٢
١٠	واشنطن	٢٤,٠ كم	٢,٨ (أ)	١٩٧٦
	الدول الأوربية:			
١١	أمستردام	١٣,٥ كم	٠,٧ (أ)	١٩٧٧
١٢	أثينا	٢٢,٨ كم	٣,٣ (أ)	١٩٢٥
	أسبانيا			
١٣	مدريد	٥,٥ كم	٣,٥ (أ)	١٩١٩
١٤	برشلونا	١,٠ كم	٢,٩ (أ)	١٩٢٤
	ألمانيا			
١٥	ميونيخ	٣,٥ كم	٢,٢ (ن.ع)	١٩٧١

(تابع) شبكات خطوط المترو فى أنحاء العالم

م	اسم المدينة	أطوال الخطوط	تعداد السكان بالمليون	تاريخ إدخال شبكة المترو
١٦	برلين الغربية	١٧,٥ كم	٢,٠ (م)	١٩٠٢
١٧	هامبورج	٥٧,٥ كم	٢,٤ (ن.ع)	١٩١٢
١٨	نرنمبرج	٥,٥ كم	٠,٨ (أ)	١٩٧٢
١٩	ويرتل	١٣,٣ كم	٠,٦ (ن.ع)	١٩٠١
٢٠	برلين الشرقية	٨٢,٢ كم	١,٦ (أ)	١٩٠٢
٢١	بروكسل	٣,١ كم	١,١ (ن.ع)	١٩٧٦
٢٢	بوخارست	-	١,٧ (أ)	١٩٦٩
٢٣	بودابست	٣,٠ كم	٢,٤ (ا)	١٨٩٦
٢٤	هيلسنكى	٧,٢ كم	٠,٨ (ا)	١٩٨٢
	فرنسا			
٢٥	باريس	١٤,٨ كم	٧,٤ (ن.ع)	١٩٠٠
٢٦	ليون	-	١,١ (ن.ع)	١٩٧٨
٢٧	ليل	٣,٥ كم	١,٠	١٩٨٣
٢٨	مارسيليا	٣,٠ كم	١,٠ (ن.ع)	١٩٧٧

(تابع) شبكات خطوط المترو فى أنحاء العالم

م	اسم المدينة	أطوال الخطوط	تعداد السكان بالمليون	تاريخ إدخال شبكة المترو
	إنجلترا			
٢٩	لندن	٢٢٤,٣ كم	٧,٠ (١)	١٨٦٣
٣٠	نيوكاسل	٢٥,٦ كم	١,٢ (١)	١٩٨٠
٣١	جلاسكو	-	٢,٥ (١)	١٨٩٦
	إيطاليا			
٣٢	روما	٦,٥ كم	٣,٦ (أ)	١٩٥٥
٣٣	ميلانو	١٧,٧ كم	٣,٢ (أ)	١٩٦٤
٣٤	لشبونا	-	٢,٣ (أ)	١٩٥٩
٣٥	أوسلو	٢٧,١ كم	٠,٥ (م)	١٩٦٦
٣٦	براغ	٠,٥ كم	١,٢ (م)	١٩٧٤
٣٧	روتردام	١٣,٨ كم	٠,٨ (أ)	١٩٦٨
٣٨	استوكهولم	٤٧,٠ كم	١,٥ (أ)	١٩٥٠
٣٩	ڤينا	٩,٥ كم	١,٥ (م)	١٨٩٨

(تابع) شبكات خطوط المترو فى أنحاء العالم

م	اسم المدينة	أطوال الخطوط	تعداد السكان بالمليون	تاريخ إدخال شبكة المترو
	اليابان			
٤٠	طوكيو	٢٢,٠ كم	٢٥,٨ (أ)	١٩٢٧
٤١	أوزاكا	١٠,٤ كم	٧,٦ (أ)	١٩٣٣
٤٢	فيكيوا	–	١,٠ (م)	١٩٨١
٤٣	كوب	٢,٨ كم	١,٣ (م)	١٩٧٧
٤٤	كيوتو	–	١,٥ (م)	١٩٨١
٤٥	نجويا	٧,٠ كم	٧,٣ (أ)	١٩٥٧
٤٦	سابورو	٤,٧ كم	١,٤ (م)	١٩٧١
٤٧	يوكوهاما	–	٢,٧ (م)	١٩٧٢
	الاتحاد السوفيتى			
٤٨	موسكو	١٨,٠ كم	٨,٠ (م)	١٩٣٥
٤٩	لينينجراد	,٦ كم	٤,٦ (أ)	١٩٥٥
٥٠	طشقند	–	١,٧ (أ)	١٩٧٧

(تابع) شبكات خطوط المترو فى أنحاء العالم

م	اسم المدينة	أطوال الخطوط	تعداد السكان بالمليون	تاريخ إدخال شبكة المترو
٥١	خركوف	-	١,٨ (أ)	١٩٧٥
٥٢	كييف	٥,٨ كم	٢,٥ (أ)	١٩٦٠
٥٣	مينسك	-	١,٣ (أ)	١٩٨٤
٥٤	باكو	١,٧ كم	١,٥ (م)	١٩٦٧
٥٥	أرڤان	-	١,٠	١٩٨١
٥٦	تبليس	٢,٤ كم	١,١ (م)	١٩٦٦
	كندا			
٥٧	منتريال	-	٢,٧ (أ)	١٩٦٦
٥٨	تورونتو	١٢,٤ كم	٢,١ (أ)	١٩٥٤
	العالم الثالث			
٥٩	بيونس إيرس	-	١١,٠ (أ)	١٩١٣
٦٠	كلكتا	١,٥ كم	٩,٠ (أ)	١٩٨٤
٦١	كراكاس	١,٦ كم	٣٣,٠ (أ)	١٩٨٤

(تابع) شبكات خطوط المترو فى أنحاء العالم

م	اسـم المدينة	أطوال الخطوط	تعداد السكان بالمليون	تاريخ إدخال شبكة المترو
٦٢	هونج كونج	٥,٩ كم	٥٢,٠	١٩٧٩
٦٣	المكسيك	٢٤,٨ كم	١٨,٠	١٩٦٩
٦٤	بكين		٨,٠ (أ)	١٩٧١
٦٥	ريو دى چينيرو	١,٣ كم	٩,٠ (أ)	١٩٧٩
٦٦	سان دياجو	٦,٦ كم	٤,٠ (٢أ)	١٩٧٥
٦٧	ساوبولو	٦,٠ كم	١٢,٦ (أ)	١٩٧٤
٦٨	سيول	-	٨,٠ (م)	١٩٧٤
٦٩	تيانجان	-	٣,٠ (م)	١٩٨٠
٧٠	سنغافورة		٢	١٩٨٥
٧١	بيونج يانج			١٩٨٤

خطوط تحت الإنشاء فى مختلف دول العالم

٧٢	الما - اته		٥٠	
٧٣	القاهرة			

(تابع) شبكات خطوط المترو فى أنحاء العالم

م.	اسم المدينة	أطوال الخطوط	تعداد السكان بالمليون	تاريخ إدخال شبكة المترو
٧٤	بغداد			
٧٥	بانكوك			
٧٦	بومباى			
٧٧	براتسلاڤا (تشيكوسلوفاكيا)			
٧٨	بوذان			
٧٩	دينبروبتروڤسك		١,١ (م)	
٨٠	جوركى		١,٣ (م)	
٨١	نوڤوسيبرسك		١,٣ (م)	
٨٢	لانجوس			
٨٣	لوس انجلوس			
٨٤	مدراس			
٨٥	مدلين (أمريكا الجنوبية)			

(تابع) شبكات خطوط المترو فى أنحاء العالم

م	اسم المدينة	أطوال الخطوط	تعداد السكان بالمليون	تاريخ إدخال شبكة المترو
٨٦	ريجا (روسيا)			
٨٧	صوفيا		٢,١ (أ)	
٨٨	سيفيل (أسبانيا)		٩,٠ (أ)	
٨٩	سفر لوفسك		١,١ (م)	
٩٠	كويبتشف		٢,١ (م)	
٩١	تاب (تايوان)			
٩٢	ڤالنسيا (أسبانيا)			
٩٣	وارسو			
٩٤	نبلس (إيطاليا)		١,٢ (أ)	
٩٥	سندى (اليابان)		٦,٠ (م)	

المرج
عزبة النخل
عين شمس
المطرية
حلمية الزيتون
حدائق الزيتون
سراي القبة
حمامات القبة
كوبري القبة
منشية الصدر
الدمرداش
غمرة
حسنى مبارك
نجيب الريحانى
العتبة
عماد الدين
انور السادات
البستان
سعد زغلول
السيدة زينب
الملك الصالح
مار جرجس
الزهرا
دارالسلام
حدائق المعادي
المعادي
ثكنات المعادي
طره البلد
كوتسيكا
طره الاسمنت
المعصرة
حدائق حلوان
زهرا حلوان
عين حلوان
حلوان

شبرا الخيمة
ترعة الاسماعيليه
الخلفاوي
بحر الكركور
روض الفرج
مسرة
بدوى
احمد عرابي
جمال عبد الناصر

امبابه
السودان
الزمالك
بولاق

بورسعيد
الأزهر
صلاح سالم

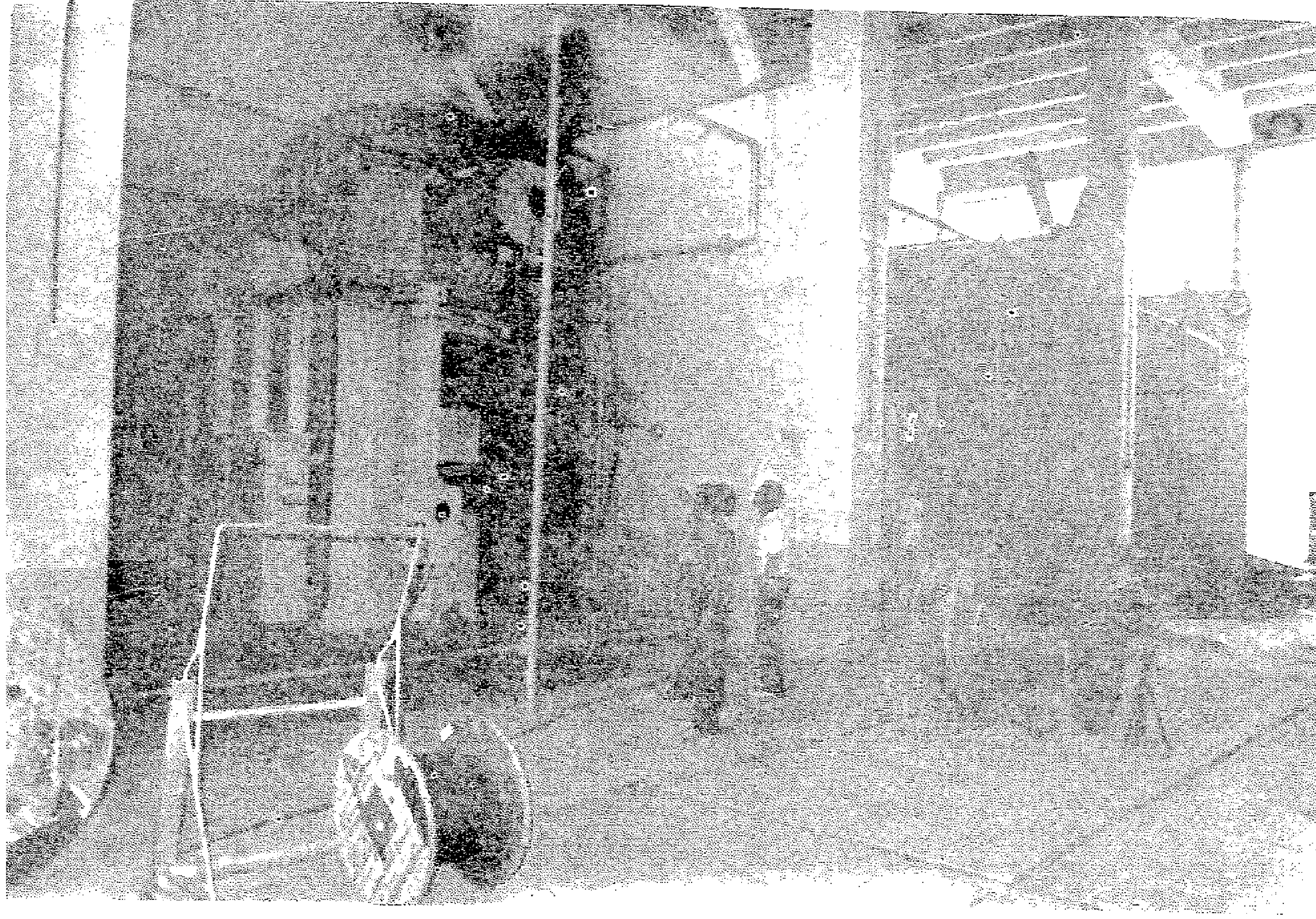
بولاق الدكرور
محمد الابحاث
الدقي
الجزيرة



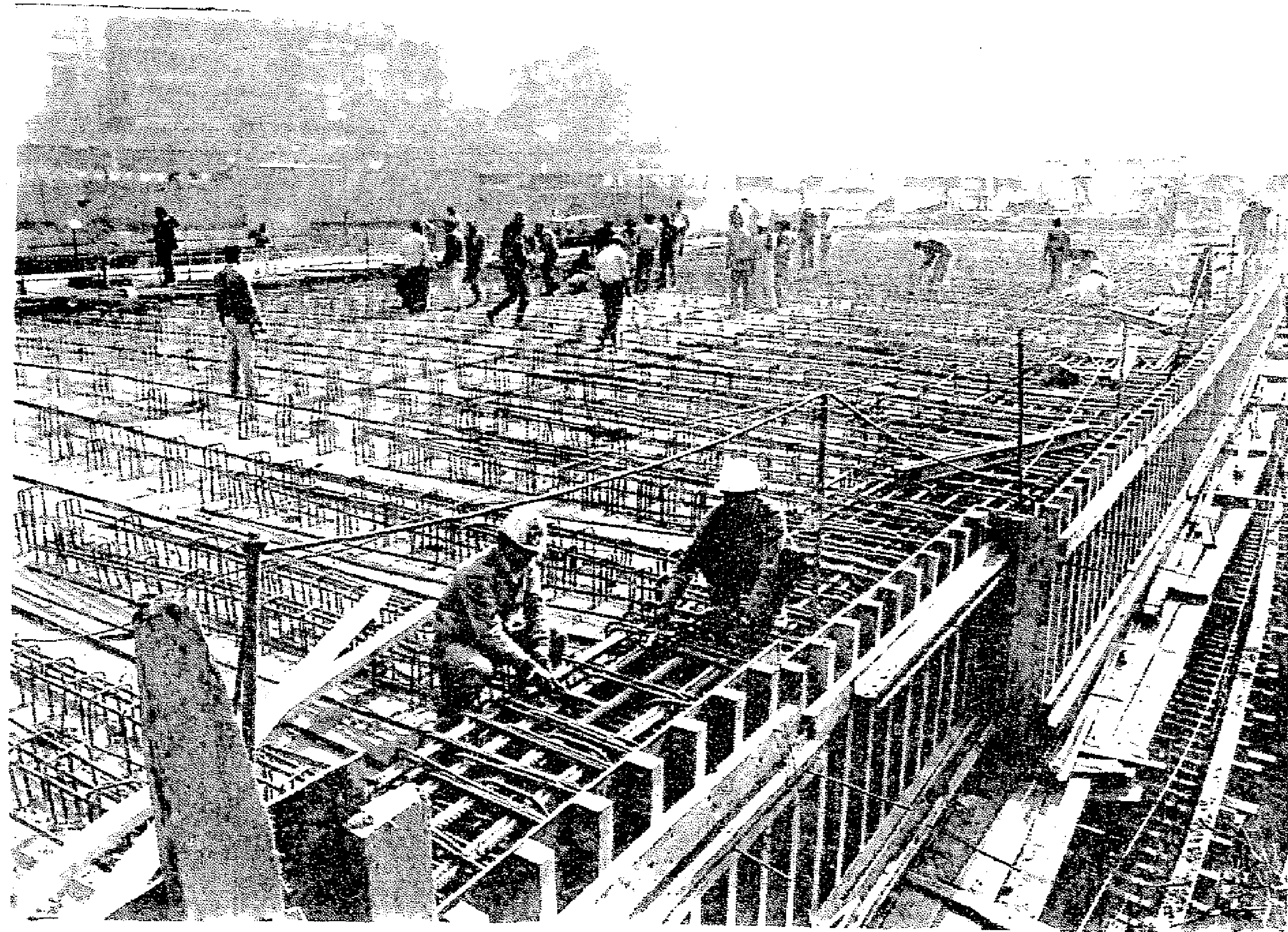
تقاطع الخطوط
خط حلوان - المرج
خط بولاق الدكرور - شبرا الخيمة
خط صلاح سالم - امبابة



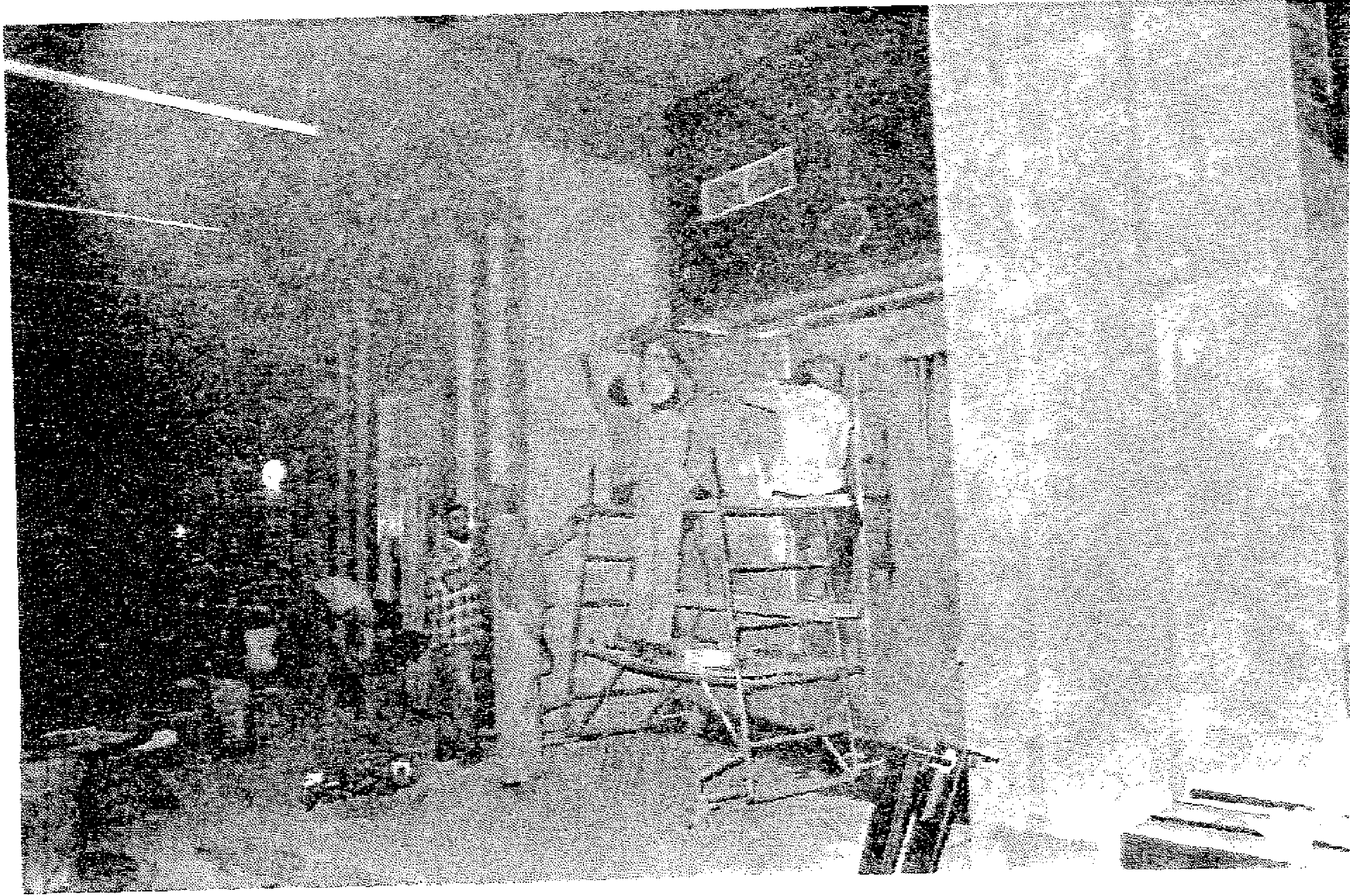
السيد الرئيس يتفقد مشروع مترو الأنفاق



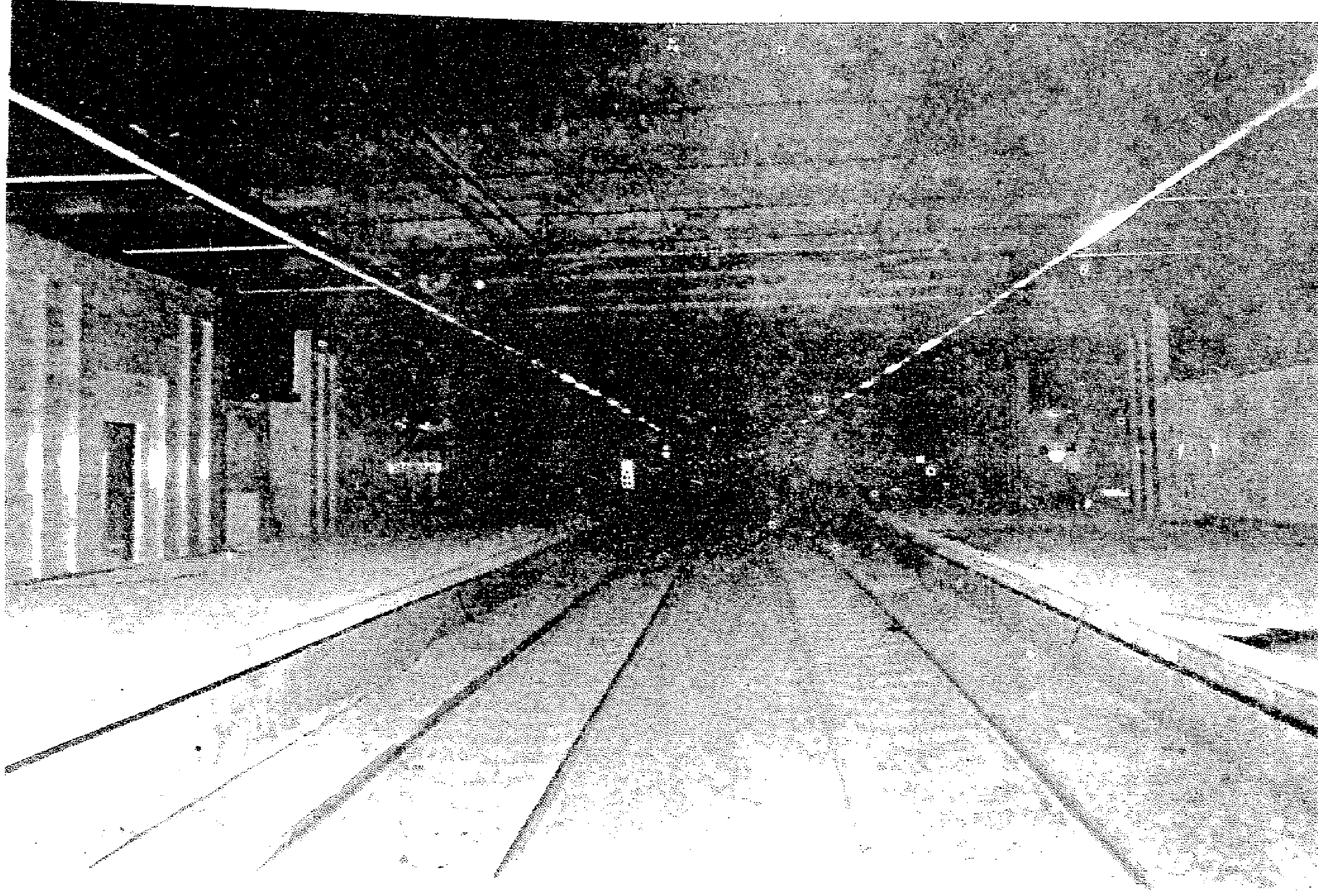
محطة الضغط العالى بطرة



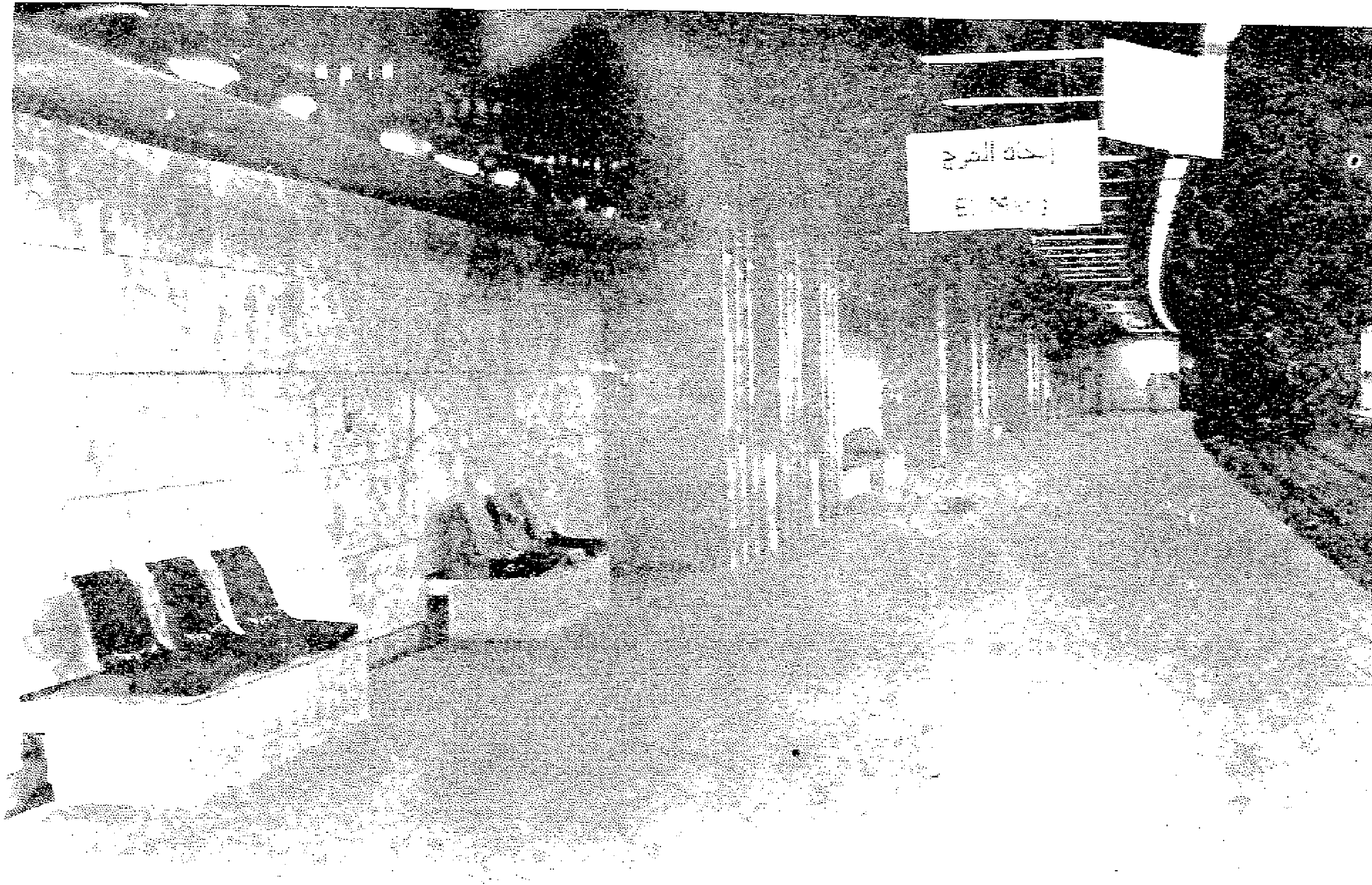
جسم النفق فى أثناء صب السقف فى منطقة التحرير



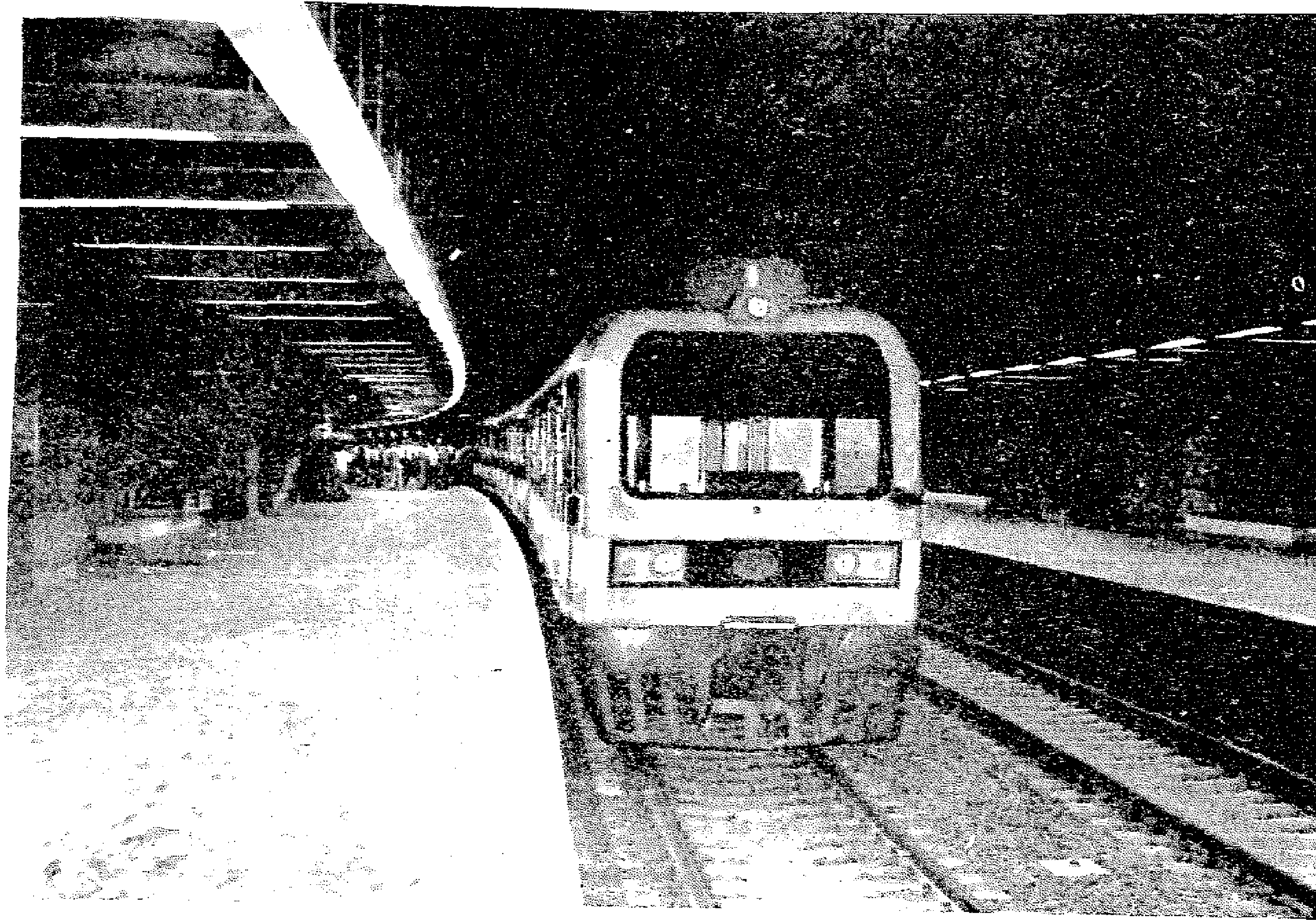
محطة السادات بالتحرير فى أثناء عملية التشطيب



محطة السادات بالتحرير بعد الاكتمال



مقاعد الانتظار بمحطات المترو



المترو على رصيف محطة مبارك برمسيس

المراجع

أولا : الكتب

١ - ابتسام عبدالقادر علية عبدالرحمن	مترو الأنفاق	الهيئة العامة للاستعلامات
٢ - على هاشم	الهرم الرابع	الإعلانات الشرقية

ثانيا : مقالات

د. سيد عويس المستشار بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية	مترو الأنفاق وتأثيره على القيم الاجتماعية	جريدة الأهرام اغسطس ١٩٨٥

ثالثا : محاضرات

د. محسن توفيق عميد معهد شئون البيئة جامعة عين شمس	التكنولوجيا الداء والدواء	جامعة عين شمس معهد شئون البيئة

رابعا : تصريحات

١ - سليمان متولى (مهندس)	وزير النقل والمواصلات
٢ - أحمد شوقى (مهندس)	وكيل أول وزارة النقل
٣ - الحسينى عبدالسلام (مهندس)	رئيس الهيئة القومية لمترو الأنفاق
٤ - د. عبد الأحد جمال الدين	رئيس المجلس الأعلى للشباب والرياضة
٥ - عبد المنعم جابر (لواء)	نائب وزير الداخلية
٦ - عبد العال حافظ (مهندس)	مستشار بالهيئة القومية لمترو الأنفاق
٧ - محمد المبروك (مهندس)	مدير هيئة السكك الحديدية
٨ - فؤاد عبد العزيز خليل (لواء مهندس)	

خامسا : نشرات هيئة مترو الأنفاق

١ - نشرة ربع سنوية من (١ - ١١)

٢ - مشروع مترو الأنفاق

٣ - نشرة محطات مترو الأنفاق

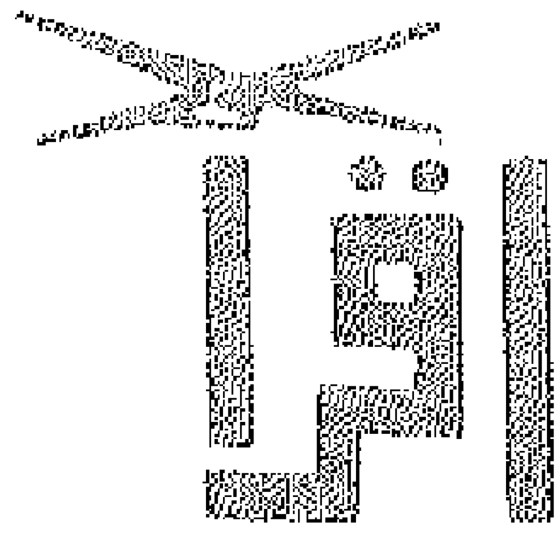
الفهرس

الصفحة

رقم الإيداع		١٩٨٧ / ٥٧٧٢
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢١٥٥-٤	ISBN

١ / ٨٧ / ٢٣٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش معهم .. كما عاش الآباء والأجداد .. وتكوِّن فى مكتبتك موسوعةً متفرقة فى فروع المعرفة المختلفة .

وإيمانًا منا بأن القراءة هى أقصر الطرق إلى الوعى والثقافة .. فقد يسَّرنا لك ذلك فى إخراج جيد .. وسعر زهيد .

٤٠٥٨٦٣ / ٠١